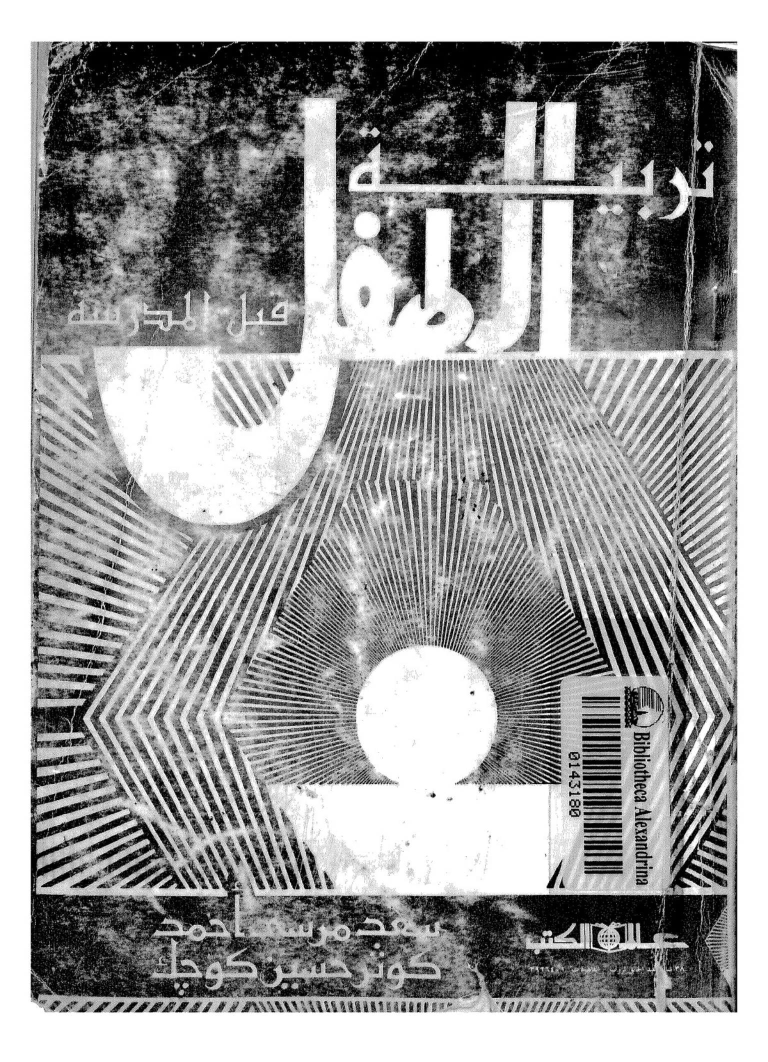

تربية الطفل
قبل المدرسة
سعد مرسي أحمد
كوثر حسين كوجك
عالم الكتب

تربية الطفل قبل المدرسة

دكتورة كوثر حسين كوجك

أستاذ المناهج المتفرغ
كلية التربية جامعة حلوان
مدير مركز تطوير المناهج
والمواد التعليمية

دكتور سعد مرسي أحمد

أستاذ أصول التربية المتفرغ
كلية التربية جامعة عين شمس

الناشر



بسم الله الرحمن الرحيم

«نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم»

«صدق الله العظيم»

المحتويات

مقدمة الطبعة الأولى

«الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله».
الحمد لله ونشكره فى السراء والضراء وحين البأس ... وبعد ،

كتاب ليس تقليديا فى نهجه وتناوله وأسلوبه ، إذ أن مرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية لها طابعها فى امكانات تفتح بعض الطاقات العقلية والنفسية والاجتماعية عند الأطفال . وقد نالت هذه المرحلة فى مجتمعات شرقية وغربية اهتماما عزيزا كبيرا ، وإن اختلفت الاتجاهات نحو ما يدور فيها من عمليات تربوية . ولكن ، الاتفاق واضح على أنها جليلة الشأن عظيمة التأثير فى مراحل تالية .

والشكر واجب للمسئولين الذين أبدوا اهتمامات واضحة نحو هذه المرحلة الدراسية ، فظهرت نتاجات قد أثلجت الكثير من الصدور القادرة ماديا ، ولكنها ربما أثارت بعض الغضب عند من تراءى لهم أن فيها أطيافا طبقية . ولكن ليس هذا من شأن مؤلفى هذا الكتاب ، وإنما يعنيهما فى المقام الأول هذا الفعل التربوى لأطفال فى سن معين يمكن أن يفيدهم كأفراد ، وفى الوقت نفسه أعضاء فى مجتمع هو دائما يسعى إلى التقدم .

ويهتم المؤلفان بالدرجة العظمى التى لاتدانيها درجة بالتكوين الأخلاقى لأطفال ما قبل المدرسة بإتاحة فرص لهم فى بيئة تربوية. هيئت خصيصا ليتم إعدادهم فيها لمرحلة التعليم الابتدائى . وقد انفعلا بما شاهداه وخبراه فى مجتمعات اهتمت بهذه المرحلة لوضع اللبنات الأولى والركائز الأساسية لتكوين أخلاقى رصين سليم ، ينفع الأطفال فى مستقبل حياتهم ، وبالتالى تقوم على سواعدهم مجتمعات نصفها بأنها متقدمة وتتقدم بإصرار ...

إن الفجوة تتسع بين التقدم والتخلف مما أثار صرخة وجدان ووجعا فى القلب. دفعا المؤلفين إلى هذه المحاولة لتناول أطفال ما قبل السادسة، حيث يمكن أن يبدأ فى تكوين الاتجاهات ، وحيث يمكن زرع قيم يشوق إليها مجتمعنا الإسلامى بكل الحماس والقوة فى أمل أن يكون أفراد هذا المجتمع صغارا وكبارا ، قادة ومسئولين ، وعمالا وعاملين ، رجالا ونساء على قدر المسئولية لبنا ء مجتمع عليه أن يعيش فى عالم السنوات الأخيرة من القرن العشرين .

إن كنا هنا فى مصر العزيزة لم نلحق بعد ، بالقدر الكافى ، بركب التقدم العلمى والتكنولوجى الذى عرفته مجتمعات شرقية وغربية ، فلا أقل من أن نسلح بالأخلاق والقيم الدينية التى تدعو إلى جدية العمل والحرص عليه وحبه والتفانى فيه لخير المجموع كنقطة بداية لازمة وواجبة ، وهى تدعو أساسا إلى التعاون على البر والتقوى ، وعلى الصدق والأمانة والإخلاص والغيرية بعيدا عن الأنانية ..

وعلى الرغم من إيماننا بنبل هذه القيم الدينية الأخلاقية إلا أن المناخ العام يعكس سلوكيات التكالب والأثرة ، وأنا فقط ....

ولذلك كان التقدم فى المجتمع سلحفائيا فى سرعته ، معنى هذا أن هناك تقدما ولكنه بطىء جدا .

والمسألة في يسر أنه لكي يتقدم مجتمع ما لابد أن يتصف أبناؤه بالانتماء والولاء للبناء . أي أن ينتمي كل فرد لمجتمعه ، ويستشعر الولاء له ، ويبنيه بقدر استطاعته في بنائه ولن يتم هذا إلا بتربية سليمة قويمة منذ بواكير الطفولة .

والشكر واجب للمسئولين الذين فكروا وأخرجوا إلى حيز التنفيذ اعادة فتح رياض الأطفال في السنوات الأخيرة ، بل أضافوا مكرمة أخرى وهي إنشاء أقسام ببعض كليات التربية لتخريج المختصين من مشرفين على هذه المؤسسات التربوية .

في رأي المؤلفين أن مهمة هذه المؤسسات التكوين الأخلاقي السليم للأطفال ، بكل ما تحتويه هذه العبارة من معان عميقة شامخة ، قوية فاعلة . والوصول إلى تحقيق هذا أمر ليس سهلا ، بل هو عمل يتطلب تضافر جهود بشرية كثيرة ، حتى يخرج الأطفال من هذه المؤسسات التربوية وقد تأصلت فيهم اتجاهات ، نأمل أن تنتقل بالعدوى الاجتماعية إلى غيره من الصغار وأيضا من الكبار .

الأمر معقد لأن تكوين أي اتجاه لايقتصر على مجرد معرفة معلومة أو أكثر ، فالغالبية تعلم أن الدين يحث على النظافة ، وأنها من الإيمان ... ولكن أين هي ؟ الأمر يتطلب المعايشة والممارسة الفعلية حتى تتكون العادات والاتجاهات والقيم ، وحتى يسلك الفرد أخلاقيا دون رقيب عليه .

إن كثرة جنود الشرطة في الشوارع قد تدل على أن ضمائر الكثيرين من المواطنين فيها خلل يدعو إلى عدم احترام القانون . ولذلك فهناك شرطي باستمرار يحمي ذلك القانون من عبث العابثين ... ويا ليته نجح في ذلك .

هذا مثل يسير لما نلمسه في معظم أمور حياتنا بعد أن خفتت الأصوات التي تنبعث من داخلياتنا للسلوك الخلقي القويم .

فى إحدى مدن الصين الصغيرة طلبت المدرسات من الأطفال الصغار أن يحملوا أكياسا صغيرة ، عند خروجهم من بيوتهم وذهابهم إلى المدرسة كل صباح ، وأن يضعوا فى هذه الأكياس ما يجمعونه من الطريق مما يؤذى النظافة والذوق العام .

كما يخرج الأطفال بأكياس فارغة من المدارس إلى بيوتهم ليجمعوا فيها مثل تلك الأشياء ، وتسلم الأكياس للأمهات ، وهن يعرفن كيف يتصرفن فيها . وصارت المدينة الصغيرة نظيفة ، وخافت كل أم وكل أب وكل أخ وأخت على نظافة الطريق لأن طفلهم سيجمع ما يلقونه ...

وتعلم الكبار من الصغار ...

لاتدهش أيها القارىء فالعادة أن يتعلم الصغار من الكبار ، ولكن من الممكن حدوث العكس ويبدأ فعل الصغير يؤثر على تفكير الكبير ، ويجد الراشد درسا حيا من الطفل فيتعلمه ويستوعبه ... والأمل أن يمارسه ، وهو أمل كبير ممكن الحدوث ، فالذين استحوا لم يموتوا كلهم .

يمكن لروضة الأطفال أن تربى الصغار على عمل الواجب ، وتحببهم فى هذا العمل حتى يصير أداء الواجبات جزءا من نسيج تكوينهم الأخلاقى ، وينعكس على تصرفاتهم اليومية كأمر عادى ... وهذا ما تحاول التربية أن تحققه .

ولك أن تتصور مجتمعا يؤدى فيه كل فرد الواجب المفروض أن يعمله ... هو إذن مجتمع منضبط ، لا انحراف ولا فساد فيه ، أفراده مسئولون أمام ربهم وضمائرهم وأولى الأمر منهم عما يقومون به من أفعال وأعمال .

إن أداء الواجب ينبع من انتماء الفرد لجماعة صغيرة ، ثم انتمائه لجماعة أكبر فأكبر حتى يشمل الوطن كله . بهذا ... تتقدم الشعوب والأمم والدول . والتربية هى المسئولة عن تعليم الطفل وتدريبه على أداء الواجبات . والانتماء شديد الصلة بالولاء،

وكلاهما مشبع بالحب . وما أجمل أن يحب الطفل أسرته ومدرسته وقريته ومدينته ووطنه ... والبشرية كلها .

ونحن لانتكلم عن مجتمع الملائكة ، ولكن عن مجتمع من البشر حلم به فلاسفة قدماء ومحدثون ، والمدينة الفاضلة يعرفها دارسو الفلسفة ، وقرأوا عنها فى مؤلفات غربية وعربية ، وكان حلما ، ولكن يمكن تحقيق بعضه فى هذا المجتمع الصغير المحدود الذى أطلق عليه فروبل رياض الأطفال .

وازدهرت تربية الطفل قبل المدرسة ازدهارا رائعا فى مجتمعات شرقية وغربية، رأت أن البداية الطيبة تثمر شهيا ، وأطفال الأمس هم دعامة مجتمع اليوم ، وصار عندهم تقدم خطف أبصارنا وأثار اعجابنا . ووقفنا متسائلين عن سر هذه العظمة ، وكيف أن اليابان بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية هى اليوم قوة اقتصادية فى العالم ، جعلت المنتصرين يعملون لها ألف حساب . ودائما نردد - ولن يصيبنا الكلل - إن التربية قوة .

هى قوة ما أجلها وما أعظمها . ونتطلع إليها فى محاولات جادة للقضاء على أمراض وعيوب المجتمع . ونحن إذ نتكلم عن التربية إنما نعنى بها عملية النمو التى تتناول الفرد من جميع جوانبه . ونقصد أيضا بها هذا الجهد الذى يبذل فى فاعلية سخية ، وهو جهد مؤسس على ركائز علمية ، وعلى الأصالة الثقافية لمجتمع له جذور عميقة فى التاريخ . ونحن نؤمن فى يقين راسخ بأن واجبا أساسيا يجب أن ينال الاهتمام الكبير ، وهو الالتفات بعناية إلى تربية الطفل فى مؤسسات تسبق التعليم الابتدائى . وهذا هو موضوع هذا الكتاب .

وينقسم الكتاب إلى بابين يضمان سبعة فصول . أما الفصول الثلاثة الأولى فتتناول خلفية نظرية ورؤية عن فلسفة التربية فى مؤسسات ما قبل المدرسة ، ثم جولة

فى بعض الأقطار ، دارسين ماذا فعلت لتربية الصغار . أما الباب الثانى فيتناول أربعة من كبار من فكروا فى تربية الطفل . وينتهى الكتاب بمجموعة من القضايا ودعوة لإجراء بحوث فى هذا الميدان الرحب والمهم .

وسوف يلاحظ القارىء أن الكتاب يبدأ بفرض وعشر مسلمات ، والفرض فى إثبات صحته أو عدم صحته مازال قائما ، إذ تثبت هذا البحوث المقترحة فى نهاية الكتاب .

وإنه لمن دواعى سرور المؤلفين أن يتقدما بالشكر لمن أسهموا فى إتمام هذا الكتاب الذى بدىء فى كتابته فى مصر ، ثم استكملت بعض أجزائه فى سويسرا وفرنسا ، واستكمل تماما فى مصرنا الحبيبة . ونخص بالشكر الدكتور عبدالراضى إبراهيم المدرس بقسم أصول التربية بكلية التربية جامعة عين شمس ، والفنان الدكتور يوسف غراب المدرس بقسم أصول التربية بكلية التربية جامعة حلوان ، وابننا محمد إسماعيل مرسى ، وهيئة مطبعة أطلس بالقاهرة .

والله ولى التوفيق ،

مصر الجديدة

محرم ١٤٠٤ هـ

أكتوبر ١٩٨٣ م

المؤلفان

دكتور سعد مرسى أحمد

دكتورة كوثر حسين كوجك

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

...... وثمة تطور يحدث فى غالبية المجتمعات العربية من الخليج شرقا إلى المحيط غربا يتناول التربية كقوة قادرة على إحداث التغيير إلى الأفضل ... وينال الطفل العربى نصيبا كان لابد أن يناله منذ أجيال مضت ... والطفل العربى رجل مستقبل المجتمعات العربية .

وقد عقدت ندوات ومؤتمرات ولقاءات ، وكذلك نظمت دورات تدريبية ركيزتها ومحورها الطفل العربى فى حياته فى السنتين أو الثلاث سنوات قبل أن يدخل المدرسة الابتدائية ، وهى بداية السلم التعليمى فى اغلب الدول العربية ، وقد تبدأ فى السادسة أو السابعة . وربما تأخرت المجتمعات العربية فى العناية الشاملة المتكاملة بهذا الطفل فى ذاك السن ، وإن كان هذا لايعنى أنه لم تكن هناك محاولات كتب لبعضها النجاح فى وجود رياض للأطفال تسبق التعليم فى المدارس الابتدائية ، ولكنها كانت محدودة العدد والتأثير وهذا لايعنى عدم جدواها وقيمتها فى العملية التربوية .

وقد سبقنا الغرب وبعض الشرق فى العناية العلمية بتربية طفل ماقبل المدرسة بصورة فاعلة ومؤثرة أثمرت فى تربية أجيال تلك المجتمعات وظهرت ثمارها يانعة بارزة. وربما تأخرت معظم المجتمعات العربية بعض الشىء فى مضمار رياض الأطفال (أى من سن ٣ أو ٤ إلى سن ٦) وكان لابد أن تلهث فى خطاها لتنال الأجيال الصاعدة نصيبها من المناخ التربوى الملائم لتتحقق للعملية التربوية أهدافها المرجوة .

وربما لم تتح الفرص لمؤلفى هذا الكتاب فى هذه الطبعة ، تقديم الجديد والمستحدث فى تربية طفل ماقبل المدرسة مع رجاء منهما ألاتفوت فرصة تطوير هذه الطبعة بنتائج ما تتمخض عنه الابحاث الأخيرة والكثيرة عن تربية هذا الطفل ، وعن إعداد من يقوم على تنشئته فى طبعات قادمة .

ونسأل الله التوفيق والسداد

مصر الجديدة سبتمبر ١٩٨٧ .

المؤلفان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

ونحن مازلنا مع الطفل وسيناريو تربيته في روضته ، ولابد من التقدير لهذه المجهودات الرائعة التى تبذل اليوم للعناية بالطفولة وتربية الطفل وتثقيفه ، فقد افتتحت مكتبات عديدة له ، وزادت مؤسسات تنميته مما يعد طفرة نرجو لها النجاح والاستمرار .

وقد أجرينا بعض التعديلات على الطبعتين السابقتين واستفدنا من أبحاث ومؤلفات حديثة ، كما اختصرنا فى بعض الفصول وأضفنا مادة علمية نرجو أن تثرى هذا العمل . فعلى سبيل المثال اختصر جدا الفصل الخاص بفروبل ، مؤسس رياض الأطفال ، كما أضفنا فصلا عن معلمة رياض الأطفال وإعدادها وكفاياتها ... وما زال الفرض قائما والمسلمات باقية بالطبع .

ومما يثلج الصدر أيضا أن بحوثا اقترحناها فى الطبعتين السابقتين قد خرج بعضها فعلا إلى حيز النور ، كما أن بعض رسائل الماجستير والدكتوراه اهتمت بموضوعات عن التربية فى رياض الأطفال بل ، وعقد عديد من المؤتمرات وقد أشرنا إلى بعضها فى هذه الطبعة ، ونرجو أن يستمر البحث والدراسة عن تربية الطفل قبل المدرسة لما تحمله من أهمية مؤثرة على ما تتلوها من مراحل تربوية آملين فى استمرار وزيادة الاهتمام بالأبحاث العلمية التربوية النابعة من مشكلات واقعية فى المجتمع

العربى ، مشكلات خاصة بظروفنا وتقاليدنا فى اعتماد على الأصالة مع الاهتمام الشديد بالمجتمع الذى يعيش فيه طفل اليوم ... مجتمع يختلف بتقنياته وإنجازاته ومؤثراته عن مجتمعات سابقة .

والله ولى التوفيق ..

مصر الجديدة

رمضان ١٤١١ هـ .

مارس ١٩٩١ م .

المؤلفان

إلى أعماق الطفل النامى يجب أن تتجه الأقوال والنماذج الطيبة من الأفعال حتى يتمثلها ويسلكها .

سعد مرسى أحمد

وينتج هذا حشدا كبيرا من الأطفال تعج بهم الشوارع والحارات ، ويكثر السباب وتزداد الشتائم فى مناقشاتهم . وعجب أشد العجب لوقوف السيارات فى الشوارع على الرغم من وجود علامات تحذر بعدم الوقوف . وما هذه القذارة التى شوهت مناظر طرقات وميادين كانت تلمع من فرط أناقتها ووسامتها ، ويقول ... «وكنا نجلس على أرائك تحت الأشجار نتمتع بالخضرة والزهور من كل جانب ... وما هذه العمارات الضخمة ، وهل تحول كل سكان مصر إلى العيش بالقاهرة المحروسة ؟» .

وكاد يصعق ، الذى خرج من بطن التاريخ ، عندما رأى ذلك الصندوق الذى تظهر على لوح زجاجى فيه صور تتتابع ويسمع كلاما وموسيقى . لقد ذهل الناس أيامه بالسينماتوغراف وكانت صامتة لاتنطق ، أو بدأت بعض شرائطها تنطق قليلا . ثم ما هذا الشىء ، الذى فى حجم الكف يضعه الرجل فى جيبه ويسمع أصواتا خارجة منه !! وسأل عن مدرسة رياض أطفال كانت تعمل بها ابنته ، وحار من سألهم فلم يعرفوا ما المقصود ، فأخذهم إلى المكان فإذا بالفيللا الصغيرة قد نمت فأصبحت عمارة ضخمة عالية لايرى أدوارها العليا . وسأل عن المدارس الأولية التى كانت له بها صلات إدارية فأجيب لامدارس أولية ولكن مدارس ابتدائية فقط .

كان كل شىء عجيبا غريبا ، فالتغير ملحوظ سواء فى الأمور المادية أو فيما بين الناس من معاملات ظهر فيها التسابق الأنانى إلى حد يشهر الشفقة ، ظهر بصورة متكررة فى أماكن متعددة مثل لحظة ركوب مواصلة عامة ، أو عبور الطريق ، أو شراء بعض ضروريات الحياة ... تقريبا فى كل مظاهر النشاط المختلفة . وجلس متعبا من الإرهاق الجسمى والفكرى ، ومتأسيا ومتأزما ، وصار يدعو إلى الله أن يحقق المعجزة فيعود من حيث أتى .

ولم ير ذلك الرجل إلا جانبا بسيطا جدا مما حدث من تغير فى المجتمع استوجب الملاحقة النشطة . فمع ازدياد عدد السكان وفيهم الأطفال بالطبع ، ومع خروج المرأة

إلى العمل ، ومع ازدياد المثيرات التى يتعرض لها الأطفال كان لابد من عمل يجابه أو يواجه هذا التحدى الحضارى . إذ يتعرض أطفال تعمل أمهاتهم إلى مثيرات متعددة ، تؤثر على تكوين اتجاهات وعادات وقيم قد لايرغب فيها الراشدون ، وإذا تكونت هذه فى السنوات السابقة على دخول الطفل المدرسة الابتدائية فى سن السادسة فإن العواقب تنذر بشر مستطير ، لا على الطفل فقط ولا على أسرته فقط ، وإنما أيضا على المجتمع فى مسيرة بنائه ونموه وتقدمه . إذ إن الطفل فى مرحلة ما قبل المدرسة يكون - بحكم قلة خبراته وتجاربه - مستعدا لتقبل وتكوين أنماط من السلوك تأتيه مؤثرة فيه من مصادر متعددة . فقد يلعب فى الشارع مع أطفال فى سنه يتأثر بهم ويؤثر فيهم ، أو يترك تحت رعاية راشدين قد يسببون أضرارا أكثر من فوائد . بل إن الأم غير العاملة والمتفرغة لمنزلها وأسرتها قد تحب أن يكون طفلها مع أطفال الآخرين فى مثل سنه واهتماماته ورغباته .

نسمات تربوية

كثير من أطفال المدن الكبيرة أو الصغيرة ، مع التزايد الكبير فى عدد السكان، يتألمون فى صمت . وسر الصمت أنهم لايعرفون ما البديل عن تواجدهم فى شقق أو مساكن محدودة المساحة ، الجرى والقفز فيها خطران ولكنهما ضروريان له ، وحتى إذا وجد الطفل وسط مجموعة من إخوته أو جيرانه أو أقربائه يقلون قليلا عن سنه أو يزيدون بعض الشىء ... فإن ضيق المكان والتعرض لخبرة محدودة معهم ، وعدم وجود شخص راشد قد يحتاجون إليه يثير سؤالا هو : ما الحل ؟ تزداد الصعوبة بالنسبة لطفل واحد يبقى مع والدته بعد أن يغادر المسكن غيره من إخوته وأخواته ووالده . ولا يجد الطفل إلا الأم يحدثها أو يضايقها أو يشغلها عن عملها المنزلى . وتتكون لديه بعض الاتجاهات منها شدة الاعتماد عليها فى كل كبيرة وصغيرة . وقد تحب الأم

الباب الأول

* الفصل الأول

لماذا هذا الكتاب ؟

* الفصل الثانى

تربية الأعماق

* الفصل الثالث

فى تربية الشعوب



الفصل الأول
لماذا هذا
الكتاب
؟!

الفصل الأول

لماذا هذا الكتاب ؟

لماذا هذا الكتاب ؟

واقع محير

تحتاج القاهرة والإسكندرية وبورسعيد وغيرها من مدن جمهورية مصر العربية أو من دول هى فى طريقها - مع الأمل - إلى التقدم .. تحتاج إلى بحوث كثيرة يجريها علماء النفس وعلماء التربية وعلماء الاجتماع وغيرهم عن مرحلة عمرية ، تسبق دخول الطفل إلى المدرسة الابتدائية . فالمدن عامة تزدحم بالسكان وتعلو فيها العمارات، وربما تقل المساحات الخضراء ، وفى أحوال كثيرة تخرج النساء إلى العمل ، والرجال يعملون بطبيعة الحال .

وقد تستدعى البحوث المطلوبة أن تتم بواسطة الفرق إلى جانب الأفراد ، إذ أن هذه المرحلة من العمر فى مجتمعنا العربى عامة تشكو قلة الاهتمام العلمى ، وإن كانت فى السنوات الأخيرة قد أثارت الاهتمام المادى عند بعض الأثرياء ففتحوا ما أطلقوا عليه «الحضانة» أو «روضة الأطفال» . وهى فى أغلبها لاتخرج عن مجرد لافتة تعلق على باب فيللا أو بيت، أما ما يدور بالداخل فهذا موضوع يستحسن أن نتكتم عليه، والله يسترنا جميعا .

ولكن هناك إشارات تشجع على التفاؤل ، ولكن بحذر . فإن التصريحات أحيانا تكون أضخم من الواقع ، للأسف . وقد ظهرت فى السنوات الأخيرة اتجاهات رسمية وغير رسمية ، قطاع عام وقطاع خاص ، لإنشاء دور حضانة أو رياض الأطفال . ومن الأمور السهلة جدا أن تجد - إذا كان معك المال - مكانا ، وأسهل من هذا أن تجد أطفالا ، ولا عقبات أمام شراء مجموعة من المقاعد وبعض اللعب ، وأوراق ملونة وأقلام ، وأحيانا بعض الأجهزة الخاصة بعرض صور أو أفلام ، وأيضا بيانو وبعض الآلات الموسيقية رخيصة الثمن - إن أمكن - ولكن صوتها عال . وأيضا لم يكن صعبا العثور على آنسات أو سيدات يعملن فى بعض الدور ، اطلق عليهن أسماء عديدة ، لكن غالبيتهن العظمى لايعرفن أكثر من مجرد القراءة والكتابة وبعض الحساب . أما عن تربية الأطفال والتعامل السليم معهم فكأنك تطلب لبن العصفور أو إحضار بعض النجوم من السماء ، إذ إن بعض هذه الدور أو المؤسسات قد غلب عليها الطابع التجارى . وغالية هى المدرسة المؤهلة إن وجدت ، وهى نادرة الوجود فى وقت صار فيه تغير اجتماعى واضح ، بل هو شديد وسريع فى تغيره .

تخيل أن رجلا مات منذ خمسين عاما ، وبمعجزة ما ، لاندرى ماهى ، خرج من قبره ليواجه الدنيا التى تغيرت . ولاشك أنه سيذهل مما يرى ويسمع ، سوف يجد الأطفال يذكرون كلمات فى حديثهم لايعرف معناها ، وهم أكثر انطلاقا من أطفال جيله . كما أن الكثير مما سيراه سيجد صعوبة ومشقة فى فهمه أو التعامل معه ، خاصة فى سلوك الصغار نحو الكبار ، والازدحام الهائل فى المواصلات العامة ، وهذا الجمع الغفير من الناس يملأ الطرقات ، والأصوات عالية وكأنه يوم الحشر . بل إن الملابس أصبحت فيها غرابة خاصة عندما ذهب إلى أحد دواوين الحكومة ورأى الموظفين فى ملابسهم وأيضا فى أدائهم لأعمالهم وعلاقاتهم برؤسائهم ، وكذلك هذا العدد الهائل من الموظفات بعضهن حاملات ، والاحتمال كبير أن الاخريات وضعن أحمالهن منذ فترة ،

فرض

وعشر مسلمات

الفرض

فى تربية الإنسان ... فى الإمكان أبدع مما هو كائن ، ومن الذى كان .

المسلمات :

يرى المؤلفان سلامة المسلمات التالية ، والتى يؤكدانها فى الأفكار والاتجاهات الواردة فى ثنايا فصول هذا الكتاب .

١- الحرية مكفولة للإدلاء بالاقتراحات والآراء البناءة لإصلاح التعليم أو تطويره فى مصر .

٢- التربية قوة أساسية هائلة فى بناء المجتمع وتقدمه .

٣- تتكون القيم والاتجاهات المؤدية إلى تقدم المجتمع فى مرحلة الطفولة ، ويحتاج تكوينها إلى الرغبات الصادقة والإرادة القوية والعمل الجاد .

٤- للبيئة المنزلية والمدرسة والمجتمع جل التأثير فى تكوين الاتجاهات والقيم عند الأطفال ، والاتفاق والتعاون بينها أمر أساسى .

٥- تربية الطفل قبل أن يدخل المدرسة الابتدائية ، وإعداده لها ، وتهيئته خلقيا واجتماعيا ونفسيا وعقليا وجسميا صارت موضع الاهتمام عند معظم الشعوب .

٦- لاتعتبر التربية فى مرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية عند شعوب كثيرة متقدمة فترة يلم فيها الأطفال بمبادئ القراءة والكتابة والحساب .

٧ يؤكد الدين قيمة العمل واحترامه وتأدية الواجب وتحمل المسئولية ويجب أن يتكون كل هذا بالممارسة منذ بواكير الطفولة .

٨- إعداد المدرسة والمدرس الصالحين للإشراف على أطفال مرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية أمر يتطلب الاهتمام البالغ .

٩- تتحمل مسئولية تربية الطفل قبل المدرسة هيئات متنوعة ، بعضها يعمل وفق سياسة مرسومة ومخططة علميا .

١٠- إن تبادل نتائج الخبرات بين الدول بعضها والبعض الآخر أصبح أمرا حتميا ... ويكيف كل مجتمع هذه النتائج حسب ظروفه واحتياجاته .

هذا وتفرح لأن طفلها يحتاج إليها دائما ، ولا غنى له عنها - أطال الله عمرها - ولكن ليس هذا هو الفرد الذى يسعد المجتمع ويفرح به عندما يكبر .

وقد تلجأ بعض الأسر إلى أن تمد الطفل بعدد وافر من اللعب المتنوعة ، التى تسعده بعض الوقت وسرعان ما يتطرق الملل إلى نفسه ، ذلك لأن :

جسمه يصيح به لحركة أكثر اتساعا وحرية .

إحساساته تنادى بضرورة أن يكون وسط أطفال آخرين فى مثل سنه تقريبا ، يتكلم معهم ، يوافق ، يرفض ، يغضب ، يضحك ، يشارك ... إلخ ، أى يوجد فى وسط اجتماعى مع من هم فى مثل سنه .

فماذا يكون الأمر ، وهناك أطفال لا لعب عندهم ؟

بل إن التطور الاجتماعى حتم اليوم وجود ما يطلق عليها اسم الأسرة (النووية) وهى التى تتكون من الأب والأم وربما طفل أو أكثر ، وكلهم فى مسكن واحد . فى وقت مضى وليس بعيدا ... كان المسكن أكثر اتساعا ويضم راشدين أكثر من مجرد الأب والأم ، مثل العم والخال والخالة والجد والجدة ... وكان يزداد الاحتكاك الاجتماعى بوجود راشدين أكثر . وطبيعى أن ننتظر أن علاقة الطفل مع الراشدين غير الأب والأم قد يكون فيها شىء من الاختلاف من شأنه أن يثرى نموه الاجتماعى ، مما يعود عليه وعلى غيره بالخير .

ونزيد ، فإن وجود الطفل فى بيئة اجتماعية أعدت خصيصا لاستقباله والتعامل الرشيد معه يمكن أن ينمى حصيلته اللغوية تنمية سليمة . إذ تنقى من الألفاظ - التى قد يلتقطها من أوساط غير مقبولة - ما ينحط بلغته إلى مستوى لانرجو أن يصل إليه أطفالنا .

بل فوق كل ما ذكر سابقا ... فإن هذه البيئة التربوية المعدة خصيصا له ، من أهم واجباتها والتزاماتها الأساسية التنشئة الخلقية السليمة حتى تتكون لدى الفرد فى هذه المرحلة المبكرة من عمره المبادىء الخلقية التى تنزهه فى حاضره ومستقبله عن اتيان أعمال قد تؤذيه وتؤذى المجتمع . وأمثلة هذه الأعمال المرفوضة كثيرة وتظهر بأجلى مظاهرها فى سلوك الراشدين المفسدين على أرض وطنهم الذى رعاهم ويرعاهم ، والذى ينتظر منهم البناء لا الهدم ، الأمانة لا الخيانة ، ولكنهم يمضون فى غيهم وفسادهم محدثين شروخا فى بناء المجتمع ، وبدلا من أن يكونوا عناصر بناء يصبحون عناصر هدم، وليس بهؤلاء تتقدم المجتمعات . وكان المفروض أن تكون أعمالهم إيجابية فى خيرها ، بدلا من أساليب التسيب والفساد التى يضج الناس فى جلساتهم وفى الصحافة ، بل وفى بعض أساليب الترفيه ، يضجون من انتشارها ، وكأن الأمر أصبح فوضى ، إذ فى غياب الضمير الأخلاقى لاننتظر إلا الفساد بكل صوره .

ولنذكر دائما أن كثيرا من القيم والاتجاهات والعادات تتكون مبكرة فى الطفولة . وكان هذا رائدا لبعض دول العالم فأقاموا الأنظمة التربوية على أساس اهتمام كبير بمرحلة ما قبل المدرسة . وكان هذا التأسيس مبنيا على أهمية هذه المرحلة ، مما أكدته البحوث العلمية الحديثة . وإليك نظرة سريعة على قليل جدا منها .

تقول الدراسات :

تخير المؤلفان مجموعة محدودة من البحوث أجريت فى مجتمعات أخرى . وقد لاحظا غزارة البحوث عن طفل ما قبل المدرسة من حيث أهمية وجوده فى بيئة اجتماعية وتربوية صالحة ، ومتى ينضم الطفل إلى هذه البيئة ، وبحوث تناولت نموه اللغوى ، وأخرى اهتمت بالعلاقة بين هذا النمو اللغوى والذكاء ، وأيضا التكيف الاجتماعى . وقد عالجت بعض البحوث العلاقة بين الصحة النفسية للأم ، والصحة

النفسية للطفل الذى يذهب إلى مؤسسة قبل المدرسة الابتدائية أو الذى لايذهب . كما درست بعض البحوث دور «المدرسة» فى تلك المؤسسات ، وكيفية إعدادها تربويا إعدادا سليما . هذا بالإضافة إلى بحوث عن أهداف التربية فى هذه المرحلة ومحتواها .

وإليك عينة منها :

١ - فى دراسة أجراها جاريسون وآخران (١) K.C. Garrison وجدوا أن هناك أهمية كبرى لاختلاط الطفل بغيره من الأطفال فى مثل سنه ، وكذلك بالكبار من خارج أسرته . ويبدأ الاختلاط فى مجموعات صغيرة أولا ، ثم تتزايد أعداد أفرادها تدريجيا حتى يعتاد الطفل التفاعلات الاجتماعية بين الأفراد ، وذلك فى الفترة من سن ٥ إلى ٧ سنوات من عمره ، حيث يصل الطفل فى هذه المرحلة إلى ذروة قدرته على المشاركة والتعاون فى الألعاب والأعمال الجماعية .

٢- بحث أجراه تايلور (٢) P.Taylor لاستطلاع رأى معلمات رياض الأطفال عن هدف هذه المؤسسات . بلغ عدد المشتركات فى البحث ٥٠٠ مدرسة ممن يعملن بهذه المرحلة فى المملكة المتحدة . وكان لرأيهن بإجماع دلالة إحصائية مرتفعة : إن هدف رياض الأطفال هو هدف اجتماعى بالدرجة الأولى ... فقلن إنها تهدف إلى ... «مساعدة الأطفال على تكوين علاقات متزنة مع الآخرين ، وتشجيعهم على تحمل المسئولية ، والثقة بالنفس وضبطها ، ومراعاة شعور غيرهم ورغباتهم ...» وبدا من استجاباتهن رفضهن الواضح والمؤكد للاتجاه نحو ... «تحويل وظيفة هذه المؤسسات إلى تحقيق أهداف معرفية أو تحصيل دراسى ...» .

(1) K.C. Garrison, A.J. Kingston, and H.W Bernard, The Psychology of Childhood, Staples Press, London, 1968
(2) P.Taylor, P.Ashton, A Study of Nursery Education, Evans, Methuen, London, 1972

٣- فى دراسات أجرتها هـ . هيتزر Hetzer ، وأوردها ورل[1] W.D. Wall عن الأطفال فى سن الخامسة والسادسة استمرت سنوات طويلة بداية من عام ١٩٢٩ ممن التحقوا برياض الأطفال بهدف الوقوف على مراحل النمو الإبداعى أو الابتكارى عندهم فوجدت أن هناك تتابعا لمراحل محددة تتمشى مع قوانين النمو، فيمر الطفل فى ثلاث مراحل وهو يلعب بالمكعبات الخشبية .

(أ) مرحلة لايهدف فيها إلى تكوين شيء معين ولكن بعد انتهائه من رص المكعبات يكتشف أنها يمكن أن تكون كذا أو كذا ...

(ب) مرحلة تأتى إليه فكرة تكوين شيء معين أثناء لعبه ورصه المكعبات أى بعد أن يبدأ .

(جـ) مرحلة يقرر تكوين شيء معين ، ثم يبدأ فى رص المكعبات لتكوين هذا الشيء الذى حدده مسبقا .

وترى هيتزر إنه من خلال اللعب فى رياض الأطفال يمكن تعويد الطفل وضع أهداف ، ويعمل على تحقيقها مستخدما بعض الأجهزة والأدوات البسيطة ، التى تزوده المدرسة بها . فيتحول بذلك اللعب عند الطفل إلى عمل جدى يبدأ بتحديد هدفه ويستمر الطفل فى العمل حتى يتحقق هذا الهدف ، وبذلك يبدأ فى تكوين اتجاهات خاصة بمفهوم العمل . أى أن هناك فرقا بين الإبداع العشوائى الذى ينتج عن المصادفة والإبداع المقصود .

٤- فى بحث أجراه ناعومى ريتشمان [2] عن طفل سن الثالثة ، الذى لا يلتحق بمؤسسات قبل المدرسة ويلاصق أمه فى البيت ، ومدى تأثره بحالتها النفسية .

(1) W.D. Wall Constructive Education for Children, The UNESCO Press, Paris, 1975, PP. 148, 176.

(2) Richman, Depression in Mothers of Pre-School Children, Children, Journal of Child Psychology and Psychiatry, pp.17-75, 1976

وقد ظهر أن أطفال الأمهات ذوات الاضطرابات النفسية يعانون غالبا من مشكلات سلوكية .

٥- بحث أجراه جويس واتس J.Watts [١] بهدف التعرف على أسباب إرسال الأمهات أطفالهن لمؤسسات ما قبل المدرسة . وجد أن ٧١٪ من الأمهات اللاتى يلحقن أطفالهن بتلك المؤسسات كن يهدفن أساسا إلى «وجود الأطفال مع صحبة» و«إتاحة الفرصة لمخالطة الطفل بغيره من الأطفال» . ووجد الباحث أن الأهداف الاجتماعية تبوأت مركز الصدارة مقارنة بغيرها من الأهداف ، وأن البيئة الاجتماعية المعدة خصيصا لهؤلاء الأطفال تحقق هذه الأهداف .

٦- وقد وجدت باربرا تيزارد Barbra Tizard [٢] فى دراسة أجرتها لنفس الهدف السابق أن العامل الاجتماعى تصدر أهداف إرسال الوالدين أطفالهم إلى مؤسسات ما قبل المدرسة .

٧- توصلت بحوث جاربر وهيبر H.Garber and F.R. Heber [٣] إلى أن الذهاب إلى رياض الأطفال قد أدى إلى ارتفاع مستوى اللغة وحصيلتها عند الأطفال . كما أدى إلى ارتفاع مستوى الأداء فى اختبارات الذكاء التى أجريت لهم بنسبة ملحوظة . ففى دراستهما فى ميلواكى بالولايات المتحدة الأمريكية .. ظهر تفوق

---

(1) J. Watts, Pre.School Education and the Family, Unpublished Report, University of Aberdeen Inst. of Education, 1976.

(2) B. Tizard, Parent Involvement in Nursery Education , Unpublished Report, Thomas Coram Research Unit, Londom University Inst. of Education, 1977.

(3) H. Garber and F.R. Heber, The Milwankee Project : Indications of the Effeetiveness of Early Intervention in Preventing Mental Retardation, in Mittler, P. (Ed.) Research to Practice in Mental Retardation, Vol. I. uniu Park Press, Baltimore. 1977

الأطفال الذين أنهوا رياض الأطفال ، ثم التحقوا بالمدرسة الابتدائية عن غيرهم ممن لم يلحتقوا بالرياض بما يعادل سنتين في النمو اللغوى ، كما كان متوسط نسب ذكائهم ١٢٣ مقارنا بمتوسط نسب ذكاء الذين لم يلتحقوا برياض الأطفال والذى لم يتعد ٩٤ .

٨- بحث أجراه مكتب الإحصاءات والمسح السكانى فى المملكة المتحدة سنة ١٩٧٤[1] وهو بحث اشتهر باسم OPCS وهو اختصار "Office of Population Censuses and Surveys" استطلع البحث رأى عدد من الأمهات بلغ ٢٥٠١ سيدة لهن أطفال دون سن المدرسة ، وذلك بهدف التعرف على رأيهن فى ضرورة وجود مؤسسة يذهب إليها الأطفال فى السنوات التى تسبق التحاقهم بالتعليم الابتدائى ، كما سئلن عن رأيهن فى السن الذى يتحتم فيه على الأطفال الذهاب إلى تلك المؤسسات . أشارت النتائج إلى أن ٩٠٪ من الأمهات ممن لهن أطفال فى سن ٣ أو ٤ أو ٥ سنوات يطالبن بضرورة وجود مؤسسات ترعى الأطفال و(تربيهم) فى هذه المرحلة العمرية . كما أن ٤٦٪ من أمهات لهن أطفال دون الثالثة أظهرن اهتماما بوجود هذه المؤسسات .

وقد تكرر إجراء هذا البحث فى مناطق متفرقة من المملكة المتحدة ، وكانت النتائج مؤكدة لما سبق ذكره . فالغالبية العظمى من الأمهات اللواتى لهن أطفال فوق سن الثالثة وقبل السادسة رأين حتمية وجود مؤسسات أو دور تضم هؤلاء الأطفال ، فى حين أن أقل من نصف الأمهات اللواتى لهن أطفال دون الثالثة رأين ضرورة وأهمية وجود مؤسسات ترعى أطفالهن فى هذا السن .

---

(1) M. Bone, Pre - School Children and their Need for Day Care H. M. S. O. , London , 1977.

٩- فى تقرير أعده معهد التربية بجامعة لندن [١] سنة ١٩٧٩ عن الخدمات التى تؤدى لأطفال ما قبل المدرسة جاء فى مبررات ضرورة هذه الخدمات أن ١٨٪ من مجموع أطفال هذه المرحلة يسكنون بيوتا مزدحمة ، وإن ١١٪ من أطفال تلك المرحلة يسكنون فى شقق صغيرة لاتسمح إلا بالحركة المحدودة جدا للعب الأطفال. وتتفاقم هذه الظاهرة فى المناطق المكثفة سكانيا فى وسط المدن ، حيث تبين من الدراسة أن ٤٨٪ من أسر أطفال مرحلة ما قبل المدرسة يسكنون فى مساكن بعيدة عن الحدائق العامة ويسكنون أدوارا فوق الأدوار الأرضية ، وأنهم يستخدمون حمامات ودورات مياه مشتركة مع جيرانهم .

١٠- خرج المؤلفان بعد قراءة ودراسة كتاب «الحضانات الآن»[٢] بمجموعة نتائج سوف يذكراها بعد قليل . والملاحظ أن هذا الكتاب ألفه خمسة من المتخصصين فى التربية لمرحلة ما قبل المدرسة ، وقد حشدت فيه نتائج عشرات البحوث التى أجريت فى كثير من المجتمعات المختلفة ، خاصة المملكة المتحدة . وقد استقر رأى المؤلفين الخمسة على إطلاق مصطلح «الحضانات» على كل المؤسسات التى يلتحق بها الأطفال قبل المدرسة الابتدائية وفى أى سن . كما لوحظ اهتمامهم الواضح بأن يعمل فى تلك المؤسسات ذكور وإناث ، وهم بذلك يتخلصون من الفكرة التى سادت ومؤداها أن الإناث فقط هن اللواتى يشرفن أو يرشدن أطفال تلك المؤسسات ، مع توضيح أهمية اشتراك الذكور بالنسبة للأطفال أنفسهم .

---

(1) M. Bax, P. Moss, and I. Plewis, Pre-School Families and Services, Unpublished Report, Thomas Coram Research Unit, London University Inst. of Education, 1979 .

(2) Martin Hughes, Berry Mayall, Peter Moss, Jane Perry, Pat Patrie and Gill Pinkerton, Nurseries Now, A Fair Deal for Parents and Children, Pinguin Books, London 1980, 281 pages.

ومن النتائج التى خرج بها المؤلفان بعد دراسة هذا الكتاب ما يلى :

(أ) إن استخدام كلمة «تربية» لاتعنى تعليم الأطفال مبادىء القراءة والحساب. بل تعنى تهيئة بيئة مناسبة ينمو فيها الطفل تحت إشراف موجه ومنظم .

(ب) تترك لأولياء الأمور حرية اختيار السن التى يرون أنها صالحة ومفيدة ليلحقوا بهاأطفالهم فى تلك المؤسسات ، بعد أن أثبتت بحوث كثيرة أهمية هذه البيئة التربوية وبالذات الاجتماعية .

(جـ) لايقتصر إنشاء هذه المؤسسات على المدن الكبيرة والصغيرة ، ولكن يمتد إلى الريف حيث ظهرت حاجة أطفال بعض المناطق الريفية إلى تواجدهم فى وسط اجتماعى مع أطفال قريبين فى أعمالهم منهم ، كما ظهرت الحاجة إلى أن يحتك الأطفال براشدين غير الوالدين والأقارب المحيطين بهم .

(د) ضرورة وجود تكامل تعاونى بين المسئولين فى تلك المؤسسات وبين الأسرة، فكل يعاون الآخر ويثرى الخبرات التى يمر بها الطفل .

(هـ) بعد أن لاحظ مؤلفو كتاب «الحضانات الآن» تنوع الهيئات التى تشرف على تلك المؤسسات اقترحوا أن تكون هناك هيئة واحدة تضم مندوبين عن الوزارات المعنية (وزارة التربية والتعليم ووزارة الشئون الاجتماعية ووزارة الصحة) ، والمؤسسات الخاصة ، والمصانع التى بها حضانات ، والمؤسسات التى تخضع للكنيسة ، والجمعيات الخيرية ، وذلك لتنسيق وتنظيم العمل فى هذه المؤسسات .

(و) بعد محاولات ومناقشات واستطلاع للرأى وملاحظات ميدانية ... وجد مؤلفو كتاب «الحضانات الآن» أن أطفال مرحلة ما قبل المدرسة يلتحقون بتلك المؤسسات بهدف كفاية حاجاتهم إلى :

(١) التربية (بالمعنى السابق ذكره)

(٢) الرعاية .

(٣) اللعب .

* * *

وإذا كانت مؤسسات ما قبل المدرسة الابتدائية قد تزايد عددها في السنوات الأخيرة في مصر استجابة لتغيرات اجتماعية واقتصادية فإن هذه المؤسسات فى حاجة ماسة إلى أعداد كبيرة جدا من المعلمين والمعلمات ليتولوا أمور الإشراف والتوجيه ، فالأطفال فى حاجة ماسة لأفراد أعدوا خصيصا لهذه المهمة النبيلة التى تتناول وجدان وعقول وصحة الإنسان فى مرحلة حساسة وشديدة الأهمية فى تأثيرها على مراحل النمو التالية . إن بناء البشر يبدأ فى الطفولة المبكرة .

وإذا كانت الحاجة تدعو إلى أن تهتم الكليات الجامعية والمراكز البحثية المعنية وكذلك المهتمون بشئون تربية الطفل قبل المدرسة وثقافته ، بإجراء بحوث ودراسات ، فإنه مما يثلج الصدر أنه قد عقدت مجموعة ندوات ومؤتمرات فى هذا الخصوص فى مصر وفى العالم العربى منها على سبيل المثال لا الحصر :

١- المؤتمر الأول لثقافة الأطفال ، وزارة التربية والتعليم جمهورية مصر العربية القاهرة من ١٤-١٦ مارس ١٩٧٠ . ويعتبر هذا المؤتمر علامة بارزة على الطريق فى الجهود العلمية لتربية أطفال ما قبل المدرسة .

٢- حلقة العناية بالثقافة القومية للطفل العربى - جامعة الدول العربية (الأمانة العامة) الإدارة الثقافية - بيروت من ٧-١٧ سبتمبر ١٩٧٠ وأوصت الحلقة بإنشاء مؤسسة أو جهاز عربى إقليمى متخصص للعناية بالثقافة القومية للطفل العربى

٣- ندوة خدمات الطفولة - وزارة الشئون الاجتماعية - جمهورية مصر العربية - اللجنة الدائمة للاحتفال بعيد الطفولة - القاهرة ١١ يناير ١٩٧٣ - وأوصت الندوة بتحويل اللجنة الدائمة للاحتفال بعيد الطفولة إلى مجلس أعلى للطفولة فى تعاون مشترك مع الوزارات والهيئات والأجهزة المختلفة المعنية بالطفولة .

٤- حلقة ثقافة الطفل فى الخليج والجزيرة العربية والدول العربية المحيطة بها - الكويت من ١١-١٣ يناير ١٩٧٥ . وركزت الحلقة فى توصياتها على ضرورة التوسع فى دور الحضانة ورياض الأطفال ورفع مستوى الخدمات التى تقدمها مع الاهتمام بإعداد وتدريب العاملين فى هذه المؤسسات - كما نادت بضرورة المبادرة إلى إعداد وإعلان ميثاق عربى لحقوق الطفل ... وقد أقر مؤتمر وزراء الشئون الاجتماعية العرب فى ديسمبر ١٩٨٤ «ميثاق حقوق الطفل العربى» .

٥- المؤتمر الأول لثقافة الطفل - وزارة الثقافة - الثقافة الجماهيرية ، جمهورية مصر العربية . الإسكندرية من ٢٧-٢٩ ديسمبر ١٩٧٥ . واهتم هذا المؤتمر بالبحوث والدراسات المرتبطة بوسائل الإعلام ومسرح الطفل ، وأفلام الأطفال وبرامج الإذاعة والتليفزيون ومتاحف الأطفال ، كما اهتم بمناقشة قضية إعداد العاملين فى هذه الميادين ، وذلك لتقديم أحسن خدمة لطفل ما قبل المدرسة ثقافيا وفكريا ووجدانيا.

٦- ندوة تربية الطفل فى السنوات الست الأولى - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - الخرطوم من ١٧- ٢٢ ديسمبر ١٩٧٧ . وكان التركيز فى هذه الندوة على مناقشة مشكلات تربية الطفل قبل المدرسة ، وأهمية اعتبار رياض الأطفال مؤسسات تربوية تتولى وزارة التربية والتعليم الإشراف الأساسى عليها .

٧- ندوة حول العمل مع الأطفال - مركز دراسات الطفولة - جامعة عين شمس - جمهورية مصر العربية - القاهرة من ٢٨ فبراير - ٢ مارس ١٩٧٨ . وأوصت الندوة بضرورة القيام بسلسلة من البحوث على أطفال ما قبل المدرسة ، وعن المعوقات التى تحول دون تنفيذ توصيات المؤتمرات السابقة .

٨- ندوة «افتح ياسمسم» مؤسسة الإنتاج البرامجى المشترك لدول الخليج العربى - الكويت ٧-٩ مارس ١٩٧٨ وركزت الندوة على برنامج تليفزيونى موجه إلى أطفال ما قبل المدرسة الذين تتراوح أعمارهم بين ٣-٦ سنوات ، وهو برنامج تربوى ترفيهى يقع فى ١٣٠ حلقة مدة كل منها ساعة .

٩- المؤتمر الثانى لثقافة الطفل - وزارة التربية والتعليم - مصر القاهرة ٢٨-٣٠ ديسمبر ١٩٨٠ م . وناقش المؤتمر عديدا من البحوث فى مجالات القيم الدينية والأخلاقية للأطفال - كتب ومجلات الأطفال - فنون الأطفال . معسكرات الأطفال وأنديتهم - أفلام وبرامج الأطفال ...

١٠- الحلقة الدراسية الإقليمية لعام ١٩٨١ حول لغة الكتابة للطفل - مركز تنمية الكتاب العربى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة من ٣٠ يناير - ٣ فبراير ١٩٨١ . وركزت الحلقة على لغة الكتابة للأطفال ، وأوصت بدعوة الباحثين والمشتغلين بالتربية وعلم النفس إلى إجراء بحوث فى قاموس الألفاظ والتراكيب الذى يناسب مراحل النمو المختلفة للطفل ، بحوث حول طول الجملة - حجم الكتاب - الموضوعات التى يميل إليها الأطفال ... إلخ .

١١- ندوة الإعلام فى خدمة المعوقين - معهد الإذاعة والتليفزيون - جمهورية مصر العربية - القاهرة ٢٨ فبراير - ٥ مارس ١٩٨٢ وأوصت الندوة بالاهتمام بالأبحاث العلمية فى مجال الطفل المعوق ، وكذلك الاهتمام بالخدمات التربوية والصحية التى تقدم له

١٢- الحلقة الدراسية الإقليمية : كتب الأطفال ومجلاتهم فى الدول المتقدمة - مركز تنمية الكتاب - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ٢٨ يناير ٢ فبراير ١٩٨٤ . واهتمت الحلقة بدراسة سمات وخصائص كتب الأطفال فى الدول المتقدمة وأوصت بضرورة متابعة الاتجاهات الحديثة والمعاصرة فى هذا الشأن .

١٣- ندوة المسئولين عن رياض الأطفال فى الوطن العربى - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - الخرطوم ١٥-٢٥ أكتوبر ١٩٨٤ ونشر تقرير الندوة بعنوان: رياض الأطفال فى الوطن العربى : الواقع والطموح تونس ١٩٨٦ م وقدم المؤلفان فى هذه الندوة ، بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور عبدالعزيز القوصى الورقة الأساسية ، وكانت بعنوان تصور تربوى عربى لمؤسسة رياض الأطفال

١٤- الحلقة الدراسية الإقليمية حول القيم التربوية فى ثقافة الطفل مركز تنمية الكتاب العربى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ٣ نوفمبر ٤ ديسمبر ١٩٨٥ واهتمت الحلقة بمناقشة قصص الأطفال ودور القصة فى النمو الأخلاقى للأطفال وزيادة الاهتمام بالعاملين فى مجال ثقافة الطفل ومعايير كتب وقصص الأطفال فى سن ما قبل المدرسة .

١٥- خطة تربية الطفل العربى فى سنواته الأولى على ضوء استراتيجية التربية العربية . إعداد دكتور سعيد مرسى أحمد ود. كوثر حسين كوجك ود. عبدالعزيز الشناوى والأستاذ محمد عادل الأحمر - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس ١٩٨٦ م .

١٦- المؤتمر العربى حول الطفولة والتنمية فى الوطن العربى جامعة الدول العربية الأمانة العامة - الإدارة العامة للشئون الاجتماعية - إدارة الطفولة تونس ١٣-١٥ نوفمبر ١٩٨٦ وشارك فى المؤتمر وفود من معظم الدول العربية

وانتهى المؤتمر إلى الموافقة على اعتماد الإعلان العربى حول الطفولة والتنمية ، واعتماد مشروع قرار تأسيس المجلس العربى للطفولة .

١٧- معلم رياض الأطفال - الحاضر والمستقبل ، المؤتمر العلمى الثانى لكلية التربية - جامعة حلوان ١٤ - ١٦ أبريل ١٩٨٧ ، وألقى المؤتمر الضوء على معلم مرحلة ما قبل المدرسة من حيث إعداده وتدريبه .

١٨- المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى تنشئته ورعايته - مركز دراسات الطفولة جامعة عين شمس - القاهرة ١٩- ٢٢ مارس ١٩٨٨ . وأكدت توصيات المؤتمر على ضرورة التعاون بين مختلف الهيئات والمنظمات المعنية بقضايا الطفولة ، وتشجيع البحوث والدراسات فى هذا المجال .

١٩- حلقة رياض الأطفال فى الوطن العربى بين الواقع والمستقبل - المجلس العربى للطفولة والتنمية - القاهرة ٣-٦ يوليو ١٩٨٩ ، ونوقشت فى الحلقة بحوث ودراسات ترتبط ببرامج ومناهج رياض الأطفال ، برامج إعداد معلمة رياض الأطفال ، برامج إعداد رياض الأطفال . وأكدت الحلقة على ضرورة إجراء المزيد من البحوث فى هذا الميدان .

وفيما يلى بعض عناوين البحوث التى اجريت فى هذا المجال :

٢٠- **محمد محمود شعبان (بابا شارو)** وسائل الإعلام وإعداد الآباء لتربية طفل ما قبل المدرسة . فى ندوة تربية الطفل فى السنوات الست الأولى - الخرطوم : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ١٩٧٧ .

٢١- **رمزية الغريب :** الاتجاهات العالمية فى تربية طفل ما قبل المدرسة . فى ندوة تربية الطفل فى السنوات الست الأولى - الخرطوم : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ١٩٧٧ .

٢٢- عبدالمنعم ثابت : أجهزة الإعلام وأثرها فى تثقيف الطفل فى ندوة الرعاية الشاملة لطفل ما قبل المدرسة - القاهرة : وزارة الشئون الاجتماعية اللجنة الدائمة للاحتفال بعيد الطفولة ، ١٩٨٢ .

٢٣- نادية عبدالعزيز عوض : الرعاية الموسيقية لطفل ما قبل المدرسة . فى ندوة الرعاية الشاملة لطفل ما قبل المدرسة - القاهرة : وزارة الشئون الاجتماعية. اللجنة الدائمة للاحتفال بعيد الطفولة ، ١٩٨٢ .

٢٤- يعقوب الشارونى : كتب الأطفال فى مرحلة ماقبل السادسة . فى ندوة الرعاية الشاملة لطفل ما قبل المدرسة - القاهرة : وزارة الشئون الاجتماعية . اللجنة الدائمة للاحتفال بعيد الطفولة ، ١٩٨٢ .

٢٥- أحمد نجيب : كتب الأطفال قبل السادسة . - ص ص ٣٢٣ - ٣٨٠ . فى الحلقة الدراسية الإقليمية . كتب الأطفال فى الدول العربية والنامية - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣ .

٢٦- عواطف إبراهيم محمد : أغانى وأناشيد الأطفال سن ماقبل المدرسة - ص ص ٢١٧ - ٢٣٥ . فى الحلقة الدراسية الإقليمية : كتب الأطفال ومجلاتهم فى الدول المتقدمة - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤

٢٧- ماجدة محمد إسماعيل صبحى ..(وآخرون) : مشروع مقترح لتنمية الحركات الانفعالية لدى طفل ما قبل المدرسة . فى مؤتمر ثقافة الطفل فى وسائل الإعلام - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز الطفولة ، ١٩٨٥ .

٢٨- **إخلاص نور الدين عبدالظاهر .. (وآخرون)** : برنامج مقترح لتنمية المهارات الحركية الأساسية لأطفال مرحلة ما قبل المدرسة . فى مؤتمر ثقافة الطفل فى وسائل الإعلام - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز الطفولة .

٢٩- **فاطمة أبو الفوارج** : دور التربية الفنية فى تقييم الوضع الراهن للطفل المصرى فى مرحلة ما قبل المدرسة . فى مؤتمر ثقافة الطفل فى وسائل الإعلام . - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٥ .

٣٠- **نخبة من أساتذة المعهد العالى للتربية الفنية** : الأغنية المناسبة لطفل ما قبل المدرسة . فى مؤتمر ثقافة الطفل فى وسائل الإعلام - : جامعة عين شمس : مركز دراسات الطفولة . ١٩٨٥ .

٣١- **كافية رمضان** : التنشئة الأسرية وأثرها فى تكوين شخصية الطفل العربى. فى المؤتمر العربى حول الطفولة والتنمية فى الوطن العربى - تونس : جامعة الدولة العربية . الأمانة العامة . الإدارة العامة للشئون الاجتماعية . إدارة الطفولة ، ١٩٨٦ .

٣٢- **كوثر السيد محمود الموجى** : القياسات الجسمية والمهارات الحركية الأساسية لدى أطفال الحضانة . فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٣٣- **عماد زكى** : أدب الأطفال والعام ٢٠٠٠ . فى ندوة أدب الأطفال : واقع وتطلعات - عمان : مؤسسة نور الحسين . الرابطة الوطنية لتربية وتعليم الأطفال ، ١٩٨٨ .

٣٤- **فخرى طملية** : أشكال أدب الأطفال : القصة . فى ندوة أدب الأطفال واقع وتطلعات عمان : مؤسسة نور الحسين . الرابطة الوطنية لتربية وتعليم الأطفال . ١٩٨٨ .

٣٥- بيومى محمد ضخاوى : التوازن المفقود بين الأسرة والمدرسة . فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٣٦- هدى محمد قناوى : دراسة استطلاعية لحاجات أطفال المناطق النائية والعوامل المؤثرة فيها ، المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى ، تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٣٧- نادرس مرقص حنا : الإعلام وتربية طفل ما قبل المدرسة . فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٣٨- أميرة سيد فرج : الأغنية كمعلومة متكاملة لطفل الحضانة من أربع إلى ست سنوات . فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى : تنشئة ورعاية - القاهرة: جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٣٩- نادية يوسف كمال : التربية الأخلاقية لطفل المدرسة الابتدائية . فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٤٠- ممدوح الصدفى ، سالم هيكل : تربية الطفل المصرى بين ممارسات الواقع وطموحات المستقبل . فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس ومركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٤١- محمد صابر سليم : الطفولة هى البداية السليمة للتربية البيئية . فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٤٢- **محمد أمين المفتى** : تجريب استراتيجية مقترحة لتيسير تعلم أطفال ما قبل المدرسة، بعض المفاهيم الرياضية. فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس. مركز دراسات الطفولة، ١٩٨٨.

٤٣- **امتثال محمد ، أمين كامل ، عثمان جلال** : أثر التغذية فى سلوكياته الأطفال دون السن المدرسى . فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى: تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس. مركز دراسات الطفولة، ١٩٨٨.

٤٤- **حسن محمد حسان** : دراسة تقويمية لبرامج إعداد معلم دار الحضانة . فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٤٥- **فاروق محمد صادق** : برنامج التداخل فى مرحلة ما قبل المدرسة والتوازن من الوقاية الأولية والقانون من الإعاقة . فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة، ١٩٨٨ .

٤٦- **فكرى شحاته أحمد** : مشكلة تعليم طفل ما قبل المدرسة . فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٤٧- **إلهام مصطفى عبيد** : اللعب كوسيلة تربوية للطفل فى مرحلة ما قبل التعليم الأساسى . فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

هذا .. بالإضافة إلى عديد من بحوث الماجستير والدكتوراه التى تناولت مشكلات تتعلق بتربية الطفل فى مرحلة ما قبل المدرسة .

هذا الكتاب

ان معالجة موضوع كبير كموضوع هذا الكتاب يحتاج إلى مجلدات عديدة ، وإلى أن يشترك فى كتابته عدد من الأساتذة المتخصصين فى أصول وتاريخ واجتماعيات التربية ، وعلم النفس التعليمى والصحة النفسية والمناهج والتدريس ، والتربية المقارنة، وعلم الاجتماع ، والاقتصاد المنزلى ، والتربية الموسيقية ، والتربية الرياضية ، وفنون وأدب الأطفال ، والتمثيل ووسائل الإعلام ... فالموضوع يلم بأطراف شتى ، وكلها تسهم إسهامات واضحة فى تنشئة طفل مرحلة ما قبل المدرسة .

ويتعرض هذا الكتاب فى عجالة سريعة لبعض ما يؤثر على تربية هذا الطفل لمن يهمهم أمر تربيته وتنشئته فى وقت ، تشتد فيه الحاجة لمزيد من المؤسسات التى تعنى به .

ويجوب الكتاب فى بعض البلدان متلمسا فى ثقافاتها ماذا يعمل لهذا الطفل من مجهودات شتى . كما يعود إلى الماضى فى غير عمق التاريخ ، وذلك لكى يلقى الأضواء على مجهودات بعض الذين فكروا للطفل ، وكيف يربى وينشأ فى سنى ما قبل المدرسة الابتدائية . والمقصود من كل هذا أن يتعرف المسئولون عن هذا الطفل فى تلك المرحلة على ملامح - نرجو أن تكون مهمة - فى تربيته وتنشئته على أصول علمية سليمة .


الفصل الثانى
تربية
الأعماق

الفصل الثانى

تربية الأعماق ..

* القوة الهائلة
* استراتيجية
* هذا المجتمع النامى
* لماذا تدق الأجراس ؟
* عواصف الندم
* قبس من الأصالة
* أجيال ومسئوليات
* نقاط على حروف حائرة
* أيها الطفل

تربية الأعماق

درجنا على رص الكثير من العبارات التى تحدد معنى كلمة التربية . وقد تناول بعض كلمة التربية من المدخل اللغوى ، وأفاض وأزاد مما حفظه بعض الطلاب وردده كالببغاوات دون أن يعمل فيهم عملا بناء . وتناول بعض المفكرين معنى التربية فلسفيا ممتزجا بالجانب النفسى فكانت هى عملية نمو تشمل الكائن الحى من جميع جوانبه . واستراح الأساتذة إلى هذا المعنى وقتلوه شرحا وتحليلا وتدقيقا وتفسيرا . واتضحت معالم هذه العملية التى يخضع لها الإنسان من المهد إلى اللحد بأن شرحت إلى شرائح محددة منها الجسمية والعقلية والوجدانية والخلقية ... إلخ . وكان جميلا ورائعا أن تربية الإنسان فيها التكامل والشمول ، فيجب أن يهتم به من جميع تلك الشرائح أو النواحى حتى تصير هناك عملية تربية مقصودة له ، بالاضافة إلى ما يؤثر فى تلك الشرائح من مؤثرات أخرى غير مقصودة ، أى لم تعد لها مناهج وأساليب تعليم متنوعة ومتدرجة من السهولة إلى الصعوبة ، ومن البساطة إلى التعقيد .

فطالعت علينا عشرات ومئات الكتب فى أصول التربية والمناهج وطرق التدريس والوسائل التعليمية إلخ ... وتعتمد فى جلها - على هذا المعنى الذى لقى هوى وراحة عند المتكلمين فى التربية والمشتغلين بها ، وخرجت شعارات كثيرة الصياح عالية الصوت منبثقة عن هذا المعنى، ارتبطت بمختلف مراحل عمر الإنسان الذى يربى ، كما ارتبطت أيضا بمختلف المجتمعات من ريف وحضر وبدو رحل ، ومن سكان على السواحل... وبيئات فقيرة وأخرى مستريحة ماديا ... وكل هذا كلام معقول مقبول ، ولكن ...

إذا سمح القارىء الكريم فإن لمؤلفى هذا الكتاب وجهة نظر أو رأيا خاصا فى قضية معنى التربية . ولا يستطيعان الإدعاء بأن هذا الرأى خال فى بعضه أو كله من

التأثر بآراء أخرى شرقية وغربية ، قديمة وحديثة ، تقليدية وتقدمية . ولكنهما يؤكدان بأن التغلغل الدينى المتمكن له الأثر الفعال القوى إلى جانب ما أخذا به من ثقافات أخرى غير عربية بعد دراستها فى تفحص غير سطحى مطلقا .

القوة الهائلة

نرى أن المسألة فى أساسها ترتبط بتربية الأعماق من أجل الأخلاق ، كهذا الجيش المقاتل الذى يرسل طائراته لنسف خطوط العدو ومراكز تموينه فى العمق ، مما يربك كل جبهته المقاتلة فلا تجد ما يجعلها قادرة على التصدى للهجوم . إن سلامة الأعماق تجعل خطوط التموين والسلاح مستمرة فى تدفق . كما أن الأمن الداخلى يوجه كل الطاقات لمواجهة العدو أو الأعداء من الخارج .

إن فساد الأعماق أو التخلخل الخلقى الداخلى لايؤدى إلا إلى السلبية والضياع والانهيار .

تربية الأعماق تعنى الأصالة فى الجذور التى تنبت منها الأقوال والأعمال ، ومن طبيعتها - إذا نمت - أن تزداد تأصلا وتمكنا مع سنى عمر الفرد . وهى تبدأ فى الطفولة بالأعمال لا بحفظ الأقوال والشعارات ، وتتم الأعمال تحت الملاحظة الدقيقة الواعية من الراشدين لسلوك الأطفال .

إن بذور العلقم والحنظل لاتثمر الحلو الشهى .

ترى تربية الأعماق أن الإنسان أجل وأعظم من كونه كائنا بشريا ، وإن الله عز وجل قد وهبه الإمكانات التى تجعله قادرا على أن يحيا على الأرض حياة تسعده وتسعد غيره ، لا مجرد أن يعيش عليها محققا لنفسه لذات وشهوات ، ناسيا أنه واحد وسط مجموعة ، وعليه أن يعمل لغيره ربما قبل أن يعمل لنفسه .

تربية الأعماق هى الأساس الوطيد للسلوك الخير فى المجتمع ، وهى الشرارة الأساسية لتقدم أى مجتمع ، وبدونها لايمكن أن يحدث تقدم ، حتى لو ملك هذا المجتمع كنوز الأرض ، واستحوذ على ما فوقها وما فى باطنها ، لأنه لن يحسن التصرف فيما يملك إذ يتصاعد من داخله دخان السفه الأسود يطمس عقله ، حاجبا التفكير السليم .

تربية الاعماق تؤدى بالضرورة إلى تفكير خلقى وتفكير علمى سليمين ، ذلك أنها بالضرورة ترفع الإنسان من هوة الأنانية والأثرة وحب الذات إلى جنة الغيرية وحب الآخرين ، والعمل للجميع . ذلك لأن الفرد الإنسان عندما يفكر فى غيره يتخلص من أهم مسببات التفكير اللا أخلاقى ، ذلك الذى يدعو إلى أن يقول الفرد دائما (أنا وحدي ... وأنا أولا) . المأساة الأخلاقية التى تعيشها بعض المجتمعات أساسها فساد الأعماق. وبالتالى ضياع التفكير الأخلاقى ، وانحراف التفكير العلمى إلى مسارات الشرور والآثام والضياع .

إذا تساءلنا عن الأسباب الحقيقية لما يعانيه مجتمعنا من بعض السوءات كالتسيب والانحرافات والسرقات ... إلخ والجرائد تكتب كل يوم عن هذا وذاك والفضائح فيها لاتنتهى، وفى كل صباح نجد دائما الجديد من هذه المخازى المؤلمة للنفس، ولكنها موجودة ، وما ينشر جزء قليل جدا مما ضبط ، وما ضبط قطرة صغيرة فى سيل الذى لم يضبط . إذ أن سوء حظ المقاول أن عمارة تهدمت فانكشف أمره ، ولكنه غش فى عمارات أخرى كثيرة ، ربما بدرجات أقل فلم تقع ... ولكنه غش أى سرق ، أى أن أعماقه سولت له جرما وخطأ ليكسب هو حتى لو مات غيره تحت الأنقاض .

تربية الأعماق من أجل الأخلاق ...

هى عملية تحتاج لمجهود غير عادى، ولكنه ممكن وممكن جدا إذا صدقت النوايا ،

وإذا قلت العفويات التى تصدر من ذوى الآراء السطحية والذين يدعون العلم والمعرفة، وقد يحفظون بعض العبارات ويرددونها ، ولكنهم أقرب إلى ظلام الجهل منهم إلى نور المعرفة والحق . وهذه المعرفة لا تعنى مجرد أن يعلم فرد أن السرقة حرام ، ولكنها تعنى السلوك الحق فلا يسرق ... كل الذين يسرقون يعرفون أن هذا حرام ولكنهم يرون أنها «شطارة وفهلوة» .

كتب بعض الناس عن النظافة فى الصحف ... وقال قائل : يجب أن نجمع الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التى تحث على النظافة ونطبعها فى كتاب وتوزع على الناس حتى تنظف المدن والقرى ... ونقول لهذا القائل لذلك الاقتراح ... إن كل هذا جميل ومطلوب . إن كل مؤمن يعرف تماما أن النظافة من الإيمان ، أى أنه لكى يكون مؤمنا حقا يجب أن يكون نظيفا وما حوله أيضا نظيف ، ومع ذلك فالحال كما نرى ...

مجرد المعرفة لاتعنى السلوك .

المعرفة ضرورية للسلوك ، ولكن يجب أن يقتنع الفرد بما عرف ، وأن يتغلغل إلى أعماقه فتتشرب هذا الاقتناع ، لتكون جزءا من نسيج تكوينه الداخلى ، وتسرى كالدم فى عروقه حتى يصل إلى الدرجة التى يسلك السلوك الصحيح دون تفكير ، لأنه صدر من أعماق أخلاقية فى أصالة . هذا الكلام يعنى أننا لو أردنا حقا أن ننظف مدننا وقرانا وبلدنا ... فليس بترديد عبارات ما ، وتعليق ملصقات فى الشوارع وعلى المبانى ، وإسداء النصائح على شاشة التليفزيون بين الفقرات ، ورسوم ساخرة فى الصحف والمجلات ، وإنما بالاقتناع الحقيقى الأصيل عند الأفراد بأهمية النظافة . وهذا لايتأتى إلا إذا ضربنا فى الأعماق ، أى خاطبنا داخليات الإنسان ، خاصة فى بواكير الطفولة حيث تتكون الاتجاهات .

ولا يكفى مطلقا أن يعرف الفرد أهمية النظافة وأن يقتنع بهذه الأهمية ، ولكنه فى أعماقه كون عادات واتجاهات يصعب عليه لمجرد المعرفة والاقتناع أن يتخلص منها ، إذ إن غالبية الموظفين يعلمون أنهم يقبضون مرتباتهم لقاء واجبات ، عليهم القيام بها وبعضها مرتبط بخدمات الجماهير ... هم يعرفون هذه الخدمات والواجبات ومقتنعون بها ، ولكنهم سلبيون بمعنى أنهم يأخذون حقوقهم ولا يؤدون واجباتهم . لماذا هذا ؟

أشياء ما فى داخل الإنسان فيها عفن وعطن ، وكل الفساد الذى يستشرى مع الأيام ، والذى تؤكده الأحوال التى وصل إليها المجتمع من تسيب وفساد وانحلال أخلاقى من البعض ... والمصيبة أننا - فى غالبيتنا - نشكو ونحكى الحكايات ونروى الروايات ، ونتنهد ونتحسر ، والغالبية يعرفون وهم مقتنعون ولكنهم فى نفس الوقت هم على الأرض مفسدون ، وفى أداء الواجبات متسيبون ، وفى المطالبة بالحقوق ملحون . ربما كان أكثر الناس كلاما عن الفضيلة أشدهم إمعانا فى الرذيلة .

تربية الأعماق هى تربية الأخلاق التى تتحكم فى سلوك الفرد إزاء ربه خالقه ، ومع نفسه ، ومع غيره . إذا أطاع المخلوق خالقه ونفذ أحكامه وأوامره فهو مصلح لنفسه وأيضا محسن لغيره ... الدين المعاملة .

والقصد أن يتعامل الإنسان بوحى من ضميره وإحساساته الداخلية عن رضى كامل ، أى تخرج تصرفاته من أعماقه ، وتحقق وتطابق أعماله أقواله ، وتتنفذ وعوده فى استمرارية لاترتبط بمواقف معينة تحقق مصلحة ذاتية له مثلا ، وإنما هى موجودة فى سلوكه دائما ، حتى لو اصابه منها بعض الضرر .

إن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة ، وصلاح وإصلاح ملايين أفراد المجتمع يبدأ بفرد وبمجموعة صغيرة تؤثر فى الغير ، وتبدأ رحلة الأعماق فى خطواتها المتئدة فى إيمان الواثقين ، ورغبة المصلحين نحو تقدم منشود للمجتمع ، طال اشتياقه إلى أن يحقق مكانه تحت الشمس

استراتيجية

وقد يتضح الأمر فى جلاء يعبر عن رأى المؤلفين ، إذ نحن أمام تخيير استراتيجية معينة ، وصولا إلى صلاح الأفراد ومن ثم إلى تقدم المجتمع . وعندما نقول صلاح الأفراد فلا نعنى أن الكل محتاجون للإصلاح ، ولكن نعنى نتاج أعمال جزء من أفراد هذا المجتمع أساءت إليه إساءات بالغة . ونقصد هنا بالاستراتيجية ذلك المنطلق الذى ننطلق منه لعملية ما ، ونحن هنا أمام أمرين يمكن الاختيار من بينهما ، أو يمكن تنفيذهما معا ، وقد يكون فى هذا خير ... والله أعلم ، إذ ليس تحت أيدينا دراسات علمية يمكن الاستناد إليها .

والفكرة مؤداها إعادة تربية الراشدين بصورة ما ، وبأشكال ما . وبمناهج ما ، وبإجراءات ما ، حتى يمكن أن تنفذ سهام هذه التربية إلى أعماقهم ، ثم تتمثل فى سلوك جديد يسلكونه يتفق مع الأخلاق الواجبة لأفراد شعوب تروم وتتطلع إلى التقدم . وهذا اختيار .

أما الاختيار الثانى أو الاستراتيجية الثانية فمؤداه نظرة جديدة فى ثوريتها نحو تنشئة أطفال ما قبل المدرسة الابتدائية بالدرجة التى تكثف فيها الجهود لتضرب السهام فى أعماقهم ، فى هذه المرحلة الطفولية من أعمارهم ، مكونة الاتجاهات الأخلاقية المطلوبة ، حتى يصير الواحد منهم نموذجا يحتذى ... أى تكوين الطفل المعلم .

ويرى المؤلفان أن الموقف فى مجتمعنا يتطلب تضافر كل الجهود ، إذ أن الحريق يطفأ بماء عذب وماء كدر وبوسائل كيميائية أخرى . وعلينا أن نلهث وراء عمل مخطط مدروس بوعى علمى ، وأن نبعد عن تلك الشعارات الجوفاء التى أصبحت لاتغنى ولاتساوى ثمن الورق الذى تكتب عليه .

لاضرر ولا ضرار فى أن يسير الاختياران أو الاستراتيجيتان جنبا إلى جنب ، فإعادة تربية الراشدين ممكنة الحدوث وإن كانت إجراءاتها غاية فى التعقيد والصعوبة ، وتقف أمام نتائجها علامات استفهام لا حصر لها ، لكن المحاولة جديرة بأن يبذل فيها جهد ، وقد تحدث معجزة لاندرى كيف تحدث ولكننا نرجو أن تحدث .

أما الاختيار الثانى وهو يتناول أطفال ما قبل المدرسة ، فهذا موضوع كتابنا . وقد سبقتنا أمم أخرى فى هذا المضمار وكانت النتائج مشجعة ، وهذا ما يدعونا إلى المحاولة الجادة المخلصة على الرغم من :

١- اختلاف البيئات والثقافات بما فيها من مستويات اجتماعية وثقافية واقتصادية قد تلعب دورا لا نقلل من أهميته .

٢- وجود تشريعات ترتبط بسياسة الدولة العليا ، وهذا خارج نطاق قدرة المؤلفين ، ولكنهما يفكران - وهذا من حقهما - تفكيرا فى فلسفة واستراتيجية التربية لمجتمعنا .

مرة أخرى .. يكون التكرار لمزيد من التأكيد أن الاستعانة بخبرات مجتمعات أخرى مضت أو هى حاضرة فى تربية الراشدين والأطفال هو واجب لكل من يفكر تفكيرا علميا رصينا آخذا فى الاعتبار ظروف مجتمعنا ، وأن أفراد مجتمعنا لايقلون فى قدراتهم وإمكاناتهم عن غيرهم فى مجتمعات أخرى تقدمت فى ازدهار ، ولكنهم يحتاجون إلى التوجيه السليم . ولدينا مثال رائع فيما حدث فى ترميم قلعة صلاح الدين وانتهت مرحلته الأولى فى صيف ١٩٨٣ . التوجيه الرشيد فجر الإمكانات الكامنة عند بعض الشباب ... أعطيت لهم الفرصة فاستيقظت كنوز الثقة عندهم بعد نعاس طويل ، حجب شمس تطلعات الإسهام فى بناء المجتمع ، وانبثقت طاقات تحمل المسئولية فى لهفة ورجاء العمل طال شوقهم إليها ... أحس كل شاب وشابة منهم أنه يعمل فى جزء من أرض وطنه ، يعيد بناءه وترميمه بدلا من استجداء أعمال هزيلة فى

دول أجنبية مست كرامتهم وقللت من كبريائهم ما أحوج الكثير مما هو موجود في المجتمع إلى إعادة البناء والترميم والإصلاح .

ويرى المؤلفان أن في إعادة تربية الراشدين خيرا وهو أمر مطلوب ومرغوب فيه ولكنهما لايتطرقان إلى هذا الموضوع في كتابهما هذا ، وإنما همهما الأول والاساسي هو طفل ما قبل المدرسة .

وإلى محاولة بناءة لأعماق هذا الطفل ننطلق مع القارىء ...

كيف يمكن أن ننشىء أطفال الاجيال القادمة على الحياة في المجتمع ، وتجرى في عروقهم دماء الانتماء والولاء لهذا المجتمع ... متشربين بكل الصدق معنى الواجب والمسئولية والعمل للغير والبعد عن الأنانية والفردية ؟ لابد إذن من سياحة بناءة إلى أعماق هؤلاء الأطفال في محاولة لتكوين الانتماء والولاء للبناء .

هذا رجاء والله المستعان .

إذ إن هذه التربية الممتدة إلى غور الأعماق لتكوين الأخلاق في أصولها الحقيقية والبناءة للفرد كفرد وكمسهم مع غيره في بناء مجتمعه ورفاهيته إنما تعني بالدرجة الأولى أن هذا الأساس الرصين ، هو المفجر الحقيقي لعناية الفرد بكل ما يرتبط به وبغيره (المقصود بما يرتبط به أي ما يفيد صحته . وما ينمي جسمه مطيعا لأوامر ربه المنزلة ونصائح الراشدين الحكيمة التي تعرف أكبر مما يعرف هو . وهذا ما نطلق عليه اسم التربية الجسمية . ثم هو مستجيب - في رضى وقناعة - للتوجيهات التي توجه إليه من الكبار في شتى أنواع التصرفات الاجتماعية ، ومحسن سلوكه إزاء المواقف التي سيتعرض لها ، ومتلق إجابات مقبولة عن تساؤلاته المعرفية ، ومستجيب لما يتعرض له من مثيرات تنمي قدراته العقلية التي ينظمها له الكبار الفاهمون لدورهم في تربية الصغار .

والقصد هنا واضح قد لايحتاج إلى تفسير ، فعندما ينشأ الطفل من أعماقه على أسس خلقية رصينة فى أصالتها احترام الكبار وأولى الأمر ، فى هذه المرحلة الغضة من العمر ، فتنبثق ينابيع مؤدية فى سريانها إلى تنمية جسمية وعقلية واجتماعية ووجدانية مقبولة .

إذ لاخير يرجى فى محاولات ومحاولات طويلة شاقة لإثناء أطفال عن سلوك غذائى غير مرغوب فيه ، وهم معاندون لأنهم لم يربوا فى داخليتهم على الاحترام والانصياع لرأى وأوامر من هم أكبر منهم ويرومون مصلحتهم .

ولا جدوى مطلقا من محاولات كثيرة لأن يحب الطفل غيره من الأطفال ، وأن يشاركهم فى العمل ولا يستأثر به وحده ، ولا يكون أنانيا محبا لنفسه وذاته ناسيا غيره ، طالما أن أعماقه لم تنفذ إليها السهام الواجبة . حتى أن المشاهد فى أحايين كثيرة عدم جدوى العقوبة البدنية التى تقع على الأطفال المشاغبين ، وعن السلوك السليم مارقون ، وعلى سلطة الكبار متمردون وللأوامر رافضون ... ربما كان العقاب البدنى مثيرا أكثر للرفض والتمرد لأن وهج وشعلة التأصل فى الأعماق غير موجودين ... والعيب فينا نحن الكبار .

والتربية هى عملية بناء الأخلاق ، وأساسا فى الأعماق .

هذا المجتمع النامى !

نحن فى مجتمع ما قبل التصنيع ... وكفانا كثرة الحديث عن قيمنا الروحية وقيم الغرب المادية ..

والحقيقة أن قيمنا الروحية قليلة وتقدمنا المادى أقل ...

طبول جوفاء وتصريحات تطالعنا بها الجرائد وأجهزة الإعلام ... ونتحدى ... نفتح أية جريدة فى أى يوم تخلو من جرائم الموظفين العموميين ، ومن السلبيات ...

ومن التصريحات ومن الوعود الكثيرة جدا ... وكلنا نشكو ونشكو ... وهذا دخان في الهواء .... أما العمل البناء فقليل شحيح صادر من بعض النفوس المخلصة المؤمنة والمنتمية في ولاء للوطن ... والذى أعطانا الكثير ، وأعطيناه أقل القليل .

إذ إن الشعار هو (أنا .... وحدى فقط) .

لابد لنا من الاعتراف بأن تغييرات كثيرة قد طرأت على المجتمع وظروف الحياة فيه ، ومجتمعنا تجاوزا نطلق عليه اسم مجتمع نام ، أي يحاول أن ينمو ، أو في طريق النمو قياسا إلى مجتمعات أخرى نمت بالفعل ، وربما تجاوزت هذه المرحلة إلى أخرى أكثر تقدما .

ولابد لنا من الاعتراف بأن الطفل ككائن بشرى عليه أن يكون متصلا دواما بالكبار وبالصغار ، حتى يمكن أن يكون إنسانا يحيا لا مجرد أن يعيش في المجتمع . وإذا كان هذا الاتصال ضروريا ولازما فسوف تقفز إلى الشفاه مجموعة تساؤلات ترتبط بنوع وكم وكيف هذا الاتصال . وقد تتحكم الظروف الاجتماعية وربما أيضا الاقتصادية فتحدد إمكانات هذا الاتصال الاجتماعي ، وفرص حدوث عدوى اجتماعية مرغوب فيها ، فمثلا قد يكون الوالدان غير متعلمين ، ويكون الطفل واحدا بين عدد من إخوة وأخوات له ، والأم مطحونة في أعمال البيت ، أو في مساعدة على كسب الرزق وتدبير مال المنزل ، والأب غارق في عمله وجهله ، وربما شحيح في ماله ، قليل الصلة بطفله .

وقد تظهر الصورة شاحبة هزيلة في بؤسها ، ولكنها حقيقة حياة ملايين من الأسر التي ينمو أطفالها وغالبا ما تتكون لديهم اتجاهات وعادات وقيم هي غير المطلوبة لمجتمع عليه أن يسابق الزمن ، متخطيا سنى التخلف إلى بدايات طفيفة للتقدم.

والسؤال الذى يفرض نفسه : هل الفقر هو سبب عدم تكوين قيم خلقية نبيلة عند الأطفال ؟ أم أنه الجهل ؟ أم أنهما معا ؟ أم أن لا هذا ولا ذاك ؟ .

ليست تحت أيدينا نتائج دراسات علمية يعتد بها ، حيث يمكن أن نعتمد عليها فى إجابة واضحة ، ولكن الشواهد الشخصية (إذا جاز لنا الأخذ بها علميا) تبين أن بين أفراد أسر فقيرة ينشأ أطفال متحلون بقيم أخلاقية نبيلة ، ونسمع ونقرأ عن شباب نشأ فى بيئات غنية ومتعلمة وهو فاسد فى أخلاقه . ولا يمكن إجراء عملية تعميم أو إصدار أحكام بهذا الشأن ، ولكن يظل الفرض قائما بأن تعرض الأطفال فى طفولتهم إلى مثيرات ومؤثرات خلقية حازمة قمين بأن ينشئهم نشأة ذات قيم يتطلع إليها المجتمع بكل الشوق . والفرض كما هو واضح مركب من مجموعة قضايا ، قد يحلو للبعض أن يجادل فيها قبل أن يجادل فى الفرض ذاته ، وهذا حق كما أن من حق المؤلفين وضع هذا الفرض ، مذكرين أنه ليس مسلمة .

ولابد لنا إذن من أن نوجه أنظارنا قبل بيئة تعد وتجهز ليحيا فيها أطفال ما قبل المدرسة حتى يهيأوا لما نطلق عليه التعليم الابتدائى أو الحلقة الأولى من التعليم الأساسى أو أية أسماء أخرى . ومن الغريب أنه كان بمصر فى وقت مضى نوع من (التعليم) تلقاه أطفال فى سن الرابعة والخامسة والسادسة ، وهيئوا لدخول المدرسة الابتدائية التى فتحت أبوابها فى ذلك الوقت لسن السابعة . وكان هذا صالحا وقتئذ ، أملته ظروف معينة أوجدت المدارس الأولية والكتاتيب ، وفى بيئات معينة أوجدت رياض الأطفال . لكن هذا تاريخ ومضى ، وصار عندنا تعليم ابتدائى ابتداء من سن السادسة .

لماذا تدق الأجراس ؟

قبل أفراد الشعب منذ سنوات مضت اختراع مكاتب التنسيق ، وعملها توزيع خريجي الثانوية العامة على الجامعات والكليات . وأصبحت أخبار هذه المكاتب التنسيقية تحتل مكانة مرموقة ومنتظرة ومطلوبة في وسائل الإعلام . وقبل هذا لأنه قيل ليس في الإمكان أبدع مما كان . لكن ما يثير دهشتنا حقا أن تكون هناك مكاتب تنسيق لدخول الأطفال في دور الحضانة أو رياض الأطفال أو مدارس اللغات ... وتألمت اشتراكية التعليم باكية . وما كان عليها أن تبكي ولا تتألم ، فما زالت الأجراس في المدارس الابتدائية تدق ، ويدخل المدرسون الفصول التي امتلأت عن آخرها بمن عليهم أن يتعلموا ، ولكن لاندري بالضبط هل تحدث عملية تعليم ... وإن كنا ندري كثيرا من الشيء عما يحدث داخل تلك الفصول في الفترة بين دق الجرس إيذانا بابتداء ودقه مرة أخرى إيذانا بانتهاء ... وطوال اليوم تدق الأجراس كأنما هناك شيء يحدث فعلا ، أو لتقول لنا أن تربية ما واقعة بدليل هذا الانتظام في الدق ...

ويدق جرس الباب في بيت ما ، ويدخل طفل أو تلميذ أو طالب يتلقى درسا خصوصيا ، أو يدخل مدرس يلقي درسا خصوصيا ، وهذا اعتراف صريح بأن العملية التربوية التعليمية التي تدق لها الأجراس في المدرسة غير كافية بالمرة .

والفرق بين صوتي الجرسين واضح ، فأحدهما خفيف لطيف ذو رنة جميلة . وهو ضعيف في صوته ، والآخر جبار مدو وصوته جهوري يصم الآذان والغريب أن صاحب الصوت الخافت له الأثر الواضح والفعالية في الجانب المعرفي في العملية التربوية . إذ أظهر الجرس الصغير قدرة المدرس التي لم تظهر بالصورة المطلوبة . وأمامه عدد من الأطفال في حجرة ضاقت بهم ينال الواحد منهم جزءا من أربعين أو خمسين مما يناله طفل الدرس الخصوصي

لكن على اشتراكية التعليم ألا تتألم وألا تبكى فكل شىء بخير طالما الأجراس تدق ، وطالما أيام العام الدراسى تنكمش فى خجل تاركة الأطفال إلى الطريق والرفاق أكثر من نصف العام الذى هو أثنا عشر شهرا .

لكن الأطفال فى المدرسة الابتدائية ينقلون من صف دراسى إلى آخر وإلى آخر ، وبعضهم لايعرف بعد كيف يكتب اسمه ، وبعضهم إذا ترك المدرسة ارتد إلى الأمية ، ثم لايذكر عن تلك السنوات إلا ربما دق الأجراس التى أحست وهى من حديد صلب أنها كانت فى زمان مضى ... كانت ... أما اليوم فهى تؤدى عملا رتيبا متسائلة : ولماذا أدق ؟ ولكن عليها أن تدق .

الاهتمام الواضح فى المدرسة الابتدائية هو فى صف الجانب المعرفى من العملية التربوية ، ونحن لانقلل مطلقا من هذه الأهمية ، ولكن نؤكد أن العملية التربوية أجل وأسمى وأعمق فى أهدافها من مجرد تلقين المتعلمين بعض المعلومات وجلوسهم أحيانا لامتحانات ، وأمام نتائجها مجموعة تساؤلات ، وربما يمتحن الأطفال فى الأخلاق وفى الدين ، وربما يغشون وهذا تأكيد بأن مجرد المعرفة لاتعنى السلوك . لكن المدرسين والمدرسات سمعوا الأجراس تدق فدخلوا الفصول ثم خرجوا ، ثم طويت أسابيع العام الدراسى وربما كانت النتيجة ٩٩٪ نجاح . نجاح فى أى شىء ؟ بأية وسيلة ؟ ولأى هدف؟ يؤمن المؤلفان بأن كل درس هو فى الأصل درس أخلاق أولا وأساسا ، ولكن كيف يتم ذلك فى مدارسنا الابتدائية وظروفها معروفة ؟ .

من الممكن أن تكون هناك تربية خلقية ممتدة من فترة سابقة ، نتناول فيها التعامل مع أعماق الأطفال بالمعنى الذى أشرنا إليها سابقا عن مفهوم التربية فى هذا الفصل . ولايجب أن نركن إلى مشجب نعلق عليه عدم النجاح فى التكوين الأخلاقى لأطفالنا ، وهو مشجب (الظروف الصعبة التى تعانى منها المدارس) .

عواصف الندم

تتضح الضرورة الملحة فى ضراوة شديدة لإعادة النظر جذريا فيما يدور فى مؤسسات تربية الطفل فى مرحلته الأولى قبل أن يدخل المدرسة الابتدائية لما يدور فى بعضها من فوضى تربوية ، وصلت إلى حد تكليف الأطفال بواجبات منزلية فى الحساب والكتابة مثلا . ونتساءل أين يذهب الطفل بعد حضوره رياض الأطفال ووصوله إلى سن السادسة ؟ ، سيلتحق بالصف الأول الابتدائى ويجلس مع غيره من الأطفال الذين لم يلتحقوا بالرياض . وفى هذا الصف يتعلم الأطفال مبادىء القراءة والكتابة والحساب. ماذا سيفعل خريجو رياض الأطفال ؟ إذا ساروا مع بقية أطفال الصف فسيكون الموقف مشحونا بالملل والضيق ... و ... و .... إلخ ، مما نحن فى غنى عنه .

هذا يعنى أن ما يدور حاليا فى رياض الأطفال يجب أن يخضع للتقييم العلمى، وبأسرع ما يمكن قبل أن تدهمنا عواصف الندم .

ومن حقنا أن ندلى برأينا فى هذه المسألة دون حساسيات أو انحيازات ، إلا من أجل خير الوطن ، والأمر إن ذكر الآن على أنه رأى نقتنع به اقتناعا كبيرا على المستوى النظرى .. فإنه يحتاج إلى بحوث علمية لتأكيده أو نفيه ، وربما كان هناك بديل يكون أكثر صلاحية . قبل أن ندلى برأينا فنذكر الآتى من التساؤلات :

- هل يحتاج القدر المقدم من المادة العلمية لأطفال المدرسة الابتدائية فى مصر (من سن ٦ إلى ١٢ سنة) إلى ست سنوات دراسية ، أم إلى أقل من هذه المدة ؟ قد تكون أربع أو خمس سنوات كافية .

- هذا التساؤل مرتبط بسابقه : ماذا يحدث لو تغيرت طرق التدريس وتنظيمات المنهج ومحتواه أيضا ؟ وماذا يكون الموقف لو طال العام الدراسى شهرا مثلا ؟

- أين هي التربية الخلقية بأجل وأعمق معانيها ، إذ أنها تتمثل في كل درس وفي كل نشاط ، وفي كل صغيرة وكبيرة داخل المدرسة ، وبين كل أفراد الأسرة المدرسية ؟ ... فقط درجنا على اعتبار المسألة منتهية عند دروس التربية الدينية . النتيجة كما نراها ونلمسها جميعا لاتحتاج إلى تعليق .

نحن لانتحدث من أبراج عاجية أو عالية ، بل إن أقدامنا مثبتة في صلابة على أرض الواقع الذي نعيشه ، واحتكاكنا الفعلي بالحقل التربوي رصين وممتد في اتساع سواء بالعمل فعلا ، أو بالدراسة محليا وخارجيا ، وقد أثرى كل ذلك بالمرور بخبرات العمل مع منظمات دولية وجامعات أجنبية عربية وغربية .

الاقتراح

نقترح أن يكرس الصف الأول الابتدائي لتربية أعماق الطفل ، أي تكوين القيم والاتجاهات والعادات التي تنشئه مواطنا خلقيا مؤثرا بإيجابية بناءة في مجتمعه .

ويرى المؤلفان أن تنفيذ هذا الاقتراح سوف يكون من شأنه تزويد الأطفال بقيم خلقية ، واتجاهات عقلية ، وعادات سلوكية تمكنهم من التعامل في المحيط المدرسي بدرجة أكثر ايجابية وتفاعلا ، بحيث يمكن لإدارة المدرسة الابتدائية أن تدمج ما يعطى في ست سنوات ليعطى في خمس سنوات فقط . والأمر المهم جدا هنا أن الطفل بعد السنة الأولى سوف يكون مستعدا للتقبل السريع للمعرفة والمهارات على المستويين النظري والعملي ، ومسلحا بالقيم والاتجاهات والعادات التي يتطلبها المجتمع منه .

وفي حالة تنفيذ هذا الاقتراح يكون الصف الأول بمثابة فترة ما قبل المدرسة الابتدائية ، وقد يرى البعض أن تضم هذه الفترة سن الخامسة والسادسة معا - هذه مجرد اقتراحات لأن السؤال مازال قائما وهو ... إذا كانت هناك رياض أطفال قبل

الدخول إلى المدرسة الابتدائية ويكون فيها - كما هو الحال الآن - تعليم لمبادىء القراءة والكتابة والحساب ، فماذا سيتعلم خريجو هذه الرياض فى الصف الأول الابتدائى ؟

نكاد نشم هنا رائحة العودة إلى ازدواجية التعليم فى المرحلة الأولى ، إذا أراد أولياء أمور خريجى رياض الأطفال أن يلتحق أبناؤهم ، وهم فى سن السادسة ، بمدارس أخرى أكثر تقدما ولها مناهج مختلفة عن المدارس التى هى موجودة حاليا . وهذا أمر لا نقبله ولا نشجعه حتى تتكافأ الفرص ويتساوى جميع الأطفال فيما يقدم لهم لتربيتهم على مستوى الدولة .

ولابد لنا أن نزور مجتمعات أخرى سبقتنا إلى التقدم [١] ، وسبقتنا إلى العناية بتربية الطفل قبل المدرسة لنرى ونفهم ماذا حدث ويحدث ، وقد نأخذ بعض ما عندهم إذا تمشى مع بيئتنا كما نأخذ منه الراديو والتليفزيون والسيارات والفيديو ، و ... إلخ حتى القمح الذى تصنع منه أرغفة الخبز .

ومع أن الاحتراس واجب إلا أننا يجب أن نعترف بأن الكائن البشرى فى مرحلة نمو فى أى مجتمع ما وأى عصر ما ، هو محصلة التكوينات الوراثية والبيئية التى تؤثر فيه وله مطالب نمو معروفة . والملاحظ أن السنوات الأخيرة تشهد اهتماما ملحوظا بتهيئة البيئة المناسبة التى يتحتم أن ينمو فيها الطفل ، وفى هذا خير وفير ، إذ أن الكبار بوسعهم أن يتحكموا فى المؤثرات البيئية ، أما عن المؤثرات الوراثية فالأمر مختلف تماما . وسوف نرى - فى سياحتنا شرقا وغربا فى شىء من العجالة تتناسب مع حجم هذا الكتاب - كيف أن الاهتمام غزير كثير بالبيئات التى يتفاعل معها الطفل وهى البيت والمدرسة والمجتمع . وسوف يكون تأكيدنا الأساسى على دور المدرسة فى تربية الطفل فى الفترة الزمنية التى يتعرض لها هذا الكتاب ، هذا مع تأكيدنا على الدور المهم الذى تقوم به الأسرة خلال هذه الفترة من عمر الطفل وفيما قبلها ومابعدها.

---

(١) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب .

كما أننا سنلمس مع بعضنا البعض الآخر التأكيد البارز على عملية التنشئة الاجتماعية ، ونعنى بها العلاقات بين الطفل وغيره من الأحياء والأشياء ، إذ وجد أن لهذه التنشئة آثارا متغلغلة فى مسار حياة الفرد فيما بعد . ولعلنا بادىء ذى بدء نطلق السهام غائرة إلى منابع السلوك الذى يظهر فى تصرفات أفراد المجتمع فى بلوغهم ومراهقتهم ورشدهم وتمام نموهم . وقد ينبرى البعض مؤكدا إمكان تعديل سلوك الكبار إما بوسائل الترغيب أو الترهيب ، بالثواب أو العقاب . ونحن لانستبعد هذه الإمكانية. ولكن لانتعجل فنصدق حكما بالموافقة عليها . وقد يكون من الخير ذى المفعول المرتقب أن نتوجه إلى اعماق الأطفال فى محاولات مرتبة ومنظمة لتربيتهم فى مرحلة من العمر تستجيب لهذه التربية .

على أن هذه التربية تتطلب بالضرورة تعاونا مع البيت وبالذات الوالدين والإخوة حتى لايكون هناك تصادم غير مرغوب بين ما يتم فى المدرسة وما يحدث فى البيت . وقد يكون من المفيد حينئذ أن يتضمن تنفيذ استراتيجية تربية الطفل قبل المدرسة التوجيهات والتنبيهات اللازم ، والالمام بها من جهة المحيطين بالطفل والمتفاعلين معه فى البيئة المنزلية .

قبس من الأصالة

تدارس معنا هذه الآيات البينات فى شىء من التمعن ، ملقيا أهمية على الجوانب المادية والجوانب المعنوية .

فى حديث لفضيلة الشيخ متولى الشعراوى للأستاذ أحمد زين نشر بجريدة الأخبار بتاريخ ١٩٨٣/٨/١٢ فى صفحة ١٢ تحت عنوان (حمدا لله) .... إن قول الله (الحمد لله رب العالمين) فى فاتحة الكتاب ... جاء بالصفة العامة لله وهى (الربوبية) التى تقتضى الإيجاد من عدم .. والهداية بالقيم ... إن الإنسان إذا أراد

أن يربى ولده ... فإنه لايربيه بالطعام والمسكن والملبس فقط .. ولكن لابد من أن يعطى الأب ابنه قيما إخلاقية .

إذا كان ذلك هو ما يحدث على مستوى علاقة الإنسان بابنه الإنسان ... فما بالنا . ولله المثل الأعلى ... أنه الرب الحقيقى الذى يمد الإنسان بالمادة ... ويمد الإنسان بالقيم .

وكلمة رب العالمين ... كما قلنا .. تفيد أن الله مرب ... وما دام الله مربيا ... فإن تربيته للإنسان تأخذ شكل الإمداد بالمادة وبالقيم .. ويفضل الله ذلك الأمر فى استهلال بعض سور القرآن الكريم بالأمر المادى ... وخص الله أيضا الأمر القيم اللازم لتربية الإنسان فى استهلال بعض السور الأخرى .

فمثلا : يقول الحق فى سورة الانعام :

(الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) .

هذا حمد على أمور مادية هى السماوات والأرض ... والظلام والنور ... لينتفع بها الإنسان وفق مشيئة الله .. ومع ذلك يشترك فى هذه النعم الجليلة المؤمن والكافر .. لكن المؤمن يتميز على الكافر بأنه يعرف فضل الله .. لذلك يحمده .. حمدا على أمور ونعم مادية .. وبعد ذلك نجد فى سورة الكهف .. حمدا لله على القيم وحدها ... فيقول جل وعلا **(الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب .. ولم يجعل له عوجا)** .

فإذا قارنا بين الحمد فى سورة الانعام .. والحمد فى سورة الكهف .. فلسوف نجد أن الحمد فى سورة الانعام هو حمد على نعم مادية ، بينما نجد أن الحمد فى سورة الكهف هو حمد على أمور قيمة معنوية .. هى الهداية بالقرآن الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس فى هذا الكتاب شىء من الانحراف عن الصواب ... بل كل ما فيه حق لاريب فيه .

وها نحن أولاء نجد الحمد يختلف أسلوبه فى سورة فاطر .. **(الحمد لله فاطر السماوات والأرض .. جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء ... إن الله على كل شىء قدير)** .

إن الله يصور لنا الحمد هنا بشكل يجمع بين المسائل المادية والمسائل المعنوية .. نحن نحمد الله على خلقه السماوات والأرض ليكون الإنسان خليفة فى ملكوت الله .

ونحمد الله أيضا على أنه خلق الغيب الذى لانراه .. الملائكة الرسل التى يصورها الله كما يشاء .. ويكون الحمد لله فى نفس سورة فاطر نوعا من الشفاء النفسى بالايمان .. فيأتى الحمد لله على لسان المؤمنين :

(الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن ، إن ربنا لغفور شكور ...) .

واضح من هذا الحديث الشيق العميق أن أمور التربية تضم جوانب مادية وأخرى معنوية يكمل جانب منها بالجانب الآخر فى تكامل ينشىء الطفل التنشئة المطلوبة . وفى تراثنا فيض معقول تناول بايمان أصول تربية الطفل ، وسوف نحاول أن نتلمس أطرافا من هذا التراث كأمثلة قد تنير لنا بعض الطريق ، آخذين فى الاعتبار ظروف المجتمع الإسلامى الماضى .. ولكن الأمر المهم ما تحويه هذه النبذ من اتجاهات نحو تربية الأطفال . كما نأخذ فى الاعتبار أيضا أن أمور التربية والبحث فيها ينطبق عليها ما ينطبق على العلوم الإنسانية إذ هى واحدة منها ، ولذلك تختلف بطبيعتها عن العلوم الطبيعية التى تبحث فى مسائل ذات طبيعة تختلف من حيث إنها تستمد مادتها من عناصر مادية ومحسوسة ، ويمكن ملاحظتها وفحصها والتحكم فى طرائق تركيبها وعملها مثل موضوعات الضوء والكهرباء والمغناطيسية والجاذبية ... إلخ [1] .

---

(١) محمود قمبر ، ذاتية الطفل والنظرية التربوية فى الإسلام ، مركز البحوث التربوية ، جامعة قطر، الدوحة ، ١٩٨٣ ، ص ٧ - ٨ .

ومن نفس المصدر الذى يتحدث عن النظرية التربوية فى الإسلام يقول الكاتب ... «لم تصل إلينا هذه النظرية فى بنية فكرية كاملة بذاتها اصطلح عليها المربون ، ويمكن نسبتها إلى مصدر واحد ، أو إلى مفكر تربوى معروف ، أو إلى منظر فلسفى بشر بها وروج لها ، أو إلى هيئة تربوية اشتغلت بها ... لقد جاءت إلينا فى شكل معان أولية مستلهمة من كتاب الله وسنة رسوله ، وقد وقف أمامها نفر من العلماء المسلمين بالبحث والنظر فحولها إلى مفاهيم متوافقة ومتآلفة، تكون فيما بينها مبادىء النظرية التربوية الخاصة بتربية الطفل المسلم . فهى إذن نظرية عامة تمثل جملة الأفكار الشائعة التى زكاها الدين والعقل والخبرة الإنسانية حيث تواترت بصحتها مواقف المربين، وكانت عندهم فى موضوع اهتمامهم على اختلاف عصورهم وبيئاتهم ومذاهبهم» .

ويستطرد الكاتب شرحه لأصول هذه النظرية قائلا «ولسنا نقلل من قيمة هؤلاء المفكرين والمربين إذا قررنا أنهم لم يسبقوا إلى وضع نظريات مبتكرة وجديدة ، سمع بها العالم لأول مرة كأفكار وحقائق . إن التربويين المسلمين الذين عقلوا نصوص الوحى ، وبحثوا عن الحكمة فى كل مكان ، تملكوا نظريات واستخدموها ، وربما استمدوا ما يدعم أصولها من ثقافات أجنبية ، لكنهم أخذوا وأضافوا ، نقدوا وحللوا ، وفق فلسفة دينية حضارية آمنوا بها ومشوا مع تعاليمها ، فكانت فى النهاية نظرية إسلامية لحما ودما ، فكرا ومنهجا» .

وقد حث الإسلام على العلم والتعليم ، فقد وردت إلينا أحاديث نبوية شريفة، تؤكد حرص الإسلام على الاهتمام بتعليم الابناء منذ الطفولة ومنها :

قال صلى الله عليه وسلم «لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع على المساكين» .

وقال كذلك «الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم» .

وقال عليه الصلاة والسلام «لا يلقى الله أحد بذنب أعظم من جهالة أهله» .

وقد عرف من المصادر التاريخية أن الأطفال كانوا يتعلمون أول الأمر فى المساجد ، ثم نهى عن هذا وفتحت لهم كتاتيب ، حيث إنه كان من عادة الأطفال العبث بجدران المساجد بالكتابة أو نحو ذلك مما هو متواتر عن سلوك الأطفال كالجرى والقفز والاستمتاع بحرية فى الحركة . وقد اعترفت المجتمعات الإسلامية بحاجات الطفل هذه فلم تعمل على كبتها أو منعها ، بل أطلقت للأطفال هذه الحرية الحركية ، وكان الآباء يأخذون أبناءهم الصغار إلى أماكن فيها مرح وغناء ولعب ولهو برىء فى الأعياد والأفراح . وكانت لهم ألعابهم الخاصة بهم فى الشارع مستخدمين الحجارة والرمال وسعف النخل وربما اندمجوا فى بعض المسابقات . وهذا ما كانت تمنحه ظروف البيئة وإمكاناتها فى ذلك الوقت من التاريخ . ولكن الأمر المهم هنا اعتراف التربية فى تلك المجتمعات الإسلامية بحرية الأطفال فى الحركة واللعب واللهو البرىء .

وليس من قبيل المقارنة أن ترسم صورة كتابية عما ورد إلينا من تقرير عن التعليم فى دار حضانة بإنجلترا فى عام ١٩٠٥ جاء فيه .. حشر ما يربو على مائة طفل فى حجرة كبيرة وقد جلسوا على ألواح من الخشب وتدلت سيقانهم ، معلقة بين اللوح وأرض الحجرة ، وانتصبت ظهورهم لاتستطيع الانثناء إلى الأمام أو الميل إلى الخلف ، إذ إن هذه الألواح لم تكن لها ظهور يستند إليها الأطفال . جلس الأطفال وهم مكتوفو الأيدى حتى لايكون هناك طفل عابث يحرك ذراعه يمنة أو يسرى ، وحتى تكون العيون شاخصة إلى المدرسة المتجهمة الماثلة أمامهم ، وهى تنطق حرفا مشيرة إلى سبورة عليها رسم الحرف ويكرر الأطفال اسم الحرف . وقد عدت كاتبة هذا التقرير مرات التكرار فبلغت لحرف واحد مائة وعشرين تكرارا ، والأذرع مطوية على الصدور، ولايستطيع طفل أن يغافل المدرسة فيشذ عن هذه القاعدة أو يعصى أوامرها التى تطلبت النظام الصارم ، ومنه وضع الطفل على ذلك اللوح . وكانت نوافذ الحجرة عالية

جدا حتى لايرى الطفل ما يدور بخارجها ، مما يشتت انتباهه ويلهيه ربما الحظات عن هذا التكرار والتكرار .... » [1] .

وكان هؤلاء الأطفال فى الثالثة من أعمارهم !!

قلنا إننا لسنا فى معرض المقارنة وإلا كثر الكلام ، فقد جلس الأطفال فى الكتاتيب وفى نفس السن والتاريخ ، جلسوا مفترشين الأرض على حصير يكاد يبلى من كثرة الاستعمال ، وفى نفس الوقت عرف أطفال آخرون المقاعد الملائمة والمعاملة الإنسانية سواء فى الغرب أو فى مجتمعات إسلامية ، شهدت تقدما ملموسا كما حدث فى مصر فى القرن التاسع عشر .

وعن تربية الطفل فقد كان هناك إجماع فى المجتمعات الإسلامية - فى العصور الوسطى - على ضرورة الاهتمام بالتعليم فى الطفولة ، حتى يبدأ فى تكوين الطفل قبل أن تتمكن منه الاهواء والشهوات كما ذكر ابن خلدون فى مقدمته ، مضيفا أنّ هذا التعليم من شأنه إذا تم فى أصاغر العمر يكون أشد رسوخا .

وذكر بعض المراجع العربية الإسلامية أنه كان للأسرة دور ملحوظ فيما نطلق عليه اليوم تعبير التنشئة الاجتماعية حيث كان الحرص واضحا ومؤكدا على إكساب الطفل العادات التى تتطلبها التربية السليمة لمجتمع إسلامى ، يستمد أوامره من أحكام الدين الحنيف . فنقرأ عن عادات مرتبطة بسلوك الطفل فى تناول الطعام والتعامل مع غيرهم سواء من الأقارب أو غيرهم ، وكيفية الحديث وآدابه والاستماع واحترام كلام الآخرين كبارا كانوا أم صغارا . وننتظر أن تكون هذه التوجيهات الأسرية متناسقة ومتفقة بين مختلف الأسر ، حيث إن المصدر واحد والمعايير المطلوبة للسلوك

(1) Board of Education, Report of Children Under Five Years of Age in Public Elementary Schools by Women Inspectors, Parliamentary Papers, 1905. In. M. Huges et al, Op. Cit. pp. 209-210 .

من المجتمع متفق عليها . ولذلك كانت التربية فى تلك المجتمعات الإسلامية مؤدية إلى تحقيق أهداف واضحة ، والوصول إليها ممكن طالما هيئت الإمكانات اللازمة .

ومن الملاحظ تأكيد التربية فى المجتمعات الإسلامية على الفضيلة التى يجب أن يعتاد الأطفال فى بواكير الطفولة فهمها وهضمها وامتصاصها حتى تتبلور فى سلوك أخلاقى مرغوب فيه .

قال النبى عليه الصلاة والسلام «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .

وقال شوقى :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

* * *

لن يكون هناك تقدم لمجتمع إلا إذا تحلى أفراده بالأخلاق القويمة ، وكان سلوكهم نابعا منها فى السر والعلانية عند الفرد وعند الجماعة .

أجيال ومسئوليات

كيف نحكم على مستقبل مجتمع ما ؟ كيف يمكن التنبؤ بصدق بمدى نجاح هذا المجتمع فى استمرارية ازدهاره وتحقيقه لأهدافه فى رفاهية أفراده ومجموعاته ؟ يعتمد بعض العلماء فى الإجابة عن السؤالين السابقين على عدة مؤشرات أو محكات منها : نمو معدلات الإنتاج القومى ، تنظيم النسل ومعدلات المجتمع ، مدى الالتزام بتنفيذ الواجبات المنوطة بالمواطنين ، بيانات عن الأحوال الصحية والجسمية والنفسية لأفراد المجتمع ... إلخ . ومع اعترافنا بأهمية كل هذه المحكات والمؤشرات وضرورتها ، ونحن فى نطاق نظرة مستقبلية لمجتمعنا ، نعتمد على ما يمكن أن يتطور إليه حاضرنا ، نرى أن مؤشرا مهما يلح فى أن يحتل مكان الصدارة وهو :

«مدى إيمان جيل ما بأنه مسئول عن الجيل الذى يليه» بمعنى أن جيلا يزرع أشجارا ستكبر بعد سنوات وتؤتى أكلها بعد حين ليستفيد بها جيل لاحق ، وهذا الجيل اللاحق لن يكتفى بجنى الثمرات ولكن عليه أن يزرع أشجارا . إذن فالجيل المربى حقيقيا هو الذى يبنى لمستقبل مجتمعه ، ويكمل مسيرة جيل سابق له ، وفى هذا أخذ وعطاء ، والتنشئة تؤكد على الاثنين ، كما يأخذ الفرد عليه أن يعطى ، وكما أن له حقوقا ، عليه واجبات .

ولكى يتم هذا الإيمان السابق ذكره فيجب أن يحيا الطفل ويحييه مرشدوه فى بيئة ، تتيح لقدراته التى وهبها الله عز وجل له لتفصح عن ذواتها فى الخير المرموق والنمو المأمول فى سلامته وصحته .

إذن .. فإن حكمنا على مستقبل مجتمع ما يتوقف على مدى ما يهيأ لأطفال جيله فى اللحظة الراهنة أو الحاضرة من فرص التكوين الأخلاقى والمعرفى والوجدانى والجسمى ، وهذه كلها تؤهله فى المستقبل للحفاظ على ثقافة المجتمع وتنميتها بكل الوعى الصادق والعمل النشط الفعال ، مستظلا بالتنفيذ الجاد العميق للقوانين الدينية والوضعية ، والتى تؤكد فى صرامة اتجاهات مطلوبة كالتعاون والمشاركة الفعالة والبعد عن الأنانية ...

يحلو للبعض أن يعود بالذاكرة إلى الماضى - التاريخ - ويستجلب منه قصصا وأمثلة يرونها حقيقة قد وقعت ومن ثم أثمرت أعمالا عظيمة . كما يستدعون إلى الذاكرة قصصا وأمثلة أخرى ، يدللون بها على أسباب انهيار حضارات وتدهور أحوال شعوب . وهم يتحدثون عن الازدهار والانحلال ... عن النجاح وعن الفشل .. عن التقدم وعن التخلف .

ويقف الإنسان دائما سيد المواقف وباعثها والمتصرف إزاءها . فالمجتمعات تنمو أو تنحط بأفرادها ، وهم أيضا الذين يكونون الثقافات . وإذا قبلنا تعريف الثقافة بأنها ذلك الكل الذى يتكون من جوانب مادية وأخرى معنوية فى مكان ما وزمن ما ، فإن ذلك يعنى أن ثقافة مجتمع ما تضم مختلف إنجازات وأعمال الأفراد كالمبانى مثل دور العبادة والمدارس والمتاحف ووسائل المواصلات .. الملابس ، إلخ ... كما تضم القيم والاتجاهات والعادات السائدة بين الأفراد . وتختلف الثقافة من مجتمع لآخر ، ومن زمن لآخر ... ولكل مجتمع ظروفه وإمكاناته التى تؤثر فى تكوين ثقافته .

وإذا قبلنا القول بإن الإنسان هو صانع ثقافته ، فيمكن القول بأنه هو صانع التقدم أو المتسبب والمؤدى إلى التخلف . وتؤثر على سلوك هذا الإنسان عوامل كثيرة تبدأ مع بواكير الطفولة فى تصاعد مع سنى عمره . وقد تؤدى بعض هذه العوامل إلى نمو ، أى تقدم . أو إلى نكوص ، أى تخلف ، مع مراعاة أن كل مفهوم يدرك بصورة متفاوتة عند مختلف الأفراد . فالمسألة نسبية .

والتقدم هو الانتقال أو التطور التدريجى الشامل لثقافة ما من حالة إلى أخرى أفضل منها . والتأكيد هنا يتضح فى مجموعة نقاط :

١- حدوث عمليات تحسن فى جوانب الثقافة المختلفة .

٢- وإن هذا التحسن يتم تدريجيا .

٣- إنه يتناول الأشياء المادية والمعنوية على السواء ، علما بأن هناك قيما روحية لها صفات الثبوت ، إذ هى صالحة لكل الأزمنة والأمكنة .

٤- إن الإنسان هو الذى يتسبب فى هذه الحالة التطورية إلى الأفضل .

وسوف نعالج هذه النقاط الأربع فى شيء من التكامل ، إذ إن التداخل بين كل نقطة وأخرى واضح جلى . قد يمكن لأى مجتمع أن يعزز ثقافته بآخر ما توصلت إليه

ثقافات أخرى من اختراعات . وهذا ممكن طالما أن الظروف الاقتصادية تسمح بذلك ، فقد تستورد هذه الثقافة بعض مظاهر التكنولوجيا مثل السيارات بأشكال وألوان ومحركات وطرز تتباهى بها . ولكن كيف يتعامل إنسان هذه الثقافة المستورد مع هذه الآلات وهو حديث العهد بها ، أضفت عليه زخرفا ولكنه فى أحايين كثيرة لايستطيع أن يتخلص من اتجاهات تكونت لديه منذ سنوات ، وقد لا تتناسب مع مفهوم السيارة فى مجتمع متقدم ، نعنى مثلا أن يسابق بها الريح كأنما هو يركب حصانا فى صحراء لاتوجد فيها قوانين مرور بالطبع . وقد تستورد ثقافة مصانع ضخمة ، وترسل أعدادا من المهندسين ليتدربوا على هذه الأجهزة الحديثة فى الثقافة التى أنتجتها . سهل أن يتدرب الفرد ، وقد يكون سريعا فى اكتسابه مهارات يدوية مطلوبة ، ولكن الأمر الصعب يتصل بالقوى البشرية التى ستشغل هذه المصانع ، والتى تعيش باتجاهات ثقافة ما قبل التصنيع ، وكان المفروض أن تتحول اتجاهاتهم إلى أخرى يمكنها أن تتفهم معنى التصنيع . إذ من الصعب أن يقام مصنع ضخم فى قرية ما ليعمل به فلاحون تركوا الحقول ليتعاملوا مع كهرباء ومازوت وتروس ... إلخ . فالملاحظ أن الفلاح يميل إلى العمل الممتد على فترات زمنية طويلة ويحب الاسترخاء ، وربما إغفاءة بعد الظهيرة تحت شجرة وارفة ، ولكن من الصعب عليه أن يعمل طبقا لمواعيد محددة من حضور وانصراف وفترة راحة موقوتة . ثم إن الفلاح إذا عمل مع غيره فعددهم قليل غالبا من الأسرة أو زملائه فى القرية ، وهو يتعامل غالبا مع بعض الحيوانات التى تعمل فى الحقل. أما فى المصنع فالأمر مختلف فى عمل الجماعة ، وفى العلاقة أثناء دوران الآلات وفى اليقظة المتنبهة دائما طوال الوقت . ومع ذلك فيمكن للفلاح أن يتكيف مع المواقف الصناعية الجديدة وإن كان ذلك يتطلب ثلاثة أمور :

١- وجود قيادة واعية لتوجيهه وتدريبه ، مدركة للابعاد الحقيقية لإحداث عملية التغيير عند الإنسان .

٢- احتياج الأمر إلى فترة زمنية ليست قصيرة حتى تتكون اتجاهات لدى الأفراد تتناسب مع الموقف الجديد .

٣- يتطلب الأمر أن تتغير حياة الفرد فى القرية تغييرات ، تختلف عن حياته أيام كان يفلح ويزرع الأرض ويجنى المحصول .

كل هذا يدفعنا إلى التأكيد على أن إحداث تقدم فى مجتمع ما فى ثقافة ما يتطلب أكثر من تواجد الجوانب المادية فى ذلك المجتمع ، إذ كما قلنا فإن أمر تيسيرها سهل ، طالما توافرت ظروف اقتصادية مساعدة . إنما الأمر المهم هو تلك الجوانب المعنوية التى تحرك سلوك الأفراد وهى القيم والاتجاهات والعادات ، وهى التى يمكن أن تحسن الإنتاج أو تضعفه ، تحترم الآلة ، تصونها أو تفسدها ... .

إذن فالإنسان هو ركيزة التقدم .

والتقدم كما بينا هو الانتقال من حال إلى حال أفضل ، ويتم ذلك بالإنسان الذى يجب أن يتغير هو نفسه من حال إلى حال أفضل ...

(إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

(صدق الله العظيم)

والتربية هى المسئولة عن تشكيل وتغيير الأفراد ومن أعماقهم أولا ، كما أوضحنا سابقا ، فهى التى تكون الرغبة الأصيلة والدافعية عند الأفراد للتشكيل والتغيير . وخير كبير أن يتم هذا فى الطفولة .

فالإنسان والتكنولوجيا هما جناحا التقدم ، وبهما يصير التحليق إلى آفاق غد مرتقب .

ولا نعنى بالتكنولوجيا مجرد أجهزة وأدوات صغيرة كانت أو ضخمة . وليست هى فقط الاختراعات الحديثة مما تذهلنا اليوم ، وقد تصبح فى المستقبل لعب أطفال ..

وإنما نعنى فوق كل هذا التخطيط والتنظيم والاستغلال السليم لإمكانات الإنسان والتكنولوجيا بهذا المعنى ليست وليدة الماضى القريب ، ولكنها ممعنة فى التاريخ ، وقد مارستها الحضارات الأولى ، واستخدمتها لتزدهر وتنمو بها وبالإنسان فى تلك الأزمنة والأمكنة .

الإنسان ، والتكنولوجيا يصنعان التقدم ، ولا يكفى واحد منهما . ذلك لأن الإنجاز فى الأعمال يتطلبهما سويا . ولا توجد تكنولوجيا بدون مجتمع بشرى ، كما أن المجتمع البشرى يحيا بأنظمة وتخطيط .

كما لايمكن تصور مجتمع ينعزل عن بقية مجتمعات العالم ، ويقفل الأبواب عليه . قد يمكن هذا لفترة زمنية قليلة ، ولكنه سيحتاج إلى الاتصال مع مجتمعات أخرى ، يأخذ منها ويعطيها ، وقد شهد التاريخ تعاونا بين الشعوب والأمم .

إن طفل اليوم هو صانع التقدم فى المستقبل فى المجتمع الذى يعيش فيه . إن نظرة فاحصة إلى شعوب تقدمت ، تكشف عن بناء بمواصفات معينة لأطفال تلك الشعوب ، وإعادة بناء للرجال والنساء . والدول المتقدمة تزداد تقدما ، وتحاول الدول المتخلفة لاهثة أن تلحق بها ، ولكن للأسف فإن الفارق يتسع والفجوة تعمق . وهنا لابد من وقفة أساسية ، فإن كلمة بناء لايقصد بها مجرد التكوين الجسمى أو المظهرى، وإنما بناء الأخلاق التى تؤدى إلى أنواع كثيرة من السلوك ، لعل ما يبرز على السطح الآن احترام وطاعة القوانين سماوية كانت أو أرضية . ومن شأن هذه القوانين والامتثال لها أنها تؤدى إلى أداء الواجبات المطلوبة من الأفراد برغبة صادقة وعزم أكيد ، دون رقيب أو خوف من عقاب أرضى . ويتجلى هذا فى نتاج الأعمال .

(إن الله يحب من احدكم إذا عمل عملا ان يتقنه)

(صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم)

أداء الواجب نحو المجتمع ، نحو الوطن . يعنى أن هذا الفرد يشعر بعلاقة رصينة نحوه ، فيها حبه ورغبته فى تقدمه ، وفيها كراهية لما قد يصيبه من أضرار ، حب لخير المجتمع وكراهية لما يصيبه من شر .

هذا هو الانتماء والولاء نحو البناء .

بناء للمجتمع ، يشترك فيه أفراده عن وعى صادق ، متآزرين ومتعاونين للنهوض به ، فيجرى كل واحد ليضع لبنة فى صرح هذا المجتمع ، ويعمل عقله وتفكيره وعلمه مضيفا جديدا لو استطاع ، واثقا أن ما يقدمه لغيره هو مفيد له أيضا ، وأن غيره يقدمون له الكثير .

نقاط على حروف ... حائرة

وصولا مما سبق ذكره عن تربية أعماق الطفل وارتباطها بإحداث التقدم فى المجتمع ، يمكن تحديد أهداف مرحلة ما قبل المدرسة أو الصف الأول الابتدائى (مع الأخذ باقتراح تطويره وتعديله) تحديدا نابعا من حاجات الطفل النفسية والجسمية والاجتماعية والعقلية ، كما أظهرتها نتائج بحوث كثيرة محلية ودولية ، مع الإيمان بأن هذا يقع تحت مظلة التكوين الأخلاقى الرصين . وهناك بعض مطالب النمو تتم أساسا من خلال ، أو بواسطة عمليات النمو الفسيولوجى كالحبو والمشى فى السنتين الأولتين. أما عن تعلم الطفل الكلام فيتأتى عن طريق النمو الفسيولوجى ، مضافا إليه الاحتكاك الاجتماعى مع المحيطين به ، لهذا فالطفل اليابانى يتكلم اليابانية والطفل المصرى يتكلم العربية ، بل تختلف اللهجات حسب المكان الجغرافى الذى ينشأ فيه وسط أسرته ، فلهجة الطفل البورسعيدى غير لهجة طفل نشأ فى أسرة فى أسيوط مثلا . ويمتص الطفل ممن حوله ما يكون لديه عادات واتجاهات نتيجة تفاعله واحتكاكه الاجتماعى معهم مما يلون بعض سلوكه فى مراحل نمو تالية .

أهداف مؤسسات رياض الأطفال

أولا : التنشئة الاجتماعية

وقد ترك الطفل البيت إلى بيئة جديدة عليه . حيث يتساوى فى المعاملة مع بقية الأطفال الذين تضمهم هذه المؤسسة التى أعدت لاستقبال صغار ما قبل المدرسة الابتدائية، وهى معاملة ربما تختلف عن المعاملة التى اعتادها فى الأسرة . وسواء دخل الطفل مؤسسة ما قبل المدرسة الابتدائية أو التحق بالصف الأول الابتدائى مباشرة... فإنه يجد صعوبة فى وجوده وسط مجموعة كبيرة من الغرباء ، حتى لو كانوا فى مثل سنه ، وهو يفضل تلك المجموعات الصغيرة التى تضم من ١٠ إلى ١٥ طفلا ، ثم يواجه بعد ذلك تدريجيا مجموعات أكبر فأكبر .

إن عملية التطبيع الاجتماعى التى مر فيها الطفل فى الأسرة، ثم فى مجموعات صغيرة تكبر تدريجيا سوف تعلمه كيف يسلك السلوك المناسب نحو الآخرين ، وسوف يضع حجر الأساس لمفهومه عن نفسه وعلاقاته بغيره من الناس . كما ينمى الاتجاهات الخلقية والأساليب التى تجعله يتعامل بنجاح مع غيره من الأطفال والكبار خارج محيط الأسرة . إن نجاح الطفل فى هذه المعاملات يوصله إلى تحقيق ذاته وهذه أول السلم نحو تفهم حقيقة العلاقات بينه وبين غيره . إن الطفل لايعلم ماذا يحدث ولكنه يحدث ، فعلى سبيل المثال سوف تحدد هذه العلاقات ما له وما عليه (فى بساطة يسيرة) للدرجة التى تجعله يتفهم داخليا معنى الحق ومعنى الواجب (دون أن يعرف وأن يحفظ وأن يلقن ... إلخ الكلمتين) ، ولكنه على وعى بما يأخذ وما يجب عليه أن يعطيه . هذا أول السلم نحو بناء الإحساس بالانتماء للمجتمع الذى هو عضو فيه . نحن نكرر أن الطفل لم يسمع ولن يفهم معنى كلمة الانتماء فى هذه السن المبكرة ، ولكن بذرتها قد وضعت فى أعماقه ، وعلى البذرة أن تروى وأن يرعى النبت مع تدرجه فى نموه .

والتأكيد هنا على أن الأخلاق والاتجاهات الاجتماعية لا تنمو تلقائيا من مجرد احتكاك الطفل فى بيئته الاجتماعية ، وإنما للكبار دور مهم فى تربية الطفل اجتماعيا وخلقيا فى هذه المرحلة ، إذ يعرف عن الطفل ميله إلى التمركز حول ذاته وإلى العدوان حتى فى ظروف الاحتكاك الاجتماعى ، وهنا يبرز دور التربية فى توجيه وتشكيل السلوك . ودور المرشدة أو المشرفة أو المنشئة فى روضة الأطفال ليس مجرد تنظيم السلوك ، ولكن إلى جانب ذلك تعويد الأطفال على معايير السلوك التى يتطلبها المجتمع .

حدثت هذه الواقعة البسيطة فى أحداثها العميقة فى معناها فى إحدى رياض الأطفال حيث تنازع طفلان على كرة ، ولمحتهما المرشدة فى نظرة خاطفة وهما يتنازعان الكرة وقد يتشاجران . ذهبت إلى طفلة تتأرجح على (المرجيحة) وبجوارها تقف طفلة أخرى ، فاقتربت المرشدة منها وقالت لها أن تساعدها فى دفع (المرجيحة) حتى تستمتع الطفلة التى عليها أكثر وأكثر ... وفعلا كانت هناك مساعدة ثم نادت المرشدة على كل الأطفال أن يحضروا لمشاهدة هذا المنظر حيث تساعد طفلة طفلة أخرى وحيث هناك مشاركة وتعاون وهناك أيضا أخذ وعطاء . وكان صوت المدرسة واضحا استمع إليه كل الأطفال حتى إن الكرة سقطت من بين أيدى الطفلين اللذين هرعا لمشاهدة ذلك الموقف الذى دعت إليه المرشدة ....

وتتكرر المواقف بعضها يشارك فيها الطفل وبعضها يتفرج عليها ، وبدون خطبة عصماء أو أوامر شديدة وبدون الوجه العابس ، وبدون التهديد بالعقاب كالضرب والحرمان ... إلخ . يتعود الطفل تدريجيا التخلص من أنانيته وعدوانيته ، ويستطيع أن يميز بين المواقف التى تتطلب منه أن يتخلى عن أنانيته وتمسكه برأيه ورغبته ليتمشى مع رغبة المجموعة ، وبين المواقف التى يتحتم عليه فيها أن يدافع عن حقوقه .

واضح أن عملية التطبيع الاجتماعى حيث تنمو بجلاء فى مؤسسات ما قبل المدرسة هى عملية يتعلمها الطفل ويمارس صورا شتى منها . وعلى المرشدة أو المنشئة يقع عبء كبير فى هذه العملية فهى (أو هو) إلى جانب تهيئة الظروف والمواقف الصالحة التى تعمل على هذا النمو .. فإنها تستطيع أن تساعد الأطفال على تحولهم من اتجاه التمركز حول الذات إلى ممارسة الأنشطة التى تتطلب المشاركة والتعاون ، وهى أنشطة تعد بعناية لتحقق ترسيخ مبادىء السلوك الخلقى الذى يجب أن يتحلى به الفرد نحو غيره من أفراد المجتمع ، سواء فى لعبه الحر أو فى علاقاته مع غيره من الصغار والكبار . وتعمل المرشدة على تحقيق هذا من خلال تعليقاتها الباسمة على سلوك الأطفال الاجتماعى ، ومن خلال تأنيبها المشبع بالعطف لسلوك ما كان يجب أن يحدث من طفل أو مجموعة أطفال ، ومن خلال تساؤلاتها وثنائها وتشجيعها على أعمال ....

ثانيا : التنمية العقلية

تتمشى جوانب النمو عند الطفل فى تكامل ، فيواكب نموه الانفعالى والجسمى والاجتماعى نموه العقلى . فالطفل غير الآمن لن ينمو اجتماعيا بالصورة المرجوة وبالتالى يضعف نموه العقلى . كماأن البحوث توضح كيف أن التأخر فى النمو العقلى، إن لم يكن مرجعه أسبابا ترتبط بخلقة الطفل وطبيعته الفطرية ، فغالبا ما يعزى السبب إلى ضآلة وضحالة المواقف التى يتعرض لها من حيث إنها غير مثيرة له ، ولا تحفزه على بذل أى نشاط عقلى كالتفكير البسيط مثلا . إن مواقف الخبرة التى يمر بها الطفل وتعددها وتنوعها من شأنها أن تزوده بمحصول لغوى ، وبفهم معان كثيرة ، وتكوين أحكام بعد أن يحصل على قدر من المعلومات (كأن يعرف أن الشكل الذى تكون عليه الكرة أسهل فى الحركة من الشكل الذى تكون عليه المكعبات التى يبنى بها بناء : أى أن الشكل الكروى سهل فى حركته عن المكعب) . وهذا الغنى فيما

يقتنيه الطفل من ألفاظ ومفاهيم ومعان هى من الأسلحة التى تمكنه بنجاح من تكوين علاقات اجتماعية . أى أن العلاقة متبادلة بين التكوين العقلى والتنشئة الاجتماعية ، فكل يؤثر ويتأثر بالآخر .

وقد وجد علماء النفس أنه لكى يكون النمو العقلى والانفعالى فى مرحلة ما قبل المدرسة ، سائرين فى طريقهما الصحيح يجب أن تتوفر البيئة الاجتماعية المناسبة والتى يتفاعل الطفل فيها مؤثرا ومتأثرا ، وبهذا يمكن أن نتوقع نموا عقليا وانفعاليا سليمين ، الأمر الذى لايتطلب إجراء عمليات تعليم ، كما يحدث فى صفوف المدرسة الابتدائية ، وإنما الطفل وسط الموقف المثير والمحفز هو الأمر المهم . واعتبارا من السنة الثانية من حياة الطفل فصاعدا .. فإن نمو اللغة وتكوين المدركات أو المعانى يترابطان ويكونان أساس النمو العقلى . والطفل فى كل هذا يتأثر بلغة المحيطين به ، ومن يتعامل معهم ، بل وبالعوامل المؤثرة فى البيئة كالإذاعة والتليفزيون . كما أن نشاط الطفل ومواقف الخبرة التى يمر بها وما يصاحبهما من انفعالات تعتبر كلها غذاء النمو العقلى . وعلى مؤسسات ما قبل المدرسة أن تهيئ المواقف والأجهزة والأدوات التى تساعد الطفل على هذه التنمية العقلية ، فى تنوع متجدد يثير الطفل دائما فلا يشعر بالملل أو الضيق .

أثرت فكرة النشاط ومواقف الخبرة هذه على بعض اتجاهات ماريا منتسورى الإيطالية وجان بياجيه السويسرى [١] فظهرت عند الأولى فيما أطلقت عليه اسم «اللعب الوظيفى» وعند الثانى فيما أطلق عليه «لعب التمرينات» .

فعلى سبيل المثال نوع من اللعب يسميه البعض «بلعب الأدوار» ويطلق عليه البعض «اللعب الإيهامى» فترى طفلا يمثل لاعبا ، دور الأب ، وربما يلون تحت أنفه وفوق شفته العليا باللون الأسود ، وقد يتعامل مع إخوته الصغار أو حتى مع بعض

---

(١) سيتعرض الكتاب لهما بشىء من التفصيل فيما بعد .

قطع الأثاث مصدرا الأوامر لهم ، أو لها ، أو لهم ولها ، ومقلدا على قدر المستطاع صوت الأب وربما استخدم بعض تعبيراته ، وحاكى بعض حركاته . وكذلك تلعب البنت دور الأم مع عروستها ، وقد تضربها ضربا خفيفا أحيانا وتحنو عليها وتقبلها أحيانا ، وتكلمها كثيرا ، وتأمرها أكثر ، وترغمها على النوم وتغطيها ... إلخ . والطفلة هنا تستخدم ألفاظا وتعبيرات تعلمتها من أمها ومن المحيطين والمحيطات بها .

وتستطيع المرشدة الإسهام بنجاح فى التكوين العقلى للطفل فى هذه المرحلة السابقة للمدرسة الابتدائية بأن تقص عليهم قصة ، وهى تحب القصص وهم يحبون سماع القصص (وهنا يجب أن يتعلم الأطفال كيف ينصتون ويستمعون ، ولا يقاطعون إلا بعد استئذان ، إذ أن هناك أخلاقيات فن الاستماع) . ويتحول بعض الأطفال بعد انتهاء القصة وبتوجيهات من المرشدة إلى تمثيلها مستخدمين بعض العبارات التى وردت أثناء قص القصة . وقد يمثل الأطفال لوحات تعبر عن بعض الأنشطة الموجودة فى المجتمع مثل العمل داخل مخبز ، ساعى البريد ، شرطى المرور ... إلخ . تضم عملية التمثيل هذه مجموعة إيجابيات تتعاون كلها نحو التربية المتكاملة للطفل ، وعلى رأسها بل هى كلها فى أساسها أخلاقية اللون والطعم والرائحة ، فإلى جانب المحصول اللغوى الذى يضاف إلى رصيده السابق ويثريه ويعززه ، فهناك المعانى التى كونها الطفل أو التى اشتقها من غيره ، وهناك النمو الجسمى بما يبذله الطفل من حركات ونشاط بدنى ، وهناك التهذيب الانفعالى الذى يتيح الفرصة للانفعالات كالسرور والغضب والعواطف (الحب والكره) بالإفصاح عن نفسها ، ولكن فى صورة مقبولة اجتماعيا ...

ويعتبر هذا واحدا من الأساسيات التى تلزم لتكوين القيم والاتجاهات والعادات ، وهى مطلوبة فى بواكير الطفولة . قد حفظنا أطفالنا فى مدارسهم الابتدائية وتلاميذنا وطلابنا فى المدارس الإعدادية والثانوية والكليات الجامعية ، حفظناهم الكثير عن

التعاون على البر والتقوى من أجل خير الفرد وخير غيره . وكتبوا فى موضوعات الإنشاء كلاما جميلا رائعا ، ونحن شطار فى الأقوال ، أما الأفعال ... ذلك لأن الاتجاه التعاونى لم يتكون بدليل هذه الأنانية المتفشية والاهتمام القليل الضئيل بمصالح غيره وراحتهم . قد يمكن وضع بذرة أولى لتنمو شجرة التعاون ، عندما يمثل الأطفال تمثيلية يظهر فيها بجلاء أنه بدون التعاون لايتحقق النتاج النهائى . فعلى سبيل المثال رغيف الخبز الذى يدفع فيه والد الطفل قرشا واحدا أو ربما قرشين .... عدة أيدى اشتركت متعاونة حتى يصل هذا الرغيف إلى يد الطفل ، ولنبدأ بالوالد الذى يعمل ويكسب ، ثم أعطى قرشا إلى طفله اشترى به ذلك الرغيف . وقصته تبدأ من ساعة بذر بذور القمح فى الحقل ، وعدة أيدى تعمل فى الحقل حتى تنمو السنابل ثم تحصد ثم تذرى ثم تجمع ثم تنقل من الحقل إلى جهات متفرقة ... أيد كثيرة اشتركت ، ثم المطحن ثم إلى المخبز... آلاف الأيدى عملت فى وسائل النقل ، فى بناء المطاحن والمخابز ، ثم أخيرا وصل الرغيف إلى يد الطفل . وما كان يمكن لفرد واحد أن يزرع ويحصد ... إلخ . وإذا كانت هذه قصة الرغيف المنتج كلية محليا فما بالك بالدقيق الذى يستورد من قارات بعيدة ، طبعا ستزداد الأيدى بالمئات .

لايهم ، وقد لايجب أن تقول المرشدة إن هذا مثل رائع للتعاون والمشاركة ، وإنما يأتى المعنى تلقائيا إلى عقول الأطفال ببساطة عميقة التأثير . ولو أن المرشدة ألقت على أطفالها خطبة عن التعاون وأهميته وفوائده لكانت مثل الذى يكتب على الماء . وما أكثر الخطب والمواعظ الحاثة على القيم والاتجاهات وحميد العادات ، وتتكرر ، وعلى صفحات الجرائد تكتب ، وفى وسائل الاعلام عامة تنشر ... والنتيجة قد تكون واضحة فى أخلاقيات قد تكون شارع الفساد .

إذن فالتكوين العقلى للطفل مرتبط ومتلازم مع تكوينه الانفعالى ومتأثر بالبيئة الاجتماعية التى يعيش فيها . وعندما نتحدث عن النمو العقلى نعنى به تنمية

قدرات عقلية ، مثل : الذكاء والتفكير والانتباه والملاحظة والتخيل والتصور والفهم والابتكار ... كما يتضمن المعنى أيضا ما يتعلمه الطفل ، وهو مكون من الحصيلة المعرفية أى المعلومات وما يكتسبه من مهارات عقلية .

ويعتبر هذا بمثابة التهيئة الضرورية لإعداد الطفل لبدء تعلمه القراءة والكتابة والحساب فى صورة منظمة متدرجة فى بداية المدرسة الابتدائية . إن دخول الطفل هذه المدرسة الابتدائية وقد أعد لها سوف يجعل تقبله لما يتعلمه أسهل وأسرع وأبقى . أسهل ، بمعنى أنه صار مستعدا عقليا لتقبله وفهمه ، وهذا يعنى أنه يتعلم أسرع ، كما أن التعلم القائم على الفهم أبقى وأرسخ .

ونحن هنا نحذر من خطورة تضمين خطة العمل بمرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية، تضمينها برامج لتعليم القراءة والكتابة والحساب ، إذ أن بعض أولياء الأمور يتسرعون فى لهفة وفى تهافت ، فيحبون أن يروا أطفالهم ما بين الرابعة والسادسة وقد أمسكوا بالأقلام يخطون بها على ورق ... هذا غير مستحب مطلقا ، وعليهم أن يهدأوا ، فإن تهيئة الطفل (للتعلم) قبل أن يدخل المدرسة الابتدائية ، أو تكريس الصف الأول الابتدائى لعملية التهيئة هذه من شأنه أن يحقق لأولياء الأمور ولعلماء التربية نتائج أفضل بكثير مما يتحقق الآن ، هذا من ناحية الجانب المعرفى ، فإذا أضفنا إلى هذا التكوين الخلقى الرصين فإن مكسبا هائلا سيتحقق للمجتمع .

ولم تكن مجتمعات غربية وشرقية تهزل أو تعبث عندما قررت بعد دراسات وأبحاث الاهتمام البالغ بمرحلة ماقبل المدرسة ، بل إن دولة متقدمة كفرنسا تجعل الصف الأول الابتدائى (المرحلة الابتدائية خمس سنوات) مرحلة بذاتها تهيئ وتعد الطفل إعدادا متكاملا ليتلقى (التعليم) فى السنوات التالية .

ثالثا : اتجاهات نحو العمل

يحب الأطفال منذ نعومة أظافرهم التعامل مع الأشياء ، فنرى الطفل فى عامه الأول يمسك ما تصل إليه يده ويختبره بأن يضعه فى فمه ، وتدريجيا يتحول هذا السلوك إلى لعب بهذه الأشياء ، ثم يتطور إلى أشكال مختلفة من السلوك تتمشى مع مرحلة النمو . حتى إذا وصل إلى مرحلة ما قبل المدرسة نجد أن الأمر يتطلب تنظيما وسياسة معينين حتى تبدأ زرع الاتجاه نحو العمل الذى قد يتخذ ظاهريا شكل اللعب، ولكنه فى أساسه يزرع بذور حب وتقدير العمل .

يتجه بعض العلماء إلى تسمية هذا الاتجاه نحو العمل «بالغرضية» والسلوك الغرضى يعنى : السلوك الموجه منذ بدايته نحو تحقيق أهداف واضحة ومحددة على الرغم من وجود عقبات أو مشتتات للانتباه . إن تكوين هذا الاتجاه فى مرحلة ما قبل المدرسة ضرورى وأساسى لتعويد الطفل تلقى الأوامر وتنفيذها عندما يلتحق بمراحل التعليم التالية . وهذا السلوك الغرضى عامل مهم مؤثر فى إتمام عملية التهيؤ ليتلقى (تعليما) تقدمه له المدرسة الابتدائية فيما بعد .

وقد أشرنا فى الفصل الأول إلى ما توصلت إليه هيتزر Hetzer من نتائج دراستها عن التفكير الابتكارى عند الأطفال . ومن هذه النتائج يتضح كيف يتحول لعب الأطفال من سلوك لاغرضى إلى سلوك غرضى يحقق هدفا محددا .

هنا .. يبدأ الطفل يكون مفهومه عن الفرق بين اللعب والعمل الجاد كأن ينفذ ما تطلبه منه المرشدة من أعمال لها نتائج مطلوبة سواء قام الطفل وحده بإنجازها ، أو اشترك مع بعض الأطفال الآخرين ، أو تعاون مع كل مجموعة الفصل . وتلاحظ هنا فى هذه العملية من العمل الجاد المثمر ، مجموعة اتجاهات عظيمة يتطلبها أى مجتمع يسعى إلى التقدم ، وهى :

(أ) أن يتحمل الطفل بمفرده مسئولية إنجاز عمل ما ، بعد أن تتحدد له أهداف هذا العمل وما ينتظر منه أن يعمله .

(ب) التعاون والمشاركة فى إنجاز عمل مع مجموعة ، يكون الطفل واحدا منها وهو هنا يعرف أهمية وقيمة التعاون فى إنجاز الأعمال .

(جـ) احترام العمل اليدوى حتى إذا كان الدور الذى يؤديه الطفل صغيرا جدا ، ولكن هذا أمر مطلوب حتى ينجز العمل على خير وجه .

(د) تنمية الانفعالات السارة بعد أن ينجز العمل على خير وجه ، ويتطلب هذا الإنجاز بالضرورة إرادة من الطفل واستمرارية فى العمل لأنه مسئول عن شىء ما ، وهنا يتضح الفرق بين اللعب والعمل الجاد ، فالطفل فى اللعب يستطيع أن يتركه فى أى وقت أما فى العمل الجاد فهو ملتزم .

ما أجمل وما أعظم وما أروع أن ينشأ أطفالنا وقد زرعت فى أعماقهم هذه الاتجاهات التى مع نموهم تصبح جزءا من نسيج تكوينهم . ويتدعم هذا التكوين الأخلاقى ويقوى على مر السنوات التالية بمزيد من تربية دينية سليمة بما فيها قدوة صالحة ، ومزيد من النصائح والأقوال والقصص التى تؤكد سلامة وضرورة السير فى هذه الاتجاهات وتنميتها .

إن المتطلع والدارس لما يعانيه المجتمع من بعض الخلل ، وكثير من التسيب قد يمكن إرجاعه إلى فقدان الشعور بالمسئولية عند بعض الراشدين إن لم يكن أغلبهم . كما أن الالتزام من جانبهم لايلقى الاحترام الواجب ، ثم إن شعورهم بأهمية العمل الجماعى ضئيل ضعيف،. وبمعنى آخر فيه شمولية أكثر ، فإن معنى أداء الواجب لايتركز على أعماق صلبة .

* * *

الأمر الذى نريد تأكيده هنا له جانبان :

(أ) المطلوب نوعية معينة من المدرسات أو المرشدات أو المنشئات أو الموجهات (أو المدرسين أو المرشدين ... إلخ) قد أهلوا وأعدوا تربويا ونفسيا واجتماعيا ، بحيث يمكنهم توجيه الأطفال توجيها سليما لبدء القيام بأعمال جادة ، ثم كيف يلاحظونهم أثناء إتيان هذه الأعمال متتبعين خطوات الإنجاز ، ثم موقفهم بعد اتمام العمل .

(ب) القدوة الحسنة ضرورية ، إذ لا جدوى أن يلقى المرشد أو المرشدة ببعض الأوامر ويتطلب سلوكا معينا من الأطفال ، ويكون هو نفسه بعيدا فى تصرفاته عن هذا المسلك المطلوب . إن فاقد الشيء لايعطيه ، حتى لو ملأ الدنيا صراخا وأعمل سياسة الإرهاب والتهديد والوعيد . إننا نعوذ بالله أن يكون هذا موقفا يتم داخل المدرسة عامة ، إذ إن من السهل على الطفل أن يسلك ما يرضى الراشد طالما هو موجود ، ويسلك الطفل ما يشاء عندما يغيب عن النظر هذا الراشد . هذا من أسوأ الأخلاق ... فإذا غاب القط لعب الفأر .

(جـ) ضرورة التدرج فى تكوين هذه الاتجاهات تدرجا ، يتمشى مع إمكانات وقدرات الطفل الجسمية والعقلية ، وكما يقول ابن خلدون بألا نهجم عليه فى أوائل النشأة بالصعب من الأمور ، وإنما يكون التدرج من البسيط إلى الصعب . ويؤدى قول ابن خلدون إلى أن تتاح الفرصة للطفل لأن يستشعر قدرته على الإنجاز ، وأن يستمتع بفرحته بالنجاح ... وهكذا تبدأ وتتكون مشاعر الثقة بالنفس والرغبة فى خوض المواقف الجديدة التى تتطلب قدرا ولو ضئيلا بالمخاطرة المحدودة جدا . ومعروف أن الفرد لايخاطر إلا إذا شعر بالأمن والطمأنينة . أن بعض ما نتصور أنه سهل جدا قد يكون صعبا على الصغير ، ويحتاج منه إلى تفكير وبذل جهد وتحمل ، ولا ننسى أن بين الأطفال فروقا فى القدرات والإمكانات والرغبات

والاهتمامات ... وهذه كلها أمور يجب أن تؤخذ فى الحسبان . نذكر أن مدرسا فى مدرسة ابتدائية اشتكى ذات يوم وهو يلوم تلاميذ فصله أنه بذل مجهودا كبيرا وتصبب جبينه عرقا ، عندما كان يحاول أن يفهمهم معنى كلمة الجزيرة . والجزيرة كما هو معروف قطعة أرض محاطة بالماء من جميع الجهات . أمر سهل جدا ولكن بالنسبة لنا نحن الكبار وصعب بالنسبة للصغار . ونذكر ذلك الصحفى الذى كتب فى إحدى المجلات كيف أنه أخذ ابنته الطفلة إلى المقطم لتعرف معنى كلمة (التل) ، وإلى القناطر الخيرية لتعرف معنى (الهويس) ، إذ إن المدرسة مرت على الكلمتين فى شرحهما مر الكرام .

(د) أهمية الاستمرارية فى السلوك وهذا أمر واجب حتى يتكون الاتجاه عند الطفل . إذ إن إتيان عمل مرة أو مرتين أو ثلاثة لايكفى لتكوين اتجاه كالتعاون مثلا ، وإنما يظهر هذا التعاون فى مختلف الأنشطة ، ومن الصغار والكبار على السواء، وياليت هذا يتم فى كل المواقف التى يتعرض لها الطفل سواء فى البيت أو المدرسة أو المجتمع . ويتطلب تكوين اتجاهات صالحة نحو العمل أن يتحلى سلوك الطفل بالدقة والمثابرة ، وأن يظهر هذا بصورة مستمرة فى أعماله المختلفة .

(هـ) تهيئة المواقف المناسبة ليقوم طفل ما أو مجموعة صغيرة من الأطفال بإنجاز عمل لايعود عليه أو عليهم بفائدة مباشرة (اللهم إلا فرحة الإنجاز ولذة الاتمام) وإنما تعود على الغير سواء اليوم أو الغد ، سواء من المحيطين أو البعيدين ، سواء ممن يعرفهم الطفل أو لايعرفهم . هذه هى من قمم الغيرية المحطمة لاتجاه الأنانية عند الطفل .

ما أحوجنا إلى هذا السلوك ، والله على كل شىء قدير ، ويسخر عز وجل تربية فاضلة تزرع فى الأعماق هذه الأحاسيس والمشاعر .

رابعا : النمو الجسمى

أن يأتى هذا النمو بعد ثلاثة أنواع سبقته لايعنى التقليل من أهميته . إذ إن الترتيب هنا لم يقصد به تدرج فى التفضيل لأن كل أوجه النمو تتكامل لتحقيق أهداف تربية الطفل قبل المدرسة . ولعل التداخل بينها يكون واضحا فإن إنماء الجسم لايقف وحده دون أن تسانده التنمية العقلية والاجتماعية .

بل إن إنماء الجسم كتربية الأعماق من أجل الأخلاق وكغيرها ... لايقتصر على نشاط واحد محدد ، ولكنه متداخل بالضرورة فى جميع الأنشطة ، ويمكن أن ننظر إلى تربية الجسم من النقاط التالية :

(أ) العناية بالصحة وهذه مسئولية تشترك فيها كل مؤسسات المجتمع ، بادئة بالأسرة وممتدة إلى كل ما يؤثر على صحة الطفل [1] .

(ب) التغذية : ولها أصول وقواعد ، ويجب أن يعرف الطفل بعض هذه القواعد فى بساطة ويسر ، وأن يشفع المعرفة بالسلوك المطلوب .

(جـ) تنمية العضلات الكبرى والصغرى التى تمكن الطفل من القيام ببعض الأعمال التى تتطلب مهارة يدوية معينة . وتتضح أهمية النمو العضلى فيما نادى به كثير من المربين من أمثال فروبل ومنتسورى ، ومن قبلهما جون آموس كومينيوس ، ومن قبل كل هؤلاء مفكرون إسلاميون أمثال ابن سينا والغزالى وابن خلدون - حيث اهتموا بحرية الأطفال فى اللعب والجرى والتأرجح والقفز والسباحة ..إلخ .

---

(١) تمنح المملكة المتحدة شهادة تمريض ، تخصص حضانة تؤهل البريطانيات للعمل بمؤسسات ما قبل المدرسة وتسمى حاملة هذه الشهادة (Nursery Nurse)

(د) تربية الحواس وسوف نرى فيما بعد ما أشار به كل من فردريك فروبل وماريا منتسورى بتهيئة ومد أطفال ما قبل المدرسة ، بمجموعة من الهدايا والألعاب التى تعمل على تنمية حواسهم كالسمع والبصر واللمس .

أيها الطفل

وإليك توجه جهود كثيرة وغزيرة فأنت المسئول بعد سنوات من نموك عن بناء المجتمع وتقدمه . ولذلك كان لابد أن تنال العناية الواجبة منذ بواكير طفولتك ، وأن تعد لك مؤسسات قبل المدرسة الابتدائية تطول مدتها أو تقصر ، أو تستقطع من سنى المدرسة الابتدائية سنة واحدة وربما سنتان حتى تهيأ لتلقى المقررات التى فى منهج التعليم الابتدائى أو الحلقة الأولى من التعليم الأساسى .

قد لايعجب بعض المربين والنفسانيين اصطلاح (الاستعداد للتعلم) ، خاصة بعد أن أظهرت كتابات أمريكية فى نهايات الخمسينات من هذا القرن ، وبداية الستينات اتجاهات نحو إمكانية تعليم الأطفال مبادىء القراءة والكتابة والحساب قبل سن السادسة بسنوات وصلت عند البعض إلى ثلاث . ومهما يكن الأمر .. فإننا نهتم هنا بما نطلق عليه تعبير (التهيئة) ، ونقصد بها إعداد الطفل من جميع نواحيه فى شمولية وتكامل لمواجهة المقررات التى ستقدم له فى المدرسة الابتدائية ، وقد بينا سابقا أن هذه التهيئة من شأنها أن تمهد الطرق لحسن تقبل المعرفة والمهارات المطلوبة مشفوعة بل ومدعمة ، بالبناء الأخلاقى السليم .

ونستخلص من كل ما سبق - وجاء ذكره فى هذا الفصل - عدة معايير هى ركائز للحكم على مدى (تهيؤ الطفل لمرحلة التعليم الابتدائى) ، وهى :

١ - قدر من النمو العقلى يتميز - على سبيل المثال - فى إثراء محصوله اللغوى ، وتكوين معان ومفاهيم ومدركات، وإصدار أحكام ، وإدراك العلاقات بين الأشياء والتمييز بينها ، وإدراك الفروق بين الأزمنة والأمكنة ، وقدرته على أن يصب المعنى الذى يريده فى لفظ أو مجموعة ألفاظ تكون جملة لها معنى ، ... إلخ .

٢ - قدرة على المشاركة فى عمل له فائدة قد تعود عليه أو على غيره . وهو إذ يعمل فإنما يحاول أن يحقق غرضا محددا . وقد يعمل بمفرده أو مع مجموعة صغيرة أو كبيرة ، ولكن الأمر المهم أن هناك غرضا أو هدفا يسعى للحصول إليه بالوسائل الخلقية التى ترتضيها معايير المجتمع الكبير .

٣- الإحساس (إلى حد يناسب نموه) بالحق والواجب والمسئولية والقدرة على حسن تلقى الأوامر والاستجابة لها ، والقدرة على حسن الاستماع . وفى غمار قيامه بالعمل ، يركز انتباهه ونشاطه فلا يشغله شاغل عنه ، ولا يتوقف عن اتمام عمل تاركا إياه فى منتصف الطريق ، دون استكمال وينطلق إلى عمل آخر . ويتطلب هذا قدرة على مقاومة وسائل التشتيت أو إغراءات اللعب واللهو .

٤- المقدرة على تحمل تقبل أوامر من طفل زميل له وربما فى مثل سنه وطاعتها ، طالما أنه يشترك مع جماعة فى نشاط قد يكون لعبا أو عزف موسيقى أو غناء ، أو حركات توقيعية . وكذلك القوة على أن يقود جماعة صغيرة ، أى أن يكون مرة فى مركز القيادة ، وأخرى يكون له قائد يتلقى منه التعليمات .

أيها الطفل أنت الآن صرت مهيأ لتلقى (التعليم) فى المدرسة الابتدائية بسهولة وسرعة وبقاء أطول لما تتحصل عليه .فأنت ذخيرة المجتمع ، بما تمكن لديك من أسلحة قوية تكونت فى أعماقك وأعطتك قدرات تدفعك إلى العمل والمشاركة ، كما منحتك دروعا تقيك شر الغواية وتحميك من آثام شارع الفساد ، وساحات الأقوال النابية ، والأفعال المجافية للذوق ، والتى ترفضها أوامر الدين وقوانين المجتمع .

بكل هذه الصفات نتأكد أنك تنتمي فعلا إلى بلدك ووطنك وأنك تشعر بالولاء نحوهما دون أن تعرف بعد معنى كملة الانتماء ، أو معنى كلمة الولاء ولكنهما فى حالة نمو فى أعماقك .

وقد توافق المؤلفين على أن يرتحلا فى سياحة شرقا وغربا لمزيد من المعرفة عن أطفال مثلك يعيشون فى ثقافات تختلف عن ثقافتك ، ولكنك أنت وهم من أسرة البشرية ولكم أجهزة جسمية واحدة ، ولمجرى الدماء فى عروقكم من فصائل معروفة . وإن اختلفت ألوان البشرة وشكل الشعر واللغة فأنتم جميعا من خلق الله عز وجل الذى خلق الإنسان فى أحسن صورة ، والمتوقع أن يكون سلوك البشر إنسانيا ... بعيدا تماما عن حيوانية بغيضة ، للأسف الشديد ، يزحف سلوكها حتى يكاد يسود شر أكثر من الخير ، يسود فساد أكثر من الاستقامة ، وتسود رذيلة أكثر من الفضيلة ، والجشع يدفع الناس - أيها الطفل - إلى سوءات الأعمال ذلك لأن أعماقهم خاوية إلا من كل بغيض مرذول ، نهت عنه شريعة الله وقوانين الإنسان الوضعية التى تحدد علاقة الفرد بغيره .

إن غياب المثول لهذه التشريعات السماوية والقوانين الوضعية لايمكن أن يأخذ - أيها الطفل - بأى مجتمع إلى تقدم حتى ولو أمطرته السماء ليلا ونهارا ذهبا وفضة.

ولكن أنت وغيرك بتربية أعماقك ستشرق شمس يوم جديد ، حاملة آمالا كثيرة، مشبعة بالخير والحق والجمال لغد عزيز مرتقب .


الفصل الثالث
فى تربية
الشعوب

الفصل الثالث

فى تربية الشعوب

الفصل الثالث

فى تربية الشعوب

يهدف هذا الفصل فى المقام الأول إلى التعرف على بعض الاتجاهات العالمية المرتبطة بتربية الطفل قبل المدرسة فى مختلف المؤسسات المعنية . ويترك الأمر للقارىء فى نظرته الناقدة وإبداء رأيه فيما يقرأ عن بعض شعوب العالم وهى تربى أطفالها .

ولا يضيرنا أن نستفيد من بعض نتائج خبرات وتجارب غيرنا فى ميدان التربية، كما نستفيد من إنجازاتهم فى ميادين متعددة. وأن تتم الاستفادة واضعين فى الاعتبار أساسا ظروف مجتمعنا وإمكاناته، وتعاليم الدين وقيمنا ... وكل ذلك من أجل خير المجتمع وتقدمه .

ينقسم هذا الفصل إلى أربعة أقسام رئيسية تتناول تربية الطفل قبل المدرسة . القسم الأول عن الاتحاد السوفيتى ، والقسم الثانى عن الولايات المتحدة الأمريكية ، ويعترض القسم الثالث لمجموعة اتجاهات فى بعض الدول فى أنحاء متفرقة من العالم . أما القسم الرابع فيعرض فى عجالة سريعة لبعض الاقتراحات التى قد تفيد الدول النامية فى مجال تربية الطفل قبل المدرسة .

أولا : الاتحاد السوفيتى

مع الاعتراف بأن هناك اختلافات عقائدية وغيرها بين مجتمعنا ومجتمع الاتحاد السوفيتى ، إلا أننا نتناول فى هذا العرض السريع عن تربية الطفل قبل المدرسة أهم الاتجاهات السائدة فى ذلك المجتمع السوفيتى . تهدف تربية الطفل قبل المدرسة فى الاتحاد السوفيتى إلى «إمداد الطفل فى مراحل عمرية مبكرة بالظروف المادية والنفسية والاجتماعية المؤدية إلى تنمية فى شمول وتكامل ، والتى قد لا تتوفر فى المنازل أو البيئات الاجتماعية» .

وتدل الإحصاءات على أن أكثر من ١٠٪ من جميع أطفال الاتحاد السوفيتى تحت سن الثانية يلتحقون بدور الحضانة ، وأن ٢٠٪ من الأطفال فيما بين سن الثالثة والسادسة يلتحقون برياض الأطفال . ويلتحق الأطفال عامة إما بمؤسسات داخلية أو بمؤسسات يطلق عليها (مدارس اليوم الطويل) الذى يمتد من الصباح الباكر إلى بعد الظهر المتأخر ، وبذلك توفر الدولة نفقات المبيت ومستلزماته . ويحلو للبعض أن يطلق على هذه الدور والمؤسسات لفظ المجمعات أو الجماعيات ، "Collectives" . وأولوية القبول فى هذه المجمعات أو الجماعيات هى للأطفال الذين يأتون من أسر ، يعمل الوالدان وتحتم ظروفهما عدم تواجدهما أثناء اليوم مع الطفل .

وسوف نتعرف بعض الإمكانات والوسائل المستخدمة فى تنشئة الأطفال فى هذه المجمعات ونتائجها ، والتى دعت أحد المربين الأمريكيين وهو جون هـ . فيشر ، العميد الأسبق لكلية المعلمين بجامعة كلومبيا بنيويورك ، لكى يتساءل :

- لماذا يرتضى التلاميذ الأمريكيون لأنفسهم الغش فى الامتحانات ، ولا يقبل على هذا العمل التلاميذ السوفييتيون ؟

- لماذا يأخذ التلاميذ الأمريكيون أشياء لاتخصهم ، ولا يمتلكونها ولا يفعل ذلك التلاميذ السوفييتيون ؟
- لماذا يتجاهل التلاميذ الأمريكيون غيرهم ممن هم فى حاجة إلى نجدة أو مساعدة أو عون ، بينما يهرع التلاميذ السوفييتيون للمساعدة [١] ؟

ونلاحظ أنه مع تشبع هذه التساؤلات بالتعميمات إلا أن هذا يعكس اهتمام بعض الأمريكيين بالتربية فى الاتحاد السوفيتى .

وقد زار برونفينبرينر Bronfenbrenner ثلاثين مجمعا من مستويات اقتصادية متنوعة حول المدن الكبرى فى الاتحاد السوفيتى ، كما استعان بمطبوعات عن الطفولة وتنشئتها فيه ، وكتب كتابا يقارن فيه بين تنشئة الأطفال فى الاتحاد السوفيتى وفى الولايات المتحدة الأمريكية .

.... وقد لاحظنا الاهتمام الواضح والبالغ التأثير لدور التربية المنزلية فى تنشئة الطفل فى الاتحاد السوفيتى ، حيث كان برونفينبرينر يقرن الأم بالمدرسة فيقول إن الأم والمدرسة تفعلان كذا وكذا ... ومن الملاحظ أيضا أن هذا الاقتران بين البيت والبيئة المدرسية أمر وارد بصورة مستمرة فى الكتابات شرقية أو غربية عن تنشئة الأطفال قبل المدرسة ، وهذا ما يدفعنا إلى استمرار التأكيد على ضرورة وجود الصلة التعاونية بين هاتين البيئتين لصالح الطفل كفرد وكعضو ، سوف يسهم فى الارتقاء بمجتمعه بعد أن يتم تكوين اتجاهات لديه مثل الانتماء والولاء لمجتمعه الصغير والكبير . ومما يساعد

---

(١) جون هـ . فيشر. John H. Fisher.
Urie Bronfenbrenner, Two worlds of Childhood, U.S.A and U.S.S.R., Pocket Books, New York, N.Y., 1973.

(٢) المرجع السابق

على هذا التعاون بين البيئتين المنزلية والمدرسية فى الاتحاد السوفيتى ، أما أن تكون الأم متعلمة ، أو أنها تزود بعديد من النشرات والكتيبات التى توضح لها بأسلوب سهل وبالصور والأمثلة كيف يمكن أن تتعامل مع أطفالها فيما يدعو إلى نموهم السليم، خاصة فى تكوين الاتجاهات والقيم ، مما لايتعارض مع الهدف الذى تسعى إليه تربية الأطفال فى مرحلة ما قبل المدرسة .

ومما يلفت النظر أن الاهتمام الأكبر عند البيت فى تنشئة الأطفال حتى قبل ذهابهم إلى مؤسسات ما قبل المدرسة الابتدائية هو تعويد الطفل الطاعة ، طاعة الأوامر التى تلقى إليه ، وأن يسمع الكلام وينفذ ما فيه ، ويتم كل هذا فى لهجة وأسلوب مغلف بالمحبة والتعاطف والحنان . بل إن الطفل لكى يطيع ... تحاول الأم أو الأب أو الكبير إقناعه بضرورة تنفيذ ما يكلف به ، ويتم ذلك بضرب الأمثلة أو قص الحكايات الصغيرة ، أو بالمحاكاة وتقليد ما يفعله غيره . وقد لايطيع بعض الأطفال بعض الأوامر وهنا يكون التأنيب فى بداية الأمر خفيفا هينا لاخشونة فيه ، وخاليا من عقوبات قد تؤلمه نفسيا أو جسميا . وإذا استشرى العناد فى طاعة الأوامر .. فيبدأ سلوك من الكبير نحو الصغير ، يشعر الأخير فيه أن جزءا من الحنان والحب اللذين عهدهما يسحبان تدريجيا منه . وقد يتم هذا السحب بوسائل عدة كالتغيير فى ملامح وجه الكبير ، أو فى رنة صوته أو حتى لمسة يده على جسم الطفل ، أو فى عدم الاهتمام بالإصغاء لما يقول ، أو ربما فى صمت له معنى ... وهنا يشعر الطفل أن ثمة تغييرا لدى الكبير قد حدث ، وأن هذا التغيير يمسه هو ، وقد يصل إلى أنه هو سبب هذا التغيير ، وأنه قادر على إعادة الأمور إلى مجاريها الطبيعية كما كانت حتى يعود تدفق الحب والحنان يملأن وجدان الصغير .

منذ بواكير البداية فى المجمعات السوفيتية تبدأ المنشئة - وهو الوصف الذى يطلق على من تقوم بتربية الأطفال - فى تكوين لغة مشتركة للتعامل بينها وبينهم ،

كأن تستخدم حركة من يدها تعنى الصمت التام ، أو حركة أخرى تعنى التصفيق ، وثالثة تعنى حرية الحركة ... ويتم هذا وغيره مع مراعاة أمر وجد أنه عميق الأهمية ، وقد يراه بعض القراء شديد الغرابة ، ذلك أن المنشئة تخفض من قامتها حتى يصبح وجهها مع مستوى وجوه الأطفال ، فتكون عيناها فى أعينهم وليست هى عالية تنظر إليهم من عل ، ولا هم من أهل تحت يطيلون أعناقهم لينظروا إليها وهى فوق ، وإنما هى معهم فى قامتهم ، وفى لغة كلامهم ، وفى البساطة المحببة إلى نفوس الصغار .

وفى مواقف أخرى لاتضطر المنشئة إلى الانحناء حيث يكون موقع الأطفال على مستوى عال عن أرضية الغرفة ، وبذلك يؤدى هذا الموقف إلى تخطى فاصل الطول بين الأطفال والمنشئة . الأمر المهم هو هذا التجاور والاقتراب بين من تنشىء ومن ينشأون، أو ما يمكن أن يطلق عليه أيضا «التفاعل وجها لوجه» ، وهذا هو الأساس الأول .

أما الأساس الثانى فهو النظام المخطط لكل طفل ، والمقصود منه تدريب الوظيفة الحسية / الحركية وهذا النظام المخطط هو ما يطلق عليه النفسيون الغربيون تعبير «جدول للتعزيزات فى تتابع زمنى» . ويقتضى هذا الجدول تقضى المنشئة فترة زمنية محددة مع كل طفل بهدف تدريب وتنمية حواسه مثل اللمس والسمع والبصر ... فقد يتدرب الطفل على متابعة جسم متحرك على خط أفقى أو على خط رأسى ، ويتدرب على اتزان اتجاه كفه ليلمس هذا الجسم أو غيره وذلك على أبعاد مختلفة ، وقد يتتبع مصدر صوت موسيقى آت إليه من مكان ما ...

أما الأساس الثالث فهو تعويد الطفل الاعتماد على النفس فى أداء بعض الأعمال البسيطة الخاصة به ، مثل لبس الحذاء أو خلعه والذهاب إلى دورة المياه وغسل يديه ... إلخ .

ويتم تنفيذ هذه الأسس الثلاثة من خلال التعامل بين المنشئة والأطفال مستخدمين لغة يجب على الأطفال محاكاتها فى النطق الصحيح والتعبيرات السليمة على أن تكون جمل المنشئة قصيرة وواضحة المعانى ، وإذا أصدرت للطفل أمرا كأن يلمس شيئا فعليها أن تجهز مكان الشىء ليلمسه الطفل . ومن الأمور المهمة أن هذه الأوامر أو التوجيهات تصدر فى رنة صوتية مشبعة بالحب والحنان ، ومعززة بوجه صبوح يراه الطفل أمامه حتى تقوى العلاقة بين الاثنين .

يأتى نمو السلوك الاجتماعى للطفل ممتطيا جواد نموه اللغوى ، فعن طريق اللغة يكون تفاعل بين الطفل وغيره . وليست اللغة مجرد كلمات أو تعبيرات وحسب ، ولكن أيضا طريقة قولها لغيره ، بما يشيع فيها من صفات الألفة والمودة والتعاطف .

ويتجلى السلوك الاجتماعى فى تعويد الطفل باستمرار كيف يشارك غيره من الأطفال فى أنشطة مختلفة ، وكيف يتعاون معهم لتحقيق عمل مشترك . بل إن هناك بعض أدوات اللعب التى تتطلب اشتراك طفلين أو ثلاثة فيها والاستمتاع بها . ويكون الاهتمام أيضا بالملكية الجماعية حتى يقل ماأمكن ذكر عبارة (هذه لى وحدى) أو (هذا ملكى أنا) فالمبدأ هو (ما هو لى هو ملك للجميع وما هو للجميع فهو ملكى) . وقد يشترك الأطفال أيضا فى الاستماع إلى الموسيقى أو إتيان حركات ايقاعية ، أو العزف على مجموعة من الآلات الموسيقية الصغيرة ، أو أداء بعض الأناشيد مما يشعر الطفل أنه واحد فى جماعة ، وانه يشارك غيره فى إتمام عمل ما .

تهدف المجتمعات إلى الوصول بالأطفال إلى مرحلة اعتمادهم على أنفسهم كمجموعة فيما يمكن أن نطلق عليه تعبير (الحكم الذاتى) ، وفيه تنسحب المنشئة تدريجيا ، تاركة للمجموعة زمام القيادة والأحكام ، بحيث يكون الفرد مسئولا أمام المجموعة عن تصرفاته . والرجاء هنا أن تؤخذ هذه التعبيرات التى ذكرت عن الحكم الذاتى بمدلولاتها الصحيحة فى إطار أعمال وتصرفات تصدر من أطفال ما زالوا

صغارا، ولكنهم فى نفس الوقت خاضعون لمجموعة من القواعد اعتادوها ومارسوها بعد اقتناع ، والمطلوب منهم أن يستمروا فى العمل الصحيح المرغوب فيه ، دون وجود كبير - كالمنشئة مثلا - يراقب سلوكهم . وإنما الجماعة هى الرقيب .

وتبدأ قصة هذا التكوين منذ أول يوم يزف فيه الطفل إلى المدرسة ، وهو يوم عيد بحق . كل شىء فى المجتمع الصغير المحلى الذى تقع فيه المدرسة يكاد يزغرد طربا والأطفال يدخلون باب المدرسة لأول مرة ، غالبا فى صحبة أحد الوالدين أو كليهما. وهو يوم لاينسى عند الأطفال فهم يبدأون بمقابلة المدرسات أو المنشئات ، وقد يحمل بعضهم زهورا تعبيرا عن ابتهاج حاضر وأمنية مضت وحققت وشكر لما هو قادم . المدرسات باسمات فى حماس جدية العمل المرتقب ، وسحابة من العاطفة الحانية تغطى الموقف برمته ، كأن الجميع على موعد سعيد ، وهو لقاء الصغار مع كبار يساعدون الوالدين والأسرة فى العملية التربوية .

وتمر الأيام ويعتاد الطفل بدء كل يوم بالمدرسة بتحية المنشئة ومن يقابله من العاملين بالمدرسة ، ثم تحية لغيره من الأطفال ، وأخرى خاصة وبالاسم للطفل الذى يجاوره فى حجرة الدراسة (إن صحت هذه التسمية) .

وتهدف عملية التنشئة إلى التكوين الخلقى عند الطفل (كما تراه الشيوعية) . وقد حددت لهذا التكوين برامج إجرائية ، يتعرض لها الأطفال بفاعلية فى المدرسة والبيت والمجتمع . ولكل سن برامجه الخاصة به فى تفصيل يحدد بالدقة ماذا يجب على الطفل عمله فى تلك البيئات الثلاث .

وتحتل المدرسة أو المنشئة مكانة عالية عند الأطفال وأفراد المجتمع والهيئات المسئولة للدور شديد الأهمية الذى تقوم به فى بناء أجيال المستقبل . هذا البناء يتركز على تكوين أصيل للمبادىء الخلقية التى لولاها لهدد المجتمع السوفيتى برمته .

ولذلك .. فإن مسئولية المنشئات خطيرة ومعترف بها على كافة المستويات وأجرها المادي طيب . وطبعا تعد هذه المنشئة إعدادا تربويا ونفسيا خاصا على المستويين النظرى والعملى ، قبل أن يسمح لها بالتعامل مع أطفال هذا السن المبكر ، وقبل أن تقوم بتنفيذ البرنامج المعد تفصيليا لكل سن .

وعلى سبيل المثال :

تنتظر من طفل سن السابعة أنواعا معينة من السلوك الأخلاقى ، أعد لها فى سنين سابقة وتدعمه المدرسة الابتدائية فى تعزيز مؤكد . و من أمثال هذا السلوك :

فى المدرسة

الحضور فى المواعيد المحددة ، إلقاء التحيات السابق ذكرها . إطاعة تعليمات المدرسة ، وضع الألعاب والأشياء فى أماكنها المحددة ، ومراعاة آداب الحديث عند مخاطبة الكبار ، كأن يقف قبل أن يتحدث إلى المنشئة ، ويستأذن قبل البدء فى عمل ما ، مراعاة الوقفة والجلسة والحركة الجسمية السليمة صحيا ، والمشاركة فى الأعمال الجماعية مثل تنظيف الحجرة وترتيبها ...

لاحظ أن كل هذه الأعمال وغيرها تتم بناء على تعليمات وتوجيهات من المنشئة وعلى الأطفال دائما طاعتها .

وقد تلجأ المنشئة - فى بداية الأمر - إلى تعزيز سلوك الأطفال وتشكرهم وتثنى على هذا السلوك ، ولكن بعد أن يتأصل ذلك فيهم تصبح هذه الأعمال من الواجبات والأمور التى يجب على الأطفال أداؤها ، وهنا فلا شكر على واجب .

هكذا ينشأ الطفل فى المدرسة ، وفى نفس الوقت يكون هناك تدعيم لهذه التنشئة فى البيت .

- فى البيت

على الطفل تقع مجموعة من الالتزامات والأعمال تلقى عنها التعليمات والتوجيهات والأوامر من المنشئة فى المدرسة ، وممن هم أكبر منه فى البيت الذين يتابعون سلوك الطفل . ومن هذه الأعمال العناية بملابسه كترتيبها وتعليقها ، بل أحيانا كيها إذا سمحت الظروف ، بل ينتظر منه أن يثبت زرا فى قميصه إذا لزم الأمر ، ويلمع حذاءه ، كما يشارك فى بعض الأعمال المنزلية البسيطة .

وتؤكد التنشئة الأخلاقية على ضرورة أن يشكر الطفل من معه فى البيت على ما يقدمونه من أعمال له . وللشكر معان عميقة تنمو مع نمو الفرد منذ بواكير الطفولة وغالبا ما يقترن الشكر بالابتسامة .

ولعلنا فى مجتمعنا المصرى نؤكد - منذ الأعمار الصغيرة - على دوام شكر الله وحمده، وشكر الغير فهذا يزيد الروابط ألفة حتى مع الغرباء . لاينسى المؤلفان رجلا ضخم الجسم قابلهما ذات مرة فى الطريق ، وسأل فى جفاء وجفاف واضحين عن الساعة، وقيل له كم كانت الساعة . ومشى . وكما كان فى سؤاله قليل الذوق فإنه أيضا لم يشكر ... علامات التعجب والدهشة تحيط بنا ثم بعد هنيهة قصيرة سرعان ما تبخر الاستعجاب ، وقس على ذلك ما شئت من الأمثلة .

هكذا ينشأ الطفل السوفيتى فى البيت والمدرسة معدا للتعامل مع الآخرين فى المجتمع .

- فى المجتمع

صغيرا أو كبيرا كيفما يكون ذلك المجتمع ، محليا كان أو على مستوى الدولة، أو ربما على المستوى العالمى ، المفروض ألا تغيب عن الطفل أمور لها دلالتها فى علاقته مع الأفراد صغارا أو كبارا وفى تعامله مع الممتلكات العامة . وهو يحتك

بعناصر المجتمع، وقد وعى من قبل وبعمق أن الممتلكات العامة هى أيضا ممتلكاته، وكما يراعى ما يملكه هو وخاصا به فعليه أن يراعى ما يملكه غيره وما يملكه المجتمع . بل إن الخوف والمحافظة عليها أمران ضروريان . إن الزهرة الجميلة فى حديقة عامة هى ملك الجميع ، ولا يجب أن يقطفها أحد ليتمتع هو فقط بهذا الجمال وهذا الشذى العطر . وقس على ذلك ما شئت من الأمثلة عن النظافة والأمانة ، وعدم إزعاج الغير ، ومراعاة شعورهم وإحساساتهم ، والصوت المنخفض والهادىء دون صياح أو عويل ... إلخ .

أرأيت ذلك الرجل مع ابنه طفل السادسة تقريبا مبتسما ، وهو يراه يدوس بقدميه حشيشا أخضر زاهى اللون وشجيرات قليلة من الزهور تحاول أن تنمو لتكون بهجة للمارين فى حديقة صغيرة تتوسط ميدان الجامع بمصر الجديدة ... وكأنما هى تحت من الماعز التى تجوب الحى الذى لم يعد صحراء ... !! لقد رأيناهما وهما يقترفان هذه الجريمة وعجب الأب جدا عندما وجهنا نظره لما يفعله ابنه فلذة كبده .

وتهتم التربية السوفيتية فى هذه المرحلة المبكرة من نمو الأطفال ، رجال المستقبل، بضرورة تعرفهم على المناشط البشرية فى المجتمع المحيط بهم ، كأعمال الحدادة والنجارة وما يدور داخل المخابز وأنواع الحوانيت المختلفة ، وما تقدمه من خدمات لأفراد المجتمع حتى يقدر الطفل ما يسهمون به ويصبح هو أيضا راغبا فى عمل يفيد به غيره على مختلف مراحل نموه .

ومن الظريف أن مواقف الخبرات التى يمر بها الطفل فى البيت أو المجتمع يحكى عنها فى المدرسة أمام زملائه وتحت إشراف المنشئة ، وغالبا ما يدور حوار ، وتثار تساؤلات (بعد هذا التقرير القصير) الذى ينمى الحصيلة المعرفية عند الأطفال ، وإن كانت هذه الحصيلة متواضعة فى كمها ، ولكنها تزداد تدريجيا مع سنوات الدراسة . بل إن تبادل هذه الخبرات بين الأطفال يوضح لهم أهمية المشاركة والتعاون فى الحياة ، فالجميع (بقدر المستطاع) مسهمون .

ومن الجدير بالذكر أن الأعمال التى يكلف بها الأطفال فى هذا السن سواء فى المدرسة أو البيت أو المجتمع تنسحب على الذكور والإناث على السواء .

* * *

سؤالان ضروريان بعد هذا العرض الموجز عن التنشئة فى مؤسسات ما قبل المدرسة فى الاتحاد السوفيتى .

السؤال الأول هو : **مامدى تأثير الظروف الاجتماعية على هذه التنشئة؟**

فالملاحظ أنه بعد الحرب العالمية الثانية فقد الاتحاد السوفيتى ملايين الرجال فوصلت نسبة النساء إلى الرجال إلى أكثر من ٢٠٪ زيادة ، ومؤداها أن تلعب الأم دورا بالغ الأهمية فى تربية الأطفال ، خاصة أن كثيرين من الآباء غير متواجدين بالبيت بالدرجة اللازمة . وقد أشبعت الأم أطفالها بحنان وعطف زائدين ، وفى نفس الوقت طالبتهم بالطاعة المستمرة لما تلقيه من توجيهات ، كما حملتهم أعباء مسئوليات فى وقت مبكر تتدرج فى ثقلها مع النمو العمرى للفرد .

والسؤال الثانى هو : **ما مدى تأثير تلك التنشئة على سلوك الأفراد فيما بعد ؟**

والمقصود هنا كيف يسلك أطفال تلك الجماعيات عندما يكبرون ؟ هدفت التنشئة فى كل من البيئتين المنزلية والمدرسية إلى أن تعزز كل بيئة منهما الأخرى لتنشئة أطفال يتوافقون مع مستويات الراشدين فى السلوك الخلقى المطلوب والمرغوب فيه . وقد لاحظ فريق من الباحثين التربويين والنفسانيين الذين مروا بخبرة هذه الجماعيات وتلقوا تنشئتهم الأولى فيها . ففى سلوكهم الخارجى هم مهذبون ، متنبهون، ومحددون فى العمل، كما يظهرون دافعية قوية ورغبة فى التعلم ، واستعدادا متميزا لخدمة مجتمعهم . وعلى العموم فإن هؤلاء الباحثين يرون - وهم فى

دهشة – أن لهؤلاء الشباب اتجاهات مثالية نحو الحياة . وسبب دهشتهم لهذا الاتجاه أنهم ما كانوا يتصورون أن الفلسفة السوفيتية المادية تنتج هذه الاتجاهات التى وصفوها بأنها مثالية .

ويكتب برونفنبرينر عن نتائج دراسة مقارنة بين أطفال الاتحاد السوفيتى وبريطانيا وألمانيا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية فيقول : إن نتائج الدراسة أثبتت أن أطفال الاتحاد السوفيتى أقل من غيرهم رغبة فى المشاركة فى أعمال ضارة اجتماعيا . ولكن نتائج دراسات أخرى أبانت أنهم أقل من غيرهم من جنسيات أخرى فى قول الصدق ، وفى محاولات التفهم العقلى لأسباب ماقد يصادفهم من مشكلات

هذا ... وهناك تغيرات اجتماعية واقتصادية فى الاتحاد السوفيتى ، مثل الضغوط الاقتصادية ، وارتفاع نسبة الرجال إلى النساء عما كانت عليه ، وخفض عدد ساعات العمل اليومية إلى ٦ أو ٧ ساعات فقط ... مما دفع بعض الباحثين من داخل الاتحاد السوفتى وخارجه إلى التنبؤ بأن ثمة تغييرات قد تحدث فى سياسات وأساليب تنشئة الأطفال ، إن لم تكن قد بدأت فعلا فى الحدوث . وعلى سبيل المثال فمع أن الجماعيات هى مؤسسات ناجحة فى تخريج مواطنين متوافقين مع المستويات الخلقية التى يحددها الكبار ، إلا أن القضية المطروحة هى أن تخريج دفعات متتالية من أفراد متماثلين وعلى طراز واحد من المستوى العالى من التوافق الاجتماعى قليل الفائدة بالنسبة للمجتمع ولشخصيات الأفراد أنفسهم . إن المجتمع الاشتراكى فى حاجة إلى أفراد متميزين وليسوا بالضرورة ممتازين وليسوا نسخا متكررة ، حتى يكونوا قادرين على عمل تغييرات جوهرية فى مجالات العلوم والتكنولوجيا وفى عمليات إدارة وتنظيم الانتاج . وبالنسبة للشخصيات .. فإن كل شخصية منها يهمها أن تنمى ما لديها من قدرات فطرية إلى الحد الأقصى ، وتختلف هذه القدرات من فرد إلى آخر ، هكذا تتفق رغبات وأهداف كل من المجتمع والأفراد

ثانيا : الولايات المتحدة الأمريكية

كان القرن الخامس عشر الميلادى يلفظ سنواته الأخيرة ، وكريستوفر كولومبس يتجه مع رفاقه غربا فى المحيط الأطلسى ، آملا الوصول إلى جزر الهند فى شرق آسيا طالما ساد الاعتقاد أن الأرض كروية . ولكنه حط ورجاله على أرض ما كانوا يتصورون أنها بهذا الاتساع ، وكان عالما جديدا يكتشف على ظهر الأرض .

ولجأت إلى هذا العالم الجديد أعداد وفيرة من الذين قاسوا اضطهادا دينيا أو سياسيا ، أو ممن وقعت عليهم عقوبات . وانفتحت أمام شعوب أوروبا أراض واسعة رحبة بها أمن وبعد عن حروب ، طالما أنهكت أوروبا وخضبت أرضها بالدماء الغزيرة ، وأكسبتها نزعات سياسية وخلافات دينية جعلت الأرض الخضراء والجنان الفيحاء تحمر خجلا من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، وتفوح منها روائح عفنة تصيح بأن هذه نهاية الحقد والكراهية .

وطالت النزاعات فى الأرض الجديدة بين سكانها الأصليين ، وهم الهنود الحمر ، وبين الذين يريدون أن يمكنوا لأنفسهم على هذه الأرض الواعدة بخيرات كثيرة، هى بكر على سطحها وفى باطنها . وقد اتجه القوم إلى تأمين معاشهم فى سكنهم وغذائهم وحماية نفوسهم ، وانصب تفكيرهم على هذا . وتمر سنوات طويلة عندما يبدأ التفكير فى التربية والتعليم . واعتمد هذا التفكير على سياسة استيراد المبادىء والأسس التربوية ، تماما كاستيراد الملابس والآلات الخفيفة والثقيلة من الوطن الأم فى أوروبا . ولكن الضرورة دعت عندما ساد شيء من الاطمئنان - إلى حاضر واقع وإلى مستقبل قريب إلى فتح (مدارس) ذات طابع خاص يرضى ماهو موجود وما هو مطلوب.

وعرفت الأرض الجديدة المدرسة ذات الواجهة الحمراء وذات الحجرة الواحدة التى تضم أعمارا مختلفة ، وصفوفا أيضا مختلفة وكان ثمة شيء حادث من التعليم ولا شيء حادث مما يمكن أن نطلق عليه تعبير (التربية عملية نمو) . ولكن الأمور لاتبقى على حالها فيتطور المجتمع وتنتهى الحروب بين الشمال والجنوب . ويكون استقلال للولايات عن المستعمرين الأوربيين ، ويكون علم واحد ، وتهتز سنابل القمح فى ملايين الهكتارات على الأرض ، وينقب العمال والمهندسون فى باطن الأرض عن مناجم تحوى معادن عديدة ، كما تلفظ بعض المناطق سائلا غليظ القوام أسود اللون . ويتغير وجه التربية ليحاكى الأرض الأم فى أوروبا . وعندما يتمكن الأمريكيون من أرض وطنهم ، وينعمون بما قيض لهم من خير كثير زاده عملهم وكدهم وتعبهم ، بدأوا يفكرون فى أمور تربية الأطفال والغلمان والشباب . وفتحت المئات من المدارس ، والعشرات من الجامعات التى استجلبت لها أساتذة من جامعات أوروبية ، بل ونقلت طراز العمارة كما هى محاكاة لتلك الجامعات العتيدة ذات التاريخ فى أوروبا الغربية .

وربما كانت الولايات المتحدة الأمريكية أول دولة فى العالم نادت بمجانية التعليم، فانتشرت المدارس التى تمولها سلطات الولايات وتستقبل الأطفال فى سن السادسة. كما أنشأت مدارس شبه عليا لإعداد المعلمات والمعلمين للعمل بهذه المدارس.

ويتقدم المجتمع فى خطى واثقة ومستمرة نحو مزيد من الرقى والازدهار، فيسابق الزمن فى شق الطرقات ، والتوسع فى التعليم العالى ، والتفوق فى الصناعة ، والتوسع فى الزراعة ... وفى كل مناشط الحياة التى ترفع هذا المجتمع إلى درجات سريعة عليا ، جعلت له تأثيرا فاعلا فى الحرب العالمية الأولى .

وظهرت قبل هذه الحرب اتجاهات فى التفكير التربوى ، ولكن الاهتمام كان محدودا جدا بمرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية ، أو العامة عندهم وهم يسمونها Elementary School .

إن ما يهمنا هنا هو ذلك الذى حدث فى قصة الاهتمام بتعليم أطفال ما قبل المدرسة فى هذا المجتمع الذى كان يتقدم داخلا مرحلة التصنيع . ولهذه القصة فصول تتدرج مع تدرج الفلسفات التى تتحكم فى تحديد أهداف هذه التربية التى تقدم لأطفال ما قبل المدرسة .

أولا مع بداية هذا القرن كان التأثير الانجليزى سائدا ، وهو الاهتمام الأساسى بالصحة ومراعاة قواعدها فى كل ما يتصل بالطفل ابتداء من نظافته الشخصية مستمرا إلى ملبسه وغذائه وعاداته وراحته ولعبه . وكانت الآراء وتعليمات الأختين ماكميلان MacMillan - اللتين بدأتا فى افتتاح مدارس فى لندن لرعاية أطفال الأمهات العاملات فى المصانع - التأثير الأساسى فى تحديد أهداف وبرامج تربية الأطفال بمدارس الولايات المتحدة الأمريكية . كان لهذه المدارس طابع ومذاق الخدمة الاجتماعية ، فكانت الاختان ماكميلان تحاولان تعويض هؤلاء الأطفال ما يفتقدونه فى أسرهم من غذاء صحى ، وتعرض للهواء الطلق وأشعة الشمس ، والتمتع بقسط من الرياضة والترويح . كان الاهتمام بالأطفال فى هذه المدارس وكأن الطفل هو بالدرجة الأولى جسم ينمو ، وأن هدف المدرسة هو تهيئة الظروف الصحية المناسبة لنمو هذه الأجسام . وتتمثل هذه الرعاية الصحية المكثفة فى مجموعة من الطقوس اليومية التى يجب أن تتم فى ترتيب معين ونظام لايتطرق إليهما أى خلل . إذ كانت تحية الصباح من الممرضة للطفل أن تفحص فمه وحلقه ويديه وجلده وعينيه .. إلخ ، قبل أن يسمح له بأن ينضم إلى موكب اليوم المدرسى . وتمركز دور المدرسة فى تأكيد ترسيخ العادات الصحية لدى الأطفال فى كل أعمالهم ، خاصة فى الاهتمام بالنظافة والعناية بالملابس ، وكانت دائما تعطيهم الأمثلة وتمثل أمامهم ما يجب عمله مما يتمشى مع مفهوم العادات الصحية المقبولة فى ذلك الوقت ، فلا يمسح الطفل عينيه بأصبعه ، ولا يضع أصبعه فى فمه ، ولا يلمس أشياء ثم يحك جلده ، أو يتناول طعاما مكشوفا ، أو طعاما وقع على الأرض ... إلخ .

ثانيا ويبدأ الفصل الثانى فى مراحل تطور أهداف مؤسسات ما قبل المدرسة الابتدائية باتجاه أرنولد جيزيل A. Gesell من معهد ييل لنمو الطفل ، عندما أضاف بعدا جديدا لدور هذه المؤسسات فى النمو الجسمى ومراعاة حاجات الأطفال . فقد كشفت دراساته عن وجود نظام تتابعى لنمو المهارات الحركية عند الطفل ، ووضع قائمة بمراحل تطور هذا النظام بعد دراسات مستفيضة قام بها . واندفع القوم فى حماس كالعادة متبعين الجديد والمستحدث وظنوا فى تهافتهم الشديد أن الطفل الذى لاتتم تصرفاته فى هذا التتابع يكون به خطأ ما . وصنفوا الأطفال إلى قسمين قسم سوى وهو الذى يظهر فى تصرفاته الحركية ما يتفق مع الجدول المدرج ، وقسم آخر به خطأ ما لأن التصرفات الحركية فى مرحلة ما لم تكن متوافقة مع ما جاء بالجدول . والطريف أن جيزيل أشار فى مناسبات عدة إلى أن الأطفال يختلفون فى درجات نموهم التى تفصح عن نفسها فى سلوكهم ، وأن الأطفال ليسوا سواسية بهذه الدقة وهم ينمون ، إذ إن بينهم فروقا ... ولكن للأسف فإن التمسك الجامد الغبى بالجدول الموضوع سبب سرعة صدور أحكام من المدرسات بل والأمهات على بعض سلوك بعض الأطفال الأسوياء إلى الدرجة التى أدرجوا فيها فى صف غير الأسوياء ... وهم أبرياء ، ونموهم طبيعى لاغبار عليه، وإنما كسا الغبار وجوه المدرسات .

ثالثا وجاءت هاريت جونسون Harriet Johnson منادية بأن يكون الاهتمام بجسم الطفل أكثر من مجرد العناية بصحته والمحافظة عليها ، وإكسابه عادات صحية مناسبة ، فقد اهتمت بتنمية عضلات الطفل الكبرى تلك التى يمكن للطفل بواسطتها أن يخط خطوطا أو أشكالا كبيرة ، ويقفز ويتسلق ويجرى ويسبح ، وهذه مهمة تقوم بها العضلات الكبرى فى بواكير الطفولة . وأكدت هاريت ضرورة وجود أدوات وأجهزة وإمكانات (وهى أشياء لاتتكلف كثيرا مثل بعض الشباك التى يتسلقونها ، براميل خشبية يدحرجونها أو يخترقونها من جهة إلى أخرى ، ألواح خشبية للتأرجح ،

مكعبات خشبية كبيرة يكونون منها ما شاء لهم من أشكال ... إلخ) فى مؤسسات ما قبل المدرسة لتنمية تلك العضلات الكبرى . أى أنه إلى جانب العناية بالصحة صارت رعاية للتكوين العضلى للأطفال .

وكانت هاريت جونسون مهتمة أيضا بملاحظة سلوك الأطفال ، على أن تقوم المدرسات بتدوين ما يرونه وما يلاحظنه من مختلف أنواع السلوك الطفولى ، وكان قصدها من هذا ، التعرف على حاجات الأطفال من خلال ما يصدر عنهم من سلوك .

وقد تأثرت مؤسسات تنشئة أطفال ما قبل المدرسة فى الولايات المتحدة الأمريكية فى بداية هذا القرن بآراء عديد من المفكرين التربويين والفلاسفة الأوروبيين، أمثال جان جاك روسو ، بستالوتزى ، وفروبل ، ومنتسورى الذين أسهموا إما بتهيئة مواد اللعب الذى من خلاله يتعلم الأطفال مثل(هدايا فروبل وأدوات منتسورى) أو بما قدموه من آراء فلسفية عن تربية الطفل والتى قالت إن الأطفال يتعلمون بالاحتكاك المباشر بعناصر البيئة ، أو بمرورهم فى خبرات يخرجون منها وقد اكتسبوا معلومات أو عادات ، اكتسبوها هم أنفسهم ، أى أنها لم تعط لهم أو يلقنوها من المدرسات أو غيرهن ، أى أن الخبرة المباشرة لها الأهمية بالدرجة الأولى .

وكان اتجاه تعليم الطفل بالخبرة المباشرة التى يمارسها حدثا جديدا على التعليم فى رياض الأطفال الأمريكية فى مطلع هذا القرن . إذ خرج الأطفال مع مدرساتهم إلى الحقول المجاورة ورأوا الزرع والطيور والحيوانات رؤية حقيقية، تختلف عن رؤية الصور الموجودة فى الكتب ، وعرفوا من أين يأتى اللبن الذى يشربونه .... (حدث بعد سنوات أن بعض أطفال من مدينة نيويورك سئلوا عن المصدر الذى يأتى منه اللبن ، فقال البعض من القطط البيضاء أو الأرانب ناصعة البياض ، وبعضهم قال من عند البقال . لم ير فى ذلك الوقت أطفال نيويورك حيوانات كالبقر والجاموس ، فليس فى هذه المدينة الكبيرة مزارع ولا حيوانات حقل) . كما زار الأطفال فى المدن الكبرى المصانع والموانى

إن وجدت ، ودور الصحف وما إليها مما يمكن أن يثرى ما يتحصلون عليه من معرفة بالطريق المباشر لا عن طريق نقل المعلومات اليهم بواسطة المدرسة أو الراشدين . وبذلك فإن الطفل يرى ويلاحظ ويسمع ، ثم يكون لنفسه مفهوما عن المطبعة وعملها مثلا ، ثم يعبر الأطفال عن المفاهيم التى كونوها أما بالرسم البسيط ، أو عمل نماذج من الصلصال، أو بتمثيل الأدوار . ومن الملاحظ خلو الدور السابقة للمدرسة الابتدائية فى ذلك الوقت المبكر من هذا القرن من ركن العرائس ، الذى انتشر بعد ذلك وعم كل الدور. وهذا الركن عبارة عن مكان صغير في الحجرة يحوى ما يشبه المنزل ، وأثاثا ، ودمى مختلفة .

ونما الفهم عند الطفل فى هذه المرحلة ، وعلى يد هاريت أيضا ... فصار اعتراف بأن للأطفال عقولا إلى جانب الأجسام ، وإن هذه العقول تفهم ما يصل إلى الطفل عن طريق حواسه ، ويترجم هذا الفهم فى صور شتى تختلف باختلاف الأطفال فى تفاصيلها وجزئياتها . إذن فالطفل إلى الآن له صحة يعتنى بها ، وجسم محتاج إلى الحركة ، وعقل يفكر به ... فلابد إذن أن يزود بمجموعات من الألعاب والأدوات التى تجعل الأطفال يفكرون . وهذه الألعاب تختلف عن عمليات مثل الجرى والقفز أو تبادل الكرة بين الأفراد ، ذلك لأنها تتطلب أمورا أكثر من مجرد تحريك العضلات .

يدخل الأطفال حجرة تناثرت فى أرجائها كتل خشبية فى أشكال وأحجام وألوان مختلفة . كانت موجودة منذ اليوم الماضى ، وباتت الليل ، وأصبح الصباح وهى فى أماكنها كما هى . ولكن طفلا وعنده فكرة ، وطفلا آخر وعنده فكرة أخرى ، وطفلا ثالثا وعنده فكرة ثالثة ، ويتعامل كل طفل مع هذه الكتل يبنى منها شيئا أو يتخيلها شيئا . فالفكرة زائد الجمال كونا معا شيئا . وطفل رابع اقترب من كتلة أخرى تصورها حصانا ، أى أضفى عليها معنى فكانت فى تصوره ذلك الحيوان .. .وعندما فكر الطفل أن تكون الكتلة حصانا كان يعرف ما الحصان ، وماذا يفعل ، وماذا يفعل معه

الإنسان . ولا مانع من تدخل المدرسة من وقت لآخر للتشجيع لاستثارة الابتكار إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

رابعا وأخيرا اعترف بأن للطفل انفعالات تؤثر فى تعلمه وفى علاقاته وفى إدراكه لذاته وثقته بنفسه . وفى هذه المرحلة دخل التحليل النفسى رياض الأطفال، بمعنى أن هناك عوامل داخلية عند الطفل تؤثر فى سلوكه الظاهرى . وكان ضروريا على المدرسات معرفة المحركات (الديناميات) التى تعتمل داخل الطفل وتحدد أنواع التصرفات التى تصدر عنه . ولم ينتظر من المدرسات أن يتعمقن فى حكاية التحليل النفسى هذه ، ولكنهن صرن على وعى بمراحل النمو الانفعالى عند الأطفال ، وأسباب السلوك والانطواء بعيدا عن الغير ، وبعض أسباب أنواع من السلوك غير السوى .

كان هذا الوعى الجديد بأهمية انفعالات الطفل ومراحل نمو هذه الانفعالات وانعكاساتها على سلوكه دعامة قوية فى تعرف المربين والنفسانيين على حاجات الطفل النفسية ، وأهمية مراعاتها فى التنشئة ، والأضرار التى تلحق بالأطفال إذا تجاهل الكبار هذه الحاجات ، ولم يشبعوها عند الأطفال .

والظاهر أن معرفة حاجات الطفل وفهم بعض مسائل التحليل النفسى أدى إلى إدراك جديد لانفعالات الأطفال ، فصار ينظر إليها نظرة فيها شىء من التعاطف ، أى عدم رفضها كلية ومحاولة البحث عن أسبابها ، ومعنى ذلك أن الأطفال فى هذا السن كسبوا كثيرا من الكبار ، فإن لغضبهم أسبابا ، أى أن الطفل لايعاقب على سلوك سلكه وهو غاضب لأن هناك أسبابا لهذا السلوك ... معنى ذلك أن إجراءات التشدد فى معاملة الأطفال بدأت تخف شيئا ما ، وتدريجيا بدأ التشدد يقل شيئا فشيئا حتى ترك الحبل على الغارب للأطفال بدعوى حاجتهم إلى التعبير عن انفعالاتهم وعن ذواتهم ، وأن الوقوف ضدهم فى هذا المجال أمر قد يسبب لهم متاعب نفسية قد تستمر مع مراحل النمو التالية . وإذا حدث هذا فهو أمر يسبب الانزعاج عند الكبار .

ولاترضى التربية التقدمية التى بدأت تنتشر فى أمريكا كبتا للأطفال أو حبسا لحرياتهم أو ضغوطا على سلوكهم . وقد تناسى أصحاب التربية التقدمية أن للأطفال أيضا حاجة إلى الضبط ، أى أن تكون هناك سلطة تراقب وتضبط تصرفاتهم ، إذ مع الحرية يجب أن يكون هناك نظام . وربما فكر التقدميون بهذا المعنى ولكن الاندفاع الأمريكى الهائل وراء هذا الاتجاه التقدمى الجديد جعل كثيرين يتسابقون فى إطلاق الحريات للأطفال ، حتى صارت هناك فوضى أثرت فى المدرسة الابتدائية والثانوية ، بل وفى التعليم الجامعى أيضا على المستويات التحصيلية والتصرفات الأخلاقية .

خامسا تتبلور كل الأفكار السابقة فى فكرة واحدة ، كانت هى صاحبة الكلمة العليا فى تربية الأطفال وقد مضى من القرن أكثر من ثلثه ... وهى أن الطفل ينمو ككل ... هو وحده ... هو كائن حى حر نام ، له جسم ، وعقل ، ومشاعر . وله أسرة وأصدقاء ، وله اهتمامات وميول ورغبات . وعلى المدرسة فى رياض الأطفال أن تتفهم كل هذا ، وأن تعرف على وجه اليقين أن لكل طفل فرديته الخاصة به .

***

والظاهر أن هذه الفردية تضخمت أكثر من اللازم عندما فهمت بعض آراء جون ديوى والخاصة بالنشاط فهما ربما ما كان يعجبه هو ... الذى قال ... إن الأمر المهم هو أن يعرف الطفل كيف يحصل على المعرفة ... والتربية حياة .. والتربية نمو . وتواترت الأنباء عبر القارات والمحيطات مبشرة بهذه التربية التقدمية ومناهضة للتربية التقليدية أو الكلاسيكية ، فكان اهتمام التربية التقليدية بالمعرفة والتحصيل ، واهتمام التربية التقدمية بالنشاط والتعبير عن النفس . وتمضى السنون متوالية والتقدمية متربعة على عرش التربية ، حتى جاء وقت ضج فيه أساتذة الجامعات من ضعف مستوى الطلاب فى المواد الدراسية ، خاصة فى القراءة والكتابة . وكيل اللوم على المدارس

الثانوية إذ تمنح الشهادات أو بعض الخريجين ضعاف جدا ، حيث إن منهج التعليم فى تلك المدارس الثانوية كان يتضمن مواد اختيارية وأخرى إجبارية . وكان يمكن للطالب أن يتخير السهل اليسير ويكفى نفسه مئونه ومشقة التعرض للصعب العسير من المواد .

لكن مدرسى المدارس الثانوية رفضوا اتهام الجامعات قائلين ما ذنبهم ، وقد أتى التلاميذ ضعفاء من المدارس الابتدائية (الأولية) . وكان العمل فى هذه المدارس الأخيرة مصطبغا بإمكانات مادية كثيرة ومدارس جميلة ، ووسائل تعليمية كثيرة غزيرة ، وأثاث طيب مريح ، وسيارة أتوبيس صفراء تحضر التلاميذ للمدرسة ثم تعيدهم من حيث أتوا ، ويقدم للتلاميذ اللبن وعصائر الفواكه ... وكل شىء جميل وهادىء على ساحة التعليم الأولى ... فى الظاهر . أما ما كان يدور فى الباطن فقد أزعج بعض العاقلين فى المجتمع الأمريكى ، ولكن دعواهم ضاعت وسط زحام وضجيج طبول التربية التقدمية التى رفعت أعلامها عالية دون منافس قوى .

وكانت الطامة الكبرى والمصيبة العظمى التى بدأت تدق المسامير فى نعش هذه التربية عندما أطلق الاتحاد السوفيتى قمره الصناعى سبوتنيك عام ١٩٥٧ . وتلقت التربية التقدمية الطعنات متتالية فى غير هوادة ، وجن جنون كثيرين من المسئولين لهذا التفوق العلمى الروسى وما ينطوى عليه من نتائج عسكرية ، تهدد ما يراه الأمريكيون معقل الديمقراطية . وخرجت الصحف والكتب منددة فى سخرية بفكرة النشاط والتعبير عن الذات ، والتقليل من أهمية تحصيل المعرفة ، وما إلى ذلك من الاتهامات التى ألقيت جزافا ضد التربية التقدمية ، وقد تكون بريئة من بعضها .

وتبلور الفكر الأمريكى فى مجموعة اتجاهات ، منها :

١- ضرورة الإسراع فى تغيير نظام التعليم ومناهجه وأساليبه .

٢- زيادة الاهتمام بالعلوم الطبيعية ومنها الرياضيات .

٣- اتجاه نحو الاهتمام بأساليب وبرامج إعداد المدرسين لكافة مراحل التعليم ، خاصة لمراحل التعليم الأولى وما قبله .

٤- العمل على إيجاد طرق ووسائل تسرع فى تحصيل المعرفة ، ومنها أن يبدأ التعليم فى سن مبكر ، أى فى فترة ما قبل سن السادسة ، وهى السن التى يلتحق فيها الأطفال بالصف الأول الأولى (الابتدائى) .

٥- اتجاه نحو الاهتمام بمرحلة التعليم قبل المدرسة الابتدائية .

* * *

بعد دقائق قليلة ، تبعت دقة الساعة التاسعة مساء فى واشنجتن العاصمة ، اتجهت عدسات كاميرات التليفزيون إلى وجه الرئيس الأمريكى مساء الرابع من يناير سنة ١٩٦٥ . وعندما اعتلى المنصة ليخاطب ممثلى الشعب فى مجلسهم كانت عشرات الميكروفونات متلهفة لما سيقول . وجلس الملايين من الأمريكيين وغيرهم انتظارا لحدث تاريخى يحدث للمرة الثانية فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية ، إذ يوجه رئيسها أمره لممثلى الشعب والشعب فى آن واحد .. وفى الليل ... إذن فالأمر خطير الأهمية. قال فى تؤدة وتمهل ضاغطا على مخارج الحروف ... «اقترح أن نبدأ برنامجا فى التربية ليتأكد حصول كل طفل أمريكى على أقصى درجات نموه العقلى والمهارى ... يجب أن يحصل كل طفل على أفضل تربية يمكن أن تقدمها أمتنا له ...فإلى جانب البرامج الموجودة حالية فأنا أوصى ببرنامج للمدارس والطلاب ... ولمرحلة ما قبل المدرسة سوف نساعد الأطفال المعوزين ليدركوا بهجة التعلم ...» .

ولم يسبق لتربية الطفل قبل المدرسة أن نالت هذا القدر البارز من الاهتمام على هذا الصعيد السياسى الأعلى . فبعد ثمانية أيام أرسل الرئيس جونسون خطابا إلى الكونجرس شرح فيه خطته نحو تربية الأطفال من البيئات المتواضعة اقتصاديا ، ومعبرا عن إيمانه الشديد بأهمية التربية فى سنى ما قبل المدرسة ، وتأثيراتها فى حياة كل الأفراد ... واستطرد فى خطابه .. «يجب أن تبدأ التربية مع الأطفال فى صغر العمر . فالأطفال سواء فى البيئات الحضرية أو الريفية الفقيرة غالبا ما يحكم عليهم بالفشل قبل أن يلتحقوا بالمدرسة الابتدائية (الأولية) ... وسوف يبدأ العمل الجاد فى الصيف القادم ببرنامج لتهيئة الأطفال من البيئات الاقتصادية الفقيرة حتى يلتحقوا فى الخريف بالصف الأول» .

وقد اطلق على هذا البرنامج اسم (Head Start) وقد يعنى بالعربية (البداية المنطلقة) . وهكذا بناء على أمر الرئيس بدىء هذا البرنامج فى صيف عام ١٩٦٥ ، وكانت الأقمار السوفيتية تتكاثر فى الفضاء ، ولحقتها أقمار أمريكية .

وقد أثار ابتداء هذا البرنامج حماس كثيرين من علماء التربية والنفس والاجتماع وغيرهم ، فزاروا الأماكن التى تجمع فيها الأطفال فى محاولات لتطوير البرامج التى تعد لهم كتربية سابقة للمدرسة (وعلينا ألا ننسى أن هؤلاء أطفال من بيئات فقيرة ، إذ كانت هناك مؤسسات أخرى لأبناء القادرين) . وكان هذا التكالب والاندفاع نحو برامج (هيدستارت) هادفا إلى مد فترته الزمنية من أسابيع إلى سنة كاملة أو تزيد .

واختلفت الآراء العلمية ، ونظمت دراسات وبحوث فى محاولات لوضع برامج لأطفال تلك البيئات فى ذلك السن ، آخذين فى الاعتبار الظروف الاقتصادية ، وأحوال الأسر ، والخلفيات الاجتماعية التى يأتى منها هؤلاء الأطفال الذين يراد لهم أن يلتحقوا بالصف الأول فيما بعد ، وقد أعدوا واستعدوا للدراسة فيه . ولكن التساؤل

يبرز : من كان يشرف على هؤلاء الأطفال ؟ إذ وصل الأمر إلى أن بعض الطالبات فى التعليم الثانوى كن يشرفن على الأطفال فى وقت فراغهن ويؤجرن بحفنة قليلة من الدولارات على الساعات التى يتواجدن فيها معهم . كما كانت هناك متطوعات إما بدافع الشفقة والرحمة الإنسانية ، أو الحب الأكيد للطفولة ، أو لأنهن لايجدن شيئا يعملنه ولديهن وقت فراغ ممل . وأيا كانت الدوافع فالواضح أنهن بالإجماع تقريبا لم يكن على وعى واضح بأصول التعامل التربوى والنفسى مع هؤلاء الأطفال . ومشروع (هيدستارت) تقف أمامه علامات استفهام غير قليلة .

يرى المؤلفان أن نجاح أى برنامج أو تنفيذ أى مقرر فى منهج ما يعتمد بالدرجة الأولى على من يقوم على تنفيذه ، ومدى إعداده التربوى والنفسى . ومع هذه العلامات الاستفهامية التى تتساءل فى مكر علمى ، فلبرنامج (هيدستارت) فضل لاينسى ، إذ دفع أعدادا غير قليلة من المتخصصين ، سالت لهم ملايين الدولارات سهلة، فأعملوا التفكير والدراسة والبحث وخرجوا بمجموعة أفكار واتجاهات (وربما نظريات) عن تعليم الأطفال فى مرحلة ما قبل الدراسة ، وبالذات عن الأطفال الذين يعيشون فى بيئات مستواها الاقتصادى متواضع ، ومستوى تعليم أولياء الأمور منخفض ، وتعانى أماكن السكن من كثير من السيئات التى لايمكن أن توجد فى منازل أسر ذات مستوى اقتصادى متوسط . وكان هؤلاء الأطفال يجدون الطريق سهلا إلى شوارع وأزقة فيها الفساد الصحى والأخلاقى مسيطر دون رادع أو منقذ لهم . وقد شعر المسئولون الأمريكيون بما يمكن أن يئول إليه حال هؤلاء الأطفال عندما يكبرون ، والشواهد كثيرة من الراشدين الذين تخرجوا فى هذه البيئات غير الصالحة . إذن هو دافع إنسانى ودافع نفعى يصبو إليه ذلك المجتمع الأمريكى .

على أن واقع الأمر يشير إلى مشكلة أخرى كتب عنها أمريكيون وغير أمريكيين ، مشكلة أثارتها وأشعلت نيرانها طبيعة الحياة فى مدن أمريكا الصغيرة والكبيرة على السواء . ونحن لا نتكلم هنا عن الحياة فى الريف الأمريكى الذى يضم

قرى صغيرة محدودة العدد من السكان إذا قورنت بمدن صغيرة أو كبيرة ، فقد سلب لب الصغار ذلك الساحر العجيب الذى يستدعيه الطفل بمجرد الضغط على زرار فى صندوق تحت تصرفه فى البيت . وكان إخراج البرامج التليفزيونية رائعا شد انتباه الصغار (وأيضا الكبار) فاستسلموا له دون مقاومة . جلسوا وعيونهم ترى وآذانهم تسمع وعقولهم تعى ، وانفعالاتهم تتابع الأحداث فى شوق لذيذ ، بينما هم مخدرون لهذا الذى يتدفق إليهم ، ويكون عندهم قيما واتجاهات غير مقبولة فى بعض الأحايين، وتكونت لديهم صور عن معانى البطولة منها التفوق الجسمى ، أو كيف أن الفأر ميكى ماوس بدهاء ومكر وتدبير (المقالب) يستطيع وهو صغير الجسم أن يوقع القطة وينتصر عليها .

ويخرج الأطفال إلى رفاقهم فى الشارع أو أرض واسعة (إن وجدت) يلعبون فيها ، ويتعلمون بعضهم من البعض الآخر ألفاظا لايعرف معناها كثير من أفراد الشعب الأمريكى ، ويكونون عصابات أو (شلل) صغيرة تحاول - ولو على سبيل اللعب - أن تقلد عصابات الأشرار الكبار .

بتربية هذا الساحر العجيب ورفاق الشارع المريب دخل الأطفال المدارس الأولية (الابتدائية) . ولكى نحكم حكما تقريبا على أثر هذين العاملين ، وهما ، التليفزيون وبيئة الرفاق فى الشارع نقول : إن الطفل يمضى فيهما أكثر مما يمضى فى بيئة أعدت خصيصا لحسن تربيته ، فهو يجلس أمام التليفزيون حوالى ٢٢ ساعة فى الأسبوع ، ويمضى مع الرفاق أكثر قليلا من هذا الوقت ، مما يوصل عدد تلك الساعات إلى يومين كاملين أسبوعيا ، يقع فيهما الطفل نهباً وصريعا لمؤثرات لا شك أن لها آثارا سيئة على أخلاقه . إن بعض ما يسمعه من رفاقه من أخبار أو حوادث أو حكايات هى سيئة السمعة ومشبوهة خلقيا ، وبعض المعانى التى يكتسبها من التليفزيون هى أيضا ليست على قدر مقبول من المسئولية التربوية .

وقديما قال الفيلسوف الاغريقى المعروف أفلاطون ما معناه ... هل نسمح للأطفال دون عناية لأن يستمعوا لأى شخص ولأية قصة ؟ انهم سيتلقون أخبارا وأحاديث لها معان هى أبعد ما تكون عما نريد أطفالنا أن ينشأوا عليه ، وكالسموم الخطرة على الجسم ، فكذلك هذه المعانى خطرة على عقول الأطفال .. وهذا ضد ما نود أن ينشأ عليه الأطفال وهم فى طريقهم إلى أن يصبحوا كبارا .

ولم يكن المربون والنفسانيون والاجتماعيون الأمريكيون غافلين عن هذا الخطر الذى يهدد مستقبل الأجيال الصاعدة ، فى وقت كانت قوة الاتحاد السوفيتى فيه تتزايد ، واليابان تهب عملاقة بعد أن نفضت عنها غبار الهزيمة ، وأعادت المانيا وأوروبا الغربية البناء ... وأصبحت المجتمعات المتقدمة تسابق الزمن فى سعيها إلى مزيد من التقدم.

وربما انتهت أسطورة التربية التقدمية ، وترك علماء النفس الأمريكيون الفئران والحمام وغيرها من الطيور والحيوانات تهدأ وتأمن فلا تساق إلى معامل علم النفس بالكثرة التى عهدتها أبحاث ذلك العلم . وصار ثمة حرص واضح لاهتمام متطور نحو تربية حقيقية للمتعلمين فى مختلف المعاهد ، ويهمنا هنا ماذا حدث ويحدث فى مؤسسات تعليم الأطفال قبل التحاقهم بالصف الأول .

***

دون الخوض فى تفاصيل لاتعنينا فى موضوع هذا الكتاب .. فإن مؤلفات عديدة أوضحت الارتفاع السريع والمستمر فى أعداد الأطفال الذين يلتحقون بمؤسسات التربية قبل المدرسة . ومن أمثلة هذه المؤسسات :

١- مراكز الرعاية النهارية

وهى مراكز تستقبل الأطفال أثناء اليوم ، إما لأن الوالدين يريدان إرسال الطفل إلى بيئة تربوية آمنا بأهميتها ، أو لأن الأم تعمل وتحب أن يوجد طفلها فى مكان آمن

وقديما قال الفيلسوف الاغريقى المعروف أفلاطون ما معناه ... هل نسمح للأطفال دون عناية لأن يستمعوا لأى شخص ولأية قصة ؟ انهم سيتلقون أخبارا وأحاديث لها معان هى أبعد ما تكون عما نريد أطفالنا أن ينشأوا عليه ، وكالسموم الخطرة على الجسم ، فكذلك هذه المعانى خطرة على عقول الأطفال .. وهذا ضد ما نود أن ينشأ عليه الأطفال وهم فى طريقهم إلى أن يصبحوا كبارا .

ولم يكن المربون والنفسانيون والاجتماعيون الأمريكيون غافلين عن هذا الخطر الذى يهدد مستقبل الأجيال الصاعدة، فى وقت كانت قوة الاتحاد السوفيتى فيه تتزايد، واليابان تهب عملاقة بعد أن نفضت عنها غبار الهزيمة ، وأعادت المانيا وأوروبا الغربية البناء ... وأصبحت المجتمعات المتقدمة تسابق الزمن فى سعيها إلى مزيد من التقدم.

وربما انتهت أسطورة التربية التقدمية ، وترك علماء النفس الأمريكيون الفئران والحمام وغيرها من الطيور والحيوانات تهدأ وتأمن فلا تساق إلى معامل علم النفس بالكثرة التى عهدتها أبحاث ذلك العلم . وصار ثمة حرص واضح لاهتمام متطور نحو تربية حقيقية للمتعلمين فى مختلف المعاهد ، ويهمنا هنا ماذا حدث ويحدث فى مؤسسات تعليم الأطفال قبل التحاقهم بالصف الأول .

***

دون الخوض فى تفاصيل لاتعنينا فى موضوع هذا الكتاب .. فإن مؤلفات عديدة أوضحت الارتفاع السريع والمستمر فى أعداد الأطفال الذين يلتحقون بمؤسسات التربية قبل المدرسة . ومن أمثلة هذه المؤسسات :

١- مراكز الرعاية النهارية

وهى مراكز تستقبل الأطفال أثناء اليوم . إما لأن الوالدين يريدان إرسال الطفل إلى بيئة تربوية آمنا بأهميتها . أو لأن الأم تعمل وتحب أن يوجد طفلها فى مكان آمن

تربوى . وقد أنشأت بعض المصانع الكبيرة مثل هذه المراكز ضمن أسوار المصنع ، إذ اثبتت دراسات معنية أن الأمهات يكن مطمئنات في مثل هذا التنظيم . كما أن انتاجهن يتحسن .

٢- برامج هيدستارت والبرامج التكميلية أو التعويضية

وهى قاصرة على الأطفال من سن ٤ إلى ٦ ، وبعضها يفتح للأطفال خلال فصل الصيف فقط والبعض الآخر يمتد طوال العام . ومعظم هذه البرامج يتعامل مع أطفال البيئات التى تعانى قصورا ونقصا اقتصاديا واجتماعيا . وتقدم معظم هذه المؤسسات وجبة غذائية رئيسية ، ويشرف الآن على هذه البرامج مشرفات مدربات ، ويتملكن دراسة تربوية ونفسية تتمشى مع تعاملهن مع الأطفال . والملاحظ أن تطورا جذريا حدث فى اختيار من يقمن بمهمة تربية الأطفال فى هذا المشروع ، الذى بدأ أولا بمتطوعات أو طالبات ليست لديهن أية دراية تربوية أو نفسية .

٣- رياض الأطفال

ويلتحقن بها الأطفال فى عمرى الرابعة والخامسة بحيث تنتهى التربية بالنسبة لهم ، وهم على أبواب دخول الصف الأول فى المدارس الابتدائية ، وترأس هذه الرياض فى إشراف فعال متخصصات فى التربية فى هذه المرحلة ، ومهمتهن الأساسية إعداد وتهيئة الأطفال للالتحاق بالصف الأول . بعض هذه الرياض عامة أى تنفق عليها السلطات الحكومية ، وهى بهذا مجانية ويلتحق بها أى طفل فى هذا السن . وبعضها يتبع هيئات خاصة قد تتطلب فى أغلب الأحيان مصروفات لقاء قبول الأطفال بها .

٤- مدارس تجريبية ملحقة بكليات التربية والجامعات وتنقسم إلى نوعين

نوع يقبل الأطفال قبل الثالثة ، وآخر يقبل الأطفال قبل المدرسة الابتدائية

مباشرة . وقد أدمج النوعان حديثا فى بعض الكليات والجامعات ، فامتدت السنوات التى يمضيها الأطفال فى تلك المؤسسات بحيث يمكن أن يلتحق طفل قبل الثالثة مستمرا إلى السادسة ، ويلتحق بهذه المؤسسات أبناء أعضاء هيئة التدريس أو العاملين بالكليات والجامعات ، راضين أن يكون أطفالهم خاضعين لمحاولات تجريبية ذات طابع علمى تحت إشراف الأساتذة الجامعيين المتخصصين .

٥- دور الحضانة

وتقبل الأطفال عادة ابتداء من سن الثانية والنصف، وتمتد إلى سن الخامسة، وهى غالبا مملوكة لهيئات خاصة أو تعاونيات تجمع مجموعات من أولياء الأمور ، قرروا فتح هذه الدور ليلتحق بها أطفالهم . تشرف على كل دار حضانة مشرفة مختصة فى تربية الأطفال فى تلك المرحلة، وغالبا تشترك الأمهات فى المعاونة فى الإشراف على الأطفال، الأمر الذى لقى حماسا ملحوظا مما جعل عدد الأمهات المشتركات يزداد عاما بعد عام ، حيث إن هناك تبادلا للخبرات ومزيدا من التعاون بين البيئتين المدرسية والمنزلية .

٦- تعاونيات أولياء الأمور

وهذه دور اتفق بعض أولياء الأمور على افتتاحها لمصلحة أطفالهم الذين تتاح لهم فرص التواجد المثمر فى بيئات تربوية تحت إشراف منتقى تقوم به متخصصات فى تربية الأطفال . ومن الطريف أن بعض هؤلاء المتخصصات والمتخصصين هم أنفسهم أولياء أمور الأطفال فى هذه المؤسسات . ومن الجميل أنه عندما يترك أطفالهم هذا المجتمع التربوى للالتحاق بالمدارس الابتدائية يظلون فى أداء مهمتهم النبيلة ، مساعدين بذلك أطفال جيرانهم إذا لم تتح الفرص لأولياء أمور جدد لهم أطفال يلتحقون بهذه البيئات التربوية . بل إن إسهام بعض أولياء الأمور يستمر ويستمر .

٧- مدارس اللعب Play Schools

ويلتحق بها الأطفال من سن الثانية إلى السادسة، وهى مملوكة لأفراد أو كنائس أو هيئات محلية ، تبدى الرغبة فى استضافة الأطفال فى مجموعات صغيرة حيث تهيئ لهم بيئة تربوية سليمة . بل إن فى بعض الأحيان تتقدم سيدة على قدر من الثقافة والتعليم ، وتبدى مثل هذه الرغبة التى تستجاب بعد التأكد من صلاحية الجو التربوى الذى تستطيع هذه السيدة أن تهيئه للأطفال ، وتمنح ترخيصا رسميا بصلاحيتها للقيام بهذا العمل . ويشترط وجود مكان متسع نسبيا يسمح للأطفال باللعب ، وتكاد تنحصر مهمة المشرفة فى ملاحظتهم ورعايتهم أثناء لعبهم .

٨- لم يكن غريبا من دولة كالولايات المتحدة الأمريكية أن تولى اهتماما كبيرا بالمعوقين جسميا ، فقد أعدت مؤسسات خاصة لفاقدى السمع ، وفاقدى النطق ، وفاقدى البصر ، والمعاقين من الشلل ... إلخ ، وكذلك مؤسسات خاصة للمتخلفين عقليا . وجدير بالذكر هنا أن اتجاها حديثا صار يؤخذ به فى الولايات المتحدة الأمريكية وهو إلحاق ذوى العاهات والتخلف العقلى بمدارس التعليم العام وعدم عزلهم فى دور خاصة ، بعد أن اقتنع نفسانيون وتربويون بأن خيرا للأطفال المعاقين أن يوجدوا مع غيرهم من الأسوياء فى الجوانب الانفعالية والتحصيلية على السواء .

وسوف نقدم الآن عرضا سريعا موجزا لبعض البرامج التى تقدم للأطفال والخبرات التى يمرون فيها ، أثناء وجودهم فى مؤسسات تربية الطفل قبل المدرسة ، علما بأن هذه البرامج والمشروعات والنماذج نبعت أساسا من مشروع (هيدستارت) ، ولكن الدارس المختص لهذه البرامج والنماذج يجد أنها متأثرة فعلا بما يدور فى أوربا الغربية التى استوعبت آراء المفكرين الأوروبيين . والبارزون فى هذا المضمار هم : فروبل ومنتسورى وبياجيه ومن قبلهم إلى حد بسيط بستالوتزى . وسوف نتناول فى الباب الثانى من هذا

الكتاب عرضا لأهم آراء كل من هؤلاء . والملاحظ على وجه الخصوص أن آراء منتسورى انتشرت فى بداية هذا القرن فى الولايات المتحدة الأمريكية حتى هاجمتها التربية التقدمية ، ثم عادت إلى الظهور بقوة وتأثير واضحين عندما انحسرت هذه التربية التقدمية .

كما أن هذه البرامج والمشروعات والنماذج اختلفت من بيئة إلى أخرى داخل الولايات المتحدة الأمريكية ، وهذا أمر طبيعى لعدم وجود مركزية التعليم فى تلك الدولة التى يكتفى فيها بهيئة مركزية فى العاصمة ، تضع السياسة العامة والخطوط العريضة للتربية ، وتتولى كل ولاية وضع مناهجها وكتبها وأنظمتها الداخلية . فمثلا فى تعليم القراءة فى الصف الأول .. هناك مجموعة طرق مختلفة بعضها عن البعض الآخر وتنفذ فى مناطق مختلفة ، إذ إن الأمر المهم هنا أن الطفل الأمريكى يتعلم كيف يقرأ . ومن محاسن هذه اللامركزية هذه الحرية فى تخطيط المناهج ، ويشترك فى هذا العمل المدرسون القائمون فعلا بالتدريس فى الصفوف، والموجهون ، وأساتذة التربية وعلم النفس التربوى ، بل أولياء الأمور أيضا ، وممثلون من قطاعات المجتمع الصناعى والزراعى والتجارى . القصد هنا أن تشتق المناهج من حاجات الأطفال والمجتمع ، كما أن اشتراك المدرسين فى عملية التخطيط هذه يحملهم مسئولية كبيرة فى تنفيذ هذه المناهج .

أما عن النماذج والمشروعات والبرامج التى تنفذ حاليا فيما يختص بتعليم الطفل قبل المدرسة فهى كثيرة ، سوف نتخير بعضا منها فيما يلى [1] :

أولا : نموذج تكسون للتربية المبكرة The Tucson Early Education Model

وضع بإشراف كلية التربية ، بمدينة تكسون بولاية أريزونا .

---

(1) Robert D. Hess and Doreen J. Craft, Teachers of Young Children, Houghton Mifflin Co., Boston, U.S.A 1872, pp. 150-59

المبررات والأهداف

صمم هذا البرنامج أساسا للأطفال الأمريكيين من أصل مكسيكى ، وأسس على مبدأ أن الأطفال يذهبون إلى المدارس محملين بمجموعات من الاتجاهات والمهارات، كونوها قبل التحاقهم بالدراسة ، ويجب أن يبدأ البرنامج بما لدى الأطفال فعلا . وأن يكون الاهتمام الأساسى بالمهارات اللغوية والمعرفية ، والاتجاه الإيجابى نحو المدرسة ، والفن النابع من المجتمع أى (يتدرب الأطفال على مهارات إنتاج أعمال فنية مستمدة من البيئة) .

الإجراءات

من صفات هذا النموذج اعتماده على العلاقة المباشرة بين المرشدة وكل طفل على حدة ، مستخدما أساليب التشجيع والمدح والتوجيه التى يتطلبها الموقف . وتقدم للأطفال نماذج فى مناسبات شتى يقومون بتقليدها فى السلوك والتصرفات . فمثلا تكون المرشدة نفسها نموذجا يحتذى ، أو يعرض فيلم قصير يحكى قصة لها معنى أو يقدم موقفا أخلاقيا ... وتعزز مواقف الخبرة التى يعرض لها الأطفال بخروجهم إلى جولات وزيارات خارج المدرسة .

وتهتم المرشدات باستخدام ما لدى الأطفال من نتائج خبرات سابقة ، ويعملن على حسن استغلالها والإفادة منها .

ولا يطلب من الطفل هنا أن يتعلم شيئا معينا ، ولكنه يترك لنفسه ولمثيرات البيئة المعدة والمهيئة التى تؤثر فيه ويتفاعل معها ، ويخرج من هذا الموقف وقد كسب بعض المعرفة وربما مهارة أو أكثر . كما يبدأ تكوين سلوك ما متأثرا فى ذلك بمن يتعامل معهم وهم الأطفال والراشدون والمرشدة . والمتوقع أن هذا الإجراء الذى يترك فيه الطفل للتفاعل مع غيره فى مواقف مختلفة سواء بشر أو غيرهم ، يؤدى إلى حب المدرسة . وهذا ما يسعى إليه هذا النموذج .

ثانيا : نموذج تحليل السلوك Behavior Analysis Model

أشرفت عليه جامعة كنساس .

يوجه هذا البرنامج أو النموذج للأطفال من البيئات المتواضعة اقتصاديا . والمعتاد أن الحكم على مدى نجاح أو فشل هؤلاء الأطفال فى المدرسة الابتدائية تتحكم فيه معايير ، وضعت لتلاميذ من الطبقة الوسطى اقتصاديا ، والذين يتمتعون بمثيرات أفضل ، وتشجيع مادى يدفعهم إلى مزيد من النجاح . كما أنهم يكتسبون مهارات من وجودهم فى بيئة تمنحهم فرص تكوين هذه المهارات . إذن فهناك نوعان من الأطفال : أطفال فقراء وهم يعانون الحرمان ، وأطفال مستريحون اقتصاديا ويتمتعون بالمزايا التى تؤثر على نجاحهم فى المدرسة الابتدائية وما يليها .

إذن فالمثيرات والحوافز التى يمكن أن تدفع الأطفال الفقراء لكى ينجحوا فى المدرسة فيما بعد ، تختلف فى نوعها وأسلوب تقديمها عن مثيرات تقدم لأطفال من الطبقة الوسطى وتحفزهم للنجاح . والنجاح فى المدرسة الابتدائية يتطلب مهارات معرفية واجتماعية معينة . ويعمل هذا البرنامج على تحليل وتصنيف هذه المهارت ، ثم تزويد الأطفال بالمثيرات وأنواع التعزيز والتشجيع التى تتلاءم مع خلفيتهم لتكوين هذه المهارات ، والتى تجعلهم قادرين - كأطفال الطبقة المتوسطة - على النجاح عندما يدخلون المدرسة الابتدائية .

الإجراءات

تقوم هذه الإجراءات أساسا على أن يمنح الأطفال مكافأة بسيطة عبارة عن قطع صغيرة من البلاستيك ذات ألوان مختلفة لكل لون قيمة معينة ، وذلك مقابل ما يقومون به من أعمال يكلفون بها . فعندما ينجح الطفل فى أداء عمل ما كالنجاح فى حل مسألة عددية (على مستوى بسيط جدا) مثلا أو بناء شكل ما ، أو إعادة ترتيب

مكان كما كان بالحجرة ... إلخ ، فإنه يمنح ما يوازى قيمة هذا النجاح قطعا من البلاستيك الملون ، ويجمع كل طفل ما ناله من هذه القطع ، ويمكنه أن يستبدل بها أشياء يحبها مثل مشاهدته فيلما سينمائيا ، أو استخداماته للأرجوحة ، أو سماعه أغنية مسجلة ، أو حتى استمتاعه بقسط من الراحة .

والملاحظ أن المرشدة تراقب كل طفل لإثارة من يحتاج إلى إثارة وتشجيع البعض ، وربما توجيه البعض الآخر في محاولة من جانبها للاهتمام بكل طفل وحفزه للحصول على مزيد من تلك القطع من البلاستيك .

ثالثا : نموذج الاستجابة The Responsive Model

أشرف على هذا البرنامج أحد أساتذة معهد الغرب الأقصى للبحوث والتنمية في بيركلي - كاليفورنيا .

والمقصود بالاستجابة هنا أن يستجيب الكبار للصغار ، لا أن يستجيب الصغار للكبار .

المبررات والأهداف

الهدف الرئيسي من هذا البرنامج هو بداية عملية تربوية ستفسر عن تكوين راشدين لديهم القدرة على حل المشكلات الفريدة والثقة بالنفس لمواجهة هذه المشكلات.

ويدعم فكرة هذا النموذج ، أي استجابة الكبار للصغار ، ثلاثة أسس هي :

(أ) أن الأطفال يتعلمون بدرجات متفاوتة .

(ب) أن الأطفال يتعلمون بطرق مختلفة .

(جـ) أن الأطفال إذا اهتموا وتشوقوا لما يتعلمونه فإن تعلمهم يكون أفضل .

ويركز هذا البرنامج على عدة مسلمات جاءت نتيجة بحوث سابقة ... حل المشكلات هو جوهر التعلم ... يتذكر الطفل بدرجة أفضل ما يكتشفه أو يتوصل إليه بنفسه . ويؤكد هذا البرنامج مقولة أن تتعلم كيف تتعلم ، أفضل من أن تتعلم محتوى مادة أو مجموعة معلومات . ويؤسس هذا البرنامج على دوافع الطفل الداخلية وتنمية الذات عند كل طفل .

الإجراءات

يصمم الفصل ويجهز بعديد من المواد والأجهزة حتى تتاح فرص كثيرة للطفل لكى يستكشف ويجرب ، مما يؤدى به إلى تفهم ما حوله ومحاولة إيجاد العلاقات المناسبة بين الأسباب والنتائج . والمواد والأجهزة مصممة بطريقة تسمح للطفل أن يعرف مباشرة نتيجة ما يعمل . والمفروض أن شعور الطفل برضائه عن نفسه يتم من قيامه بأداء العمل نفسه بغض النظر عن النتائج .

رابعا : النموذج ذو الطابع المعرفى Cognitively Oriented

أشرف على هذا البرنامج مؤسسة البحوث التربوية بابسلانتى بولاية متشجان .

المهرات والأهداف :

يصمم هذا البرنامج على أساس الاعتقاد بأن عملية التربية ذاتها هى أهم عوامل النجاح فى التخطيط التربوى ، وليس المنهج المستخدم مهما كان هذا المنهج . وتعتمد هذه العملية التربوية على المرشدة فى تخطيط وتنفيذ ما تراه مناسبا للأطفال ، وعلى برنامج يعد بعناية لتعليم العادات المعرفية (أى طريقة الحصول على المعرفة) ، والاتجاهات التربوية المرتبطة بسلوك الأطفال فى الاستماع والإنصات وأداء الواجب...إلخ .

الإجراءات

حتى يتم تحقيق الأهداف السابقة فقد صمم البرنامج ، بحيث يضم الأهداف العامة للمنهج والخطوط العريضة والتوجيهات . تترك للمدرسة أو للمرشدة مسئولية ترجمة هذه الأهداف العامة إلى نشاطات يومية يقوم بها الأطفال ، وعليها أن تحدد - فى صورة أهداف اجرائية - السلوك المتوقع من كل طفل بعد قيامه بكل نشاط ، ويتدرج كل نشاط من البسيط إلى المركب ، ومن المحسوس أو الملموس إلى المعقول أو المجرد ، فمثلا إذا تعامل الطفل مع ثلاث حبات من فاكهة فيمكن أن ينتقل من هذا المحسوس إلى رقم (٣) وهو الذى يرمز إلى المحسوس .

خامسا : برنامج إنجل - بيكر .. الاستخدام المنظم للمبادىء السلوكية .

Engelmann-Becker Program "The Systematic Use of Behavioral Principles"

أشرف على البرنامج أساتذة من جامعة أوريجون .

المهرات والأهداف

أدت حياة الأطفال فى البيئات الاقتصادية والاجتماعية المتواضعة إلى فشلهم فى تكوين الاتجاهات والمهارات التى تمكنهم من التقدم بنجاح فى المدارس الابتدائية ، التى تستخدم طرائق التدريس الجمعية (أى يقف المدرس أمام مجموعة من الأطفال فى فصل دراسى) . وتعطى الأهمية الأولى فى هذا البرنامج لإكساب الأطفال مهارات فى القراءة والكتابة والحساب . وتؤسس الفكرة هنا على رأى برايتر انجلمان القائل بأن «كل طفل يمكن أن يحصل دراسيا جيدا إذا كان التدريس جيدا » ، وتصمم طرق التدريس ، بحيث تؤدى إلى الإسراع فى تعلم الأطفال بدرجة تفوق الطرق التقليدية المعهودة .

الإجراءات

يقسم الأطفال إلى مجموعات (من خمسة إلى عشرة) حسب قدرات كل طفل، أى أن كل مجموعة تضم عددا من الأطفال ، ذوى قدرات تكاد تكون متساوية . ويتطلب الموقف التعليمى فى الفصل :

(أ) العمل على أن تزداد استجابات التلاميذ ، أى يقل كلام المرشدة ويزداد كلام وسلوك الأطفال .

(ب) استخدام المرشدة أساليب تشجيع وتعزيز لاستجابات الأطفال بصورة فورية ومستمرة .

(جـ) ترتيب المواد التعليمية بحيث يتدرج التعلم من البسيط إلى المركب ، وبحيث يكون هناك تسلسل منطقى مثل أن يتعلم الطفل الأعداد قبل أن يتعلم الجمع ، وتفهمه للألوان الأساسية قبل إلمامه بالألوان الأخرى .

تستخدم المرشدة قطعا من البسكوت أو الحلوى للتعبير عن رضائها عن سلوك تقبله من الطفل ، على أن يكون هذا تمهيدا لأن يقبل الطفل فيما بعد كلمة إعجاب أو شكر ، تحل محل قطعة الحلوى أو أى شىء مادى . ومن الأساليب التى تتبع فى هذا البرنامج أعمال يشترك فيها الأطفال كالتصفيق بالأيدى ، أو إصدار أصوات معينة سواء بالاستحسان أو بالاستهجان للتعبير عن ردود أفعالهم تجاه موقف معين .

ويتعلم الأطفال أيضا عن طريق تكرار سلوك معين وبسرعة معينة كالاستماع إلى أمر ثم تنفيذه ، ويتكرر هذا مرات عديدة حتى يتعود الأطفال أداء سلوك معين فى موقف معين ، مثل ما يجب عليهم عمله عند نشوب حريق .

سادسا : المدرسة التى يشرف عليها المجتمع المحلى

The Community Controlled School

ينتشر هذا البرنامج انتشارا واسعا فى ربوع الولايات المتحدة الأمريكية ، ويلقى تأييدا واسع النطاق ، ولذلك لم نتخير أى مجتمع محلى بالذات .

المبررات والأهداف

صممت فلسفة وأهداف المدرسة الابتدائية الأمريكية بحيث تتفق مع معايير الطبقة الوسطى ، ولذلك فالنجاح مشكوك فيه بالنسبة للأطفال الذين يلتحقون بها من بيئات أدنى من تلك الطبقة . ولهذا فلا يمكن أن يعزى فشل أطفال تلك البيئات إلى عيوب فيهم ، ويكمن الحل فى توطيد الصلة بين المدرسة وتلك البيئات ، حتى تتمكن المدرسة من أن تكون أكثر تجاوبا مع حاجات هؤلاء الأطفال وأسرهم .

ويتطلب هذا الأخذ فى الاعتبار برأى أولياء الأمور فيما يتصورون أنه صالح لأطفالهم. وبهذا يسقط الجدار الفاصل بين المدرسة والبيئة المحلية وبالذات بين المدرسة والبيت . ويؤدى هذا إلى شعور الطفل بشىء من الاطمئنان ، حيث توجد خطوط اتصالات بين ما يتعلمه فى المدرسة وما يجده فى البيت ، فلا يقع نهبا لمتناقضات سببها إحساسه أنه لايوجد اتفاق بين ما يحدث فى البيت وما يتعلمه فى المدرسة ، والعكس صحيح .

إن هذا الضبط البيئى يمكنه أن يمنع هذه الإشارات والإيماءات التى تصدر من المدرسات ، معبرة عن مشاعر غير حسنة تجاه ما يحدث فى بيوت الأطفال بصورة يتصورون أنها يمكن أن تمر ، ولكن أحاسيس الأطفال لاتسمح لها بهذا المرور ، مما يؤثر فى نفسياتهم .

إن أكثر ما يهم الأطفال هو الإحساس بأن ما يجرى فى المدرسة قد اشترك فى تصميمه وتدبيره آباؤهم وأمهاتهم وجيرانهم ، وهم ينتمون إليهم فى لون بشرتهم وأصلهم ، بل وفى اللغة الدارجة (العامية) التى يتعاملون بها ، إنهم فى المدرسة ليسوا غرباء ، ولكنها كمثل بيتهم .

الإجراءات

يجب أن يشترك المجتمع المحلى فى تخطيط البرامج والسياسات الخاصة بهذه المدارس واتخاذ القرارات لتنفيذها ، على أن يكون ذلك قبل أن تبدأ هذه المدارس عملها . ويتم الإجراء التنفيذى بهذا الصدد بدعوة من يهمهم الأمر للاشتراك ، والإسهام وإبداء الرأى والمشورة لوضع السياسة والتخطيط . وتتكون منهم لجان تشكل ويعهد إلى كل لجنة بمهمة لها أهداف محددة وواضحة ، منها تصميم المناهج الملائمة ، ومنها تحديد المصادر (مثل المؤسسات والمصانع ... إلخ) التى يمكنها أن تسهم فى حسن تنفيذ الخطة الموضوعة ، وربط ما يدور فى المدرسة بالمجتمع المحلى .

ركائز أساسية

يتضح من هذا العرض السريع لبعض نماذج برامج تربية الطفل قبل المدرسة مجموعة مسلمات ، تعتبر ركائز للعملية التربوية فى أهدافها ومحتواها وطرق تنفيذها ، وهى :

١- يجب أن تبدأ تربية الطفل مستندة إلى قدراته ، لأن ما يتعلمه يعتمد إلى درجة كبيرة على ما يعرفه وما لديه من خبرات سابقة . ومن الضرورى معرفة الدرجة التى وصل إليها الطفل فى نموه عند تخطيط برامج لمرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية . ولم يكن هذا الاتجاه جديدا ، إذ طالبت منتسورى بمراعاة فردية كل طفل ، وأن يبدأ فى تعليمه ارتكازا على ما اكتسبه سابقا ، كما أنها وصفت

أساليب لتقييم قدرات الأطفال . ويطلق على هذه الفكرة تعبير (تفريد التعليم) أى جعل التعليم يتناسب مع قدرة كل طفل على حدة ، ويتم هذا على خطوات ومراحل تبنى كل خطوة على سابقتها .

٢- يجب أن تتمشى أساليب التدريس مع حاجات كل طفل . فمهما تشابه الأطفال فى خبراتهم كمجموعة ، إلا أن كل طفل هو فرد مستقل بذاته وبشخصيته ... وبقدراته ومهاراته ... باهتماماته وميوله ... بمخاوفه ورغباته ... إلخ . ولكى يكون التعليم فاعلا ومؤثرا .. فيجب أن تراعى الفروق بين الأطفال بكل دقة .

٣- كلما زادت دافعية الطفل ورغبته كان تعلمه أفضل . إن تعرض الطفل لمواقف خبرة متنوعة ومتعددة ، أو إعطاء الفرصة للمشاركة فى نشاطات متعددة ، أو قيامه بمفرده بنشاط ما ، لايعنى أن الطفل سيتعلم ما نريده أن يتعلمه ، أو أنه راغب فى التعلم على الإطلاق . ويحتاج بعض الأطفال إلى مثيرات تدفعهم إلى العمل تختلف عما تقدمه المرشدة حتى ولو كان هذا ، من وجهة نظرها ، رائعا . ويجب أن تراعى المرشدة أن الأطفال يختلفون فيما تقدمه لهم من وسائل التشجيع والمكافأة بعد قيامهم بعمل ما ، فنجد طفلا ترضيه قطعة حلوى ، بينما طفل آخر يفضل كلمة مدح ، وثالث تعجبه نظرات الاعجاب الصادرة نحوه من غيره من الأطفال .

٤- لكى ينجح الطفل فى مراحل الدراسة المستقبلة ، يجب أن يتعلم منذ مرحلة ما قبل المدرسة مهارات وواجبات ومسئوليات (التلمذة) . وهذا يعنى أن سلوكه المناسب يتضمن : القدرة على الانتباه ، واتباع التعليمات والتوجيهات التى تصدر إليه ، ويفهم ماذا تتوقع المرشدة منه ، وأن يعرف كيف يعمل مع جماعة من زملائه الأطفال ، وأن يأخذ المبادرة فى العمل لا أن ينتظر سلبيا حتى تؤدى الأعمال له . ويتطلب إعداده للتلمذة المستقبلة سلوكا اجتماعيا مهما ، فلا يعمل

على تعطيل غيره أو التدخل فى نشاطهم ، أو إصدار أصوات عالية ، أو السخرية من إنتاج أو أقوال غيره من الأطفال ، وأن يعرف أن رأيه ليس هو الرأى الأوحد ، وأن يتعلم كيف يستمع لغيره ، وألا يقاطع أثناء الحديث .

ومعنى كل هذا أن الطفل لكى ينجح فى المستقبل كمتعلم .. عليه التمكن من بعض المهارات والمعارف .

٥- الأطفال المحرومون اقتصاديا أو اجتماعيا .. أو الذين يعانون ضعفا ماليا أو اجتماعيا يمكنهم أن يكتسبوا مهارات يدوية وعقلية تقدمها لهم المدرسة . إن فشل هؤلاء الأطفال أو حصولهم على درجات أقل من أطفال الطبقة الوسطى سببه خارج عن الطفل ، أى أن طرق التدريس أو المثيرات أو ما يقدم له غير مناسب ، ذلك لأنه أسس على معايير صالحة لأطفال الطبقة الوسطى . إذن أطفال البيئات المتواضعة أبرياء مما وصفوا به من أنهم غير قادرين على التعلم .

عندما أتيحت الفرص للأطفال الذين وضعتهم الظروف فى بيئات اقتصادية واجتماعية متواضعة ، أظهروا قدراتهم على النجاح فى الدراسة كغيرهم من أطفال الطبقة الوسطى . ولم يكن من العدل أو الإنصاف أن يترك الأطفال المحرومون للفشل الذى يتعقبهم فى دراستهم مهددا مستقبلهم ، وبالتالى يكونون أسرا متواضعة اقتصاديا واجتماعيا ، ويكون أطفالهم على مثل أحوالهم . إن إعداد هؤلاء الأطفال فى مرحلة ما قبل المدرسة هو إنجاز نبيل ، يحمل فى طياته معانى العدالة والمساواة .

يلحظ الدارس للتربية فى الولايات المتحدة الأمريكية فى مرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية تنوعا واختلافا واضحين سببه الحرية التى تمنحها اللامركزية فى التعليم هناك. فإن تمتع كل ولاية بفرض اختيار وتجريب طرق تدريس مثلا أو محتوى ما يتعلم الطفل ... اعطى الباحثين فى أمور التربية وعلم النفس مجالات كثيرة للدراسة والاقتراحات ، إذ لايوجد نظام موحد كما هو الحال فى بعض الدول الأخرى .

ومع ذلك فإن .. الأراء التى نادى بها مفكرون تربويون فى الماضى قد امتزجت فعلا ، فى نسيج متناسق مع اتجاهات حديثة أملتها ظروف المجتمع الأمريكى وتطوره وإمكاناته المادية فصار هذا التنوع - يوجد الآن - فى سياسات وبرامج مرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية . ولذلك فهناك فلسفات أو قل وجهات نظر متعددة فيما يختص بهذه المرحلة تتمثل فى الآتى :

- برامج أعدت مناهجها بدقة وتحديد ، وبرامج أخرى وضعت خطوطها العريضة فقط .
- برامج تهتم بالجوانب المعرفية بالدرجة الأولى ، وبرامج يكون الثقل فيها على الجوانب الانفعالية .
- برامج تهتم أساسا بالمحتوى ، وأخرى تهتم بالعملية التربوية ككل .
- برامج تعتمد على التدريس المباشر من المدرسة أو المرشدة للأطفال ، وأخرى تعتمد على إتاحة الفرص للأطفال للاستكشاف .
- برامج تعتمد على المثيرات الداخلية للطفل ، وأخرى تعتمد على مثيرات خارجية .

وهذا .. والمحاولات مستمرة ولا تنقطع لتهيئة تربية أفضل للأطفال قبل المدرسة. وعلى سبيل المثال فإن إجراءات اتبعت للتدخل فيما يقدمه التليفزيون للصغار، وإثراء العلاقة بين البيت والمدرسة ، وتحقيق التوازن بين الجوانب المعرفية والانفعالية...إلخ .

ثالثا : من الشرق والغرب والشمال والجنوب

ما كادت أوروبا الغربية تفيق من آثار الحرب العالمية الأولى حتى خضبت أرضها بدماء الحرب العالمية الثانية التى التهمت ملايين الشباب والرجال ، بل سقطت المبانى فوق النساء والأطفال من غارات جوية وقذائف مدفعية . ونتيجة لتغير الظروف الاقتصادية والاجتماعية .. اتجه المسئولون تحت وطأتها إلى عناية بارزة بأمور الأطفال الصغار ، سواء فى دور الحضانة أو فى رياض الأطفال التى تسبق مباشرة التعليم فى المدارس الابتدائية .

غير أن فلسفات هذه المؤسسات أوجدت أنواعا شتى من سياساتها . بل إن فيها من أوجه الاختلافات الشىء الكثير . ومما يزيد الأمر صعوبة عدم الاتفاق على من يتحمل مسئولية هذه المؤسسات . هل هى وزارة الصحة أو الشئون الاجتماعية ، أو التربية ... ؟ وكان من الصعب أن تشترك تلك الوزارات سويا ، إذ إن لكل وزارة ميدانها ، وبالتالى اهتمامها فيما يجب أن يدور بتلك المؤسسات سواء من ناحية تخطيط البرامج ، أو من يقوم بالاشراف أو التدريس .

وقد أسست مؤسسات تربية الأطفال قبل المدرسة فى عديد من دول أوروبا الغربية على غرار النموذج الفرنسى للحضانات والمعروف باسم الكريش Creche أو الجاردرى Garderie ، وأهدافها تكاد تنحصر فى رعاية الأطفال أثناء النهار ، حيث تخرج الأمهات للعمل ، ويقبل الأطفال من الصباح الباكر وحتى السادسة مساء . وتقبل هذه الحضانات الأطفال فى السنتين الأولى والثانية من أعمارهم . وتشرف عليهم مشرفات غير مؤهلات تربويا وأحيانا تكون ممرضة ، غير أن الموقف تغير حديثا فأصبح هناك وعى بالفوائد التربوية التى يمكن أن تعود على هؤلاء الأطفال الصغار ، مما يتطلب إعدادا خاصا للمشرفات عليهم .

وفى دول أخرى ذات المستوى الاقتصادى العالى توجد مدارس الحضانة ورياض الأطفال ، وتقبل الأطفال من سن الثالثة أو الرابعة حتى السابعة ، وهو السن الذى يلتحق فيه الأطفال بالمدارس الابتدائية فى بعض هذه الدول . وتهدف مدارس الحضانة ورياض الأطفال إلى تهيئة بيئة تربوية صالحة ، كمرحلة إعداد وتهيئة للدخول فى المدارس الابتدائية . ولذلك .. فإن الرعاية التربوية والنفسية تسود العمل فى تلك الدور . كما يشرف على الأطفال مرشدات وأحيانا مرشدون أعدوا إعدادا تربويا ونفسيا سليما . ولايمضى الأطفال فى تلك المؤسسات إلا وقتا قليلا لا يتجاوز الثلاث أو الأربع ساعات فى اليوم .

وقد يوجد النوعان من هذه المؤسسات (أى لصغار الأطفال قبل الثالثة وللأطفال بعد الثالثة) جنبا إلى جنب مع ملاحظة اختلاف مهمة كل منهما [1] .

ومنذ حوالى ثلث قرن .. ازداد الوعى بأهمية البيئة الاجتماعية التى تعد خصيصا للأطفال قبل ذهابهم إلى المدرسة الابتدائية ، كما ازداد الوعى بضرورة تكوين جسور الاتصال بين البيئتين المنزلية والمدرسية لتكمل البيئة الواحدة عمل الأخرى ، حتى يكون هناك نوع من التكامل والاتفاق فى تربية الطفل .

تتدرج هذه العلاقة بين البيئتين ، أى بين المدرسة وأولياء الأمور فتكون فى أبسط صورها اختيارية .. كأن يذهب ولى الأمر إلى المؤسسة لسؤال عن طفلة ، أو تتصل المؤسسة بولى الأمر إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

وقد يتفق بعض أولياء الأمور مع إدارة المؤسسة على تكوين مجلس آباء ، كما يحدث فى بلجيكا . أما فى السويد وسويسرا والمملكة المتحدة .. فإن الهيئات

---

(1) W.D. Wall, constructive Education for Children, The UNESCO Press, Paris, 1965, pp. 162. 69.

المسئولة تشجع إقامة هذه الروابط بين أولياء الأمور والمؤسسة ، وقد تقترح كيف يتم تنفيذ هذا النوع من التعاون والترابط . أما فى دول أخرى مثل فرنسا وهولندا والنرويج فالقانون يحتم تكوين جمعيات الآباء والمعلمين لصالح الأطفال فى تلك المؤسسات التى تسبق المدرسة الابتدائية .

وهناك بعض الدول (ومنها بلجيكا) التى تهتم فيها المؤسسة بمعرفة الظروف المنزلية لكل طفل فيها ، حتى يمكن تخطيط البرامج فى ضوء الحاجات الفعلية لهؤلاء الأطفال ، وقد يتم ذلك عن طريق زيارة المرشدة لبيوت الأطفال والتعرف على أسرهم ، أو باستخدام شرائح ملونة أعدها أحد المتخصصين ، وهى تشرح الظروف المختلفة التى يعيشها الأطفال .

ومع اختلاف السياسات التربوية التى تتبعها دول أوروبا الغربية فى إعداد مؤسسات لتهيئة الأطفال قبل التحاقهم بالتعليم الإلزامى (الابتدائى) .. فإن هناك اتفاقا مهما على أهمية هذه التنشئة وضرورتها سواء للأطفال الذين يأتون من بيئات متواضعة اقتصاديا أو غيرها ، مما أكدته أو نادت به توصيات مؤتمرات عقدت خلال ربع القرن الماضى ، بل إن هناك برامج أعدت خصيصا لأولياء الأمور لتوعيتهم بالدور الذى يجب أن يقوم به البيت فى التربية حتى يتمشى مع ما تقدمه أو تعمله المدرسة .

المملكة المتحدة

لايسمح حجم هذا الكتاب أن يتناول كل دولة فى أوروبا ويعرض الخدمات التى تقدمها لتنشئة الأطفال قبل المدرسة ، ولذلك فسوف نقتصر على عرض الموجود الآن فى واحدة من الدول الأوروبية ، وهى المملكة المتحدة .

يطلق بعض المسئولين التربويين على جميع المؤسسات التى يلتحق بها الأطفال فى الجزر البريطانية اسم حضانات Nurseries ، ولكن هذه التسمية لها مدلول آخر فى

بعض الدول العربية ، فإننا نستخدمها فيما يختص بالثلاث سنوات الأولى من عمر الطفل. أما عن المرحلة السابقة مباشرة لدخول المدرسة الابتدائية فنستخدم تسمية (رياض الأطفال) إذ هى أكثر شيوعا وقبولا لدى القارىء العربى

ويرى مؤلفو كتاب الحضانات الآن Nurseries Now (والذى رجعنا إليه سابقا) أن موقف مؤسسات ما قبل المدرسة محير جدا بل وشديد التعقيد . إذ هناك سبعة أنواع من تلك المؤسسات ، تختلف فى تبعياتها لهيئات أو وزارات ، وتختلف فى أهدافها وبرامجها وأساليبها ونوعيات المشرفين عليها وإمكاناتها المادية . . وسوف نعرض باختصار لكل مؤسسة أو دار، علما بأن مصادر المعلومات التى سنوردها هى[1]:

وسيكون العرض قاصرا على مقاطعتى انجلترا وليز من المملكة المتحدة .

أولا :

الحضانات النهارية التابعة للمجلس المحلى Council Day Nurseries وهى تقبل الأطفال تحت سن الرابعة وقلة منهم دون سن اثنى عشر شهرا . والحضانة مفتوحة من الساعة الثامنة صباحا إلى السادسة مساء ، خمسة أيام فى الأسبوع ، طوال العام .

---

(1) Department of Health and Social Security, Staff of Local Authority Social Services Department, at 30/9/76, DHSS London 1978.

Department of Health and Social Security, Children's Day Care Facilities at 31/3/1977, England, DHSS, London, 1979.

Welsh Office. Activities of Social Services Departments, Year Ended 31/3/1977, Welsh Office, Cardiff, 1978.

Department of Education and Science. Statistics of Education, 1977. Vol 1. HMSO London, 1978.

ويكون القبول حسب أولوية احتياج الوالدين أو أحدهما لضرورة تواجد الطفل تحت رعاية أثناء النهار. فيمكن للأم العاملة أن تأخذ طفلها إلى الحضانة قبل الذهاب إلى عملها وتستعيده وهى فى طريقها إلى منزلها . وتعطى الأولوية أيضا تعطى للأطفال المعوقين ، أو أن يكون أحد الوالدين معوقا ، أو تكون بيئة الطفل المنزلية فقيرة جدا ، مما يستدعى ضرورة وجود الطفل فى وسط أفضل .

وتشرف على هذه المؤسسات هيئة الخدمات الاجتماعية التابعة للمجالس المحلية. والميزانية المرصودة لكل حضانة ضعيفة نسبيا ، وتؤخذ مصروفات قليلة جدا من الآباء، قد تصل إلى بضعة قروش فى اليوم . ولذلك فإنها لاتتسم بالاتساع فى المبنى ، وإن كانت توجد هناك حديقة صغيرة ، كما أن الألعاب والأجهزة محدودة فى عددها وتنوعها . ويتناول الأطفال الذين يحضرون مبكرين ، أى قبل التاسعة ، طعام الإفطار، كما يتناول جميع الأطفال طعام الغداء وقت الظهيرة ، والشاى فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر . وينقسم الأطفال إلى (أسر) تتكون كل أسرة من ١٢ طفلا ، وتشرف عليهم ممرضة متخصصة فى الحضانات ولها مساعدة ، كما تحضر أحيانا متطوعات للمعاونة .

كما هو واضح .. فإن هدف هذه الحضانات تهيئة بيئة يجد فيها الأطفال رعاية أثناء النهار ، كتعويض لما كان المفروض أن يوجد فى بيوتهم .

ثانيا فصول ومدارس الحضانة Nursery Schools and Classes

تشرف عليها السلطات التعليمية المحلية ، وبعض هذه الحضانات ملحقة بالمدارس الابتدائية ، ولكن لها مساحة مخصصة مستقلة ، تنقسم إلى فناء وحجرات بنيت خصيصا لها . يلتحق بها الأطفال من سن الثالثة إلى الرابعة وإن وجد أحيانا عدد قليل جدا دون سن الثالثة . تشرف على الأطفال مدرسة مؤهلة تأهيلا جامعيا وأحيانا تحمل بعضهن مؤهلات أعلى من الشهادة الجامعية الأولى . وتساعد المدرسة

معاونة تحمل شهادة التمريض في دور الحضانة . وتبلغ نسبة المدرسات والمساعدات ١ لكل ١٣ طفلا. وينقسم اليوم إلى فترتين فترة قبل الظهر ، وأخرى بعد الظهر ومدة كل فترة ثلاث ساعات ، ويمكن للطفل أن يحضر الفترتين أو فترة واحدة فقط ، حسب ظروف ولي الأمر.

والحضانة مجهزة بعدد كبير ومتنوع من الأجهزة والألعاب وكميات من المواد الخام مثل الصلصال والرمل ... إلخ . وأيضا تتوفر الأدوات كالأقلام والأوراق بأحجام وألوان مختلفة وكلها في يد الأطفال ، يتعاملون معها تحت إشراف المدرسة . وللأطفال الحق في تناول اللبن الحليب في أي وقت يشاءون . وتعقب هذه الحضانة ما يسمى باسم مدرسة الطفل Infant School ، وهي سابقة مباشرة للمدرسة الابتدائية الإنجليزية . وقبل أن يترك الطفل الحضانة للالتحاق بمدرسة الطفل يتعلم كيف يكتب اسمه . وتتميز هذه الحضانات عن النوع السابق بالغنى ، واتساع المكان والمؤهلات العالية للمشرفين عليها . كما يلاحظ أن غالبية الأطفال يأتون من أسر مستريحة اقتصاديا ، وهي تسهم في نفقات الدراسة التي تهدف إلى مد الأطفال بخبرات تربوية مطلوبة قبل التحاقهم بالمدارس الابتدائية .

ثالثا : مجموعات اللعب Play Groups

الأماكن التي تستقبل الأطفال في سن الثالثة وأحيانا في الرابعة لاتضم إلا حجرة كبيرة المساحة ، وحجرة أخرى ، أو حجرتين وأمامها فناء محدود المساحة جدا ، إذ توجد هذه المجموعات بأعداد كبيرة جدا وبعضها يكون وسط مناطق سكنية مزدحمة. والإشراف الحكومي محدود ، وإنما يكون لهيئات مدنية أو خيرية أو مؤسسات دينية الفضل الأكبر في وجود هذه (المجموعات) . وتضم كل مجموعة عددا من الأطفال يتراوح بين ٢٠ و ٢٥ طفلا يحضرون من الساعة التاسعة والنصف صباحا إلى الظهر . وتشرف على الأطفال عادة مشرفة ، درست سنة واحدة في معاهد تعليم الكبار

لكى تتعرف وتتدرب على أساليب التعامل مع أطفال هذا السن . وغالبا ما تضم كل مجموعة مشرفتين ، إلى جانب المعاونة التى تتلقاها من أمهات الأطفال اللاتى يوزعن العمل بينهن بصورة دورية .

وتهيأ للأطفال فرص متوسطة لاستخدام بعض الألعاب والأجهزة التعليمية سواء داخل المبنى أو فى قطعة فضاء ملحقة به . وتتقاضى المشرفات أجورا يومية متواضعة جدا ، بل هى أقل مما يعطى لبعض الخدم ، وتحاسب على الأيام والساعات التى تحضرها ، ولا تؤجر - بالطبع - على أيام العطلات أو الفترات التى لاتستقبل فيها هذه المجموعات الأطفال . كما يدفع لكل طفل عن اليوم الذى لا يمتد أكثر من ثلاث ساعات مصاريف تتراوح حسب ظروف الأسرة ، ولكنها لاتزيد فى اليوم عن أقل من نصف جنيه .

وتهدف هذه المجموعات إلى إتاحة فرصة للأطفال للعب والتعامل مع غيرهم فى مثل أعمارهم ، كما تتاح الفرص للأمهات للتعرف - بصورة أفضل - على أساليب التعامل مع الأطفال .

رابعا : حضانات خاصة تطوعية Private/Voluntary Nurseries

وهذه تتفاوت فى عدد الأطفال الذين يقبلون بها ، وكذلك فيما تجهز به من أدوات وأجهزة ، وفى المساحة المخصصة داخل الحجرات وخارجها ، ولكنها كلها تتفق فى الهدف وهو تهيئة أساليب العناية بالأطفال ، ومدهم ببعض الخبرات الاجتماعية والتربوية . وتتراوح أعمار الأطفال بين الثالثة والرابعة والخامسة ، ويبلغ متوسط عدد الأطفال فى كل حضانة ثلاثون طفلا ، تشرف عليهم مشرفتان مؤهلتان تأهيلا متوسطا وأحيانا يكون الإشراف على يد طالبات لم يوفقن فى دراستهن الثانوية .

وتملك هذه الحضانات جمعيات أو هيئات خاصة ، والظاهر انها لاتهتم كثيرا بالانفاق عليها على الرغم من أن متوسط المصروفات التى يدفعها ولى الأمر هو

ثمانية جنيهات فى الأسبوع ، نظير وجود الطفل فى الحضانة من الساعة التاسعة حتى الرابعة بعد الظهر . ويمكن للطفل البقاء بعد الرابعة نظير أجر إضافى ، قدره جنيها عن كل نصف ساعة ، على ألا يتعدى الساعة الخامسة والنصف .

خامسا : فصول الاستقبال أو مدرسة الطفل

Reception Classes or Infant School

تتلقى الأطفال فى بداية مرحلة التعليم الاجبارى أو الالزامى (المدرسة الابتدائية) ، وتفتح أبوابها للأطفال فى سن الخامسة .

إذن فإن ما يقدم للأطفال قبل الخامسة يمكن أن يطلق عليه بالتحديد العلمى (مرحلة ما قبل المدرسة) ، وإن كانت هذه السنة الخامسة أصبحت تعتبر تمهيدا ومرحلة انتقالية، يمر فيها الطفل قبل أن يتلقى مناهج المدرسة الابتدائية . ونجد فى فرنسا على سبيل المثال أن السنة الأولى الابتدائية وهى من سن خمس سنوات تعتبر سنة تمهيدية، يعد فيها الأطفال للتعليم الابتدائى الفرنسى ، ويتشابه النظام أيضا فى بلجيكا .

وكان من رأينا فى صفحات سابقة اقتراح أن يكرس الصف الأول الابتدائى فى مدارس مصر ، ليكون بمثابة تهيئة اجتماعية وعقلية وخلقية وجسمية وانفعالية لتقبل مناهج التعليم الابتدائى التى يمكن أن تتغير عن وضعها الحالى ، أو تدمج السنوات الستة فى خمس سنوات فقط .

أما عن فصول الاستقبال فى المملكة المتحدة .. فإنها تقبل الأطفال فى حوالى سن الخامسة ، ويلتحق بهذه الفصول كل الأطفال سواء حضروا مدارس الحضانة أو لم يحضروها ، وينقسم العمل إلى فترتين أو فصلين دراسيين : فى الفصل الأول يلعب الأطفال معظم الوقت سواء داخل حجرات واسعة أو فى الخارج ، وتجهز الحجرات بألعاب تعليمية متنوعة ، كما توجد بها أدوات وخامات بوفرة . ومع تقدم العام الدراسى أى

فى الفصل الدراسى الثانى - يخضع الأطفال لتربية تهتم بتهيئتهم لما سيدرسونه فى العام التالى، فيتعلمون مهارات التلمذة المطلوبة من تلميذ المدرسة الابتدائية .

وقد سبق أن أوضحنا ماهية هذه المهارات . ويستمر العام الدراسى لمدة أربعين أسبوعا، ويتراوح عدد الساعات يوميا حسب رغبة أولياء الأمور ، لكنها لاتقل عن الفترة من التاسعة إلا ربع صباحا إلى الظهر . وفى حالة استمرار الأطفال بالمدرسة إلى .. فإنهم بعد الظهر يتناولون طعام الغداء .

أما عن مؤهلات المدرسات فالغالبية العظمى منهن مؤهلات للتدريس وللتعامل مع أطفال هذه المرحلة السابقة للتعليم الابتدائى ، ويساعدهن عدد محدود من المعاونات اللاتى يحمل بعضهن شهادة ممرضة لدور الحضانة .

ونظرا لأن الالتحاق بهذه المدارس إجبارى ومجانى .. فإن إعدادها كبيرة جدا ، مع ذلك فهناك نقص فى الأماكن لاستيعاب كل الأطفال الذين يبلغون سن الالتحاق .

سادسا : راعيات الأطفال المسجلات Registered Childminders

إنهن أمهات لديهن فى أغلب الأحيان أطفال يقمن برعايتهم ، وفى نفس الوقت ترى كل أم عددا آخر من الأطفال فى سن ما قبل المدرسة ، وهن مسجلات لدى السلطات المحلية . ولكى يتم هذا التسجيل .. لابد من توافر شروط معينة فى المكان وعدد من ترعاهن ، فلا يزيد عدد الأطفال دون الخامسة عن ثلاثة ، بما فيهم أطفال الراعية ، على أن الأمر ليس بهذه الدقة فيما يختص بالآتى :

(أ) ليست كل الراعيات مسجلات فإن بعضهن يقبلن الأطفال دون معرفة السلطات المحلية هربا من الضرائب التى من المفروض أن تدفع ، وهربا من إجراءات التفتيش الدورية والمفاجئة التى تقوم بها هذه السلطات .

(ب) عدم الالتزام بالعدد المقترح للأطفال

(جـ) امتداد الرعاية بحيث تشمل أحيانا ايواء كاملا ، أى تحتضن الراعية الطفل طوال فترة غياب الوالدين مثلا ، ويمكن للراعية أن ترعى الأطفال فى سن المدرسة فى فترات المساء ، أو فى الإجازات حسب ظروف الوالدين .

لهذا كانت الإحصاءات الرسمية دائما تشير إلى عدم كفاية المعلومات عن مراكز الراعيات اللاتى لا يشترط فيهن حمل مؤهلات معينة . ويدفع أولياء الأمور فى قلب لندن - فى المتوسط - حوالى عشرة جنيهات أسبوعيا عن كل طفل ، ومع ذلك فالمصاريف تتراوح عامة فى مناطق أخرى بين جنيهين وعشرة حسب الظروف .

وتحتفظ السلطات المحلية بقائمة انتظار للأطفال الذين ترغب أسرهم فى إلحاقهم لدى الراعيات، فى حالة مساعدة هذه السلطات لهذه الأسر بدفع مصاريف الرعاية كلها أو بعضها . والمتوقع بطبيعة الحال أن تكون الراعية مسئولة عن تدبير شئون أسرتها هى ، ثم تدبير أمور الأطفال الذين ترعاهم من حيث نظافتهم وغذائهم ونومهم وراحتهم...إلخ ، ولا يتوقع هنا إلا النزر اليسير ، أو لمحة خاطفة من تهيئة عقلية ، وقد نلمس شيئا من التربية الخلقية والاجتماعية والانفعالية .

سابعا : الحضانات الملحقة بأماكن العمل Workplace Nurseries

وأيضا يظهر هنا الخلط المربك فى التسميات للمؤسسات التى تقبل الأطفال قبل سن المدرسة ، وعادة تقبل هذه الحضانات الأطفال دون الرابعة ، وأحيانا فى سن مبكر جدا . ولكن من الضرورى أن يكون كل المقبولين من أبناء العاملات فى ذلك المصنع ، أو تلك الشركة أو هذه المؤسسة الحكومية ... إلخ . ولابد أن تكون الأم لا الوالد هى التى تعمل فى تلك الأماكن ، فإذا تركت العمل خرج طفلها معها .

وتدفع المؤسسات أو الشركات - عادة - أغلب التكاليف التى تتطلبها الحضانات ، وتدفع الأمهات الباقى الذى يخصم من مرتباتهن . وتتكون الحضانة عادة

من مجموعة حجرات سابقة التجهيز ، لها فناء صغير أو كبير حسبما تسمح الظروف ، وتتولى الإشراف على الأطفال ممرضات متخصصات فى دور الحضانة ، ولديهن بعض الدراية ببعض الأمور التربوية .

وطبيعى أن تحضر الأم طفلها عند مجيئها صباحا ، ثم تتسلمه بعد انتهاء العمل، ولا يسمح لها بزيارته أثناء فترة بقائه فى الحضانة ، والتى تمتد بامتداد ساعات العمل فى المؤسسة . ويتناول الأطفال الغداء ، ولديهم الفرصة للراحة والنوم والنشاط خارج الحجرات ، والاستمتاع بما يقص عليهم من قصص ، والتعامل مع الألعاب والأجهزة (التعليمية) المسلية ، والتى - عادة - تتوافر بكثرة فى تلك الحضانات التى تهتم بها المؤسسات التى هى ملحقة بها . فقد وجد المسئولون أن اطمئنان الأم على طفلها أثناء عملها يبعد عنها قلقا وتخوفا قد يؤثران على انتاجها . ففى أحد المصانع مثلا تتولى العمل على خط الإنتاج والسكرتارية وشئون العاملين إناث ، منهن أمهات لديهن أطفال ، أى أن جانبا كبيرا من العمل فى أيدى الإناث .

كان ذلك عرضا سريعا للمجهودات التى تبذل لرعاية وتنشئة الأطفال فى مقاطعتين بالمملكة المتحدة ، ومع تسليمنا بقول مربين بريطانيين بالخلط والارتباك فى سياسة تربية الأطفال قبل المدرسة .. فإن اهتماما واضحا يظهر فى التمشى مع ظروف الأسر فى ذلك المجتمع . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يظهر الاقتناع الكامل بالأهمية المطلقة لتهيئة بيئة صالحة ، يتواجد فيها الأطفال قبل التحاقهم بالتعليم الابتدائى . صحيح أن بعض هذه البيئات لاتخرج عن كونها أماكن يذهب إليها الأطفال فى وقت انشغال الأمهات عنهم ، لكن بعض تلك البيئات تهتم بأكثر من مجرد عملية إيواء لتمتد إلى عملية التنشئة والتهيئة ، التى تؤثر فى الطفل قبل أن يلتحق بالمدرسة الابتدائية .

وقد أشرنا فى صفحات سابقة إلى كثرة البحوث العلمية التى تجرى على هذه المرحلة وأطفالها ، وقد بينا اتجاه البريطانيين فى السنوات القليلة الأخيرة نحو تغيير أو تعديل ماهو حادث فى رعاية وتنشئة الأطفال البريطانيين . وليس الأمر قاصرا فقط على المملكة المتحدة ، بل هو شاغل البال التربوى فى مجتمعات أخرى .

وإذا كنا قد عرضنا تلك النماذج فرضنا أن يسترشد بها - مع غير قليل من التعديل - فى محاولة لاستخدام مثيلاتها أو غيرها ، مما يتفتق عنه التفكير مناسبا لظروفنا الخاصة . فالغرض الأساس هنا هو مصلحة الطفل الذى ينمو ويكبر ملتحقا بمراحل تعليمية تالية تؤدى به إلى مسئولياته فى المجتمع .

فى أقصى الشرق

هى جزيرة كبيرة ممتدة يحتويها النصف الجنوبى من الكرة الأرضية ، يسكنها عدد محدود من البشر ، وتمرح فيها ملايين من حيوان الكانجارو ... والأرانب .

يسكن أستراليا أقوام جاءوا من مجتمعات شتى ، وكان طبيعيا أن تتأثر التربية ونظامها بما عرف عنها فى مجتمعات متقدمة ، وربما كان تأثير المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية واضح المعالم فيما ساد الأنظمة التربوية فى هذه الجزيرة القارة .

والظاهر أن هناك دافعين أساسيين أديا إلى ظهور رياض الأطفال فى أستراليا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وهما :

١- رأى فروبل القائل بتهيئة بيئة منظمة يربى فيها الطفل فى مرحلة الطفولة (أسماها رياض الأطفال) نظرا لأهمية هذه المرحلة فى نمو الفرد ، ولتأثيرها على المراحل التالية .

٢ - أما الدافع الثانى فهو إنسانى فى طبيعته خاصة . أنه كان هناك اهتمام بالأطفال الذين يعيشون فى بيئات فقيرة لا تتيح لهم فرص النمو المطلوب .

ولم تكن هناك علاقة بين الدافع الثانى والدافع الأول .. لأن فروبل لم يتحدث عن الأطفال الفقراء ، وإنما عن سيدات من أسر غنية ملأ قلوبهن حب البشر ، ولم يسترحن لما يعانيه أطفال الأسر الفقيرة ، فأنشأن مجموعة من رياض الأطفال ، مركزات الاهتمام على النواحى الجسمية والصحية والتغذية . وقد قل تأثير هذا الدافع مع مرور السنوات وإن ظل له أثر فى إقبال بعض المدرسات على العمل فى رياض الأطفال ، رغم ضآلة المرتب إذا قورن بمرتبات مراحل التعليم الأخرى .

وتوجد الآن بعض مؤسسات تعليم الطفل قبل المدرسة فى الأحياء الفقيرة من المدن الكبيرة ، تديرها وتنفق عليها وزارتا الصحة والشئون الاجتماعية ، وهذا هو السبب فى أن تلك المؤسسات تهدف إلى العناية بالجوانب الصحية والجوانب الاجتماعية بالدرجة الأولى ، وهذا الاهتمام يختلف فى طبيعته عن اهتمامات وزارة التربية فى حالة اشرافها على أمثال تلك المؤسسات . ونتيجة لهذا .. ساد خلط فى سياسة رياض الأطفال فلم يوجد فكر موحد ، إذ كان هناك تأثير فروبل ، واتجاه وزارة الصحة ، ووزارة الشئون الاجتماعية ، ووزارة التربية ، وكانت هناك بعض الأفكار التى وردت عن اتجاه التحليل النفسى ، وانتشار التربية التقدمية فى أمريكا ... كان الخلط كبيرا ، عرقل حركة تطوير رياض الأطفال ، بل امتد هذا الأثر إلى المرحلة الابتدائية .

ظهرت آثار هذه العرقلة فى التطور فى :

١ - حيرة المدرسات العاملات برياض الأطفال فلا تحديد للجهة المسئولة عنهن وعن مستقبلهن ... هل هى وزارة الصحة ، أو الشئون الاجتماعية ، أو التربية ؟

٢ - اتجاه البعض إلى اعتبار مرحلة تربية الطفل قبل المدرسة مرحلة مستقلة عن النظام التعليمى السائد فى أستراليا أى التعليم العام والعالى ، اللهم إلا الموقف فى

جزيرة تسمانيا فى أقصى الجنوب التى رأت السلطات فيها اعتبار مرحلة ما قبل المدرسة ضمن السلم التعليمى . وبذلك قضت على الشكوك السائدة بين فئتى مدرسات رياض الأطفال ومدرسات الصف الأول الابتدائى (مدرسة الطفل) ، فقد كانت مدرسات رياض الأطفال يرين أن عمل مدرسات مدرسة الطفل تغلب عليه الناحية التعليمية ، كما كان يساور مدرسات مدرسة الطفل شك كبير فى فائدة رياض الأطفال .

والظاهر أن وجه الخلاف يكاد يتبلور فى عدم وضوح أهداف مرحلة ما قبل المدرسة ، فهل هى أهداف اجتماعية وذات طابع تهذيب الانفعالات ؟ أم أنها تركز على النمو العقلى ذى الطابع التعليمى التحصيلى ؟ [1] .

يرى بعض المسئولين أن وصف ما يتم فى هذه المرحلة بأنه «عملية تربية» أمر فيه شك ، وأمامه علامات استفهام .

أما بالنسبة لأولياء الأمور .. فإن المؤسسات التى يذهب إليها الأطفال قبل المدرسة لها وظائف متعددة ، فهى تتيح الفرص للأطفال للاختلاط والتعامل مع أطفال فى مثل أعمالهم ، كما أن الطفل يعبر عن مشاعره وأحاسيسه ، وعامة فهى مرحلة تهيئ الطفل للالتحاق بالمدرسة الابتدائية ، من حيث إنها تعد مواقف يعيشها الطفل اجتماعيا وانفعاليا وعقليا ، هى فى رأيهم مرحلة مرغوبة ولكنها ليست ضرورية .

---

(1) G.F. Ashby, Pre School Theories and Strategies, Belbourne Univ. Press, Carlton, Victoria, 1972, pp. 6-11.

على أن هناك اتجاهات حديثة نحو اعتبار هذه المرحلة جزءا من السلم التعليمى ويجب أن تكون لها أهداف تربوية واضحة ومحددة ، وأن تخطط برامجها فى ضوء هذه الأهداف ، وبذلك تبتعد عن الخلط والارتجالية وتضارب الأفكار ، وتصبح فعلا مرحلة تهيىء الطفل لدخول المدرسة الابتدائية .

ولعلنا ننتهز هذه الفرصة فنسوق مثالا نتنقل به - ونحن فى أقصى الشرق - من استراليا إلى الصين ذات الألف مليون نسمة ، والتى نهضت فى وثبات جبارة لتقول للعالم أجمع انها هنا ولها قول وعمل . واستمع إليها العالم . الاستراتيجية الصينية وهى تنشىء الأطفال لها مذاق خاص ، نحن فى مصر نتكلم كثيرا عن هذا المذاق ، ونفعل قليلا له وعنه . إذن نحاول أن نتذوقه بعد أن تذوقنا ما يحدث فى مجتمع غرب أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى .

طلعت بعض الأفكار منادية بما يسمى ضرورة تنشئة أطفالنا على حب العمل، خاصة العمل اليدوى ، وكانت اندفاعات وانفتاحات فى حماس بالغ تحت شعار التطبيق العملى للنظرى فتضمنت مناهج ومقررات (التعليم الأساسى) دراسات عملية ينتج فيها التلاميذ فى مدارسهم بعض المصنوعات ، غالبا ما يلقى أكثرها دون استفادة منه. والقول عندنا سهل والتنفيذ الجيد صعب ، ولذلك فيأخذ الهواء الكثير من الأقوال الجادة ويحملها بحمل الهزل على يد الذين ينفذون الأقوال ، وتصبح العملية فى معظمها مظهرية استعراضية ، وتكون النتيجة لاتربية ولا حب للعمل .

أطفال فى الصين فى دار حضانة متواضعة المبانى ، فى جزء منها حجرة هى (مصنع صغير) ليست به أجهزة تحتاج لأموال طائلة ، ولا اتصالات كهربائية معقدة ، ولا لفنيين متخصصين ، وإنما بها مواد بسيطة مغلفة بروح العمل الجاد والرغبة الصادقة فى زرع اتجاه لا إدعائى ولا مظهرى ، وليس معدا لاستقبال مراسلى الصحف وعدسات التليفزيون ، وصوت الموسيقى التى تعزف نغمات الإدعاء والنفاق والرياء .

فقط هي مجموعة لمبات كهربائية صغيرة تصلح للبطاريات ، وجهاز أقل من حجم اليد يقول ما إذا كانت هذه اللمبة سليمة أم فاسدة ، ثم صندوق ورقي فيه ثقوب ، ثم ورق لاصق ، ثم قيمة أخلاقية لا ترى ... هي الإيمان .

يدخل الأطفال . أمام كل طفل تلك المجموعة من الأدوات ، يختبر كل لمبة فإذا كانت صالحة وضعها في مكان مثقوب بالصندوق أعدت له . وإذا كانت فاسدة ألقاها في سلة مجاورة وعندما يكمل عدد اللمبات عدد الثقوب في صندوق ، يقفل الطفل الصندوق ويلصقه ثم ينقله إلى مكان آخر ، ويتعامل مع لمبات أخر وصندوق آخر لمدة ثلث ساعة فقط ، تتكرر مرتين كل أسبوع ، ثم إلى التصدير الخارجي .

مكان آخر هو مصنع صغير فيه حبات من الفول ، بعضها سليم صحي وبعضها فاسد وبين الحبات شوائب . مجموعة أكوام من هذا الفول في أوعية ، كل كوم في وعاء أمامه وعاءان أصغر . يدخل الأطفال ، ويتجه كل طفل إلى كومة في وعاء ، ثم يجلس وتتناول أصابعه مجموعة حبات لتفحصها عيناه . يلقى الصحيح السليم في وعاء ويلقى الفاسد والشوائب في وعاء آخر . يخرج هؤلاء الأطفال بعد أن أمضوا ثلث ساعة. يدخل أطفال آخرون ويمضون نفس المدة في تعبئة الحبات السليمة ، معهم أكياس يدورون بها جامعين الحبات السليمة . تقفل الأكياس وتوضع العلامات عليها ، وتلصق، ثم إلى التصدير الخارجي .

وننتقل إلى مصنع آخر حيث يصنف الأطفال أجزاء مختلفة ومتنوعة تستخدم في تصنيع (ماكينات) الحياكة ، ويجمعون كل صنف في صندوق ... ثم إلى مصنع إنتاج ماكينات الحياكة .

وتنتقل إلى مصنع رابع (وما أكثر تعدد واختلاف المصانع) حيث توجد فيه خيوط وبطاقات عليها اسم منتج معين ، وإرشادات خاصة به ، والبطاقة مثقوبة من طرفها.

نشاط آخر يظهر فى تلك المؤسسات الصينية الخاصة بالأطفال قبل سن المدرسة ، حيث توجد قطعة أرض زراعية محدودة المساحة . ليس الهدف منها أن يتعلم الأطفال بعض أسس الزراعة أو أثر التغذية على النبات أو أى مبادىء علمية فقط ، لكن الأمر المهم أن الأطفال يخرجون حيث تحتضنهم الأرض ، وبكل الحب ، وبكل الحماس ، يضعون البذور فيها ، وبالأيدى الحانية الصغيرة يروون ظمأها ، ثم ينتقلون إلى زرع قد نبت وارتفع يخلصونه مما يضايقه من أعشاب طفيلية ، ويلتقطون ما سقط على الأرض مما ذرته الرياح ... إنهم لايتعلمون الزراعة ولكنهم يقدرون - فى عمق - حياة الفلاح وعلاقته بالحقل وبالزرع الذى سوف يأكلون ثماره . غيرهم يتعب ويكد ويشقى حتى يأكلوا ويستمتعوا بلذة الطعام ... والقيمة الخفية هنا أن الطفل كما يعمل غيره له عليه أن يعمل هو لغيره .

هكذا تتكون الاتجاهات والقيم ، بالعمل لا بالقول . يثرى تلك الخبرات ، على سبيل المثال ، أن يذهب أطفال الحضانة إلى مصنع كبير يصنع البطاريات مثلا ، أو يصنع آلات الحياكة ، أو يستخدم البطاقات التى أعدوها ، أو ... إلخ .

الأطفال أمام الآلات الضخمة . العمال على خطوط الإنتاج يعملون . أصوات العمل هادرة قوية . السقوف عالية والآلات لاتكل ولا تقف . الحركة مستمرة والأطفال يتنقلون مكان ما والمنتج أصبح كاملا . طفل يصيح «أنا هنا اشتركت فى إتمام هذا المنتج ... أنا اشتركت فى صنعه» . هذا طفل صينى عمره خمس سنوات فى أعماقه قيمة العمل بدأت فعلا تتكون وتتمكن . هو واحد من عشرات الملايين من الأطفال كونوا وسيكونون لهذا المجتمع التقدم .

الأعمال العظيمة تتبعها أفكار عظيمة .

سر هائل فى العظمة يكمن فى الصدق والإيمان الحقيقى ، المنزه عن رغبات فيها تطلعات ذاتية واستجداء لتكوين أمجاد وقد هب شعوب وأمم فى الماضى فى كل

التكتل والالتصاق بأن تحديا كان لهم بالمرصاد . فعملوا نهارهم بكل الجد ، وناموا ليلهم يحلمون بتحدى التحدى . وهبت شعوب كرجل واحد بإيمان راسخ رسوخ الجبال ، ممتد إلى أعمق الأعماق ... ولجحوا ... ويذكرهم التاريخ الآن بالإعجاب والتقدير . وكانت أمتنا العربية فى زمن ما فى التاريخ لها الأمجاد فى كل الميادين . إنهم قوم آمنوا بربهم . وتعمق الإيمان فيهم ، أرادوا الدفاع عن هذا الإيمان فقابلوا التحدى بتحد .

اليابان دولة فى شرق آسيا دخلت الحرب العالمية الثانية ، وحققت انتصارات عسكرية مباغتة حتى سقطت قنبلتان ذريتان : إحداهما فى هيروشيما والثانية فى نجازاكى . استسلمت . كانت الهزيمة مريرة ، ولكن مقابلة التحدى كانت أفتك من أى سلاح .

عشرات الملايين من اليابانيين فى جزرهم محدودة الموارد الطبيعية وقفوا وقفة رجل واحد . التربية فى المدارس اليابانية معبأة صوب هدف واضح ، كل اليابانيين فى وقفة هائلة لمقابلة التحدى والخطر ، إذ يمكن أن يحدث الخطر فى أى وقت . إنها إرادة التحدى التى جعلت اليابان اليوم فى أقل من أربعين سنة - تكتسح أسواق العالم صناعيا . السيارات والأجهزة الالكترونية ... تغمر أسواق أوروبا الغربية وأمريكا وبجودة عالية وأسعار منافسة . إنه غزو المنهزم ، وهو غزو مكلل بالنجاح . إن تكوين العقل اليابانى لم يكن بشعارات أو خطب أو تصريحات ، أو قرع على طبول وأغان حماسية وأناشيد وطنية ومواكب ووعود ، ووفرة من باقات الورود ... وإنما كان بتهيئة المواطن اليابانى منذ طفولته وإعداده خلقيا واجتماعيا وجسميا وعقليا ، ليكون عضوا فى مجتمع هو الآن يتحدى العالم ... وموارده الطبيعية قليلة متواضعة ، لكنه يفيض إيمانا وحبا لأرضه وأهله ... إنه المزج بين الإيمان بالدافع الفردى القوى ، مع الالتزام الجماعى القوى .. وتبادل الفرد والجماعة هذا الالتزام .

وتعال معنا أيها القارىء نتساءل في بساطة [1] : إذا كان الطفل الياباني - وهو على حجر أمه - تزرع فيه هذه القيم التربوية عظيمة الشأن، فماذا تفعل مؤسسة ما قبل المدرسة ؟ ومن يذهب إليها ؟ ولماذا ؟ .

كتب ماسارو ايبوكا Masaru Ibuka مدير مؤسسة سوني الصناعية كتابا حقق توزيعا كبيرا ، عنوانه : «روضة الأطفال تأتي متأخرة»... قال فيه : إن أنسب وقت يتعلم فيه الطفل بطريقة مخططة ، أي نظامية ، هو بواكير الطفولة . وكان من نتيجة ذلك أن يكرس الوالدان جهدا مركزا للتنمية المعرفية لطفلهما ، وتزايد عدد الأطفال الملتحقين بالحضانات (قبل رياض الأطفال)، كما لم يضن أولياء الأمور في بشراء الألعاب التعليمية لأطفالهم .

وينادي إيبوكا مثله - مثل المعلمين وعلماء التربية - بضرورة بذل مزيد من الوقت والجهد للتربية المتكاملة للطفل ، وبدلا من ذلك .. فإن أولياء الأمور يهتمون بالتعليم المدرسي من قراءة ، وكتابة ، وحساب ، فهذا في رأيهم إجراء مهم ، يؤدي إلى نجاح أبنائهم فيما بعد في مراحل التعليم . وفي هذا الصدد نجد أولياء الأمور يعدون أنفسهم مع إعدادهم لأطفالهم، لاجتياز امتحانات القبول في أكثر رياض الأطفال رقيا.

وفي دراسة حديثة .. سئلت أمهات الأطفال في سن ما قبل المدرسة عن اتجاهاتهن عن «التربية قبل المدرسة» من حيث : تنشئة أبنائهن وتعلمهم في مؤسسات معدة لذلك. أجابت الأمهات بأن عملية النمو والتنشئة تتأثر بالبيئة ، وأن صفات الطفل لا يولد بها . وأن مؤسسات ما قبل المدرسة يجب أن توفر بيئة آمنة لنمو الطفل الجسمي ، وأنه لايجب التركيز على التحصيل المعرفي ، بل يجب التأكيد على التطبيع الاجتماعي، وأن يقل الاهتمام بإعداد الطفل للمدرسة الابتدائية .

---

(١) سعد مرسي أحمد ، وكوثر كوجك : التربية والتحدي «التجربة اليابانية» مبرى هرابت (عرض وتعليق) القاهرة عالم الكتب ١٩٩١ الفصل الثاني

أما عن صفات المعلمة التى يفضلنها لأطفالهن فكانت الحنو والحرص فى الرعاية، ويأتى بعدها الصبر والحيوية . وأخيرا والأقل أهمية : صفات الحزم والشدة والمعرفة العلمية .

وتقول إحصاءات وزارة التربية والتعليم اليابانية : إنه فى عام ١٩٧٩ التحق ٦٥٪ من أطفال سن الخامسة ، و ٥٠٪ من أطفال سن الرابعة ، و ٧٫٥٪ من أطفال سن الثالثة بدور الحضانة ورياض الأطفال ، ونصف هذه النسب بدور إيواء نهارية ، بمعنى : أن كل الأطفال تقريبا فى سن الخامسة كانوا ملتحقين بمؤسسات خارج البيت . ويذكر أيضا أن ٦٣٫٨٪ من مجموع الأطفال - فى سن الثالثة والرابعة والخامسة - كانوا ملتحقين بمؤسسات تسبق المدرسة الابتدائية . وقد تضاعف عدد هذه المؤسسات من سنة ١٩٦٥ إلى ١٩٧٩ إذ بلغ عددها ١٥٠٠٠ دار ، دخلها حوالى ٢٫٥ مليون طفل منهم ٧٤٪ فى مؤسسات غير حكومية تدفع فيها مصاريف باهظة .

ونظرا لانتشار دور ما قبل المدرسة فى اليابان .. فقد تزايد نفوذها وتأثيرها بما تقدمه من بيئة ومناخ تربوى . وتوصف بأنها مثل البيئة المنزلية ، وأن ٩٦٪ ممن يقومون على تربية الأطفال من الإناث ، وكلما صغر سن الطفل تعهدته أنثى وليس رجلا . أما الجو العام فى الدار فتصفه كاثرين لويس وآخرون Catherine Lewis بأنه مشبع بالدفء والعطف ، ويبعد عن الأكاديمية المدرسية ، ويتمحور حول اللعب . ويؤكد غالبية المعلمين والمعلمات على الجوانب الاجتماعية والسلوكية ، بالرغم من رغبة أولياء الأمور فى الاهتمام الأكثر بالجوانب المعرفية ، كما يشيع تشجيع الأطفال على الاعتماد على أنفسهم فى قضاء حوائجهم كلما أمكن ذلك .

ماذا يتعلم هذا الوافد فى عالمه الجديد ؟ وبصفة عامة .. فإن الأمر فى رياض الأطفال ، والسنوات الأولى فى المدرسة الإبتدائية لايختلف جذريا عما عهده من قيم

فى البيت . ولكن السياق مختلف جداً ، فقد كانت الأم كلها للطفل ، أما فى هذه البيئة الجديدة .. فإنه واحد من كثيرين ، وإن كان الاهتمام موجوداً . وبذلك يكون الدرس الأول الذى يتعلمه الطفل هو أن غيره أيضاً لهم نفس الاهتمام ، وبذلك يتعلم الطفل اليابانى أن لغيره من الأطفال اهتماماتهم ورغباتهم أيضاً ، وعليه أن يحس بهم ويقدر مشاعرهم ، وأنه يكافىء لهذا الإحساس. وبمعنى آخر .. فإن الأمر يتجاوز انسجام الطفل مع غيره ، إلى إحساسه بأن هذا السلام والوئام مع غيره قيمة منشودة فى حد ذاتها .

أما الدرس الثانى الذى يتعلمه الطفل اليابانى ... فهو أن هناك طريقاً سليماً معيناً لأداء عمل ما ، وأن معرفة هذا الطريق تستأهل ما يبذله من جهد ، ووقت للإحاطة به. وتدريجيا ، وببطء .. يشجع الأطفال على الاستماع والتركيز ، كخطوة أولى نحو تعلم أداء الأعمال بطريقة سليمة . وبالمثل .. فإن عادات المدرسة تنساب إلى الأطفال بهدوء ، (وهذا ما تريده) مع توجيه الانتباه إلى ما يريده المعلمون ، فالروضة هى المكان الذى يتكامل فيه الطفل مع مجموعة أطفال ، وأن يستشعر الحساسية الوجدانية نحو غيره ، وأن يعرف الطريق السليم لأداء عمل ما ... هذه هى الدروس المهمة ، وهذا ما تريده هذه المؤسسة أن تعلمه لأطفالها.

وهكذا تكون تربية الشعوب ... تربية من أجل مجتمع أفضل

* * *

رابعا: مجتمعات نامية

المجتمعات النامية هي مجتمعات في طريقها إلى النمو ، وربما قطعت شوطا بسيطا ، وربما قطعت شوطا أطول . وهي صفة حلت محل صفات سابقة حملت معنى التخلف ، وتلك مجاملة دبلوماسية حتى لاتكون هناك حساسيات تمس شعور شعوب تلك المجتمعات .

وحديثنا هنا لايتعلق بمجتمع معين ، وإنما هي نظرة طائر من فوق لبعض هذه المجتمعات ... التي تنمو ، وهذه أمنية . كما أننا لن نتعرض لما يدور فيها من مجهودات تبذل في مرحلة ما قبل المدرسة (باستثناء ما يحدث في مصر) ، وإنما سوف نذلي ببعض الاقتراحات العامة التي نرجو أن تكون بناءة ، تساعد المخططين على رسم سياسات العمل بالمؤسسات السابقة للمدرسة الابتدائية .

نأخذ في الاعتبار أمرا مهم جدا ، فالفرق بين المجتمعات التي تنمو والمجتمعات المتقدمة واسع عميق ، ويزداد اتساعا وعمقا ، فعلى الرغم من محاولات المجتمعات النامية للتقدم ، إلا أن المجتمعات المتقدمة تتقدم بدرجة أكبر ... إن سباق الزمن رهيب. ومحاولة الوثوب فوق مسافات الفروق أمر أكبر بكثير من الصعوبة ، ومع ذلك فالمحاولات ضرورية وسارية ، والإرادة كفيلة بأن تحاول تقريب المسافات . السلاح هو التربية .

وربما يمكن تقسيم المجتمعات النامية إلى قسمين رئيسيين :

(أ) مجتمعات يحدث فيها تغيير مستمر وبدرجة ملحوظة .

(ب) مجتمعات يحدث فيها التغيير ولكنه بدرجة بطيئة .

أما المجتمعات الأولى فإن المستقبل فيها يتطلب إعداد الأجيال الصاعدة إعدادا يواكب التغير المرتقب في ذلك المستقبل ، وهذا غير الذي يحدث في المجتمعات بطيئة التغيير ، والتي توصف أحيانا بأنها مجتمعات ثابتة . وهذه المجتمعات

لاتتطلب إعدادا معينا للأجيال الصاعدة ، اللهم إلا إذا ارتأى المسئولون أن يبدأ التغيير السريع فى سنوات قادمة ، وهذه المجتمعات بطيئة التغيير توصف بأن غدها كيومها ، ويومها كأمسها

وعن المجتمعات سريعة التطور ، ومجتمعنا واحد منها ، تجابه صعوبة بالغة ومعادلة صعبة .. إذ لكى يعد الفرد للمستقبل .. فيجب أن توفر له التربية فرص ممارسة أساليب التفكير ، والاحتكاك بمظاهر الثقافة التى ينتظر أن يعيش فيها فى المستقبل، والتى سيكون عضوا مسهما ومنتجا فيها . والصعوبة هنا تنشأ فى كيفية تحقيق التوازن والاستمرارية بين ما يعيشه الطفل فى حاضره ، وبين ما ينتظره فى مستقبله .

والخطر يدق نواقيس عالية الصوت إذ إن (التعليم) فى مرحلة ما قبل المدرسة وفى المدرسة الابتدائية بالصورة الراهنة يعتمد أساسا ، فى واقع ما يحدث فيها ، على الحفظ والاستظهار وتحصيل المعلومات من الكتب أو المدرسين ... مكمن الخطر قائم فى أن هذا الطفل عندما يكبر لايستطيع أن يفكر لنفسه ، لأنه لم يتعود ذلك فى طفولته وكان غيره يفكرون له فيقولون أو يكتبون وهو يحفظ على ظهر القلب . لذلك نرى ما نرى من اتجاهات تتحكم فى تفكير وسلوك كثيرين من الراشدين الذين يعملون فى المجتمع فهم ينفذون ما يلقى إليهم . والذين يلقون التعليمات يأخذونها ممن هم أعلى منهم ... وهكذا وهكذا إن فى هذا قتلا للابتكارية ، إذ يتحول الأفراد الراشدون إلى شبه آلات آدمية لا حول لها ولا قوة ويتطور الأمر فى رغبة لأن يشعر الفرد الراشد العامل بكيانه وأن له سلطانا ونفوذا ، فيقوم بأعمال توصف بأنها معرقلة معطلة ، بل وإلى التسيب والمطالبة بالحقوق أكثر من أداء الواجبات ، إذ إن المطالبة بالحقوق فيها جانب ايجابى فهو يطلب ، وربما فى أداء الواجبات هو منفذ .

وربما كان هذا [illegible] بين سلوك العاملين فى بعض المجتمعات [illegible] هو واحد من الأسباب الرئيسية فى بطء التقدم إن بناء البشر فى هذه المجتمعات فى حاجة إلى

عمليات ترميم وإصلاح وقد سبقت الإشارة إلى أن إعادة تربية الراشدين أمر شديد الصعوبة ، ولكنه ممكن بجهد جبار أو بمعجزة ممكنة الحدوث إذا توافرت القيادة والإرادة والعزم .

مشكلة المجتمعات النامية عامة تكمن في بناء الإنسان . إن عملية هذا البناء يجب أن تبدأ في بواكير الطفولة ، وهذا ما فعلته دولة مثل اليابان استسلمت في نهاية الحرب العالمية الثانية وضنت أرضها بالموارد الطبيعية ، ومع ذلك فإنها اليوم على قمة قائمة الدول الصناعية ، ومنتجاتها تغزو أرجاء العالم كله . السر يكمن في عبقرية تربية الطفل منذ بواكير طفولته ، وإعداده في تنشئة سليمة جدا ، مسلحا بقيم واتجاهات وعادات يرتضيها المجتمع وتنمو معه في مراحل عمره . والراشد مبتكر مخترع مطور ومحسن حتى عندما يقلد منتجا صناعيا في دولة أخرى ، وهو يعمل للشعب الياباني كله ، لا لنفسه .

إن هذه القيم والاتجاهات والعادات مفتقدة في كثير من الدول النامية ، ولهذا فهي تحاول جاهدة أن تنمو ، وحتى إذا حدث نمو فهو بطيء ، ولكي يسرع هذا النمو فيجب إعادة النظر جذريا في تربية الفرد ، خاصة في طفولته وبالذات تربية الأعماق

* * *

إذن ، فإن من أولويات ما يجب أن تهتم به المجتمعات النامية :

(أ) الحرص على تهيئة بيئة تربوية سليمة لتنشئة طفل ما قبل المدرسة .

(ب) أن يكون إشراف الدولة على مؤسسات هذه التنشئة إشرافا فعالا أكيدا جادا ، حتى مع تعدد الهيئات التي تتولى إنشاء وتمويل هذه المؤسسات .

(جـ) وضع فلسفة لتخطيط المناهج والبرامج التي تقدم في تلك المؤسسات التربوية .

(د) الاهتمام بالدرجة الأولى بإعداد المرشدين والمرشدات الذين سوف يتولون العمل

بهذه المؤسسات ، وألا يسمح مطلقا لغيرهم بالتعامل مع الأطفال فى تلك السنوات ذات الحساسية فى نمو الصغار عقليا واجتماعيا وخلقيا وجسميا . إذ إن كميات كبيرة من الخطورة والخطأ يمكن أن تقع ويصعب تصحيحها فى المستقبل .

وعند تخطيط المناهج والبرامج لمرحلة ما قبل المدرسة يجب أن تتضمن أنشطة متنوعة ومتعددة ، بحيث تتيح للطفل فرص :

(أ) الاستكشاف بنفسه ولنفسه بعض عناصر البيئة المحيطة به .

(ب) التجريب بالمعنى البسيط الذى يتناسب مع إدراكه وقدراته ، والأمر المهم هنا أن يترك الطفل دون التدخل المستمر من الكبار .

(جـ) تنمية رغبته فى حب الاستطلاع عندما يلقى أسئلة يريد معرفة إجابات عنها . فإذا أمكن أن تكون الإجابات ميسرة له لو جرب أو استكشف فيجب أن تتاح له الفرصة لذلك ... أسئلة أخرى تتطلب إجابات من الكبار ببساطة شديدة حتى يفهم الطفل المعنى المقصود .

(د) إدراك العلاقات بين الأسباب والنتائج (فى أبسط صورها) ، بين الأشياء بعضها والبعض الآخر ، فمثلا يصنف ويرتب الأشياء حسب أحجامها ، أو حسب مجموعات ألوانها . . أو حسب استخداماتها ... إلخ ، كبدايات لتكوين المدركات والمفاهيم .

(هـ) العمل الفردى والعمل الجماعى .

(و) الالتزام بأداء الواجبات وتحمل بعض المسئوليات البسيطة .

(ز) التعود على النظام والنظافة والترتيب ، فمثلا إذا أخذ شيئا يعيده إلى مكانه ويراعى دائما نظافة المكان ...

وغيرها من الفرص التى تؤدى إلى تكوين قيم واتجاهات مطلوبة ، ومخطط لها

بالتدريج وباستمرارية تحت الإشراف الحكيم ، مع ملاحظة أن كل هذا وغيره من أسس التنشئة الخلاقة السليمة .

يتساءل جلبرت لاندشير Gilbert de Landsheere [1] أستاذ وعميد كلية التربية بجامعة لييج ببلجيكا ... عما إذا كان التعميم الفورى لتربية طفل ما قبل المدرسة الابتدائية فى المجتمعات النامية أمرا ممكنا ؟ ويجيب قائلا : للأسف فإن الاجابة بالنفى ... لا لقصور فى الموارد فقط ولكن الأهم هو النقص البالغ فى القوى البشرية التى تستطيع أن تتعامل مع أطفال تلك المرحلة أى المدرسين والمدرسات المؤهلين . إذ إن الأمر يتطلب إعدادا تربويا ونفسيا معينا لهم حتى يمكنهم القيام بما يتوقع منهم من أعمال فى مؤسسات ما قبل المدرسة ، وهى أعمال تتطلب درجة من الفهم والوعى التربوى والنفسى لا على المستوى النظرى فقط ولكن أيضا بتدريبات وممارسات عملية مطلوبة .

ولأن غالبية المجتمعات النامية تمر فى مرحلة (ما قبل التصنيع) ، وهى بذلك تختلف عن المجتمعات المتقدمة التى تعيش مرحلة (التصنيع) ، أو مرحلة (ما بعد التصنيع) ... فإن الأمر يتطلب وقفة تفكير ، وقفة تثيرها ظروف فى تلك المجتمعات النامية وغالبيتها ارتضت توحيد التعليم فى المرحلة الأولى أى الابتدائية . ولاتستطيع بحكم قدراتها المادية أن تتيح لكل الأطفال تربية تسبق المرحلة الابتدائية . فلو أنها أعطت الفرص لعدد من الأطفال للالتحاق بمؤسسات قبل المدرسة الابتدائية فقد يؤدى هذا إلى عودة الازدواجية فى التعليم فى المرحلة الأولى ، ذلك لأن الذين يلتحقون بمؤسسات تسبق المدرسة الابتدائية قد يتفوقون على زملائهم ممن لم يلتحقوا بهذه المؤسسات ، ولكى لايوقف هذا التفوق فهم يحتاجون لنوعية خاصة من المدارس الابتدائية .

---

(1) Gilbert de Landsheere Pre School Education in Developing Countries, Prospects. Vol VII No 14. 1977, pp. 506-511.

ويدعو أيضا إلى التفكير هذه الندرة البالغة فى القوى البشرية المؤهلة التى تعمل بمؤسسات ما قبل المدرسة ، وتستطيع أن تقوم بالعملية التربوية على أصولها . إذ إن الغالبية العظمى ، والعظمى جدا ، ممن يعملون بهذه المؤسسات لايحملون أية مؤهلات تربوية ، بل إن كثيرين منهم يستطيعون بالكاد القراءة والكتابة وأداء بعض العمليات الحسابية البسيطة .

إذن ، فالأمر يكاد يكون كلية فى أيد غير أمينة تربويا ، أو بمعنى آخر فإن مالدى أفراد تلك القوى البشرية من إمكانات رخيص جدا فى مضمار عمل تربوى لأطفال فى مرحلة حساسة من أعمارهم . إن الرخيص ينتج رخيصا .

والخيار أمام الدول النامية هنا صفر ، بمعنى أنه ليس أمامها إلا الاختيار الأوحد ، وهو البعد عن الرخيص فى إعداد معلمى ومعلمات رياض الأطفال ، كما فعلت اليابان منذ مدة ليست قصيرة ... تتخرج المدرسة اليابانية التى ستعمل فى رياض الأطفال من الجامعة ، ولدينا ثقة كاملة فى هذا الاتجاه على أساس أن طبيب الأطفال يتخرج فى كلية الطب ، مثله مثل أى طبيب أمراض أخرى تصيب الغلمان والشباب والشيوخ من الذكور والإناث .

هذا هو الاختبار الأوحد ، أى أن على الدول النامية أن تعد المَدرسة والمُدرسة للعمل فى رياض الأطفال بعد دراسة أربع سنوات فى معهد عال أو جامعى ، ونظرا لأن عدد رياض الأطفال يزداد ، ويجب أن يزداد ، فإن الأمر يتطلب - فى حزم وعزم - إعداد عشرات الآلاف من هؤلاء المؤهلين للعمل فى تلك الدور . هذا ، إذا أردنا فعلا أن تكون هناك تربية حقة فى تلك الدور ، بعيدة عن المظهرية وسد الفراغات لإعطاء إحصاءات وبيانات ... ونتيجة كل هذا .. لاتربية

البرازيل وكينيا

في سبتمبر ١٩٧٧ ظهر تقرير عن أطفال الصف الأول الابتدائي في البرازيل، نشرته مجلة فيجا "Veja" [1] ... بناء عن إحصاءات وزارة التربية البرازيلية .. فإن نصف عدد أطفال الصف الأول الابتدائي (٦ر٤ مليون طفل)، لن يقدروا على اجتياز الامتحان الذي يعقد في نهاية العام، أي لن ينقلوا إلى الصف الثاني .

وتقع البرازيل في أمريكا الجنوبية ، ممتدة في اتساع بين المحيطين الأطلسي والهادي ، وتغطيها مساحات شاسعة من الغابات التي تحوي أسرارا كثيرة ، بل إن بعض مناطقها لم تطأها أقدام البشر بعد ، بنيت عاصمتها الجديدة برازيليا ، وعلى طرز حديثة . ودائما تذكر البرازيل مقترنة بالقهوة ، ومن الطريف أن واحدا كان مقدرا له أن يذهب ويعيش فترة في البرازيل فتعلم اللغة الأسبانية التي تتكلمها أمريكا اللاتينية، وكانت دهشته بالغة عندما وصل ووجد أن البرازيليين يتكلمون اللغة البرتغالية .

وعود إلى التقرير السابق ذكره ... كثيرون من الأطفال الذين يرسبون وعليهم أن يجلسوا مرة أخرى في الصف الأول لايشعرون بالسعادة في هذه الإعادة ، بل أن نسبة مئوية عالية منهم يتركون التعليم نهائيا بعد سنتين أو ثلاث سنوات ويخلص التقرير إلى أن الموقف المؤسف الناتج عن ارتفاع نسبة المتسربين من التعليم الابتدائي، يؤدي إلى زيادة الأعباء المالية على الدولة ، خاصة إن صانعي السياسة التعليمية يحاولون التوسع في مدارس تلك المرحلة التعليمية .

---

(1) Maria Carmen Capelo Feijo, Early Childhood Education in Brazil Trends and Issues, in Preventing School Failure, Proceedings of a Workshop Research Held in Bogota, Colombia, 26-29 May 1981, IDRC, Ottawa, Canada, 1983, pp. 52-57.

ويجدر بنا - قبل التعرض لمرحلة ما قبل المدرسة فى البرازيل - أن نتعرف على النظام التعليمى (السليم) بعد أن اتضحت لنا حساسية الموقف فى التعليم الابتدائى.

تتمشى التشريعات التربوية فى البرازيل مع النظام الإدارى فى الدولة ، فتنقسم إلى مستويات ثلاثة ... مستوى الحكومة الفيدرالية ، ومستوى الولاية ، ثم مستوى المحليات . يعطى الدستور الحكومة الفيدرالية مسئولية رسم السياسات التعليمية والقواعد العامة والتوجيهات على مستوى الدولة ، وتضمن بذلك سياسة تعليمية موحدة تتضح فيها الأهداف التربوية ، ثم تتولى كل ولاية تنظيم سياستها التعليمية محليا .

يتكون السلم التعليمى من :

(أ) التعليم الأساسى، ويضم ثمانى سنوات دراسية من ١-٨ ، ويبدأ فى سن السابعة.

(د) التعليم الثانوى ، ويضم ثلاث أو أربع سنوات حسب نوع الدراسة ، ويهدف إلى إعداد الخريجين للمهن والوظائف المتوسطة أو التعليم العالى .

(جـ) التعليم الجامعى وتختلف مدته تبعا للتخصص .

(د) الدراسات العليا .

ومن الملاحظ أن هذا السلم التعليمى لايتضمن التربية قبل المدرسة ... ولا يعنى ذلك عدم وجود مجهودات لتوفير هذه التربية . فهى موجودة ولكنها لاتعتبر من الأولويات . على الرغم من الأرقام المذهلة التى تبين أن عدد الأطفال فى سن السابعة فى سنة ١٩٧٣ بلغ ٢٫٨ مليون ، ومع ذلك فنتيجة لرسوب الأطفال فى الصف الأول .. فإن عدد المقيدين بهذا الصف يبلغ ٦٫٧ مليون ، أى أن الذين رسبوا السنة بلغ ٣٫٩ مليون طفل ، وهذه الزيادة الكبيرة هى المتسببة فى كثرة الأعباء المالية التى تنفقها الدولة على التعليم فى أول سنة من سنى التعليم الأساسى .

ويلوح إذن أنه بدلا من سياسة التوسع فى التعليم الأساسى ، يكون هناك اهتمام أكبر بالتربية قبل المدرسة حتى يهيأ الأطفال لتقبل التعليم فى الصف الأول

وهناك اهتمام متواضع بتربية الطفل قبل الصف الأول ، ويظهر هذا التواضع فى الأرقام التالية :

يبلغ عدد الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ٤-٦ سنوات ٧١٢ر٧٤٦ر٩ طفلا. يلتحق منهم ٣٩٠ر٦٨٦ فقط بمؤسسات ما قبل المدرسة ، أى بنسبة ٠٤ر٧٪ ، ومن هؤلاء يلتحق ١ر٤١٪ بمؤسسات خاصة . ويمكن استنتاج أن الفرص غير متاحة أمام الأطفال من بيئات اقتصادية فقيرة للالتحاق بمؤسسات تربوية قبل الصف الأول .

وتواجه الحكومة البرازيلية تحديا واضح المعالم مرتبطا بالسياسة التعليمية ، إذ من المعلوم أهمية مرحلة ما قبل المدرسة ، ولا اختلاف عند الساسة التربويين البرازيليين في ذلك ، ولكن ظروفا قاهرة بعضها كمى وبعضها نوعى ، تحول دون تحقيق تربية لكل أطفال ما قبل المدرسة . ومع ذلك .. فإن هناك بوادر تفاؤلية ، منها أن الحكومة أعطت الأولوية خلال سنوات الثمانينيات لمرحلة ما قبل المدرسة ، وبهذا لم يعد ينظر إلى التربية فى تلك المرحلة على أنها رفاهية قاصرة على أبناء الطبقتين المتوسطة والعليا . ومن المحاولات الجادة فكرة ربط التنمية الاجتماعية مع التربية قبل المدرسة . وعلى سبيل المثال ما يحدث اليوم فى فورتاليزا ، وبأحد أحيائها الفقيرة ، حيث تشترك السلطات الجامعية مع السلطات التربوية فى تنفيذ برنامج ، يهدف إلى ربط الخدمات الصحية والتربوية والثقافية وتنظيم الأسرة فى كل متكامل لتحقيق رفاهية ومصلحة المجتمع . الأسرة هى الغاية المستهدفة فى هذا البرنامج ، والاهتمام موجه إلى الأطفال من الميلاد إلى سن السادسة .

ولكن هذه المحاولة ومثيلاتها مازالت فى خطواتها التنفيذية الأولى ، ويتطلب الأمر إجراء بحوث علمية لتقويمها والاستفادة من نتائجها . كما أن هناك حاجة لمزيد من البحوث للتعرف على أسباب الفشل فى المرحلة الابتدائية (الصف الأول من التعليم الأساسى) ، والربط بين الالتحاق بمؤسسات قبل المدرسة واستجابتهم للتعليم فى المراحل التالية.

وقد بدأ فريق من الدارسين بحثا عن أثر التربية قبل المدرسة على نجاح الأطفال فى المدرسة فيما بعد . بدأت الدراسة سنة ١٩٧٩ ، وتهدف إلى تتبع ثلاث مجموعات من الأطفال لمقارنة نتائج من هيئوا للصف الأول بحضورهم مؤسسات التعليم قبل المدرسة بمن لم يلتحقوا بتلك المؤسسات . وإلى وقت كتابة هذا الكتاب (صيف ١٩٨٣) لم تظهر النتائج النهائية لهذه الدراسة بعد ، ولكن ظهرت بعض النتائج الأولية التى تشير إلى :

- تفوق الأطفال الذين حضروا سنة برياض الأطفال عن غيرهم ممن لم يحضروا فى أدائهم الأكاديمى.
- كما ظهر تفوق المجموعة التى حضرت سنة برياض الأطفال ، وكذلك المجموعة التى حضرت دورة سريعة للتهيئة للدراسة على المجموعة التى لم تحضر ، وذلك فى القدرات اللغوية (مثل التعرف على أشكال الحروف - فهم المعانى عن طريق القراءة أو السمع - القدرة على التعبير ... إلخ) .

وهناك نقطة تحذير من التأثر المبالغ فيه بهذه النتائج التى خرجت من تجارب علمية وبناء على برامج تربوية أحسن تخطيطها واختيار محتواها وطرق تنفيذها ... وقد لانصل إلى نفس النتائج بالنسبة لأطفال حضروا البرامج التقليدية فى مؤسسات قبل المدرسة بوضعها الراهن ... حيث إن هذه المؤسسات تركز على آليات التعلم ، بدلا من الاهتمام بعمليات الفهم والاستيعاب

ومن مؤشرات الاهتمام بتربية الأطفال قبل المدرسة تكوين اللجان لإعادة تنظيم البرامج التليفزيونية التى توجه للأطفال ، سواء من خلال المحطات الحكومية أو التجارية. وقد قطعت البرازيل شوطا مرموقا وتعتبر من الدول الرائدة فى هذا السبيل[1] .

* * *

(هارامبى) كلمة باللغة السواحيلية تعنى الحرية ، وهى الصيحة التى كان يطلقها جومو كينياتا الرئيس السابق لكينيا عندما يواجه الجماهير ، رافعا يديه إلى أعلى ، ثم تزأر هذه الجماهير مرددة الكلمة الساحرة . ثم يهز (المنشة) التى جمعت شعرا كثيفا من حيوانات تعرفها الأدغال . والحيوانات كثيرة وهى مختلفة ولبعضها امتيازات على البعض الآخر ، ففى الغابة طبقية ... وفى المجتمع الكينى طبقية فى التعليم .

نالت كينيا الاستقلال منذ أقل من ربع قرن ، ولكن بقايا الاستعمار موجودة وإن كانت فى تلاش تدريجى ، وأرض كينيا خضراء ، وسماؤها تمطر طوال العام ، وبعض المطر يأتى إلينا فى مصرنا ، إذ هى تحد غربا ببحيرة فيكتوريا التى تستقبل بعض المطر ، وتحد شرقا بالمحيط الهندى الذى له قصص عديدة مع ممباسا الميناء . ويسمع الزائر لهذا الميناء اللغة العربية ذات لهجة أهل جنوب شبه الجزيرة العربية ، كما يستمع إلى لغات أخرى أهمها اللغة السواحيلية التى تأثرت باللغة العربية ، إذ إن ربع مفرداتها من اللغة العربية .

(1) Samuel Pfromm Netto and Arrigo L. Angelini, Impact of Brazilian Television on Children and Education, Educational Studies and Documents, No 40 UNESCO, 1981, pp. 43-48.

الزائر لكينيا يمكنه أن يقف على خط أبيض يعبر طريقا عريضا ، ومكتوب أن هذا هو خط الاستواء ، كما يمكن للواحد أن تكون قدمه اليمنى فى نصف الكرة الشمالي، واليسرى فى نصف الكرة الجنوبي. وخط الاستواء - كما نعلم فى الجغرافيا - خط وهمى كمدارى السرطان والجدى . وعلى الربى والتلال وسفوح الجبال تنتشر بكثرة مزارع الشاى وبقلة نسبية مزارع البن ، كما تنتشر فى ربوع كينيا الحيوانات ويضطر قائد السيارة أن يتوقف أحيانا حتى يعبر الطريق قطيع من الزراف ، أو يستطيع إلى البعد يتفرج على مجموعة من الفيلة ، ولكنه لايقترب منها خوفا من غضبها أو غضب واحد منها فيهز أذنيه الكبيرتين ، ويندفع كالصاروخ على الرغم من ثقل وزنه وتصبح السيارة بمن فيها كلعبة من صفيح . والقرود والنسانيس كثيرة جدا ، وهى تستقبل الزائرين فى حدائق مفتوحة بالجلوس على مقدمة وسطح السيارة بعيون مفتوحة ، ويظهر أنها تحب أن تتطلع على الركاب ، وربما فى قرارة أنفسها لايعجبها شكلهم ولا أزياؤهم ، ولكن لابأس من تقبل ما يقدم إليها من (الفول السودانى) . ومعظم الكينيين يستطيعون التفاهم باللغة الإنجليزية . أما عن السكان فهم من الجنس الزنجى ، ينقسمون إلى قبائل عديدة ولهم عادات متفاوتة ، وبينهم طبقية واضحة المعالم . وقد دخل الإسلام كينيا مع التجار ، وأتى المبشرون الأوربيون ومعهم المسيحية ، وعدد المسلمين والمسيحيين متواضع بالنسبة لعدد السكان .

بدأ اهتمام سكان كينيا الجاد بالتعليم بعد حصولهم على الاستقلال ، وصارت هناك مدارس متنوعة وجامعة ومعاهد عليا بكثرة لم تكن معهودة . وتلقت كينيا معونات من دول أجنبية على هيئة مشروعات تعليمية ، ومن أمثال تلك الدول الدانمارك والسويد وهولندا ... إلخ .

وقد حدث تطور فى المناهج وطرق التعليم بالمدارس الكينية المندرجة تحت السلم التعليمى، كما حدث تطور واضح فى تعليم ما قبل المدرسة . ومن الجدير بالذكر أن أول

روضة أطفال أنشئت بكينيا كانت عام ١٩٤٢ فى نيروبى العاصمة ، وكانت قاصرة على أبناء المستعمرين البريطانيين . ثم انتشر عدد هذه الرياض عندما بدأ السكان الأفارقة مع الجاليات الآسيوية فى فتح مدارس مماثلة لأطفالهم .

وقد لفت نظر المؤلفين - خلال سنوات وجودهما بكينيا - الانتشار الواسع لهذه الرياض فى المناطق الريفية [1] ، كما أن معظم تلك المؤسسات كانت تقام بالجهود الذاتية ، ونلاحظ اختلاف المستويات بين هذه المؤسسات تبعا لميزانية كل مؤسسة . وكما هو متوقع فإن الرياض التى يلتحق بها أبناء الجاليات الأجنبية من البيض أو الأغنياء من الكينيين وغيرهم ، كانت تتطلب مصروفات باهظة تصل إلى أكثر من مائتى ضعف ما تطلبه رياض الأطفال المتواضعة والموجودة فى الأحياء الفقيرة فى المدن وفى المناطق الريفية عادة .

إذن.. فالطبقية فى مؤسسات ما قبل المدرسة موجودة ، والعامل الاقتصادى هو الفيصل، فمن يدفع أكثر يتلقى تربية أفضل بمعنى أن يوجد الطفل فى مبنى مناسب، ومجهز بالأدوات والأجهزة لهذه المرحلة ، وتشرف على الأطفال متخصصات مؤهلات تأهيلا تربويا ونفسيا ، يكفل للعملية التربوية فى تلك المرحلة الجدية والنجاح .

وقد يدور فى ذهن القارىء سؤال مهم ، أسس على ما لفت نظر المؤلفين أثناء وجودهما فى كينيا وهو انتشار رياض الأطفال فى المناطق الريفية وهى فقيرة . وهذا سؤال ذكى ، وأذكى منه ما فكر فيه الكينيون أنفسهم ، فإن سوق العمل بهذه الدولة

---

(١) كنت رئيسة مشروع لمنظمة الأغذية والزراعة FAO لإنشاء قسم بكلية إيجرتون الزراعية بمدينة نجورو ، التى تبعد ٢٢٠ كيلو مترا عن نيروبى ، وذلك لمدة حوالى ثلاث سنوات ، وكان من أهداف هذا القسم تخريج متخصصات للعمل برياض الأطفال . وقد تم وضع الخطة المتكاملة لهذا الإعداد ، وطبقت الخطة فى بعض الدول الأفريقية وغيرها

فى شرق أفريقيا يتطلب اشتراطات معينة لمن يتولون وظائف ذات مرتبات مجزية . وترتبط هذه الوظائف بالشهادات أكثر من أى شىء . وقد وجد الكينيون أن أبناء غير الكينيين ، أو أبناء الكينيين الأغنياء الذين يلتحقون برياض الأطفال يتقدمون فى دراستهم بالمدارس الابتدائية وما بعدها بدرجة ملحوظة ، ثم يلتحق بعضهم بدراسات أعلى . وهؤلاء هم الذين يقبضون مرتبات عالية ، ويرتفع مستواهم الاقتصادى ومكانتهم الاجتماعية .

سئل بعض أولياء الأمور من الكينيين عن دوافع ارسال أطفالهم إلى رياض الأطفال ... عينة من الإجابات .

- التقدم يتطلب تعليما ... فى الماضى كنا نعتمد على الزراعة والرعي ... اليوم هناك وظائف ... الوظائف تتطلب موظفين دخلوا مدارس وتعلموا بصورة جيدة ... أرسل طفلى إلى روضة الأطفال حتى ينجح فى دراسته فى المراحل التالية .
- ارسل ابنى سليم إلى روضة الأطفال ، لكى ينجح ويتفوق فى التعليم فيما بعد ، ثم يتقلد وظيفة محترمة تفيده وتفيدنى أنا أيضا (هى أم سليم التى أعطت هذه الاجابة) ...
- أرسل ابنتى إلى روضة الأطفال لتتفتح عيناها على التعليم إذ إن روضة الأطفال هى بداية التربية (تقصد التعليم) .
- لم أرسل ابنى الأول إلى روضة الأطفال ففشل فى دراسته فى الصف الأول من المدرسة الابتدائية وترك الدراسة ... ولهذا أرسل طفلى الثانى لينجح فى المدرسة الابتدائية .
- إن ارسل طفلى إلى روضة الأطفال لن يصبح غريبا عن الجو المدرسى عندما يدخل الصف الأول الابتدائى لأنه أعد جيدا لهذا الموقف . لن يكون (عبيطا) بين زملائه .. كما أن تركه فى البيت سيؤخر نموه .

وتلخص ردود أو إجابات أولياء الأمور عن التساؤل الخاص بدوافع إرسال أطفالهم لمؤسسات ما قبل المدرسة الابتدائية فى أنهم يهدفون أساسا إلى تربية أطفالهم ، لا مجرد تواجدهم فى مكان ما تحت رعاية ما ... فالهدف الرئيسى هو تربيتهم ، هذا مع الاعتراف بوجود دوافع أخرى مثل خروج الأمهات للعمل فى الأسواق والمكاتب وو ... إلخ .

جميل جدا أن يحدث هذا الحماس الواضح فى دولة نامية .

وإذا كانت هذه هى دوافع أولياء الأمور فلنتوقف لحظة ، نعرض فيها أهداف التربية قبل المدرسة كما حددتها خطة التنمية الكينية (١٩٧٩-١٩٨٣) [1] . «تهدف هذه المراكز (ويقصد بها هنا رياض الأطفال) إلى مساعدة الأطفال على النمو الاجتماعى ، والعقلى ، والانفعالى ، والجسمى ، والثقافى . كما تقدم بعض المبادىء المهيئة للتعليم . وتمكن هذه المؤسسات الأمهات العاملات من المشاركة فى الأعمال الإنتاجية خارج البيت» .

وتتعاون عدة وزارات وهيئات فى إنشاء مؤسسات تعليم الأطفال قبل المدرسة وفى الإشراف عليها ... وهى : الإسكان والخدمات الاجتماعية ، الداخلية ، الصحة ، التربية ، الشئون الاجتماعية . وتهتم وزارة الإسكان والخدمات الاجتماعية بالدرجة الأولى بالمبانى والمرافق لضمان سلامة الأطفال ، وتهتم وزارة الصحة بإجراء الكشف الدورى على الأطفال لمتابعتهم صحيا ، ولو أن هذه المتابعة ليست سهلة نظرا لاتساع رقعة الدولة وصعوبة المواصلات ، خاصة فى المناطق الريفية النائية . وتشترك وزارتا

---

(1) O.N Gakuru. Education and Social Class Formation : The Case of Pre School Education in Kenya, in Preventing School Failure. Op. Cit, P. 86

التربية والداخلية مع الهيئات المحلية فى تنظيم وتنفيذ برامج ودورات تدريبية لإعداد مدرسات رياض الأطفال .

وهذا اتجاه حميد إذ تتعاون مجموعة وزارات وهيئات فى تخطيط متكامل لإعداد نسق محدد لتعليم الأطفال قبل المدرسة .

* * *

تتميز جمهورية مصر العربية بتاريخ طويل فى التربية والتعليم النظامى يمتد إلى أكثر من خمسة آلاف سنة . وكانت هناك عبر التاريخ أنظمة تعليمية ومناهج محددة وتدرج فى مراحل التعليم ... كما كانت هناك فترات ازدهار وفترات فيها اضمحلال ، وربما كانت مصر من أقدم الدول النامية التى كان لها سلم تعليمى واضح المعالم ، بل تتميز مصر بأن بها أقدم جامعة فى العالم ممتدة فى عملها دون انقطاع ، مسهمة فى نشر التعاليم الإسلامية وصنوف المعرفة بسخاء وفير . إنه الأزهر الشريف.

وقد عرفت مصر دور الحضانة ورياض الأطفال مبكرا فى هذا القرن حيث أنشئت أول روضة أطفال عام ١٩١٨ ، وكانت بالإسكندرية وخصصت للأطفال الذكور ، على أن البنات لم يحرمن من فرصة شابهت إلى حد ما نظام روضة الأطفال الذكور ، إذ كانت الفرقتان الأوليان بالمدارس الابتدائية للبنات تتبع نظاما مشابها لما كان متبعا بروضة الأطفال . وبعد إنشاء روضة البنين بالإسكندرية بسنة واحدة أنشئت روضة للبنات بالقاهرة فى حى جاردن سيتى وسميت روضة قصر الدوبارة . ومع نمو الوعى بأهمية رياض الأطفال .. ازداد العدد تدريجيا حتى بلغ عام ١٩٤٦/١٩٤٧ - ٣٢ روضة مستقلة و ١٧ روضة ملحقة .

وفى عام ١٩٥١ .. أصبحت رياض الأطفال جزءا من السلم التعليمى بعد صدور قانون بمجانية التعليم فيها ... ثم وحد التعليم فى المرحلة الأولى عام ١٩٥٣

وصفيت رياض الأطفال ... ثم وثبت فكرة الحضانات ورياض الأطفال إلى السطح فى حماس خلال السنوات الأخيرة ، وافتتح عدد كبير من مؤسسات ما قبل المدرسة الابتدائية بصورة تختلف عما عهدته مصر سابقا من حيث :

(أ) تعدد الهيئات التى تشرف على هذه المؤسسات فمنها وزارة التربية والتعليم ، ووزارة الشئون الاجتماعية ، وهيئات خاصة .

(ب) إطلاق أسماء على تلك المؤسسات ، لم تكن معروفة فى الماضى مثل «المدارس التجريبية الرسمية» ، و «مدارس اللغات» ، و «مدارس المناهج العربية» ...

(جـ) الخلط فى سياسات المناهج التى تتبع فى تلك المؤسسات ، وربما كان هذا نابعا من عدم وضوح الأهداف عند بعضهم .

(د) نتيجة للتسرع الحماسى فى إنشاء أغلبية هذه المؤسسات .. فإن القوى البشرية العاملة بها لم ترق إلى المستوى العلمى والتربوى المطلوبين ، ويتضح هذا من مقارنة مدرسات رياض الأطفال القديمة بما هو موجود الآن ، حيث كان هناك مصدران لإعداد المدرسات التربويات هما :

- قسم رياض الأطفال بمعهد التربية للمعلمات بالزمالك .
- القسم الإضافى بمدرسة معلمات شبرا .

وكان هذان المصدران يكفيان رياض الأطفال .

وجدير بالذكر أنه أرسلت بعثات من الاناث فى مطلع هذا القرن إلى إنجلترا للدراسة والتدريب على العمل برياض الأطفال . أما اليوم فتوجد ثلاثة مصادر لإعداد المتخصصين فى رياض الأطفال ، وهى موجودة بكلية البنات جامعة عين شمس ، وكلية التربية بجامعة طنطا ، وكلية التربية بالزمالك بجامعة حلوان . كما توجد أقسام ببعض دور المعلمات العامة للحضانة ورياض الأطفال .

وكل هذا طيب وجميل ولكن الأمر يتطلب آلاف الآلاف من المتخصصين والمتخصصات في مرحلة ما قبل المدرسة ، وهذا يستدعي إنشاء أقسام أخرى بكليات التربية ، وربما يتفتق التفكير عن وسائل أخرى لإعداد المتخصصين للعمل بتلك المؤسسات التي تزداد أعدادها باضطراد ...

وعلى سبيل المثال نعطي الأرقام التالية وفقا لإحصاء ١٩٨٣ ، الخاصة بمؤسسات ما قبل المدرسة التابعة لوزارة التعليم والبحث العلمي :

بلغ عدد المدارس التجريبية الرسمية ٢٧ مدرسة ، بها ١٤١ فصلا تضم ٤٨٧٦ طفلا .

- بلغ عدد مدارس اللغات وأقسامها ٣٢ مدرسة ، و ٩١ قسما بها ٦٧٣ فصلا ، تضم ٢٦٨٦٣ طفلا .
- بلغ عدد مدارس المناهج العربية وأقسامها ٦٦ مدرسة ، و ٢٦٠ قسما بها ١٠٩١ فصلا ، وتضم ٥٠٣٤٦ طفلا [١] .

أما عن المؤسسات التي تخضع لوزارة الشئون الاجتماعية .. فقد بلغت وفقا لإحصاء عام ١٩٨٣ ، ٢٥٥٠ دار حضانة تضم ١٢٠٠٠٠ طفل ، علما بأن هذه الدور تستقبل الأطفال الرضع حتى سن عامين ، ومن هذا السن حتى سن الالتحاق بالمدرسة الابتدائية وهو ست سنوات .

وكان قد صدر القانون رقم ٥٠ لسنة ١٩٧٧ ، الخاص بدور الحضانة ، وينص الباب الأول منه على أن دار الحضانة هي «كل مكان مناسب يخصص لرعاية الأطفال الذين لم يبلغوا سن السادسة» ... وأن أهداف دور الحضانة تتلخص فيما يلي :

---

(١) وزارة التربية والتعليم ، الإدارة العامة للتعليم الخاص ، إحصاء التعليم الخاص ما قبل الابتدائي (الحضانات) ١٩٨٣

١ - رعاية الأطفال اجتماعيا وصحيا ، وتنمية مواهبهم وقدراتهم ، وتهيئتهم بدنيا وثقافيا ونفسيا تهيئة سليمة للمرحلة التعليمية الأولى بما يتفق مع أهداف المجتمع وقيمه الدينية .

٢- نشر التوعية بين أسر الأطفال لتنشئتهم تنشئة سليمة .

٣- تقوية الروابط بين الدار وأسر الأطفال .

وقد نص هذا القانون على أن «تختص وزارة الشئون الاجتماعية بالإشراف والرقابة على دور الحضانة» ، على أن تنشأ لجنة عليا لدور الحضانة تتكون من :

١- وزير الشئون الاجتماعية أو من ينيبه رئيسا

٢- وكيل وزارة الشئون الاجتماعية للرعاية الاجتماعية .

٣- وكيل وزارة الشئون الاجتماعية للشئون المالية والإدارية .

٤- ممثل لوزارة الصحة .

٥- ممثل لوزارة التربية والتعليم .

٦- ممثل لوزارة الأوقاف

٧- ستة يمثلون دور الحضانة ، واثنين من المهتمين بشئون الطفولة .

٨- ممثل للاتحاد العام للعمال .

٩- مدير عام الإدارة العامة للأسرة والطفولة بوزارة الشئون الاجتماعية .

١٠- مدير إدارة الشئون القانونية بوزارة الشئون الاجتماعية .

١١- مدير عام الإدارة العامة للجمعيات والاتحادات بوزارة الشئون الاجتماعية .

وتختص هذه اللجنة العليا برسم السياسة العامة لدور الحضانة ومتابعة تنفيذها .

أما على مستوى كل دار حضانة [١] فتشكل لجنة للإشراف تضم :

« ١- صاحب الدار أو عضوين من أعضاء مجلس إدارة الجمعية التى تتبعها الدار . رئيسا [٢]

٢- مدير الدار مقررا

٣- طبيب الدار

٤- عضو يمثل أسر الأطفال .

٥- من ترى اللجنة الاستعانة به من المهتمين بمجال الطفولة والبيئة » .

ومن بين اختصاصات هذه اللجنة :

١- وضع البرامج ورسم المطلوب عمله بالدار ومتابعة التنفيذ .

٢- البت فى طلبات الالتحاق بالدار .

٣- دراسة الأبحاث الاجتماعية المقدمة ، وتقرير ما تراه فى كل حالة من حيث الإعفاء الكلى أو الجزئى من قيمة الاشتراك .

٤- اقتراح تعيين العاملين بالدار ....

.... إلخ [٣] .

---

(١) ونذكر أن تعبير «دار الحضانة» هنا يشير إلى كل مؤسسات ما قبل المدرسة ، دون التفرقة بين دور الحضانة ورياض الأطفال .

(٢) نرجو ملاحظة الموقع المهم لصاحب الدار وما يعنيه .

(٣) قرار وزير الشئون الاجتماعية رقم ٢٠٧ بتاريخ ١٩٧٨/٤/٢٦ (اللائحة النموذجية لدار الحضانة) .

ويتشكل الجهاز الوظيفى فى الدار من :

١- المدير ويحمل مؤهلا عاليا أو متوسطا فى مجال الخدمة الاجتماعية فى ميدان الطفولة ، مدة لاتقل عن خمس سنوات ، مع حصوله على دورة تدريبية فى مجال الطفولة .

٢- أخصائى اجتماعى للقيام بالبحوث الاجتماعية للأطفال ، والتعرف على المشكلات الاجتماعية التى تواجه أسرهم ومعاونتها فى ايجاد الحل ، والعمل على ربط الدار بالبيئة وبالمجتمع .

٣- أخصائى فنى ويختص بدراسة سلوك الأطفال ودراسة الحالات غير الطبيعية والإرشاد والتوجيه النفسى للأطفال .

٤- المشرفة وتحمل مؤهلا متوسطا فى مجال الخدمة الاجتماعية ، أو أى مؤهل مناسب فى نفس المستوى أو غيره من مجال الطفولة ، مدة لاتقل عن ثلاث سنوات مع حصولها على دورة تدريبية فى مجال الطفولة ، ويشترط فيها الاستعداد للتعامل مع الأطفال . وتختص المشرفة بإعداد البرنامج اليومى للجماعة التى تشرف عليها وتنفيذه ، وملاحظة سلوك الجماعة وأفرادها أثناء مزاولة الأنشطة المختلفة ، والعمل على توجيه الأطفال لتنمية مهاراتهم ومواهبهم الطبيعية والمكتسبة ، وتشجيع الأطفال على اتباع الأساليب والعادات السليمة ، والإقلاع عن العادات السيئة ، وغرس القيم الروحية والوطنية فى نفوس الأطفال ، وإعداد وتنظيم احتفالات الدار فى المناسبات القومية والدينية وأعياد ميلاد الأطفال ...

٥- الطبيب وهو يقدم الخدمات الطبية للأطفال ، والإشراف على الجوانب الصحية بالدار .

٦- الممرضة وتنفذ تعليمات الطبيب ، وتشرف على نظافة الأطفال والعاملين المحتكين احتكاكا مباشرا بهم ، والتعاون مع المشرفة على تعويد الأطفال الأساليب الصحية

في جميع تصرفاتهم مثل طريقة الجلوس الصحية وطريقة المشي السليم ... إلخ .
كما تشترك في توعية أولياء الأمور بالنواحي الصحية .

ويعاون هؤلاء بعض الإداريين ، ومن يقدمون الخدمات المعاونة مثل الطباخ والسكرتير وأمين المخزن ... إلخ .

وتنص المادة ١٢ من اللائحة النموذجية لدار الحضانة [1] على أن الرعاية الترفيهية للأطفال هي أبرز مهام دار الحضانة . وعن طريقها تتاح الفرص للأطفال للتمتع بأوقاتهم داخلها بعيدا عن الشعور بالحرمان الأسري ، لهذا يجب أن تتوافر بدار الحضانة الوسائل والإمكانيات التالية :

١- الألعاب الخارجية بأنواعها والزلاقات - المراجيح - الكرة .... إلخ .

٢- الألعاب الداخلية (المدادات - المكعبات - العربات - المجلات - المصورة .. إلخ) والتي تتيح الفرصة لنمو الإدراك الحسي ، والنفسي ، والعقلي والبدني إلى جانب الشعور بالمتعة .

٣- الأغاني والأناشيد .

٤- الحفلات والرحلات .

٥- توفير الوقت الكافي لراحة الأطفال ونموهم ، حتى يمكنهم معاودة نشاطهم البدني والعقلي دون إرهاق .

وتختص المادة ١٣ من نفس اللائحة بالنواحي التربوية ، ويراعى في هذا الجانب مايلي :

١- إتاحة حرية الحركة للأطفال خارج الفصول .

---

(١) المرجع السابق

٢- عدم التركيز على تعليم مهارات الأطفال من قراءة وكتابة وحساب فى السنة الأولى للطفل ... ويمكن البدء بها من سن الخامسة ، على أن تقوم بهذا العمل مشرفة تربوية أو تحت إشراف تربوى .

٣- التركيز على إكساب الطفل القيم والفضائل والعادات الطيبة مثل الصدق - الأمانة - النظافة - احترام ملكية غيره والتعاون وغيرها من الأنماط السلوكية المستهدفة التى تخلق منه مواطنا صالحا .

٤- الإكثار من استخدام وسائل الإيضاح ، والنماذج المجسمة فى الأنشطة التعليمية بالدار .

٥- استخدام الرسم كوسيلة من وسائل التعبير للطفل عن معلوماته واهتماماته وعلاقاته .

٦- استخدام البرامج الملائمة لأعمار الأطفال ، ووضع البرنامج المتنوع المتوازن الذى يساعد على النمو السليم للأطفال واكتشاف قدراتهم ومهاراتهم ، والعمل على تنميتها .

٧- إكساب الطفل خبرات جديدة من خارج الدار عن طريق تنظيم الرحلات لزيارة الأماكن المهمة القريبة ، مثل المتاحف والمعارض والحدائق وما عليها .

٨- أن يسلك العاملون بالدار سلوكا مثاليا باعتبارهم قدوة للأطفال ، ويقومون بمحاكاتهم وتقليدهم .

٩- توفير العدد الكافى من القصص والمجلات المصورة المناسبة لأعمار الأطفال الملتحقين بالدار .

كما تتضمن اللائحة الاشتراطات الخاصة بالمبنى المناسب ، والمرافق ، والأثاثات ، والأدوات اللازمة لتنفيذ البرامج والتى تساعد على تحقيق أهداف دور الحضانة .

* * *

من السهل اليسير أن نكتب على الورق ، أو أن نصرح لوسائل الإعلام ... وياليت ما يكتب أو يصرح به يكون موضع التنفيذ .

إن كل ما قيل سهل التنفيذ لمؤسسة لما قبل المدرسة تتكلف عشرات الألوف من الجنيهات وتخدم الخاصة من الأطفال ، تاركة الملايين تتأوه فى غضب لما هم محرومون منه، أى ذلك الذى يتمتع به خاصة الخاصة ... وهنا تبكى اشتراكية التعليم .

سهل جدا ، حتى على مستوى التعليم العام أن تدون أهداف وسياسات وبرامج نباهى بها ، وعند التنفيذ تكون قصة أخرى ، إذ أن التنفيذ له مواصفات واشتراطات ، ربما لظروفنا الاقتصادية يكون هناك بعض التعثر .

ألا يكفينا فخرا أن فى مصر مفكرين أصدروا هذا الاتجاهات والتوجيهات الخاصة بتربية أطفال ما قبل المدرسة ، وهى ترقى إلى أرقى المستويات العالمية فى الدول المتقدمة . ولكن هل ما يحدث فى الواقع مواكب لهذه الأقوال ؟ نقول إن فى بعض المؤسسات(الخاصة) هذا حادث .

ولكن هل نحن بصدد تربية للخاصة ؟ .... وأين عامة أفراد الشعب ؟ الأمل والطموح فى أنه ينال أطفال الشعب المصرى تربية بناءة فى المرحلة التى تسبق المدرسة الابتدائية ، حتى لايكون هناك تمييز بين القادر وبين الذى لايقدر .

إن كانت مرحلة التعليم قبل المدرسة تهيىء الطفل لاستقبال برامج المدرسة الابتدائية ، وهنا قد درج القوم على الأطفال الأسوياء ، فما الأمر بالنسبة لغير الأسوياء ؟ هكذا خلقهم الله ، ولا حول لهم ولا قوة . إما أن يكونوا أو لايكونون . هل فى الإمكان أن تعد لهم برامج خاصة جدا ... وجدا بحيث لايحرمون من شرف الإسهام فى متطلبات المواطنة الصالحة للمجتمع الذى ينمو ؟

هذا تساؤل . يجىء بعد أن ارتوينا من أحلام ورغبات أهداف حلوة سبق

ذكرها ، ونرجو أن تتحول الأهداف إلى برامج تحققها فى واقع حقيقى . إن المباركة بتلك الأمانى الرسمية ترجو مخلصة أن تتحقق .

«والله المستعان على ما تصفون»

صدق الله العظيم

توصيات عالمية

للدول النامية [1]

عقد اجتماع لخبراء التربية فى مرحلة ما قبل المدرسة ، باعتبارها الخطوة الأولى للتعليم مدى الحياة فى مركز اليونسكو الرئيسى ، وذلك فى الفترة من ٥-٩ يناير ١٩٧٦ . وتم بحث أهمية التكامل فى التربية بين المنزل والمدرسة ، وما بين المدرسة الابتدائية والمجتمع ، والطريقة التى يمكن للآباء بواسطتها أن يسهموا فى تربية أطفالهم ، خاصة فى الدول النامية .

وكانت الأوراق المقدمة للمشاركين فى المؤتمر : وثيقة العمل (ت-٧٦/ مؤتمر ٦/٨٠٦) وهى التقرير النهائى لاجتماع خبراء النمو النفسى للأطفال ، والتطبيقات على العمليات التربوية ، وكان هذا الاجتماع قد عقد فى شامبين - فى ولاية الينوى بالولايات المتحدة الأمريكية فى الفترة من ٤ - ٦ مارس ١٩٧٤ ، كما قدمت كذلك وثائق مرتبطة بالموضع .

وقد تخيرنا من اجتماع يناير ١٩٧٦ بعض التوصيات أوردناها بأرقامها كما جاءت .

أولا : الواقع الحالى واتجاهات تربية طفل ما قبل المدرسة الابتدائية

١- يسلم المشاركون بخطورة سنوات ما قبل المدرسة على نمو الأطفال فى حاضرهم ومستقبلهم ، وهذا مما استدعى الاهتمام بتوعية الآباء وتثقيفهم تربويا ، ووضع

---

(١) سعد مرسى أحمد ، تربية طفل ما قبل المدرسة من المهد إلى اللحد . من بحوث ندوة تربية الطفل من ٣-٧ مارس ١٩٧٩ . مجلة كلية التربية - العدد الثالث ١٩٨٠ ، كلية التربية جامعة عين شمس ، ص ٤١٥ ٤٥١ .

برامج لمرحلة ما قبل المدرسة تضمن التشريعات جودة نوعيتها وتتباين الخدمات التى تقدمها المجتمعات والحكومات لهذه المرحلة تباينا ، يعتبر محصلة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتربوية فى هذا المجتمع أو ذاك . وكذلك يوجد هذا التباين فى القطاعات المختلفة فى المجتمع الواحد ، فبينما تحتاج بعض القطاعات إلى قدر أكبر من هذه الخدمات لايصيبها إلا القليل منها ، ومثل ذلك سكان الريف وفقراء المدن .

٢- حيثما توجد تربية ما قبل المدرسة ، ينظر إليها لا على أنها مجرد برامج تربوية ، بل على أنها كذلك وسيلة لتقديم الخدمات الصحية والاجتماعية ، وتوعية الآباء وإيجاد فرص عمل للنساء ، كما أنها وسيلة لدعم النجاح فى التعليم ، ولتجنب احتمالات الإخفاق فى المدرسة فيما بعد .

٣- من المسلم به أن برامج ما قبل المدرسة ينبغى أن تكون مناسبة لخصائص المجتمعات على تنوعها ، وأن تلبى حاجات وتطلعات الأفراد والجماعات حتى تصيب النجاح، كذلك عليها أن تراعى النمو النفسى - الفسيولوجى للأطفال فى كل مرحلة .

٤- يرى المشاركون الحاجة إلى مساعدة الآباء كى يكونوا أكثر قدرة على تربية أبنائهم، والحاجة إلى استخدام عاملين فى هذا المجال مؤهلين جيدا ، كيما يعملون مع الأبناء والآباء وذلك أمر له أهمية كبيرة . وتدريب هؤلاء العاملين يختلف إلى حد كبير تبعا للمستوى التربوى المنشود . هذا وتهتم البرامج بنمو الأطفال الفسيولوجى والاجتماعى والثقافى والعقلى ، وتؤكد على ضرورة فهم القيم والممارسات الاجتماعية ، وتنمية القيم والمهارات اللازمة لنجاح الطفل فى المدرسة الابتدائية ، وما بعدها على امتداد حياتهم .

٥ إن تربية ما قبل المدرسة لايمكن أن تكون وسيلة للتغلب على كل المساوىء الاجتماعية ومع هذا فهى سبيل لمزيد من الرعاية الصحية والاجتماعية

والتربوية للأطفال وأسرهم ، كما أنها سبيل لتلافى القصور فى مراحله المبكرة ، وعلاج معوقات الحاضر والمستقبل .

٦ أطلق عدد من المشاركين الذين أسهموا فى وضع بعض البرامج لهذه المرحلة إشارة تحذير من الإغراق فى التفاؤل ، ولكن يؤخذ فى الحسبان ما أكدته الدراسات فى عديد من البلاد والفوائد التى عادت على الأطفال سواء أثناء أو بعد مشاركتهم فى البرامج التربوية فى مرحلة ما قبل المدرسة .

٧- أثيرت مسألة التقويم من حيث قصور وسائله الراهنة عن تحقيق الأهداف المرجوة ، والمثل على ذلك إمكانية تقويم كفاءة العمل اليومى .

ثانيا : التكامل بين خبرة ماقبل المدرسة والمرحلة الابتدائية

٨- لاتعتبر تربية ما قبل المدرسة والمرحلة الابتدائية قاصرة فقط على الخبرات التى تقدم فى سنوات هذه المرحلة أو تلك ، وإنما هى وثيقة الصلة كذلك بالخبرات الأخرى فى كل أنواع المؤسسات الاجتماعية .

٩- إن عوامل متعددة مثل : الأسرة ، ووسائل الاتصال ، والقيم ، والممارسات الثقافية تدخل فى الاعتبار من حيث تأثيرها فى المجتمع الكبير ، وتأثيرها على ما يمكن تحقيقه من خلال مؤسسات ما قبل المدرسة أو المرحلة الابتدائية . كما يدخل فى الاعتبار كذلك ما يبغى الأطفال والمعلمون والآباء من التربية ، حيث يؤثر ذلك كله على التفاعلات فى البيئة التعليمية داخل المدرسة .

١٠- يتزايد تفهم الدور الذى يقوم به الآباء والمعلمون كلما تزايد الاتصال بينهم ، ويمكن أن يكون هذا الاتصال عن طريق :

(أ) مشاركة الآباء فى إدارة المؤسسات التربوية .

(ب) الإفادة من المهارات الخاصة التى يمتلكها بعض الآباء فى البرامج التربوية .

(جـ) تشجيع الآباء على زيارة المدرسة والمشاركة فى أنشطتها بالطرق المناسبة .

(د) إفادة المعلمين بما يعرف الآباء عن أبنائهم ، مما يساعد على تعميق فهمهم للأطفال .

١١- حتى تستمر العلاقة بين مرحلتى ما قبل المدرسة والمرحلة الابتدائية .. فإنه من المجدى أن يتفهم المعلمون فى كل مرحلة الأدوار التى يقوم بها زملاؤهم فى المرحلة الأخرى .

١٢- والطرائق التى يمكن بها تحقيق ذلك ، هى :

(أ) تدريب المعلمين للمرحلتين فى مؤسسات واحدة، حتى يمكن لكل فريق الإطلاع على عمل الفريق الآخر ، والإلمام بحاجات الأطفال من الأعمار المختلفة .

(ب) تجميع أطفال كل من المرحلتين فى مؤسسة تربوية واحدة ، أو أن تكون مؤسسات كل من المرحلتين على صلة وثيقة بالأخرى .

(جـ) تنظيم البرامج التربوية للتدريب أثناء الخدمة بحيث تناسب التربية كلا من المستويين .

(د) صياغة الأهداف الخاصة بالتربية لكل مرحلة والإعلام بها .

(هـ) إشراك الأطفال فى الأعمال المتصلة بالعالم الخارجى للمدرسة ، حيث إن كثيرا من الأعمال التى يمكن أن يقوم بها الأطفال لمساعدة الكبار لها قيمتها التربوية .

(و) الاستعانة بالآباء والأجداد وبكل من يمكن الاستعانة به من الناس بطريقة مباشرة فى تربية الأطفال ، بغية الاستفادة من قدراتهم وخبراتهم . وهنا تأكيد لمفهوم التربية الواسع من أنه عمل لايضطلع به المعلمون وحدهم ، وإنما يشارك فى ذلك المجتمع والأسرة .

١٣- تلعب اللغة دورا كبيرا فى استمرارية التربية بين المرحلتين ، لكن قضايا عديدة

تبحث عن حل فى هذا الصدد : ففى البلاد ذات اللغات المتعددة يبدو أنه لابد أن يتعلم الطفل أكثر من لغة واحدة ، وحتى فى المجتمعات التى تسود فى كل منها لغة واحدة .. فإن بعض الأطفال يتعلمون بلغة مخالفة لما يسمعون ويستعملون فى أسرهم .

١٤- المقصود بتعلم اللغة الاستماع والحديث والقراءة والكتابة ، وهذا التعلم له تأثيره الانفعالى على المتعلم ، مما يجب أن يعيه المعلمون والمسئولون عن التربية حيث إن رفض لغة أو لهجة الطفل الخاصة ، يمكن أن يفسره الطفل على أنه رفض له شخصيا ولأسرته .

١٥- ينبغى التحوط لدى استعمال طرائق ومواد تربية منقولة عن بلاد أو مجتمعات أخرى ، فمن الضرورى تقويم ما هو منقول قبل استعماله لتبين مدى ملاءمته للوضع الذى سيستخدم فيه ، ويحسن التجريب على نطاق ضيق قبل التعليم على عدد أكبر من الأطفال . يضاف إلى هذا أن الاعتماد على الإمكانات المحلية المتاحة أمر مرغوب فيه من حيث فائدته فى خفض الكلفة .

١٦- فى حالة استعمال اختبارات الاستعداد للتعلم .. فإن الحذر ضرورى حتى لايدمغ الأطفال بالفشل من قبل أن يلتحقوا بالنظام المدرسى . ومثل هذه الاختبارات ينبغى أن يستعمل لتشخيص جوانب الاستعداد للتعلم بعد تحديد مفهوم الاستعداد ، وتحليل ما تتطلبه المؤسسة من استعدادات ، وتعديل هذه المتطلبات فى ضوء فهم نمو الأطفال ، كما ينبغى أن تكون الاختبارات وسيلة للتعرف على مشكلات الأطفال وحلها .

١٧- وهذه الاختبارات لايجب الخلط بين مفهومها ومفهوم الاختبارات العلاجية ، أو اختبارات الانتقاء للقبول فى المدارس .

١٨- فى مؤسسات تديرها سلطات مثل وزارات الصحة والشئون الاجتماعية ، يجب

أن يحدث التكامل بتبادل الفكر والمشورة والبحث في مجال رعاية الأطفال وتربيتهم .

١٩- إن التربية على أى مستوى وفى أى وضع يجب النظر إليها باعتبارها وسيلة لغاية ، وليست غاية فى حد ذاتها .

ثالثا : مفهوم التربية مدى الحياة وتطبيقاته على تربية سنوات العمر الأولى

٢٠- تعتبر كل من التربية مدى الحياة والتربية فى سنوات العمر الأولى ، مفهومين يتمم كل منهما الآخر . ويتضح فى كل بند أن المساواة فى إتاحة الفرص للتعليم الرسمى لاتؤكد فى حد ذاتها القدرة على الاستفادة من هذا التعليم . وتبدو السنوات الأولى من الميلاد حتى السنة السادسة على أكبر جانب من الأهمية لنمو قدرات التعلم التى تظهر بعد ذلك سواء فى المدرسة ، أو حين يبلغ الطفل سن الرشد، وتدل الشواهد على أن :

(أ) السنوات الثلاث الأولى سنوات دقيقة الأهمية فى نمو اللغة ، والقدرة على حل المشكلات ، والسلوك الاجتماعى ، والنمو الانفعالى عند الطفل .

(ب) الحافز الأساسى للتعلم الموجود عند الطفل ، ينمو نتيجة لتأثير الكبار فى بيئته . وبهذا يتعلم الأطفال أن «يتعلموا» ، أو هم يتعلمون ألا «يتعلموا» كنتيجة لنوع التوجيه الذى يتلقونه من الكبار ، خلال سنوات حياتهم الثلاث الأولى .

(جـ) الفترة من بعد الشهر السابع من حياة الطفل تبدو ذات أهمية جسيمة بالنسبة لنمو اللغة ، وحب الاستطلاع ، والسلوك الاجتماعى ، وبدايات نمو الذكاء والنمو الانفعالى .

(د) تلعب اللغة دورا كبيرا مهما فى نمو المفاهيم والسلوك الاجتماعى عند الطفل، وهى تبدأ فى النمو السريع حوالى الشهر السابع أو الثامن من الميلاد إلى السنتين الأوليين وما بعدهما ، وتتضح أساسيات اللغة التى يكتسبها الطفل فى نهاية السنة الثالثة .

(هـ) يؤثر الأبوان - بصفة خاصة الأم - وكذلك الأشخاص الذين يكثر احتكاك الطفل بهم فى اكتساب الطفل اللغة ، من حيث الطريقة التى يتحدث بها الطفل ، والتى يدعم بها سلوكه اللغوى بالثواب أو العقاب أو التجاهل .

(و) مع وجود حب الاستطلاع لدى كل الأطفال ، إلا أنه يظهر بوضوح فى الشهر الثامن من الميلاد ، ومالم يقابل حب الاستطلاع بالمكافأة والتشجيع .. فإنه من الممكن أن يخبو فى السنة الثانية ، أو يتلاشى إلى درجة كبيرة .

(ز) يلاحظ النمو الاجتماعى بشكل خاص فى الشهر الثامن ، وتظهر فى السنة الثانية محاولات جذب الاهتمام والالتجاء إلى الكبار للحصول على عونهم ومساعدتهم .

(ح) تترعرع لبنات الذكاء كما ذكر بياجيه بواسطة البيئة ، وإذا كانت شروط البيئة مواتية ينمو الذكاء نموا مرضيا فى سن الرابعة .

٢١- ولكى تتحقق التربية مراعية الجوانب السابقة ، فإن هذا مطلب يعتمد على كفاءة من يتولى أمر الطفل ، ولا يبدو أن ذلك يتطلب مستوى عاليا من التعليم بالنسبة للوالدين ، أو وسائل تتكلف نفقات باهظة . صحيح أنه بعد سن ٢ : ٣ سنوات حين تنمو أساسيات لغة الطفل ومفاهيمه ، يؤثر مستوى ثقافة الآباء (أو من يرعى الطفل) تأثيرا كبيرا على كفاءتهم فى تربيتهم لأطفالهم ، إلا أنه يمكن فى الحالات التى يتوافر فيها عندهم الوقت الكافى ، أو الفرص المواتية ، أو المعارف والمهارات لتشجيع النمو اللغوى ورعاية حب الاستطلاع ، والسلوك الاجتماعى والذكاء ، أن يلجأوا إلى مساعدة بعض الأسر الأخرى بمن فيها من

كبار وصغار ، وأن يتلقوا التدريب والمساعدات العملية فى طرائق توجيه نمو الأطفال . ويمكن أن تسهم فى ذلك مؤسسات رعاية الطفل ، وبذلك إن لم يحدث ما يعوق النمو فى سن ٢ : ٣ سنوات . فإن أنماط التربية المتعددة خارج المنزل تكون لديها فرص أكبر للنجاح على مدى السنوات التالية .

٢٢- تختلف أنماط المساعدة المطلوبة باختلاف الأوساط الاجتماعية . وأسلوب الحياة الثقافية ، والمستوى الذى يراد بلوغه . وفى حالة قيام بعض العاملين فى التربية الصحية أو الرعاية الاجتماعية بتقديم المساعدة .. فإنه من اللازم أن يكونوا على دراية بالمهارات والتكتيكات اللازمة للعمل .

رابعا : الدور التعاونى للمنزل والمجتمع من أجل نمو الأطفال المتكامل فى سنوات ما قبل المدرسة وأهمية تثقيف الآباء

٢٣- فى بعض البلاد وفى بعض الأوساط الاجتماعية توجه مسألة تثقيف الآباء من أجل تحسين نوعية الحياة ، بينما فى أماكن أخرى ، يكون من الضرورى أن يتركز على مجرد ما يضمن البقاء على قيد الحياة ، أى أنه يجب توفر الحد الأدنى من الحياة قبل التفكير فى تحسين نوعيتها .

٢٤- وحين توجد مشكلات زيادة السكان ، ونقص الغذاء ، وهبوط المستوى الصحى وانتشار الأمراض ، والافتقار إلى الحد الأدنى من التربية ، وحين تكون الموارد البشرية والمادية محدودة ، فليس من المحتمل أن يكرس اهتمام كبير لتحسين بيئة الطفل التعليمية ، إلا أنه من الممكن تقديم بعض البرامج التى لاتحقق هدفا واحدا على حساب بقية الأهداف . فلو افترضنا أنه قد تم إشباع الحاجات الجسمية .. فإنه يكون من الممكن إقامة برامج تهدف إلى تربية كائنات إنسانية متكاملة النمو. ولتحقيق هذا من الضرورى أن نعرف كيف ينمو الأطفال ، كما أنه من الضرورى أن نعرف بالأخص كيف ينمو الأطفال فى السنوات المبكرة الأولى ، حتى

يمكن تعزيز وتنمية مهاراتهم التربوية . إنه لمن الضرورى أن توجه رعاية خاصة إلى هؤلاء الأطفال الذين يبدو نموهم محفوفا بالمخاطر فى العالم الفقير .

٢٥ إن معظم الآباء قادرون على تفهم أطفالهم تفهما معقولا فى سنوات المهد ، ولكن حين يبدأ أطفالهم فى الحبو والكلام .. فإنهم يحتاجون إلى مزيد ومزيد من الاهتمام ، حيث يكون الطفل عرضة للأخطار مع نموه الحركى والمعرفى ... وفى هذه المرحلة يستطيع الآباء - ببعض المساعدات - الكشف عن نواحى القصور فى نمو الطفل ، خاصة إذا استعملوا بعض وسائل الكشف عن النقص فى نواحى النمو المختلفة على فترات منتظمة خلال السنوات الثلاث الأولى من حياة الطفل .

٢٦- هناك وسائل سهلة الاستعمال ، يمكن استخدامها لاختبار الطفل فى المهد ، وفى الشهر السادس ، وفى السنوات الثلاث الأولى من العمر .. وتوجد اختبارات يمكن أن تستعمل للكشف عن عيوب السمع فى الأطفال من سن ٤ أشهر ، وبالنسبة للدول النامية .. فإن إمكاناتها والخدمات المتاحة فيها يمكن أن تلعب الدور المطلوب مع بعض المساعدات .

٢٧- يرسب أكثر من ٦٠٪ من الأطفال فى المدرسة الابتدائية فى بعض البلدان النامية، وإذا أمكن تخفيض هذا الهدر إلى النصف فقط .. فإن الكلفة فى هذه الحالة تبدو معقولة . ومسألة تثقيف الآباء فى حالة الدول النامية مشكلة صعبة ، وإنما من الممكن حث السلطات على مد الخدمات الموجودة فعلا لتشتمل هذه المسألة .

٢٨- من الضرورى أن يحوز العاملون فى هذا المجال القبول ممن سيقومون بمساعدتهم، وهذا يعنى أنه يمكن فى بعض الأحوال - استخدام القيادات الاجتماعية والعاملين فى الخدمات الصحية والرعاية الاجتماعية والمعلمين . يضاف إلى هذا المسئولون فى الحكومة والهيئات المتطوعة التى تقدم الخدمات فى قطاعات الريف

والمدينة . وإنما من الضروري زيادة تثقيفهم حتى يتسنى لهم أداء الدور المطلوب في نمو الطفل التربوي والنفسي .

٢٩ - يمكن في بعض البلاد وبعض القطاعات استخدام الإذاعة والتلفزيون والكلمة المطبوعة لنقل المعلومات المبسطة المقبولة ، والتي تقدم بطريقة لاتتعارض مع التقاليد والعادات المحلية .

٣٠- يمكن للبرامج المتنوعة التي توجد حاليا ، مع مساعدة المختصين وبالتدريب أثناء الخدمة وبتقديم المساعدات المالية ، يمكن تحقيق كثير من الأهداف دون الالتجاء إلى إنشاء جهاز بيروقراطي معقد وكبير . ويمكن بشورة القيادات المحلية وبمراعاة التقاليد الاجتماعية إقامة برامج جديدة ، وبذلك تقدم المعرفة العلمية في إطار مرضى عنه من المجتمع .

خامسا : بعض المقترحات لتلبية المطالب الخاصة بالدول النامية في مجال تربية ما قبل المدرسة

٣١- من الصعب أن نتبين كم من المقترحات العلمية المفصلة ، يمكن تقديمها بحيث تكون متناسبة بطريقة مباشرة مع الظروف المتباينة إلى أقصى حد في الدول النامية ، وكل من هذه الدول له مشكلاته الخاصة به ، ويتفاوت في كل منها مستوى الخدمات ، إلا أن القاسم المشترك بينها ضعف الامكانات وفي معظم الأحوال أبسط الامكانات ، وهذا مما يفرض الحرص الشديد في استخدام ما هو متاح من مصادر فيها ، ويفرض الاستخدام الأمثل لما يمكن الانتفاع به .

٣٢- على هذا .. فإن من أهم المقترحات العامة .. أن تجمع المعلومات عن التجارب القليلة التكاليف ، وكيفية ترشيد الإنفاق ، مع بعض دراسات الحالة عن نمو وتطور أهداف خدمات ما قبل المدرسة في البلاد المختلفة ، وتقديم الحلول والبدائل.

٣٣ إذا لم تكن امكانات الدول النامية تسمح بتقديم خدمات ما قبل المدرسة على غرار ما هو كائن فى الدول الأكثر تقدما .. فإنه من الممكن الإفادة من الامكانات الثقافية والاجتماعية من أجل ايجاد صيغ مناسبة للتربية فى هذه المرحلة . على أن تكون هذه الصيغ أقل كلفة وأكثر موا ءمة واتساقا مع المجتمع .

٣٤ من المرغوب فيه الانتفاع بالخبراء المدربين من الدول الأكثر تقدما ، ولكن مع تحاشى فرض المواد التربوية والأفكار غير المناسبة للمجتمع المحلى . وينبغى التحرز فى استخدام النماذج والنظم الأجنبية ، وحتى الكتيبات أو أى مواد تربوية أخرى مالم تكن متفقة مع طبيعة المجتمع . ومن ثم تلزم الدراسة الشاملة للظروف والأحوال التى يعتزم أن يقام فيها أى مشروع تربوى ، كما يلزم التجريب على نطاق ضيق قبل أية محاولة للتعميم .

٣٥ - وتملى ندرة الإمكانات الحذر من منظور آخر ، فالطفل الصغير هو الهدف فى معظم البلاد ، للجهود الطبية والخدمات الاجتماعية والغذائية ، ومن الواضح أنه من الأفضل العمل من خلال ما هو قائم من خدمات للمساعدة فى تثقيف الآباء ، كى يكونوا أكثر قدرة على تلبية حاجات أطفالهم النفسية والتربوية بدلا من إيجاد هيئات من العاملين فى هذا المجال . وهذا يستدعى شيئين : أن ينظر إلى مرحلة ما قبل المدرسة على أنها جزء ضرورى من تربية الطفل ، وأن رعاية النمو فى هذه المرحلة ضرورة للنجاح فى التعليم فى المراحل التالية ، وأن يقوم العاملون فى هذا المجال بدورهم كمربين من ناحية ، ومثقفين تربويين للآباء من ناحية أخرى .

٣٦ - فى هذا السياق الفكرى العام ... تظهر المقترحات العلمية التالية :

(أ) اقناع المديرين والسياسيين ، وصانعى القرارات ، وهيئات الخدمات الصحية والغذائية والاجتماعية والرأى العام ، بالأهمية البالغة لمرحلة النمو من الميلاد إلى سن الثالثة ، ومن الثالثة إلى سن ٦ سنوات .

(ب) نشر وتداول المعلومات العلمية عن النمو فى مرحلة الطفولة المبكرة فى البرامج القائمة فعلا ، مثل البرامج التى تقدمها الخدمات الصحية والشئون الاجتماعية ، وبرامج محو الأمية ، وتخطيط الأسرة والزقتصاد المنزلى ، وفى المدرسة وكل مكان .

(جـ) أن تأخذ المنظمات التربوية حذرها فى الطرق التى تتبعها لتربية الأطفال، وأن تكون محتويات برامج تثقيف الآباء وكل العناصر والمواد التربوية متناسبة مع الظروف المتغيرة .

(د) لاينصب الاستخدام الاقتصادى الأمثل على الإمكانات البشرية ، مثل: الإخصائيين ومساعديهم ، والقيادات الاجتماعية فى أشكال من المشاركة والتعاون فحسب ، بل أيضا على الانتفاع من الإمكانات الثقافية والاجتماعية ، وهذا يجب أن يعزز إذا لزم الأمر بمساعدة السلطة الحاكمة.

(هـ) يراعى أن يكون لدى العاملين مع الأسرة والعاملين بالهيئات التى تتعامل مع الأطفال الحد الأدنى من فهم حاجات الطفل ، كما يراعى توجيه عناية خاصة لتنمية المهارات الاجتماعية اللازمة للعمل مع الآباء وغيرهم من الراشدين .

(و) تتضمن عملية تثقيف الآباء شقين : تنمية معارف عامة محققة عن نمو الأطفال الصغار ، وترجمة ذلك إلى خطط تربوية تعمل فى اتساق مع الثقافة المحلية ، ويمكن أن يتم الشق الأول بطريقة مركزية ، أما الشق الثانى فيتم بمشاركة أهل المجتمع المحلى مع استشارة الخبراء .

(ز) كذلك .. فمن الضرورى أن تكون تنمية المواد التربوية واللعب والمباريات وما شابه مستنبطة من البيئة المحلية ، فى كل دولة ، وفى كل قطاع من المجتمع ، مهما كان شكل المساعدات من الخارج .

(ح) ومن أجل تحقيق الفاعلية الاقتصادية .. لابد من مشاركة أهل المجتمع المحلي في تخطيط واستعمال الموارد المحلية مثل ملاعب الأطفال ، واستخدام المؤسسات الموجودة لتقديم مختلف أنواع الخدمات ، لتمثل المدارس والمراكز العلمية ، وأماكن الاجتماعات العامة ، وما إلى ذلك .

سادسا : ما يمكن أن يسهم به اليونسكو في هذا المجال

٣٧ من الواضح أن هناك حاجة ماسة لتوعية المديرين والعاملين في المهن المتصلة بهذا المجال ، بخطورة سنوات العمر من الميلاد حتى السنة السادسة ، وبصفة خاصة من الميلاد حتى السنة الثالثة عن طريق برامج التعليم مدى الحياة . كما أن هناك حاجة أيضا ليتفهم المديرون - سواء في المستوى المركزي أو المستوى المحلي - الطبيعة الخاصة للعمل مع الأطفال ، وما يمكن أن يسهم به الآباء والطرائق التي يمكن بواسطتها تقديم برامج فعالة قليلة الكلفة نسبيا .

٣٨- ويمكن لليونسكو أن يخدم الدول التي تعتزم تأسيس تربية ما قبل المدرسة بعديد من الطرق :

(أ) المشاركة التربوية الكاملة من جانب اليونسكو في مرحلة ما قبل المدرسة من منطلق أن الحاجات النفسية وحاجات النمو عند الأطفال الصغار لها من الأهمية ما للنواحي الصحية وما للتغذية .

(ب) جمع ونشر المعلومات عن المشروعات ذات الكلفة المنخفضة من كل الأنواع مثل : المنظمات التربوية ، وتثقيف الآباء ، وتدريب وإعداد المساعدين المهنيين، وتحسين البرامج القائمة وتصميم نماذج المواد التعليمية ، وما إلى ذلك.

(جـ) تقديم المعلومات العلمية المتاحة عن نمو الأطفال - خاصة حتى سن الثالثة، مع المقترحات العلمية - في صورة موضوعات مكتوبة مع الحيطة الشديدة .

(د) التقويم الدقيق للمعلومات الجديدة التى أمكن التوصل إليها عن نمو الطفل، وتقديم ماهو محقق من هذه المعلومات فى هذا المجال .

(هـ) حيث إن عملية الانتقاء من الخبرة المعرفية المتاحة ، ومن أشكال المنظمات وما شابه ذلك ، وفقا للحاجات المحلية هى عملية دقيقة ، فإن اليونسكو يمكن أن يعد دورية مبسطة عن مسح الحاجات وتقويم البرامج ، كذلك يمكن تقديم المشورة بطريقة عملية يشارك فيها الآباء والخبراء معا فى مجال رعاية الأطفال الصغار .

(و) الإسهام بمقترحات عن المادة التعليمية التى يمكن تقديمها عن طريق الإذاعة والتلفزيون ، والكلمة المطبوعة فى مجال التدريب أثناء الخدمة ومحو أمية الكبار وتنمية المجتمع ، وما شابه ذلك من نشاطات .



وفيما يلى عرض للورقة الرئيسية ، التى قدمت فى ندوة المسئولين عن رياض الأطفال فى الوطن العربى .

تصور تربوى عربى لمؤسسة رياض الأطفال[1]

مقدمة

لكى نفهم صورة لمؤسسة رياض الأطفال فى الوطن العربى .. علينا أن نذكر أن المرحلة المقصودة بالذات ، هى الواقعة فيما بعد الفطام من الرضاعة حتى دخول المدرسة الابتدائية، وعلينا كذلك أن نتذكر أن العالم العربى يختلف - من مكان إلى مكان - اختلافات كبيرة ، ففيه كثرة من وديان الأنهار وقمم الجبال ، وفيه سواحل البحر وفيافى الصحراء ، وفيه المناطق المعتدلة والمناطق الاستوائية ، وفيه المراعى الموسمية والزحف الصحراوى المتصل المستمر . وفى كل هذا يعيش العربى متأثرا فى بيئته بمعاييره وقيمه وسلوكياته وعاداته المتباينة ، ونجد كذلك مواقفه المتعددة من التربية ومن الطفولة ، ومن الخبرة ومن التعلم ، ومن التدين ومن الأسرة ، ومن العمل ومن جوانب الحياة المختلفة .

ومع كل هذه الاختلافات .. تقع بمرور الزمن تغيرات فى أفكار الناس وعاداتهم وتقاليدهم ومعاييرهم . ونجد أن هذه التغيرات تزداد فى سرعة وقوعها مع مر الزمن وتقدمه فكان الناس فى الماضى لايشعرون بهذه التغيرات لبطء وقوعها ، ولأنهم يعيشون هذه التغيرات . ومن بين المؤسسات التى تخضع لهذه التغيرات . الاسرة والمدرسة والمجتمع .

ونحن نعرف أن الأسرة هى المسئولة أصلا عن رعاية الطفل وعن إحاطته بأسباب قوة الشخصية ، أو ضعفها وأسباب اختلافات نمط الشخصية ونوعها .

---

(١) عبدالعزيز القوصى ، سعد مرسى أحمد ، كوثر كوجك : «رياض الأطفال فى الوطن العربى - الواقع والطموح» المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس ١٩٨٦ ، ص ص ١٦٠ - ١٨٠ .

عند اجتياز المراحل التالية وهى المسئولة عما ننشد له من مراتب الثقة بالذات، ومراتب النمو والنضج فى مناخ ، يجب أن يتوافر فيه الأمن والطمأنينة والحرية والتقدير .

وحيث إن الأسرة هى المسئولة أصلا عن تربية الطفل فى سنوات الحياة الأولى. فلا بد أن يكون هذا كله هما لها إلا إذا كان قد حدث من التغيير ما يدعو إلى إعادة النظر فى دور الأسرة ووظيفتها إزاء الطفل .

١- نظرة إلى حياة الطفل فى الأسرة :

نحن لانناقش - كما قلنا - حياة الأسرة بالنسبة إلى طفل ما قبل الثالثة من العمر، فخير مكان يمكن أن ينشأ فيه الطفل فى السنوات الأولى من حياته هو الأسرة، فحاجة الطفل إلى حنان الأم واستمتاعه بالركون إلى حضنها وبين ذراعيها ، حاجته إلى الغذاء الذى يمده بأسباب الحياة ، وهذه هى السمة البارزة حينذاك ، وفى هذا المناخ الحافل المتلىء بالحب والعطف والرعاية .. ينمو الطفل نموا طبيعيا متزنا مع الحياة ومتفتحا لها ، وتسلك الأمهات البدائيات والريفيات كما لو كن يعرفن بفطرتهن عن هذا الشىء الكثير مما قد لاتعرفه بطبيعتها الأم الحضرية الحديثة

ومع ذلك إتجه المجتمع إلى إنشاء دور الحضانة ، ودور رعاية الرضع . وعلى الرغم مما يقال عن حاجة المجتمع إليها ، وما يقال فيما تسديه من تعويض بسبب خروج المرأة إلى العمل ، وبسبب رغبة المرأة فى الاستقلال عن سيطرة نظام حياة الأسرة .. فإننا نرى عدم المبالغة فى تشجيع الإيداع فى دور الحضانة وما يشبهها إلا عند الضرورة ، وقد ثبت بالبحث أن الرضع والأطفال ممن نشأوا من أول الأمر فى دور المؤسسات إنما ينمون على غير قليل من التمرد والانحراف رغم أن الإيداع فى هذه الدور هو الحل الأوحد . أما حياة الأسرة بالنسبة لطفل ما بين الثالثة والسادسة فإنما

تمثل الجو الذى بدأ فيها شعوره بالأمن والطمأنينة والثقة بالذات . وهو الجو الذى بدأ الطفل ينطلق فيه بالكلام والمشى والجرى والاتصال بغيره ، وعن طريقة المشى والكلام وغيرهما يتعامل الطفل مع من حوله ، ويكتشف ما حوله ، ويكون لنفسه المفاهيم والاتجاهات والمهارات ، ظاهرة الكلام والمشى والفطام وتناول الأشياء ، كلها ظواهر استقلالية يشعر فيها الطفل بما يدور من حوله ، وبإمكانياته ومقدراته وكيانه . والطفل فى هذه المراحل كثير الحركة ، كثير الأسئلة ، شديد الميل إلى توسيع دائرة تعامله ، فهذه علامة من علامات النمو تسعده وتشجعه . وحاجة الطفل إلى النمو وإلى الشعور بوقوعه من حاجاته النفسية الاساسية فى هذه المرحلة . وبعد أن كان تعامل الطفل أساسا مع أبيه وأمه وإخوته ، إذا به ينتقل بتعامله إلى الجيران والأقرباء، ولا يكاد يمر على الطفل بعد فطامه عامان حتى يكون قد اكتسب كثيرا من المهارات اللغوية والبدنية واليدوية ، وهذه المهارات هى أدواته التى يستعملها فى حياته بعد ذلك وينميها وينمو بها ، وينمى قدرته على التعلم وقدرته على اكتساب القدرات مما يحتاجه فى حياة المدرسة وحياة العمل .

ويسلك الطفل فى هذه المرحلة ، كما لو كان يستخدم هذه المهارات وينميها ويتدرب عليها فهو كثير العمل بيديه وبدنه ، وكثير الاستخدام لسمعه وبصره وإحساساته . ويبدو كما لو كان فخورا بما يحدث ومعجبا بإحداث أثر فيما حوله وفيمن حوله ، فهذه من علامات تقييمه لقدراته ومهارته ، ويشعر معها باتساع دائرة تعاملاته ومقدراته مما يعطيه ثقة فى نفسه ، وقدرة فى نمو يتجاوز واقعه الحالى وينمو معه مفهومه عن ذاته ومفهومه عن غيره ، ولهذا ينضج ويتفتح ويزدهر ويكبر .

٢- تغيرات فى حياة الأسرة العربية

يتعرض العالم كله بمختلف مستوياته أجزائه للتغير ، وقد شوهد أن هذا التغيير يتزايد مع مرور السنين ، فالتغير فى القرون الأولى كان الإنسان يعيشه ،

دون أن يشعر به كثيرا ، أما التغير فى الأحقاب الأخيرة.. فقد بدأ يتزايد فى سرعته، ويشتمل جملة الأمور وتفاصيلها وتشمل ماحولها وما فى خارجها وما فى داخلها . فبعد أن سمعنا عن حرب المائة عام أصبحنا نكتوى بحرب الست الساعات ، بل أصبحنا نرى ممكنا أن تحسم حرب عملها فى تغيير جزء كبير من العالم فى بضع دقائق ويتناول التغير التفجر فى سكان العالم ، وفى المعرفة والتكنولوجيا ، وظاهرة التلوث ونقص الطاقة ونقص الغذاء والتضخم ، كما يتناول أبعاد السياسة المحلية والإقليمية والدولية، ويتناول أبعاد الاقتصاد كما يتناول أبعاد المواصلات ، مما جعل الكرة الأرضية تسمى القرية الكروية ، ويتناول أبعاد الاتصال والاعلام مما جعل الناس غير قادرين على التفكير بأنفسهم ولانفسهم ، وإنما أصبح الناس معرضين للتأثر بأفكار غيرهم، وقد صدق الشاعر الإنجليزى حين قال مامعناه «إن الفكرة التى أفكر فيها ليست فى الحقيقة فكرتى، وإنما هى فكرة من يفكر أننى يجب أن أفكر بأفكاره» .

وإذا أخذنا بما حدث من تطوير فى وسائل الإعلام والاتصال كمثال من أمثلة التغير نجد أن الأسرة قد تغيرت بسببها فى جوانب كثيرة ، وكلنا يعرف انتشار الإذاعة والتليفزيون والصحافة ، ونعرف تأثير برامج العالم المتقدم المسيطر فى هذا المجال على العالم الثالث ، وقد أصبح أهل العالم الثالث عرضة - فى المشاهدة والاستماع - للتأثر بجوانب التقدم من علم وتكنولوجيا ، ومن تعاملات وسلوكيات بشرية مألوفة ، وبذلك يهتز ما عنده من قيم ، مما يترتب عليه اختلال فى التوازن يحتاج معه إلى جهد كبير حتى يتوافق وحتى يستعيد توازنه ويحدد موقعه . وبغض النظر عن المضمون الذى تحمله وسائل الإعلام .. فإن مجرد وجودها وانتشارها وجاذبيتها تنشأ معه عادات جديدة فى حياة الأسرة ، فبعد أن كانت العلاقات علاقات مباشرة بين الأب والأم والأولاد نجدهم جميعا - فى أغلب الأحيان - مشدودين إلى التليفزيون ، مع تخفيض فى أهمية العلاقات البينية ، فبعد أن كان أفراد الأسرة يجلسون معا إلى مائدة الطعام ويتحدثون معا ويتفاعلون معا .. نجدهم يجلسون يحدق كل واحد منهم منفردا فى

الجهاز الذى أمامه وتقل التفاعلات البيئية وهى تفاعلات أساسية فى تماسك الأسرة وإنماء الانتماء إليها، مما نحتاجه فى بناء الشخصية وفى تكاملها ، ومن ذلك نرى أن تيار وسائل الاعلام يسير فى اتجاه واحد ، ونراه على فائدته فى التنمية له جوانبه السلبية المدمرة .

وهناك تطور المواصلات كمثال آخر إذا أضيف إلى العامل السابق ، نجد أن تحرك الشخص من مكان إلى مكان أصابه تطور كبير ، يجعل هجرة الشباب وانتقال الناس من مكان إلى مكان أمرا فى غاية السهولة ، ويجعل انتقال التكنولوجيا وانتقال العادات والتقاليد أمرا يسيرا ، مما يترتب عليه زيادة الاختلاط . وفى العالم الآن ما يزيد على ٢٠ مليون ممن غيروا محال إقامتهم ، وأصبحوا يعيشون ويعملون فى بلاد غير بلادهم التى نشأوا فيها ، وأصبحت تسمية الكرة الأرضية بالقرية الكروية أمرا مألوفا ، وبذلك نرى أن نتائج تطور المواصلات والاتصالات تؤثر فى حياة الاسرة العربية ، إذ تعرضها للتأثر بالقيم والاتجاهات المستوردة من خارج البلاد . وبمرور الوقت .. يحدث امتزاج وتداخل وتغلغل فى الثقافات ، مما يحتمل معه اتجاه العالم نحو التجانس ونحو فقدان التماسك فى الذاتية الثقافية . ومعنى هذا أن شعوب العالم الثالث تسير نحو فقدان طابعها الأصيل ، ومعروف أن اختلاف الانماط الثقافية مع توافر التقدير المتبادل بينها أروع رونقا وأقرب إلى الصحة النفسية من الاتجاه نحو التجانس .

وبالإضافة إلى التعرض لآثار التطور الهائل فى وسائل الإعلام .. فإن الأسرة العربية تميزت فى الماضى بالتكتل والانتماء الأسرى ، مما يصاحب المجتمعات الزراعية والقبلية . وقد اتجهت الآن بسبب التحرك نحو التصنيع إلى طابع البلدان الصناعية . وقد صاحب هذا تغير واضح فى القيم الاجتماعية السائدة فالإبقاء على زواج الأقارب والحفاظ على صلات الدم ، وعلى الأصول القبلية . كل هذا فى طريقه إلى الزوال السريع كذلك نلاحظ أن سيطرة الأبوة والأمومة وكبار السن فى حياة الأسرة ، وفى

اختيار الزوج أو الزوجة ، وفى كثير من شؤون الحياة - كمجال العمل والمعيشة - قد بدأت تقل فى بعض الأوساط وقد تلاشت تماما فى كثير من الأوساط .

ونشاهد أيضا أن المرأة قد خرجت إلى ميدان العمل ، وأنها تحررت إلى درجة كبيرة من سيطرة الأسرة وسيطرة الرجل ، وبدأت تكل أطفالها إلى غيرها أفرادا أو مؤسسات ، ويبدأ الرضيع يفقد حقه فى الحب والحنو والاستمتاع بما يحتاجه لنمو متوازن . كان لدى الأسرة العربية فى الماضى فسحة فى المكان ، مما يتيح للطفل الجرى والقفز والرقص وتقييم الأبعاد والمسافات والمساحات . كان هذا للأسرة الممتدة حيث كان يعيش مع أجيال من الجدود والأعمام والأخوال والإخوة ، وأولاد الأعمام وأولاد الأخوال ، مما يتيح له فرص التعامل الاجتماعى المتنوع ، وفرص التقاط القيم والمعايير والمفاهيم من خلال أوساط متعددة المراتب ، وتعمل هذه الاوساط كمرشحات للتنقية والتبسيط . كان فى مجال الأسرة العربية الريفية ، أو مجال لحياة الحيوان والطيور من قطط أو كلاب ، أو أرانب أو دجاج وحمام وعصافير وغير ذلك ، وكان من السهل عليه أن يشهد مظاهر الحياة ، والمرض ، والموت والطفولة والشيخوخة ، والولادة ووضع البيض ورعاية الصغار ، وكان يراها حيث الكبار منهم يغذون الصغار ، وكان يرى الظواهر الطبيعية فى خلقتها الطبيعية خلوا من الانفعال البشرى ، وقد حرمت الحضارة الحديثة الطفل الحديث من كل هذا ، وهى فى سبيلها إلى حرمان أكثر ، مما يجعل طفل العاصمة يكبر فى السن دون أن يلم بالمفاهيم الأولية عن حياة الحيوان وحياة النبات وظواهرهما .

ولا يتسع المجال لإيفاء هذا الموضوع حقه ، ولكن خلاصته أن الحياة فى الاسرة العربية وفى المجتمع العربى فى طريقها لتغير سريع متسارع ، له أثره المباشر وغير المباشر فى المناخ الذى ينشأ فيه الطفل ، وله أثره فى حجم الأسرة وفى تحديد مجالاتها وفى العلاقات بينها ، وفى جذب العلاقات العاطفية الأبوية البنوية وغير ذلك كثيرا مما لايتسع المجال لحصره .

٣- الحاجة إلى مؤسسة رياض الأطفال

كلمة رياض جمع لكلمة روضة بمعنى حديقة ، وهذا بالضبط ما قصده فروبل الألمانى عندما ندت منه صيحة على ربوة عالية قائلا Kindergarten ، أى روضة الطفل. وكان بذلك يعبر عن حيرة ألمت به عندما فكر فى تسمية المكان الذى يذهب إليه الأطفال ، ليحيوا حياة سعيدة بضع ساعات كل يوم فى لعب ومرح واستمتاع ، وكانت طفولته ، أى طفولة فروبل ، قد حرمت من كل هذا ، فأراد أن يسعد الأطفال .

فى هذه الحديقة يستمتع الصغار بأنواع شتى من الأنشطة التى يقبلون عليها تلقائيا . وتتضمن التلقائية بالضرورة أن الأطفال يفرحون ويسعدون ، وهم يمارسون أنشطة متنوعة قادرة بأن تنميهم جسميا وعقليا وخلقيا واجتماعيا . وقد اتفق كثيرون من المربين على أن يطلقوا كلمة «مرشدة» على من يتولون أمور الأطفال فى تلك الرياض ، ولذلك نرجو أن يستبعد تعبير «المروضة» ، لما قد يفهم منه من معان أخرى .

وربما يعتبر الوقت الحاضر - أكثر من ذى قبل - مناسبا وملحا لانتشار هذه الرياض بعد أن طرأت على المجتمع العربى تغيرات اجتماعية واقتصادية وثقافية، جعلت وجه الحياة على الأرض العربية يختلف عن سنوات ليست بعيدة مضت . وقد سبقت الإشارة إلى خروج المرأة للعمل، وضرورة تواجد الطفل بين أقران له فى مثل عمره يمارس معهم أنشطة مختلفة ، وذلك فى مرحلة عمرية تقع بين سن الثالثة والسادسة أى بين حياته داخل الأسرة وارتباطه الوثيق بأفرادها ، بخاصة والدته ، وبين التحاقه بالصف الأول من المدرسة الابتدائية . فقبل سن الثالثة لا يجوز أن نوكل مسئولية تربية الأطفال لفرد أو لمؤسسة غير الأم إلا فى حالة الضرورة القصوى . وفى بحث أجراه مكتب الإحصاءات والمسح السكانى فى المملكة المتحدة سنة ١٩٧٤ ، وهو

بحث اشتهر باسم« Office of Population Censuses & Survery "OPCS"» .
أشارت النتائج إلى أن الحاجة إلى مؤسسات رياض الأطفال تكون كبيرة بالنسبة للأطفال من سن ٣- ٦ سنوات ، حيث أجابت ٩٠٪ من الأمهات ممن لهن أطفال في هذه المرحلة العمرية بحتمية ذهاب الأطفال إلى هذه المؤسسات ، بينما انخفضت النسبة إلى ٤٦٪ من الأمهات ممن لهن أطفال دون الثالثة .

وقد تكرر إجراء هذا البحث في مناطق متفرقة من المملكة المتحدة ، وكانت النتائج مؤكدة لما سبق .

ولا توجد لدينا أبحاث عربية على حد علمنا ، ولكن الشواهد تبين أن المجتمعات العربية في الحضر قد أصابها غير قليل من التغيرات التي تستدعي الالتفات إليها ، فيما يختص بآثارها على تربية وتنشئة الطفل العربي في المرحلة العمرية من ٣ - ٦ سنوات ... فعلى سبيل المثال :

- خروج المرأة للعمل .
- أدى التزايد في السكان ، خاصة في المدن الكبيرة أو الصغيرة إلى اضطرار الأسرة للمعيشة في مساكن محدودة المساحة، الجري والقفز فيها خطران ، ولكنهما ضروريان للطفل ...
- قلة الفرص المتاحة للطفل للعب مع أطفال في مثل عمره ، وذلك لقلة المساحات التي تتاح لهذا اللعب خارج المساكن الكبيرة والمتلاصقة .
- حتم التطور الاجتماعي اليوم انبثاق ما يسمى بالأسرة (النووية) التي تتكون من الزوج والزوجة والأبناء ، مما ضيق فرص الاحتكاك الاجتماعي مع الكبار من الأقارب والأصدقاء ، وهذا يؤثر في نمو الطفل الاجتماعي الذي يمكن أن يتوفر ، إذا وجد الطفل في مؤسسة فيها كبار وصغار غير الذين يجدهم في البيت .

- يتعرض الطفل - لساعات طويلة - لمؤثرات تؤثر فيه من خلال البث الاذاعى والتليفزيونى وهو بهذا متصل فى سلبية من النشاط ، ويطوق الطفل إلى أن يكون نشاطا إيجابيا فيعمل وينتج ويتفاعل مع الأحياء والأشياء ، وهذا لايتوفر له فى نطاق سكن محدود المساحة والفرص .
- قد تحول الظروف الاقتصادية لبعض الأسر دون تزويد الطفل بما يحتاجه من لعب وأدوات وأجهزة مختلفة، ينفس فيها عن نشاطه، وينمى من خلالها حواسه ومداركه.
- إن وجود الطفل فى مؤسسة خاصة برعايته وتنشئته وتربيته أمر أصبح ضروريا اليوم . فهى بيئة أعدت خصيصا ليعيش فيها بعد أن اعتاد حياة معينة وسط أفراد أسرته ، وهو مقبل بعد سنوات قليلة على التعلم الابتدائى وفيه من النظم ومحددات الحرية ما لم يقيده بين أفراد أسرته . فإذا كان الطفل فى المدرسة الابتدائية يجلس على مقعد ومدرسته أو مدرسه أمامه فى أغلب الأحيان ، وبين الأطفال أحيانا قليلة .. فإن المرشدة فى روضة الأطفال هى دائما بينهم فى حنان وعطف ومشاركة ، ثم إنه فى المنزل ملتحق بأمه دائما قريب منها .
- روضة الأطفال إذن لها مناخ اجتماعى ووجدانى وعقلى يجمع - إلى حد ما - بين مميزات عهدها الطفل فى الأسرة وبين صفات فى المدرسة الابتدائية ، هى مرحلة أو قنطرة يعبرها الطفل فى لذة وشوق بين الأسرة ومجتمع المدرسة الابتدائية ، حيث يكون فيه واحدا من عديد من الأطفال تراصوا على مقاعد أمام مدرسهم أو مدرستهم .

٤- الحياة فى روضة الأطفال

هناك مجموعة من المسلمات يجدر بنا الأخذ بها :

- هذه المؤسسة بنيت فى مجتمعات غربية بالصورة المعهودة الآن ، ويمكن الاستفادة منها ولكن بتحفظ وحذر .

[illegible] [illegible] ظروفه وتقاليده وأصالته التي يجب ألا تغيب عن الأجيال جدير أن يكون رائدنا المرونة دون التقيد الحرفي بنظام أو منهج أو نسق متبع في ثقافة أخرى .

- هذه المرونة تنطبق أيضا على مختلف أجزاء الوطن العربي ، فما قد يصلح في دولة عربية ما قد لايصلح في أخرى ، كما أن الاختلافات قد توجد داخل دولة عربية واحدة باختلاف طبيعة المناطق .
- جدير بنا أن نجعل نصب أعيننا التكوين الخلقي للطفل في مرحلة ٣ - ٦ ، بحيث يصبح هذا التكوين كل أنشطته الجسمية والعقلية والترويحية والوجدانية ..إلخ .
- عملية تربية الطفل تتسم بالشمولية والتكامل ، فهي تتناول الطفل من جميع نواحيه ، كما تتطلب تكاملا في هذه التربية بين البيت وروضة الطفل والمجتمع ، وهذا يقتضي ضرورة التعاون المثمر بين تلك المؤسسات الثلاث .

في ضوء هذه المسلمات ... ما التصور لمؤسسة عربية لروضة الأطفال ؟

٥- الإسلام والطفولة

لا تستطيع تربية الطفل العربي اليوم إلا أن تؤكد قيما إسلامية أصلية وأفكارا تربوية ، نادى بها السلف الصالح في مضمار تربية أبناء المسلمين . ومع اهتمام التراث العربي الإسلامي الواضح بأمور التربية في مجالاتها المختلفة ، إلا أن ما كتب عن التربية في بواكير الطفولة قليل نسبيا ، وإن كان عظيم الشأن . فإن اهتمام الإسلام بالتعليم ظاهر وواضح ، عبرت عنه آيات قرآنية كريمة وأحاديث نبوية شريفة ، كما أن اهتمام الإسلام بالأطفال والطفولة لقي درجات عالية من التأكيد والحرص ، ظهرت في اتجاهات العطف والحنو عليهم والمعاملة الطيبة والاهتمام بالفقراء والبتامى والمساكين وأبناء السبيل منهم ، بل وصل الأمر إلى إتاحة الفرص لأطفال أبناء الفقراء [illegible] في تعلمهم مع غيرهم

ولعل من دلائل اهتمام المسلمين بالأطفال منذ بواكير الطفولة أن حرم الإسلام قتل الأولاد خشية الفقر ، كما حرم وأد البنات خشية العار وقد نهى القرآن الكريم عن ذلك صراحة فقال تعالى : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم) وعن وأد البنات قال تعالى : (وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت) .. ولم يفرق بهذا بين البنين والبنات ، ومنع التفاضل بينهما .

حث الإسلام كذلك على حب الأطفال وحسن تقبلهم منذ الميلاد ، ومن علامات هذا الحب اختيار الاسماء الجميلة للأبناء ، والابتعاد عن الأسماء المنكرة ، ونرى الرسول عليه الصلاة والسلام يسمى أحفاده الحسن والحسين ، وقال فى ذلك عليه الصلاة والسلام «حسنوا أسماءكم» .

تقبيل الطفل وهدهدته أمر مستحب فى الإسلام ، وقد أكده الرسول عليه الصلاة والسلام فى مناسبات كثيرة وضرب المثل بملاعبته للأطفال ، وأمر الآباء بملاعبة أطفالهم حتى يكبروا قال : (لاعبوهم لسبعة) أى حتى يبلغوا سن السابعة ...

وكثرت المؤلفات التى ترشد الآباء إلى نواحى مداعبة وملاحظة الأطفال فى هذه المرحلة من العمر التى تشكل فيها شخصية الطفل ... فابن الجزار القيروانى يدعو إلى تعويد «الطفل بعادات الهدوء وعدم الإكثار من البكاء ، وأن ينغم له حتى ينام ويعتاد الأصوات اللذيذة لأنها مريحة للنفس والطبيعة» كما ينهى عن تخويف الأطفال بالقصص المرعبة والمناظر البشعة والأصوات المزعجة ...

ويقول ابن قيم الجوزية فى ذلك ... «ينبغى أن يوقى الطفل كل أمر يفزعه من الأصوات الشديدة الشنيعة ، والمناظر الفظيعة ، والحركات المزعجة .. فإن ذلك ربما أدى إلى فساد قوته العاقلة لضعفها فلا ينتفع بها بعد كبره ....» (*) .

(*) محمود قمبر : ذاتية الطفل والنظرية التربوية فى الإسلام ، مركز البحوث التربوية جامعة قطر ١٩٨٣ م .

ولكن هذا الحب وهذا التدليل بعيدان عن الإفراط والمبالغة ، حتى لايؤديا إلى سوء تربية الطفل ، بل إن العقوبة واللوم كانت واجبة عند اللزوم .

ويركز ابن سينا فى كتابه (القانون) على تربية الطفل والعناية به جسميا وحركيا وغذائيا ، حتى ينمو فى صحة وسلامة ، ويتناول كل ذلك بالتفصيل الدقيق والتوجيه الواضح .

ويتفق قادة المسلمين على أهمية الأسرة فى تربية الطفل فى سنوات عمره المبكرة، ويؤكدون على أثر العلاقات الطيبة بين أفراد الاسرة فى حسن تنشئة الأطفال ، وفى ذلك رعاية إنسانية للطفولة وتكريم للأسرة . كما اهتموا بتوفير الحاجات المادية والمعنوية للأطفال ، وتهيئة البيئة الصالحة لهم لكى يلعبوا ويلهوا مع الرفاق من مثل سنهم . ويذكر ابن سينا بعض الرياضيات المناسبة فيقول «ومن أصناف الرياضة اللطيفة اللينة الترجح فى الأراجيح ، والنهوض قائما وقاعدا ومضطجعا ، وركوب الزوارق والسماريات ، وأقوى من ذلك ركوب الخيل والجمال والعماريات وركوب العجل ... ومن الرياضيات القوية الميدانية اللعب بالكرة ، والصولجان ، والمصارعة ، وركوب الخيل واستقطافها ... » (*) .

وفى سن السابعة تبدأ مطالبة الطفل ببعض المسؤوليات فيتمرن على أداء الصلاة ولا يجبر على الصوم إلا فى الثالثة عشرة ... ونهى المسلمون عن تشغيل الصغار وتقع مسؤولية إعالتهم على آبائهم أو القيمين عليهم ، أو على السلطات الحاكمة إذا لم يكن له أهل وأوصياء .

يستخلص من هذا أن التربية فى الإسلام وضعت مبادىء ، تكفل حق الأطفال فى التمتع بحياة الطفولة الحرة ... ولا تقتضى حرية الطفولة ترك الأطفال لطبيعتهم تنمو فى عشوائية وهمجية ، بل لابد من تعلم وتهذيب فى حدود إمكانيات الطفل .

(*) محمود قنبر : ذاتية الطفل والنظرية التربوية فى الإسلام ، مركز البحوث التربوية ، جامعة قطر ١٩٨٣ م .

الكتاتيب والخلاوى

نشط المسلمون منذ زمن بعيد فى الاهتمام بتربية الطفل فى المرحلة العمرية، التى تسبق انتظامه بأحد الكتاتيب لتعلم القراءة والكتابة وبعض الحساب وحفظ القرآن الكريم ، والتى تبدأ بعد سن السادسة أو السابعة . كان الآباء يهتمون بإكساب الطفل العادات والمهارات والقيم المرتبطة بآداب الأكل واللباس والسلوك ، ومن التخاطب التعامل مع غيرهم ، مما يعود الطفل على حسن التفاعل مع الأحياء والأشياء ... ولم تأخذ هذه التربية المبكرة التى اضطلعت بها الأسر فى المجتمع الإسلامى طابع التعليم، وتهيئة الطفل ذهنيا وجسميا واجتماعيا قبل دخوله فى التعليم النظامى ، والذى كانت تنهض به الكتاتيب .

والظاهر أن التعليم فى الكتاتيب والخلاوى اتخذ منهجا له هو فى الاساس تعليم دينى أخلاقى يهتم - بالدرجة الأولى - بتحفيظ القرآن وأساليب الدين الحنيف، ويمكن القول أن المناخ التربوى فى الكتاب كان رائعا ، بمعنى أن العلاقة بين الأطفال ومن يعلمهم كانت تتسم بالمودة والتآلف ، بل إن كل طفل كان يعامل معاملة فردية بحسب ماتسمح له قدراته العقلية والجسمية ، إذ كان الأطفال يشتركون جماعات فى تلاوة القرآن، مما يزيل الخجل أو التلعثم عند بعضهم .

كما كان التعاون سائدا بين الأطفال بعضهم والبعض الآخر ، فيساعد الذى حفظ زميله الذى لم يستطع الحفظ . كما كان اهتمام الآباء بما يحدث لأطفالهم من تقدم أمرا مشجعا سواء لمن يعلم أو من يتعلمون . ربما كانت هناك حوافز مادية ومعنوية لمن يجيد الحفظ والتعلم، وكاد يقتصر التعلم على معرفة بعض الكتابة والقراءة والحساب، وكان هذا فى وقته شيئا مقبولا جدا ، وإنجازا يحمد عليه الأطفال ومعلمهم .

٦- ماذا يحدث الآن ؟

مرت قرون لم يبذل خلالها الأطفال فى بواكير طفولتهم اهتماما بأمور تربيتهم الفاعلة اللهم ، إلا فى نصائح وتوجيهات ، نادى بها بعض المفكرين دون أن تنال الالتفات اللازم سواء فى مجتمعات عربية أو غربية ... فلم نسمع (على قدر علمنا) بإنشاء مؤسسات ترعى الأطفال قبل سن السادسة ، ولها مخططات محددة أو حتى غير محددة. وربما كان القرن الثامن عشر فى أوروبا شاهدا على محاولات فردية فى هذا السبيل، قام بها السويسرى بستالوتزى ، وأعقبه الألمانى فروبل وقد سبقهما بقرنين من الزمن القس الموارفى جون أموس كومنييوس (كومنسكى) (١) .

غير أن التطورات التى حدثت فى المجتمعات الغربية والعربية ، وربما فى مجتمعات أخرى قد أطلقت سهام الاهتمام بهذه المرحلة المبكرة فى حياة الفرد ، خاصة بعد ازدهار علم النفس ، وبالذات علم نفس الطفولة ، فقد صار هناك اهتمام واضح بمرحلة الطفولة المبكرة ، أى حتى سن السادسة مما فجر أنشطة متنوعة ، تتناول حياة الطفل ومتطلباتها قبل أن يدخل المدرسة الابتدائية .

غير أنه مع الأسف الشديد قد دفع الحماس المبالغ فيه إلى أفعال وأعمال ربما تضر بأطفال تلك المرحلة ، هى أفعال مصدرها فهم غير واع بنفسية طفل تلك المرحلة، وما يجب أن يبذل لتربيته فيها ، وكان اندفاعا فى تبصر غير سليم يجعلنا نطلق تحذيرات حتى لايستشرى الأمر .

وثمة ملاحظة يجب أن تطلق فى قوة ، وهى أن العقوبة فى أمور التربية غير مقبولة ، كما أن الانقياد لرغبات أولياء الأمور، مما يتنافى مع المبادىء النفسية وأمور

---

(١) سعد مرسى أحمد : تطور الفكر التربوى ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨١ .

التربية أمر له خطورته وتبعاته غير المستحبة . ولهذا فإننا نحاول إلقاء الأضواء على أهداف تربية الطفل فى هذه المرحلة ، محذرين من تحويل رياض الأطفال إلى مؤسسات أصبح معظمها يعلم الصغار القراءة والكتابة والحساب والاهتمام بالواجبات المدرسية ، مما أطاح بالأهداف الحقيقية وجعل التعليم الابتدائى يبدأ فى سن الرابعة والخامسة ، وهذا يؤدى إلى طمس معالم الحياة فى رياض الأطفال .

ولذلك .. ففى تصورنا أن مؤسسة رياض الأطفال فى مجتمع عربى يجب أن تهدف إلى تحقيق أغراض معينة نوردها فيما يلى : وهى مأخوذة من كتاب «تربية الطفل قبل المدرسة» من تأليف د. سعد مرسى أحمد و د. كوثر حسين كوجك ، ونقلنا هنا أهداف رياض الأطفال كما وردت في كتابنا هذا الذي بين يديك ووردت في الفصل الثانى من الكتاب ثم عرضت الورقة احتياجات المجتمعات النامة كما وردت هنا في الفصل الثالث من الكتاب .

الباب الثانى

* الفصل الرابع

بستالوتزى

* الفصل الخامس

فروبل

* الفصل السادس

منتسورى

* الفصل السابع

بياجيه

الفصل الرابع

بستالوتزى



الفصل الرابع

بستالوتزى

* حياته .
* مدرسته فى نيوهيف .
* بعض كتاباته .
* فى ستانز .
* فى برجردورف .
* فى فردون .
* آراؤه فى التربية

حياته

فى مدينة زيورخ عام ١٧٤٦ كان بين اسم مواليد تلك السنة اسم شاء له الله أن يلمع وتردده الأفواه ، هو جون هنرى بستالوتزى John Henry Pestalozzi ولم يقدر له أن يرى والده أكثر من خمس سنوات . ولكن الله عوضه بأم تقية دينة عرف الورع السبيل إلى قلبها وخلا قاموس حياتها من كلمة «الأثرة» فراحت بهذين السلاحين تربى جون هنرى بستالوتزى وأخاه وأخته . وعندما طرق أبواب المدارس لأول مرة استطاع أن يجذب القلوب حوله بحسن معاملته وبعده عن الأنانية . حتى إذا جاء وقت الأجازة السنوية هرع فى لهفة إلى جده ، وكان من رجال الدين اتخذ له مقاما فى قرية ليست بعيدة عن زيورخ . وفى القرية كانت عينا الصبى لاتفتآن تريان وأذناه تسمعان ، فأحس بحنو نحو الفقراء ، ثم وضع فى ذهنه الخطوط العريضة لما يستطيع القادر أن يفعله من أجل هؤلاء التعساء .

وعندما تقدم الفتى فى دراسته عول على أن يسلك طريق جده ، والتحق من أجل ذلك بالجامعة ، وهناك تشبع بالكثير من آراء أحد أساتذته وأسهم فى التحرير بصحيفة كانت تصدر بانتظام . ومن صيحاته العديدة رجاؤه فى أن يعمل الأغنياء من أجل الفقراء ، وأن التعليم الصحيح كفيل بأن يهيىء للفقراء حياة أسعد . ولكنه أوقف اصدار الصحيفة نتيجة لمؤامرات حيكت ضدها ، غير أن الشاب المتحمس لم تهن قواه . فترك الدراسة الدينية وأنكب على دراسة القانون كى يصبح مدافعا عن الفقراء. ومرة أخرى ترك القانون ودراسته جانبا وبدأ يتعلم الفلاحة والزراعة ، وهنا تزوج بستالوتزى بعد أن اشترى قطعة كبيرة من الأرض قريبة من زيورخ لينفذ فيها طرائقه وأساليبه الجديدة فى الزراعة ، وكانت أرضا بورا عول على استصلاحها وأسهم بعض المصارف معه . ولكن فجأة سحبت المصارف ما دفعته من مال . وكادت تحل كارثة ببستالوتزى ، ولكن بعض أصدقاء زوجته أنقذوه فى اللحظة الحاسمة وقال لنفسه

«مادهانى ، أين آرائى ، لقد كنت أعمل لنفسى ولزوجتى ولم أكن أعمل لصالح الغير . . .» .

وعندما ولد له طفل أمسى احتكاكه بالتربية جليا واضحا .

مدرسته فى نيوهيف

نظر ذات مرة إلى الأطفال الفقراء وتساءل عن كيفية إسعادهم وخرج من تفكيره بالفكرة التالية «ليس الأمر أن يعرفوا ما يجهلون ولكن المهم أن يسلكوا ما لم يسلكوه» وبنى على هذه الفكرة رأيا قال فيه «ولن يتأتى لهم ذلك إلا إذا أحسوا بأنهم محبوبون وأن هنالك من يعتنى بهم ، وفوق ذلك يجب أن يتعلموا كيف يحترمون من هم أكبر منهم سنا» . ونادى بأن هؤلاء الأطفال يجب أن يتعلموا كيف يساعدون أنفسهم وغيرهم .

وكان بستالوتزى عمليا واقعيا ، فسرعان ما ضم منزله عددا من هؤلاء الأطفال البؤساء ، شملهم بحبه وعطفه وشرع يعلمهم الفلاحة والغزل والنسيج وكان يأمل أن يكفى إنتاجهم أود حياتهم . وبدأ العمل فعلا فى ظروف قاسية جدا مما كبد زوجته الكثير من المشاق .

وكان عدد الأطفال عشرين . عمل معهم فى الحديقة والحقل صيفا وداخل الدار شتاء ، وكان يجلس إليهم فيحادثهم فى شتى الموضوعات المستمدة من حياتهم اليومية ثم حفظهم الانجيل عن طريق تكرار أجزاء منه . وفكرته هنا تقوم على مبدأ التحدث والمناقشة يجب أن يسبقا القراءة والكتابة» .

عمل هذا النظام عمل السحر فى الأطفال ، فلم تمض عدة أشهر إلا وتفتحت هذه الزهور الذابلة فسرت الصحة والقوة فى أبدانهم وبان الذكاء على وجوههم ، واكتسوا

بالسعادة والطمأنينة بعد الشقاء والبؤس ويعد هذا النجاح الساحق أعلن (بناء على نصيحة أحد أصدقائه ممن يحررون الصحف) حاجته إلى أعداد من الأطفال ، وأردف «عندما تنجح فى جعل قلب الطفل يتأثر ، فتأكد أن النتائج ستكون حتما خيرة لصالح نموه ولبنائه الخلقى» . ويؤكد أن الطفل إذا ما أحس بالعطف والرعاية فإنه سيبتعد عن كل شائن .

بدأ بستالوتزى يعمل من جديد مع عدد غفير من الأطفال معتمدا على بعض المعونة المادية التى كان يتلقاها وعلى حبه للأطفال . ولكن أسفرت مجهوداته الجديدة عن افلاس ، فإن آباء الأطفال - وكانوا فى معظمهم من الشحاذين - هاجموا بستالوتزى فى غير هوادة ظنا منهم أنه يستغل الأطفال لمغنم مادى يئول إليه ، بل وعملوا على تشجيع الأطفال على الفرار بملابسهم الجديدة ، وثمة سبب آخر يرجع إلى جهل بستالوتزى بشئون الإدارة والتنظيم ، ويعترف فوق كل هذا بأن نتاج أعمال الأطفال من المنسوج كان يتكلف أكثر من الثمن الذى يباع به . وقد أدى الأمر به إلى أن يطلب المعونة المادية من زوجته حتى نضب معين أملاكها .

بعض كتاباته

وأعقب هذا الفشل ثمانى عشرة سنة عجافا قاسى فيها بستالوتزى ، ألوان الشظف والحرمان . وفى العادة تمضى سنو الحرمان بطيئة متثاقلة ، ولكن الوقت يمر على بستالوتزى وما زالت بارقة أمل فى قلبه . ولم يخب ظنه ، فقد طرقت باب داره ذات يوم خادمة اسمها «اليزابث» مات عنها سيدها وسمعت بقصة التعس الذى يعيش فى نيوهيف . فقررت أن تضحى نفسها قربانا له ، ولكنه رفض ، أما هى فألحت وأصرت فقال لها «إذن فابقى وستجدين أن الله يرعى من بالبيت» .

هذه الخادمة الأمية كانت تتبع خطى سيد الدار ، بل ويرى بستالوتزى أنها هى التى ألهمته فكرة كتابه الذى سماه «ليونارد وجرترود» . وعندما تاق للكتابة فى الصحف ظهرت له عدة مقالات متتابعة تحمل اسم «ساعة الناسك الليلية . The Evening Hour of a Hermit» .

وبعد ذلك ظهرت مجموعة فى كتاب لكنها لم تجد صدى فى نفوس الكثيرين ، فألح عليه من حوله أن يكتب شيئا ذا شكل شعبى ، وهنا تبلورت الفكرة التى ألهمته إياها الخادمة «اليزابث» فشرع يكتب حتى ظهر «ليونارد وجرترود» Leonard and Gertrude تدور قصته حول حياة سكان الريف وأسباب انحطاط مستوى معيشتهم . وسرعان ما تخاطف الناس نسخ الكتاب .

يختلف الناس فى نظرتهم للكتاب الواحد . فبينما وجد الكثيرون فى الكتاب قصة ممتعة ، إذا بجمعية «برن الزراعية» ترسل كتاب شكر لبستالوتزى ومعه ميدالية ذهبية لأنه ضمن كتابه وسائل عملية من شأنها أن تصلح حال الفلاحين .

وشجعه نجاحه على طبع كتابه الذى سماه «كرستوفر وأليزا» Christopher and Eliza وضمنه بعض المبادىء التربوية والتعليمية ، ولكن العامة كانوا يريدون التسلية لا التعليم ، ولذا فلم يصادف الكتاب هوى فى نفوسهم ، ولهذا فشل . ثم ألحق بهذا الفشل فشل آخر عندما أصدر صحيفة أسبوعية أطلق عليها اسم «الجريدة السويسرية Swiss Journal ويعلل سبب الفشل هنا بأنه ملأها بالحكمة!! .

أحجم بستالوتزى بعد ذلك عن الكتابة فترة ، تعرف خلالها على كثير من فلاسفة الألمان مثل جوتة وفيخته ، وقد اضطره الأخير إلى محاولة فلسفة آرائه ، فظل يعمل دون هوادة مدة ثلاث سنوات حتى أصدر سنة ١٧٩٧ «بحث فى أثر الطبيعة فى نمو الجنس البشرى» [1] وكان بحثا عمليا فلسفيا لدرجة أن بستالوتزى نفسه قال «لم

(1) Inquiry into the Course of Nature in the Development of the Human Race .

يفهمنى أحد » ولكنه مع ذلك لم ييأس فأنتج فى نفس العام كتابا أسماه أخيرا « أقاصيص » [1] اشتمل على مجموعة كبيرة من النوادر التى يقارن فيها بين الحيوان والإنسان : فهذه نادرة عن فرسين ربيت أحداهما عند فلاح فقير والأخرى عن ثرى اعتنى بها ، ثم يخاطب الوالدين قائلا إن أبناءكم كالفرسين ، فالعناية فى التربية لا شك ستظهر أثارها فى الطفل .

فى ستانز

كان بستالوتزى من ذلك النفر الذين يفكرون ويعملون ، وهؤلاء نفر قليل ، وهو لم يقتصر على ما يجب أن يفعل فحسب بل بذل مجهودات رائعة للعمل فعلا . وقد كانت محاولته الأولى فى نيوهيف من وحيه ومن عمله وكذلك محاولته الثانية فى ستانز Stanz ، ولكنه ضم إليه آخرين فيما بعد حتى لايوقف العمل .

إنه كان يرى فى نفسه الوسيلة لإنقاذ الناس من الفقر والبؤس الذى يعيشون فيه ، ورأى أن حالتهم ستظل على ما هى عليه إذا لم يتعلموا تعليما صحيحا .

وقد وجد فى الأطفال الفقراء البذور التى إذا اعتنى بها أنتجت ثمارا شهية ونبتا صالحا ، ولكن الطرائق التى كانت تتبع فى تربيتهم ثبت أنها أبعد ما تكون عن الصواب ، فقد انصبت على تلقين الطفل أفكار وآراء ومعلومات الغير ، أى أنها عملت على محو شخصيته وسيطرة شخصية المربى . والخطأ الرئيسى هو أن المعلم كان يعمل من الخارج إلى الداخل ، أما بستالوتزى فأصر على أن تبدأ التربية من الطفل ، من الداخل إلى الخارج . ولذا فقد بحث عن وسائل لتنمية قوى الطفل الداخلية الفطرية ، وفى هذا يقول « إن الطبيعة تنمى كل قوى الإنسانية بمرانها وتدريبها » (مران وتدريب هذه القوى) .

---

(1) Fables

بذلك اتخذ بستالوتزى حاجات وميول الطفل نقطا للبداية ، وربط بين عمل الجسم وعمل العقل ، وبين التحصيل العلمى والعملى . وكان يعيب على المدارس اسراعها فى تعليم الأطفال الحقائق العلمية ، وهو يرى أنها بذلك تعارض عمل الطبيعة التى لاتعرف التسرع .

وعندما اجتاحت الجيوش الفرنسية أرض سويسرا سنة ١٨٩٨ بدأت الأمور تتغير وأقامت قوات الاحتلال حكومة من لدنها وعملت هذه على البحث عن حلفاء بين السويسريين ، وراحت تسترجع أسماء الكتاب وقادة الفكر ، وطبيعى أن تقف الحكومة طويلا أمام ذلك الشخص الذى كتب «ليونارد وجرترود» . ولم تكن بحاجة كبيرة إلى اقناعه ، فبدأ يكتب فى الصحف مثنيا على الحركة الفرنسية المباركة مما أثلج صدر حكومة الاحتلال ، فعرض عليه أن يتخير الثمن فلم يطلب أكثر من أن يعين «مدرسا» ، فرأت الحكومة فى هذا الطلب شيئا يسيرا جدا ، وعرض عليه أن يتخذ لنفسه ولأطفاله مقاما فى دير بمدينة ستانز ، وكان عدد الأطفال أربعين .

لعبت الأفكار والأمانى الجميلة برأسه وتخيل أنه وقد أتيحت له الظروف المادية يستطيع أن ينجح فيما فشل فيه ، ولكنه عندما قفل باب الحجرة الكبيرة الوحيدة التى ضمته مع الأربعين طفلا تحطم هذا الأمل - ولم يساعده فى عمله سوى خادم عجوز لانفع فيه ، وكان عليه أن يقوم بعمل كل شىء لهؤلاء الأطفال الذى تيتموا من جراء الحرب . وعندما رفع بستالوتزى صوته محتجا بضيق المكان وقلة الماء والمساعدة زيد عدد الأطفال إلى ثمانين !! ولم يكن يأمل فى مساعدة مادية من أهالى المدينة لأنهم اعتبروه متواطئا مع الغاصب وبذلك رفضوا أن يضعوا أيديهم فى يد من حالف الشيطان .

ومع ذلك ففى هذه الظروف التى إذا وصفت بأنها قاسية فيعتبر هذا الوصف أقل بكثير من الحقيقة ، ومع ذلك فقد نجح بستالوتزى ، ففى مدة خمسة أشهر فقط ازدهر

ـلــ التعـمـير ولم تتفق الأطفال في شيء أكثر من اتفاقهم على حب بستالوتزى . نعم إنها كانت معجزة ، بل إنها مكافأة المؤمن المخلص ، هدية لصاحب قلب كبير : إنه آمن ، فعزم ، فنجح ، لقد وقف أمام الأطفال وقال بصوت متهدج ولكنه مملوء بالثقة «إن الإنسان خير» وفي الحقيقة إنه آمن بأن الخير من عند الله .

لم يمض بستالوتزى بهذا الدير أكثر من هذه الأشهر الخمسة ، فإن الجيش الفرنسي الذى كان يحارب في النمسا وشمال إيطاليا احتاج للدير ليكون مستشفى للجنود والجرحى ، فانسحب بستالوتزى بأطفاله إلى بعض الحمامات المهجورة في الجبال القريبة . وتعد هذه الأشهر الخمسة من الأحداث التى لاتنسى فى تاريخ التربية .

ولكن الزمن والأقدار تأبى إلا أن تكون ساخرة ماجنة ، فهذا الذى أنتج أكبر حدث في تاريخ التربية لم يكن يؤتمن في التدريس لطفل ، «فهو ضعيف في الحساب كثير الأخطاء النحوية والإملائية» كما ردد حساده . ولكن أنصاره يقولون «ومع التسليم بكل هذا فإنه قد فهم مالم يفهمه كل المدرسين ، فهم عقل الإنسان وقوانين النمو وعرف كيف يجذب قلوب أطفاله نحوه» .

في برجدورف

ومع ذلك فقد فشل هذا «الحالم» في الحصول على وظيفة مدرس ، وبعد لأى استطاع بعض خلصائه أن ينجحوا في إلحاقه مدرسا بمدرسة في برجدورف Burgdorf على شرط أن يدرس للسنة الأولى فقط . وكان عدد الأطفال خمسة وعشرين بين بنين وبنات وتتراوح أعمارهم بين الخامسة والثامنة. وبعد ثمانية أشهر أجرى اختبار للأطفال وتمخضت نتيجة الاختبار عن اعتراف رسمي بمزايا طريقته ، وأرسلت له إدارة المدرسة خطابا جاء فيه «إن التقدم المدهش للأطفال ذوى القدرات المختلفة يبين أن كلا منهم صالح لشيء إذا استطاع المدرس أن يحسن استغلال مواهبهم مترسما خطى قوانين علم

النفس . إن الطرائق القديمة التى قامت على التعذيب وألوان العقاب المختلفة مكنت الأطفال من معرفة هجاء الكلمات وإجادة عمليات الحساب ، أما طريقتك فقد زادت على ذلك إجادتهم الرسم والخط بل ورغبتهم فى دراسة التاريخ والتاريخ الطبيعى والجغرافيا مما سييسر على المدرسين الذين سيدرسون لهم فى المستقبل عملهم ...» .

وكان من نتيجة هذا الخطاب أن ألقيت إلى بستالوتزى مقاليد الأمور فى مدرسة ثانية فى برجدورف بلغ عدد تلاميذها وتلميذاتها سبعين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والسادسة عشرة .. وانكب هذا المؤمن على عمله بإخلاص نادر ، وكان أمله لايقتصر على دائرة صغيرة ، بل فكر فى خير كل أطفال المقاطعة بل كل أطفال سويسرا ، بل فوق هذا صالح كل أطفال أوربا ، وكان الصدق والإيمان المشتعل فى صدره يهتف من أعماقه صائحا «إذا أردنا أن نمد يد العون إلى الفقير والبائس فلا يوجد سوى طريق واحد هو تغيير المدارس إلى أماكن للتربية الحقيقية ، حيث يتاح للقوى الخلقية والعقلية والجسمية التى منحتنا إياها الطبيعة أن تعمل وتظهر ، وبذلك يمكن للإنسان أن يحيا كما يجب أن يحيا الإنسان راضيا عن نفسه ومرضيا لغيره» .

ويرى بستالوتزى أن التربية تبدأ مباشرة بعد ولادة الطفل ، وبعد أن تبدأ حواسه فى العمل ، ويقول «إن الطبيعة مملوءة بالمناظر الجميلة ومع ذلك فإننا لم نفعل شيئا ليحس الفقير بهذا الجمال» .

فى عام ١٨٠٠ وفد إلى مدينة برجدورف ثلاثون طفلا تحت رعاية شاب اسمه كروزى Kruesi ووقف بأطفاله وسط المدينة فهرع السكان إليه وتخيرت كل عائلة طفلا تتبناه ، أما هو فقد لجأ إلى بستالوتزى وتشرب بآرائه ومبادئه ثم تصافحا دلالة التعاون . وكان تحت يد بستالوتزى تصريح باستغلال حديقة وبناء قلعة المدينة ، فشرع بستالوتزى ومعاونه فى العمل بهمة ونشاط فى هذه القلعة التى عرفت فيما بعد باسم معهد برجدورف . وانضم إليهما شابان آخران هما توبلر Tobler وبس Buss ، وقدر لعمل هؤلاء الأربعة أن تتجاوب أصداؤه فى أنحاء العالم .

ومنح بستالوتزى إعانة مالية من الحكومة ، بل أكثر من ذلك افتتح فصلا فى القلعة لتدريب معلمى المدارس الاعدادية ، فكانت دفعة المدرسين تبقى مدة شهر تدرس على بستالوتزى . وحدث أن زار أحد أولياء أمور الأطفال المعهد فقال «إن هذه ليست مدرسة ولكنها عائلة» فعقب بستالوتزى على هذا القول «إن هذا غاية ما نبتغيه» . وفى الحق أن الحياة فى المعهد كانت مشوبة بعنصر الحب «للأب بستالوتزى» . ولعل خير ما يعبر عن تجاهه رأى رئيس مجلس التعليم فى برن الذى قال «إن بستالوتزى قد اكتشف القوانين الحقيقية العالمية للتدريس فى المدارس الاعدادية» .

عندما شكلت لجنة للذهاب لباريس للاتفاق على شكل الحكومة التى ستحكم سويسرا فى ظل الاحتلال الفرنسى ، اختير بستالوتزى عضوا فيها ، وقد عول على أن يكلم نابليون بونابرت فى شئون التربية والتعليم ، ولكن هذا بين أنه لايعرف شيئا عنها وأحال بستالوتزى إلى العالم الرياضى منج Monge ، وكان هذا يعتقد أن بستالوتزى لايعرف شيئا !! فلم تلق كلماته صدى فى نفس منج ، وعندما عاد بستالوتزى إلى قواعده سئل «هل رأيت بونابرت ؟» أجاب «لم أر بونابرت ولم يرنى بونابرت» فوضع نفسه على قدم المساواة مع الرجل الذى دانت له أوروبا بقوة النار والحديد . ومرت الأيام ومات بونابرت ومات بستالوتزى ولكن المؤكد أن العالم قدر ما خلفه بستالوتزى من آراء أكثر من تقديره لما خلفه بونابرت من حروب .

وكان طبيعيا أن تسحب السلطة من الحكومة المركزية وتمنح إلى المقاطعات السويسرية ، وأدى ذلك إلى قطع الإعانة التى كانت ترسلها الحكومة إلى بستالوتزى ، بل انه أخرج من القلعة بناء على طلب المقاطعة ، فهاجر إلى مكان قريب من برن حيث قام معهد زراعى يديره صديق لبستالوتزى . واتفق على أن تكون الناحية الفنية له والإدارية لصديقه ، صاحب المعهد . ولكن الرياح لم تأت بما تشتهى السفن فترك بستالوتزى المعهد وهاجر إلى قلعة فردون Verdun ، وبعد سنة لحق به مساعدوه الذين ضاقوا ذرعا بإدارة صديق بستالوتزى .

فى فردون

بعد هذه الظروف بدأ بستالوتزى العمل فى قلعة فردون التى أصبحت كعبة يحج إليها كل من أراد أن يرتوى من منهل بستالوتزى ، فأرسلت الحكومات بعثاتها من المربين ليجلسوا إلى بستالوتزى يستمعون ويرون طريقته ، ووفد إلى المعهد أطفال من مسافات بعيدة إما ليتتلمذوا على يد بستالوتزى أو جاءوا ومعهم أساتذتهم ليدرسوا بين جدران المعهد .

وانساق الناس مدفوعين بهذا الحماس الغريب للنظام الجديد ، وكانت الموجة عالية عاتية ، ولكن عندما قل الحماس ، أو قل خمد ، زال بريق النظام الجديد وأمسى أمرا عاديا ، ولكن المبادىء التى نادى بها ظلت بارزة متلألئة لايستطيع ضوء آخر أن يضاهيها . هى شمس وغيرها كواكب .

لقد أحبه الأطفال حبا فاق كل حب لأستاذ ، كانوا يسألون عنه إذا تأخر أو غاب ولاينتهى قلقهم إلا إذا لاح لهم ، وهنا تتعلق عيونهم البريئة بهذا الوجه الذى كسى بنقط الجدرى يعلوه شعر غير ممشط وتحته لحية غير منظمة ... كانت عيونهم تتعلق بعينيه اللتين تفتحان لحظة فى هدوء واستسلام ثم تبرقان فى أخرى بوميض سريع كالبرق وأحيانا نصف مفتوحتين كأنما قد ارتبطتا بما يدور تحت جمجمته من أفكار وتأملات ، وكان إذا تحدث سكتت الأنفس وأصاخوا السمع حتى ينساب صوته رقيقا فى يسر لحظة وكالهدير يتفجر أخرى وهو فى كلتا الحالتين مسموع مؤثر تستجيب له النفوس .

لقد أحبه معاونوه فلم يطلبوا لأنفسهم راتبا ، أما هو فقد وضع ما يجمع من المال من الأطفال فى صندوق بحجرته ، ومع كل مدرس مفتاح الحجرة فإذا أراد أحدهم شيئا من المال أخذ .

هذا الرجل الذى لم يأبه بونابرت له عندما كلمه عن التربية وجد من يقدره حق قدره ، وجد شعبا آخر يرى فى التربية الطريق إلى الخلاص ثم إلى المجد والسؤدد ، إنه شعب بروسيا . فبعد أن اجتاحت قوات بونابرت برلين وحطمت جيوش الألمان فى موقعة يينا سنة ١٨٠٦ بدأ الملك يفكر فى وسيلة للخلاص، فنظر إلى الأطفال وقال «هؤلاء هم رجال المستقبل وعليهم عماد الوطن» وبدأ يفكر فى كيفية الاهتمام بهم . أن بروسيا قد فقدت جيشها وأرضها وأصبحت ذليلة كسيرة . وبينما كانت هذه الأفكار تراود عقل الملك كانت الملكة تقرأ كتاب «ليونارد وجرترود » وكتبت فى مذكراتها «إننى أقرأ ليونارد وجرترود ويعمنى السرور عندما أحلم أننى قد نقلت إلى قرية سويسرية ، ولو قدر لى ذلك لركبت عربة أقودها إلى حيث يوجد بستالوتزى : وهنا سأصافحه بحرارة وسأشد على يديه بقوة بعينين قد امتلأتا بالدموع ، دموع تعبر عن امتنان وشكر عظيمين . بأى خير يعمل لهؤلاء البؤساء وبأى ايمان ورغبة جامحة يتجه إليهم وإلى خيرهم . نعم اننى باسم الإنسانية أشكره من صميم قلبى» .

إذن فقد اتجهت بروسيا أخيرا إلى التربية وتأثرت برأى فيلسوفها الجبار فيختته عندما نادى فى كتابه «مقالات إلى الأمة الألمانية» [1] بأن التربية هى الوسيلة الوحيدة لانقاذ ورقى الأمة ، وأن كل إصلاح فى نظم التربية والتعليم يجب أن يؤسس على مبادىء بستالوتزى .

ولذلك فقد أرسلت حكومة بروسيا ١٧ شابا فى بعثة مدتها ثلاث سنوات لتدرس على يد بستالوتزى فتأخذ منه المبادىء والحكمة ولتتأثر قلوبهم بالغاية النبيلة التى سيتبعونها عندما يعودون إلى وطنهم ، ومن بين هؤلاء الفيلسوف الألمانى فردريك هربارت، ثم الرجل الذى لعب دورا جبارا فى التربية وهو فردريك ولهلم فروبل.

---

(1) Addresses to the German Nation

كانت الحياة فى المعهد لاتسير على رتيب ممل بل تتخللها الحفلات والاحتفالات وكانت أسباب النجاح تحمل بين طياتها عوامل الفشل ، فإن العلاقات فى المعهد كانت تقوم على أساس أن الأفراد كلهم أسرة واحدة يخضعون للأب «بستالوتزى» وكان هذا ميسرا فى برجدورف أما هنا فى فردون فقد تغير الحال ، إذ أصبح المعهد عبارة عن عالم صغير ، تنوعت فيه الجنسيات واللغات إلى جانب الكثرة العددية . ومازال الأطفال ينادونه بالأب بستالوتزى ، ولكن ككل أب كان الواجب عليه أن يعرف كل أبنائه ، ولكن ذلك لم يكن متيسرا ، وبذلك انكمش عنصر الحب الذى قام النظام على أساسه

من ناحية أخرى ... حاول بستالوتزى عمل المستحيلات كما كان دأبه ولكن فى هذه المرة لم تسمح له الظروف بالنجاح ، فإنه كان ينادى بأن قوى الطفل يجب أن تعمل كوحدة لاتنفصم عراها ، ولكن هذه التربية لايمكن أن تبدأ عند أى سن ، ومع ذلك فإن الأطفال من كل الجنسيات وفى أى الأعمار كانوا يقبلون بالمعهد ، ثم ينظر إليهم على أنهم لايعرفون شيئا ، وعليهم أن يبدءوا من جديد .

وساءت أحوال المعهد حتى أن الأساتذة طلبوا من بستالوتزى أن يطلب من الحكومة تعيين بعض المشرفين الإداريين ، وكان من هؤلاء أحد رجال التربية واسمه الأب جيرار Pere Girard . وكان هذا لايرضى بأية وسيلة أن يكون مأمورا أو خاضعا لبستالوتزى ، إذ كانت له أفكاره التربوية التى يعتز بها . وسرعان ما أرسل الأب جيرار تقريرا أبان فيه أن مستوى الطفل العلمى فى المعهد أقل من مستوى طفل فى مثل سنه فى أية مدرسة عادية ... والأكثر من ذلك أن أطفال المعهد لايهتم بتعليمهم اللغة القومية ، حقا إن هؤلاء الأطفال يعرفون الحقائق الحسابية المجردة لكنهم يفشلون فى إجراء أبسط أنواع المسائل الحسابية ... وكان هذا الأب منافقا فى هذا الزعم .

وفى عام ١٨١٠ ترك المعهد أحد الأساتذة واسمه شميد Schmid وقد أعلن بأن المعهد «وصمة فى جبين البشرية» ومنذ ذلك اليوم بدأت الأحوال المالية تسير من

سيىء إلى أسوأ ويدأ الأساتذة يتفرقون وكأنما نعق البوم وسط هذه الأسرة المتحابة على أن الغريب أن شميد عاد سنة ١٨١٥ ثم سيطر سيطرة تامة على بستالوتزى الشيخ الذى عرف الضعف إلى جسمه سبيلا . وعمل شميد على إبعاد المقربين من بستالوتزى ومنهم كروزى وزوجته اليزابث التى طرقت باب بستالوتزى ذات يوم ، كما أشرت إلى ذلك سابقا . وتزوج حفيد بستالوتزى من أخت شميد فارتبط به بروابط عائلية أى أنه ظل المشرف على المعهد ، وظل إشرافه قائما حتى خرب المعهد تماما فطرد منه .

وفى الوقت الذى بدأ فيه اسم بستالوتزى يفقد مكانته فى نفوس أهل فردون اجتاحت جيوش النمسا أرض سويسرا ١٨١٣ - ١٨١٤ قاصدة غزو فرنسا ، وأصدرت القيادة النمساوية أوامرها باتخاذ قلعة فردون مستشفى خاصة بعد انتشار حمى التيفوس بين الجنود . ولكن بلدية فردون لم تطق صبرا ووجدت فى هذا الاحتلال تحطيما تاما للمعهد فأرسلت مندوبين من لدنها إلى القيادة العليا وصحبها بستالوتزى، وإليه وحده يرجع الفضل فى سحب القيادة العليا لطلبها وبقاء المعهد يؤدى رسالته .

وفى عام ١٨١٥ حدثت لبستالوتزى أكبر حادثة اهتز لهاوتأثر بها تأثرا عميقا ذلك أنه فقد الشخص الذى لم يستطع سوى الموت أن يفرق بينهما ، زوجته التى رثاها قائلا إنها كانت عونه وعضده وانهما استمدا شجاعتهما وقوتهما من الكتاب المقدس .

وكانت السنون التالية خالية من الحوادث المهمة اللهم إلا هذه المدرسة الصغيرة التى افتتحها فى قرية اسمها كلندى Clindy وقد ارتفع عدد الأطفال فيها إلى الثلاثين، وسرعان ما أصبح اسم كلندى علما . وما زال شميد يقنع الرجل العجوز طيب القلب حتى نقل أطفاله إلى القلعة . ولكن أيام القلعة كانت قليلة محدودة فسرعان ما أقفلت أبوابها وانتقل بستالوتزى إلى نيوهيف .

وظل هنالك يحيا حياة هادئة تتناسب مع شيخوخته حتى أسلم روحه إلى بارئها فى ١٧ فبراير ١٨٢٧ بعد أن عاش إحدى وثمانين سنة .

آراؤه فى التربية

صاح بستالوتزى صيحته المدوية قائلا إن نظم التربية فى حاجة ماسة إلى تغيير الهدف من التربية ، فقد كان الهدف هو التعليم ولكنه غيّره إلى النمو ، فليست التربية فى نظره تعليما بل هى نمو . ويعبر عن ذلك الرأى بتشبيه طريف : فيقول إن ما يلزم عربة المدرسة ليس تغيير الخيول ولكن تغيير الطريق . ويرى أن جعل النمو هدفا للتربية معناه أن يصبح الطفل هو محور الأهتمام ، وفى ظل التربية الصحيحة ينمو النمو الصحيح . وعلى ذلك فآراء بستالوتزى تعنى بالغاية والهدف ، ولعل السبب الذى دفعه إلى هذا الرأى هو حدبه على الإنسانية وحبه للبشرية . فعندما رأى الحال السيىء الذى انحدر إليه الفلاحون وتألم لهم أيقن أن صلاح أحوالهم لن يتأتى إلا عن طريق التربية التى بواسطتها يستطيعون أن يكونوا كما أراد الله أن يكونوا وبها يستطيعون استغلال قدراتهم الفطرية أحسن استغلال ، ويقول : «ترى لماذا اهتممت هذا الاهتمام البالغ بالتربية العقلية والجسمية ؟ أذلك لأننى أعتبر أنه ينبغى على الإنسان استخدام كل القدرات التى وهبها الله إياه . وأن يوجهها لما فيه كماله حتى يستطيع أن يسلك السلوك النبيل» .

ولهذا فهو يصر على أن تمنح لكل الأطفال الفرص المتكافئة للتعليم حتى لايحرموا من التربية المجدية الصحيحة التى تقودهم إلى خيرهم .

وتبدأ الأم عملية التربية ، وهو يرى أن الله قد وهبها من القدرة ما يساعدها فى عملها النبيل وأن تصبح هى العامل الرئيسى فى نمو طفلها ... إن الله وهب طفلك كل القوى التى تتطلبها الحياة ، ولكن هنالك نقطة لم يستقر الرأى عليها بعد وهى كيفية استخدام هذا القلب وهذه الرأس وهاتين اليدين . ولصالح من تستخدم ؟ سؤال تحدد اجابته مستقبل حياة ابنك ... هل ستكون هنيئة رغيدة أم تعسة شاقة ... إنها حياة فلذة كبدك ، إنه ضناك وعزيزك ... إن حب الأم لأبنها هو اللبنة الأولى فى صرح

تربية الطفل ... وعن طريق التربية الصحيحة تزرع فى نفسه محبة الخالق الأعظم ... الله جل جلاله .

ويجب أن تعمل التربية على استغلال القدرات التى زود الله بها الطفل وأن يسمح لها بالتعبير عن نفسها حتى يتاح بذلك النمو الصحيح المتزن للطفل ، وهذا يتطلب أن تكون التربية ليست مجرد دروس غير متصلة ، بل يحتم الأمر أن ترتبط الدروس فى انسجام ووحدة . وعمل المربى أن يعمل جاهدا على ترقية نمو الطفل الخلقى والعقلى والجسمى .

وليس المبدأ الرئيسى الهام للتربية هو التدريس ، ولكنه الحب والعطف ، ويؤكد بحزم وإصرار أن الطفل يحب ويصدق قبل أن يفكر ويعمل ، ويشبه بستالوتزى قوى القلب وهى الحب والايمان بكونها عوامل تكوين حياة الفرد بالجذر بالنسبة للشجرة ، فهل يمكن إن اجتث الجذر أن تبقى الشجرة حية ! ؟ وعلى ذلك فإن الطفل دون حب وإيمان لايمكنه أن ينحو النحو الواجب . إن قلوبنا وعواطفنا تقودنا إلى الأعمال أكثر مما تقودنا إليها أدمغتنا ، وقد أفضل شخصا يحب الخير والفضيلة ولكنه جاهل أكثر مما أفضل أخر يحب الشر والرذيلة وقد ضرب بسهم وافر فى التحصيل العلمى .

بذلك يضع بستالوتزى التربية الخلقية والدينية فى المقدمة ، ولذلك فقد أمسك بمعول النقد يهدم صرح بناء التعليم فى المرحلة الأولى فى عهده فهو يقول «إن هذا التعليم فى كل مظاهره يسيطر الجسم على الروح ، أما العنصر المقدس فقد أهمل شأنه، وفى كل مظاهره تجد الأنانية واضحة جلية بل هى الباعث على مختلف أنواع السلوك ، وتجد فى هذا التعليم دلائل على سيادة العادات الآلية فى الوقت الذى كان يجب أن تنتعش فيه أوجه النشاط التلقائى ...

إن نظام التعليم يجب أن يكون غير ذلك النظام ... «فليست لقمة العيش هى كل شيء . بل إن كل طفل فى حاجة شديدة إلى التربية الدينية ، وكيف يمكن أن

يصلى لربه فى خشوع وبساطة ولكن بإيمان وحب ... وإذا لم تلعب التربية الدينية الدور الأول فتأكدوا أن كل أنظمتكم التعليمية ستظل بعيدة عن التأثير فى حياة الأطفال وستظل التربية بذلك شكلية أى أنها بعيدة عن الحياة والواقع» .

نعم إن الطفل يجب أن يصلى أولا ثم يفكر بعد ذلك .

ويجب على الطفل أن يفكر ، ولم يقل بستالوتزى كما نادى جون لوك بأن الطفل يجب أن يتعلم ، والفرق بينهما واضح ، فالأول يحتم التفكير والآخر يصر على التعليم ، وليس لدينا شك فى أن لوك لم يقصد مطلقا بالتعليم تعليم التفكير . ولعل من الضرورى أن أوضح هنا ماأقصده بالتفكير أو ماقصده بستالوتزى فى الواقع ، ويخيل إلى أنه لم يرم إلى ما نطلق عليه اليوم خطوات التفكير التى يتبعها العقل ، ولعله كما أعتقد ، قصد من التفكير «التأمل» . وقد يكون مصدر فكرة بستالوتزى هنا تأثره الواضح بفلسفة جان جاك روسو وخاصة ما عرضه فى تحفته «أميل» . ويؤيد هذا الرأى أن بستالوتزى مع اعتناقه للكثير من مبادىء روسو إلا أنه يخالفه فى أمر أساسى وهو إحجام روسو فى تعليم الطفل قبل سن الثانية عشرة ، ويقول بستالوتزى «إن من الواجب أن يتعلم الأطفال ، ويكون تعلمهم عن طريق تنمية كل قوى العقل» وهنا يرفع صوته عاليا فخورا بأنه اكتشف اكتشافه الأعظم وهو عن كيفية تنمية قوى العقل فى هذه الفترة ، فيرى أن يؤسس التعليم على أساس Anschauung [1] ، وأسمح لنفسى بأن أترجم هذه الكلمة بلفظ «التأمل» .

التأمل هو العمل الطبيعى ، التلقائى للذكاء البشرى ، وعن طريق التأمل يستطيع العقل أن يحصل على الحقيقة دون مجهود كبير ودون تردد ، فالتأمل إدراك مباشر وليد اللحظة . ويسهل التأمل إذا كان الشىء الذى نتأمله محسوسا أما إذا كان

(١) تجد هذه الكلمة الألمانية ترجمات عدة فى اللغة الإنجليزية والفرنسية ، وقد تجد لفظ «التأمل» خير ترجمة لها بالعربية

فكرة أو رأيا أو حقيقة أى ليس أمرا محسوسا . فحينئذ يتقدم إلى العقل وهذا يستوعبه بعد تمحيص . وعلى ذلك فالتأمل ليس شيئا جديدا على العقل ، بل هو العقل نفسه يتعرف ما حوله وما فيه .

التأمل إذن ميسر لكل طفل ، ولو استطعنا كمربين أن نستغل الطريقة التأملية في عملية التربية والتعليم فإننا بذلك نكون قد هيأنا للطفل فرصة حقيقية للانتفاع بقدراته ، ولعل في استخدامنا الطريقة التأملية تغلبا على كثير من المشاكل التي تجابهنا في التربية . ولعل خير ما تجنيه أن الطفل سيقبل بنفسه إقبالا تلقائيا على العمل لأنه يتأمل ، وقد عرفنا أن التأمل هو العقل نفسه يتعرف ما حوله وما فيه .

وهناك ثلاثة أنواع من التأمل : تأمل حسى وتأمل عقلى وتأمل خلقى . كما أنه توجد تأملات للإحساسات الداخلية، وهذه أربعة : أولا ، الإحساس بالحق ، ثانيا ، الإحساس بالجمال ، وثالثا الإحساس بالخير ، ورابعا الإحساس بالمطلق غير المحدود .

ويؤمن بستالوتزى بأن لكل من الجسم والعقل قدرات يستطيعان عن طريقها معرفة ما هو حق صائب ، وعلى أساس هذه القدرات يبنى بستالوتزى نظامه التعليمى وأسسه التربوية . ويلوح لنا أن بستالوتزى ليس أول من آمن بهذه الفكرة ، فالثابت أن لوك Loke [1] نادى قبل بستالوتزى بحوالى قرن من الزمان بأن المعرفة هى «الإدراك الداخلى للعقل» .

ويقول : إذا كانت المعرفة تتأتى عن طريق الرؤية ، فإن من الجنون أن أستخدم عينى شخص آخر لكى أعرف أنا ، بل الواجب أن استخدم عينى فأرى أنا ما يحاول هو أن يعبر عنه بكلمات كثيرة . ولكن لوك لم يلق بالا إلى القوى العقلية للطفل ، أضف إلى ذلك أنه كان فيلسوفا أكثر منه مربيا يعمل فى سلك التربية والتجريب . وجاء

---

(١) جون لوك فيلسوف إنجليزى (١٦٣٢ - ١٧٠٤) .

بعده روسو فنادى بأن الطفل يجب أن يظل دون تعليم حتى سن الثانية عشرة ثم يتناوله المربى وسيجد أن الطفل كبيت خال غير مؤثث ويمكنه أن يؤثثه بما شاء من ألوان الأثاث . أما بستالوتزى فيضرب بفكرة روسو عرض الحائط ، وينادى بأن المربى فى أى سن لن يجد عقل الطفل بيتا خاليا دون أثاث ، لأن الطفل يتكلم منذ أن يولد وتعمل حواسه . ويتكلم الطفل لا عن طريق ترديد كلمات وأفكار وإحساسات الآخرين، ولكن عن طريق خبراته الشخصية وإحساساته وما تولده هذه من أفكار ومعارف فى نفسه .

ويرى بستالوتزى أن الجانب العقلى فى مرحلة التعليم الأولى يجب أن يؤسس على التأمل ، والتأمل يجب أن يقوم على ما يحيط بالطفل وما يمس حياته ويرتبط به. ويلوح لنا لأول وهلة أن بستالوتزى لم يلق عناية كافية لناحية «الاهتمام» فى هذه المرحلة . ولكننى أرجع أن التأمل نفسه فيه عنصر الشوق والاهتمام ، فلن يتأمل الطفل شيئا لايجد فيه ما يثير شوقه واهتمامه .

تقوم فلسفة التدريس عند بستالوتزى على مبدأ «تحليل المعرفة» حتى يستطيع الأطفال أن يفهموا ويتعرفوا على ما يحيط بهم ، ويكون ذلك فى نظام وخطوات تؤدى كل خطوة منها إلى الخطوة التالية حتى تتمشى الحقائق تمشيا منطقيا متدرجا وبهذا يتعلم الطفل على مهل كما أنهم يتعلمون بأنفسهم ، ويحصلون على الحقائق بأنفسهم، وبذلك تقوى ملاحظتهم وتدرب تدريبا عمليا صحيحا ، ويستطيعون استنباط النتائج من التجارب . وما على المدرس إلا مد الأطفال بالمواد والفرص المناسبة والظروف المواتية . ويؤيد بستالوتزى فكرة التمهل فى التعليم وخاصة للمبتدئين ويقول «نحن لانضيع الوقت كما يتراءى للبعض ، ولكننا فى الحقيقة نكسبه .. » ويؤكد رأيه هذا بأن الطفل سيثق ثقة تامة بالمواد الدراسية التى يتعلمها دون تسرع ، لأن التمهل من شأنه أن يؤكد هذه الحقائق ويثبتها .

وثمة فكرة على جانب كبير من الأهمية وهى ضرورة أن ينظر الأطفال نظرة جدية إلى التعليم، وهو بذلك يناقض بعض المربين ممن سبقوه ونادوا بأن يعطى التعليم على هيئة «تسلية» أمثال لوك وبازيدو Basedow [1] وينادى بستالوتزى بأن الطفل يجب أن يعوّد منذ البداية النظر جديا إلى التربية وأن الاجتهاد والجد ضروريان للحصول على المعرفة الصحيحة . ولكن مع ذلك يجب أن يعلم أن الجد ليس شرا ويجب أن يشجع عليه . وتستلزم عملية الجد شعور الطفل بحالة ارتياح وسرور يدفعانه إلى العمل ، ولذلك فإن فقدان الارتياح والسرور من شأنه أن يصرف الطفل عن العمل الجدى كالانتباه إلى الشرح . وينصح بستالوتزى المدرس الذى يجد تلاميذه قد انصرفوا عنه ، ينصحه بأن يبدأ البحث عن سبب ذلك ، ويرجح أن يكون المدرس نفسه هو السبب .

وانقل عن لسان فردريك هربارت الألمانى عندما زار بستالوزى فى برجدورف أنه عجب لموقفه الجدى فى الفصل، فلم تكن هنالك أقصوصات لطيفة يتلذذ الأطفال بسماعها ، ولم تكن هنالك فكاهات مليحة ترسم الضحكات والابتسامات على وجوه الصغار ، ولم يكن هنالك سوى الشرح الدسم والإنصات التام من الأطفال ، وقد أنصت هؤلاء لأن بستالوتزى عرف كيف يمزج بين الحقائق العلمية وبين التسلسل المنطقى والشرح الهين ، مما جعل المادة تنساب إلى عقول الأطفال لذيذة شيقة .

هذا ، وقد اهتم بستالوتزى بالغناء والرسم ، وقد شاعت وانتشرت الأغانى الخفيفة التى نظمها مدرس فى فردون اسمه نايجلى Nageli ، ويقول بستالوتزى فيما يختص بالرسم أن الشخص الذى اعتاد أن يرسم من الطبيعة سيجد فيها أشياء تخفى على الكثيرين ، فإن تأمله ومحاولته خلق منظر على الورق يشابه المنظر الذى أمامه

---

(١) بازيدو أحد الذين أدلوا بدلوهم فى حركة الإصلاح التربوى وقد ولد جون برنارد بازيدو فى هامبورج ١٧٢٣ .

يبين له أشياء لايراها عابر السبيل . وبكثرة ملاحظة الكل وأجزائه تتكون عند الطفل عادة حسنة ، فيعتاد التدقيق والبحث العميق .

وسألخص الآن المبادىء التى نادى بها بستالوتزى ، وهذا التلخيص من مورف Morf فى كتابه Contribution to Pestalozzi's Biography .

١- يجب أن يؤسس التعليم على خبرة المتعلم نفسه .

٢- يجب أن ترتبط خبرات وملاحظات المتعلم باللغة .

٣- ليس وقت التعلم هو وقت الحكم وليس هو كذلك وقت النقد .

٤- يجب أن يبدأ التعليم بأبسط العناصر ويتدرج المتعلم بعد ذلك فى تمهل تدرجا منطقيا متسلسلا .

٥- لايجب على المربى أن ينتقل من نقطة إلى أخرى إلا بعد تأكده من أن المتعلم قد فهم النقطة السابقة وثبتت فى ذهنه .

٦- يجب أن يعرف المعلم أن المقصود بالتربية هو النمو لامجرد إلقاء محاضرة أو سرد حقائق .

٧- على المربى أن يقدس فردية الطفل .

٨- ليس هدف التعليم فى المرحلة الأولى هو الحصول على المعرفة أو المهارة بل هو نمو وتقوية قوى العقل .

٩- مع المعرفة يجب أن تأتى القوة ومع المعلومات تأتى المهارة .

١٠- يجب أن تكون العلاقة بين المعلم والمتعلم علاقة حب وعطف ويجب أن يقام النظام المدرسى على أساس هذه العاطفة النبيلة .

١١- يجب أن يخضع التعليم لهدف التربية .

١٢- علاقة الأم بطفلها تعتبر الأساس للتربية الخلقية والدينية

هذا ، وهنالك تلخيص آخر لأهم آراء بستالوتزى أنقلها عن جوزيف باين Joseph Payne سردها فى آخر محاضرة له عن بستالوتزى . قال :

١- إن مبادىء التربية وأسسها يجب أن يبحث عنها داخل الطفل وأن تبدأ منه لا أن تفرض عليه من الخارج .

٢- وتشتمل طبيعة الطفل على قدرات جسمية وعقلية وخلقية وهذه يجب أن تنمى لأنها تناضل لذلك .

٣- للتربية ناحيتان : ناحية إيجابية وأخرى سلبية . فالوظيفة السلبية للمربى تلخص فى إزالة العقبات التى تعترض الطفل حتى يكون أمامه مجال للنمو . أما الوظيفة الايجابية فتظهر فى إثارة المتعلم لتدريب قواه فهو يمده بالوسائل والفرص المناسبة ثم هو يرشده إلى الصواب .

٤- يبدأ النمو الذاتى عندما يتأثر العقل بالأشياء الخارجية . وهو يقصد بها الاحساسات ، وعندما يعيها العقل تتحول إلى مدركات حسية ، وتسجل فى العقل على أنها إدراك لأفكار وهذه تكون المعرفة الأولية التى تصبح أساسا لكل معرفة .

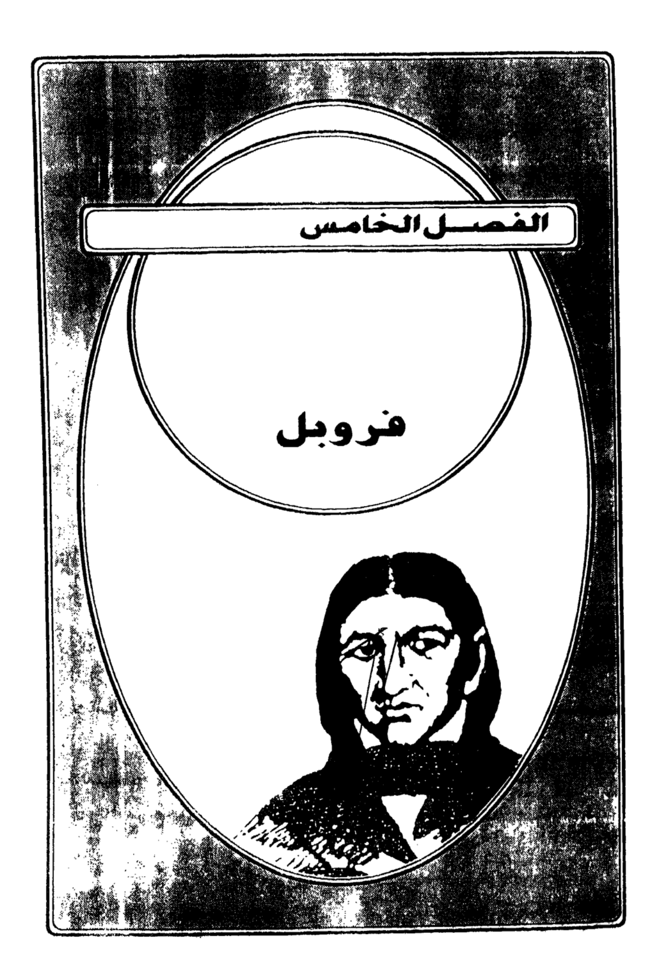
٥- تعتبر التلقائية والنشاط الذاتى الظروف الضرورية التى فى ظلها يعلم العقل ، ويحصل على القوة والاستقلال .

٦- تعتمد القدرات العلمية على العادات التى تكونت من تكرار تدريب قوى المتعلم أكثر من اعتمادها على مجرد المعرفة البحتة . فيجب أن ترتبط المعرفة بالعمل . ولعل غرض التربية الرئيسى هو تنمية قوى المتعلم .

٧- يجب أن تؤسس كل تربية (وحتى تعليم) الطفل على تأمله الشخصى وعلى خبرته الذاتية ، وهذا هو الأساس الصحيح لكل معلوماته . فالحقيقة تسبق الرمز ، والشىء يسبق الكلمة وليس العكس .

٨- يستطيع الطفل بعد أن رأى وتأمل وبعد أن أصبح هذا العمل جزءا من خبرته ، يستطيع بعد ذلك أن يصفه بكلامه وأسلوبه . وعلى قدر وصفه من حيث شموله أو نقصه ، عمقه أو سطحيته ، نستطيع أن نحكم على دقة تأمله وبالتالى نعرف مدى معلوماته ومعرفته .

٩- تتطلب الخبرة الشخصية أن يتقدم عقل المتعلم من القريب ومن الواقعى - اللذين له بهما احتكاك واللذين يستطيع أن يتعامل معهما - يتدرج من القريب إلى البعيد ومن الواقعى المحسوس إلى المعقول ومن المادى إلى المعنوى ، ومن الخاص إلى العام ومن المعلوم إلى المجهول . هذه هى الطريقة التى يجب اتباعها فى مدارس المرحلة الأولى للتعليم ، وهى تناقض ما ذهب إليه السلف (يقصد جوزيف باين بالسلف بعض الذى تعرضوا للنظم التربوية قبل بستالوتزى) فهؤلاء كانوا يبدءون من المعقول إلى المحسوس ومن المعنوى إلى المادى ومن المجهول إلى المعلوم ومن العام إلى الخاص . وهذه الطريقة التى اتبعها السلف قد تجدى مع كبار التلاميذ ولا يمكن مطلقا أن تنجح مع الأطفال المبتدئين .


الفصـــل الخامس
فروبل

الفصل الخامس

فروبل

* حياة الطفولة .
* طور التكوين .
* بين التعليم والتعلم .
* فروبل الرجل .
* تربية الإنسان .

الأسس العامة .

الإنسان في بواكير الطفولة .

خصائص الطفل في مرحلة ما قبل المدرسة في رياض الأطفال

* فلسفة فروبل التربوية

١- حياة الطفل

قد يشرق فرد أن يسوم غيره ألوان العذاب التى قاساها ، وهذا شخص ينتقم لنفسه فى شخص غيره ، وقد يتألم فرد من شىء ويشقى من آثاره فيدفعه حبه للخير إلى تخليص غيره مما قاساه . وهذا شخص يحب لغيره ما يحبه لنفسه ، هو خير نزاع إلى الطيب من القول والعمل ، له قلب أبيض ونفس سمحة وأمثاله لازمون للمجتمع السليم القويم . أما ذلك الصنف الأول فقلبه غليظ ونفسه شريرة وندعو الله أن يخلص العالم منهم .

وفروبل ، رجلنا الذى نتحدث عنه شخص خيِّر ، ذو قلب أبيض .

فى اليوم الحادى والعشرين من شهر أبريل عام ١٧٨٢ أعلن قسيس فى قرية أوبرويزباخ Oberweissbach إحدى قرى بروسيا أن الله منحه طفلا . ذكرا ، فأقبل القوم يهنئون راعيهم الدينى جوهان يعقوب فروبل Johann Jacob Froebel وعندما سألوه عن اسم ابنه ، أخبرهم بأنه تخير له اسم فردريك Friedrich . ولم يعلم الأب أن ابنه هذا سيترك اسما خالدا فى التاريخ ، ولعل خيرا فى هذا ، فإنه لم يعتن بتربيته كما يجب أو كما ينتظر من الأب ومن رجل الدين بالذات ، فقاسى الطفل المسكين ، على أن له بعض العذر مما يخفف عنه شيئا من الذنب ، فقد كان دائب العمل ، عليه مسئوليات منصبه ومستلزماته مما لم يتح له الفرصة لتأدية واجبه الأبوى . فكان على الطفل أن يحرم العطف بعد أن تركته أمه إلى العالم الآخر ، وكان عمره تسعة أشهر .

نعم ، تسعة أشهر فقط ، يتيم من الأم ، بعيد عن الأب ، وهو فى أشد الحاجة إليهما ، إلى صدر حنون وإلى كلمة ناعمة ومناجاة محببة وإلى ابتسامات مشرقة ، كل هذا حرم منه الطفل المسكين .

---

(١) هذا الفصل مأخوذ من كتاب : سعد مرسى أحمد ، فروبل ، مؤسس رياض الأطفال ، فلسفته فى التربية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٥٢

وكيف أعبر أنا عن شعوره واحساساته وأنا لست هو ؟ لأتركه إذن يقص قصة طفولته كما كتبها وكما سردها ، سأنقلها أمينا على أفكاره وكلماته ، ومحاولا أن أعبر عن روحه ونفسيته .

« ..... لقد تركت تحت رعاية الخدم ، ولكن هؤلاء انتهزوا فرصة انهماك أبى فى عمله ، فأهملوا أمرى وتركونى ، لحسن حظى ، تحت رعاية اخوتى . أما أبى ، فهو أب بالاسم فقط وأعترف بأننى حييت بعيدا عنه وهو غريب عنى ، فكنت بذلك فى الواقع لا أم لى ولا أب . وحين بلغت الرابعة من عمرى تزوج أبى ، فأصبحت لى أم أخرى ، وكنت فى شوق زائد إلى أم ترعانى وتحنو على . كنت متلهفا إلى هذا الحب الأموى الذى حرمت منه ولم اقترف ذنبا ، ولذلك احسست بخير قريب ، وبدأت أعى ما حولى ، فعندما رأيت زوجة أبى هرعت إليها مقدما لها فى سذاجة وبراءة الطفولة كل ما استطيع من حب طفل لأمه . وعندما بادلتنى هذا الملاك نفس الشعور أحسست بأن أياما سعيدة فى انتظارى ، فبدأت ارتشف قطرات الراحة والعطف ، وكم كان مذاقها شهيا لذيذا .

غير أن أيام السعادة لاتدوم ، فصحوت من هذا الحلم الجميل عندما ولد لها طفل حولت إليه كل عطفها وحنانها ، ومرة أخرى وجدت نفسى دون أم ودون أب بل زاد الأمر سوءا .

وهكذا وجد الحزن والأسى مكانا مريحا فى نفسى . ومع كل هذا فقد صمت أذناى عن سماع أراجيف السوء التى صبها بعض من لا أخلاق لهم عسى أن أنقلب ضد زوجة أبى ولكننى تحملت القسوة والجفوة وصممت على أن أكون نبيلا كريم النفس .

كان ذهابى إلى المدرسة لأول مرة يوم اثنين ، وهناك وجدت عددا من الأطفال يرتلون بعض كلمات الكتاب المقدس فى لهجة ملؤها الخشوع والرهبة والتقديس ، وفى

الحق أن هذه اللهجة مست أوتار قلبي وهيجت مهجتي وألهبت وجداني فاهتز لها بدني وأحسست بإحساس غريب لذيذ كأنما قد ولدت من جديد وأن روحي تسمو فأسمو معها سموا يخلصني من كل إحساس مقيت ، وأن نشوة تسري في نفسي فأستشعر الراحة والهدوء ... نعم ، كان دخول المدرسة ميلادا جديدا لحياة روحية سامية .

. . . كانت المدرسة التي ولجت بابها خاصة للبنات ، ولكنني قبلت بها بفضل مركز أبي الوطيد ، ولم أجلس مع عامة الأطفال بل بالقرب من المدرسة ، وفي فصل كان أكثر تقدما عن غيره . وكان علينا أن نحضر الصلوات أيام الآحاد ، وقد اعتدت مراقبة أبي خلال قيامه بعمله الديني المقدس ، وكانت أعجب به ، ولكنني لم أكن أفهم كلمة واحدة من هذه العبارات العديدة التي تخرج من فمه ، فإن لغتها كانت غريبة عن إدراكي وفهمي .

ولعل من المميزات التي حباني الله بها دقة حواسي التي كنت أحسن استغلالها في كل مناسبة ممكنة ، غير أنني شديد الحرص فلم أخضع تحت تأثير حواسي ولم أسر حسب هواها ، بمعنى أنني لم أجعل اهتمامي مركزا في اللذة الحسية ، ولذلك فإن الصفات المميزة لحياتي في هذه الفترة . بل في كل أطوار حياتي ، كانت التأمل الذاتي، وتحليل نفسي ، وتربية نفسي بنفسي . وأصبح الهدف الأساسي لعملي التعليمي هو أن يعمل الإنسان بقوة وشغف لتعليم نفسه ، وكان على أن أشجعه وأدفعه لهذا الهدف النبيل .

هذا هو إحساسي وشعوري ، وتلك هي نظرتي للأمور ، ولكن ستعجب إذا عرفت أن سلوكي كان على النقيض من معتقداتي ، كنت أشعر بشيء معين وأسلك عكسه ، ولست الملوم ، فقد ماتت أمي وأنا رضيع وأهملت تربيتي فعرفت العادات السيئة طريقها إلى نفسي ، فأخطأت كثيرا وما كنت أود الخطأ وهفوت ولم أشأ ذلك . لقد عاكستني الظروف ، وانتصر القدر على حسن نيتي فوقفت موقف المذنب وأعمالي

تشهد ضدى ، فكنت أضطر إلى الكذب مرغما حتى ألجو من العقاب . وكم حاولت اسعاد أبى وزوجته فعملت ، ولكن للأسف لم أحسن اختيار المكان ولا الزمان ولا الأدوات فظهرت فى مظهر المخرب المدمر الذى يسعى إلى المضايقة ...

لقد حطمت العام العاشر من عمرى وما زلت أئن من الجراح التى سببها سوء المعاملة ، ومازلت أرى عوامل الشر حولى تناديني ولكننى لم أعرها التفاتا وقد علمتنى طفولتى أن الباحث عن الصدق يجد بدله الكذب وأن من يسعى إلى الاتحاد يجد التفرقة وأن المنقب عن الايمان يجد الالحاد والشك ، رأيت الخداع والنفاق والرياء ، فتألمت لهذا وشعرت بالظلم والجور ولكننى حرمت من التعبير عن ألمى فقبلت الأمور صاغرا .

زارنا فى هذه الأوقات خال لى ، وكان رجلا من رجال الدين مهيب الطلعة سمح الوجه يطيل التفكير ويحسنه ، رجل حنكته التجارب وأصقلته الخبرات فارتحت إلى وجوده بين ظهرانينا ، ويشاء الله القدير أن يجعله يلاحظ حالتى وما يحيطنى من عوامل شريرة ، ولم يتعد مرحلة الادراك والوجدان ، فعرف عنى وأحس بحالى . ولكن هذا لايكفى فى نظرى ، فارتقبت حتى وصلت منه رسالة إلى والدى يطلب منه أن يرسلنى إليه ، فلبى والدى طلبه على الفور ورحلت إليه فى مستهل عامى الحادى عشر ، إلى مدينة ستادلم Stadtllm .

ولعل أكثر الأمور التى مست شغاف قلبى ونفسى دروس الدين فى المدرسة فقد أقبلت عليها بنهم شديد وفنيت فى الاستماع إليها واستيعابها وكان يقوم بتدريسها مدرس وقور متزن أثر فى تأثيرا بالغا ، حتى أنى عندما كبرت قصصت على خالى جانبا مما كان يشرحه مدرس الدين فأبدى تعجبه منه ، بل إنه وجد فى كلامه فلسفة لايستطيع من كانوا فى مثل سنى وقتئذ استيعابها ولكننى كنت أفهمه لأننى استمعت إلى دروس مماثلة من أبى . وفى الحق أعجبت أيما إعجاب بهذا المدرس حتى أن الدموع

كانت تملأ عينىّ عندما كان يتكلم عن سيرة حياة السيد المسيح . وقد بعثت تعاليمه الدينية الدفء فى نفسى فشعرت باطمئنان لذيذ محبب . وطالما استعدت كلماته فى خلواتى وبعد الدروس .

كانت أحسن الدروس التى تعطى لنا فى المطالعة والخط والحساب والدين ، أما اللغة اللاتينية فقد كانت تدرس بطريقة مزرية ولذا لم نقبل عليها ، وقد خرجت من دراستى اللاتينية وغيرها بحقيقة لا جدال فيها وهى أن طريقة التدريس تحدد مدى الاستفادة من المادة . وكنت أميل إلى الحساب وخاصة أننى تلقيت معاونة خارجية فتقدمت تقدما محسوسا ملموسا حتى أننى أصبحت على قدم المساواة مع مدرسى . وكم دهشت وأنا فى الثالثة والعشرين من عمرى عندما زرت فردون ولم أستطع أن أحل المسائل التى كان يحلها التلاميذ ، ولعل هذا أحد العوامل المهمة التى دفعتنى إلى الانكباب على دراسة طرق بستالوتزى فى التربية . وبدأت أدرس الحساب وقتئذ من البداية مترسما خطة بستالوتزى .

أما عن الجغرافيا فلم نكن نفهم عنها شيئا ، بل إننا كنا نرددها كما يردد الببغاء كلاما يقال أمامه ، وكنا نستطيع أن نعرف مدلول الألوان على الخريطة عن ظهر قلب ، وفى الحق أن الجغرافيا الطبيعية التى درسناها لم يكن لها أى اتصال بحياتنا . أما عن اللغة الألمانية فقد كنا نتلقى توجيهات فى كتابة الخطابات وفى هجاء الكلمات ، ومما يثير الدهشة أن هجاء الكلمات لم يكن مرتبطا بأية مادة أخرى بل كان معلقا وحيدا فى الهواء . إلى جانب كل هذا تلقيت دروسا فى الغناء والعزف على البيانو ولكنها لم تثمر معى مطلقا .

اتسمت حياتى مع خالى بسمات ثلاث : التربية الخلقية الدينية الصحيحة ، ثم الحياة الحرة الطليقة التى عشتها خارج الدار التى هيأت لى مجالا حيويا للعب ، وأخيرا الهدوء الذى ساد المنزل والمعاملة الطيبة مما يسر لى أمر التحصيل الدراسى .

ولابد لى هنا من التحدث عن أمر ذى بال لكل مرب ومعلم ، ذلك هو علاقة المدرس بتلاميذه وفكرة الأطفال عن مدرسيهم . كنت أتلقى مع زملائى الدروس من مدرسين اثنين ، أحدهما على النقيض من الآخر : أحدهما جامد صارم والآخر سمح مقبول . فأما الأول فلم تكن له سيطرة ونفوذ علينا ، فى حين أننا كنا نستجيب لأية أشارة من الثانى . كانت أوامر الأول تذهب مع الريح فى حين أن إيما ءات الثانى تجد لها صدى عميقا فى نفوسنا .

وسارت الأيام على خير وجه لايعكر صفوها شيء ، ثم بدأ أبى يفكر جديا فى مستقبلى ، وقد استبعدت فكرة الحاقى بالجامعة واكتفى بالحاق أخوى كرستوف وترجوت Christoph & Traugott إذ أن زوجة أبى وجدت أن إتمام تعليمى فيه ارهاق مالى لايستطيع أبى احتماله . وفى الحق أن أبى وزوجته لم ينظرا إلى على أننى سأكون رجلا فى المستقبل بل نظرا إلى على أننى طفل وأننى كائن لن يصبح رجلا ، بل سيظل طفلا .

اقترحت زوجة أبى عملا لى ، ولكن والدى رفضه ، وإزاء هذا التعارض فى وجهات النظر أخذ رأيى ، وكان الأجدر أن يؤخذ قبل ذلك . المهم أن أبى اعترف أخيرا بوجودى وأن من حقى أن اتخير الوظيفة التى تؤهلنى استعداداتى وميولى لها ، فأبنت له أننى أهوى الزراعة بكل ما تحويه الكلمة من معنى ، فاننى أحببت الجبل والحقل والغابة ، كما أننى علمت أن من يعمل بالزراعة لابد له من معرفة دقيقة بالهندسة ومسح الأرض . وتشاء المصادفات أن يكون لأبى صديق بلغ شأوا كبيرا فى مسح الأرض والتثمين والهندسة فاتفق أبى معه على أن أتتلمذ عليه عامين . وكنت فى الخامسة عشرة .

كان أستاذى هذا عالما فياض العلم ولكنه لم يكن يعرف كيف ينقل علمه إلى عقلى كما أنه شغل عنى بعمل كلف به وهو نقل الأخشاب من الغابة إلى المصانع عن

طريق النهر ، فيدفعها التيار المائى دون أن يكلف نقلها من مهدها إلى المصانع ثمنا يذكر . ولكن الله عوضنى عن هذا خيرا ، فقد كان أمامى عدد كبير من الكتب عن الهندسة وعلم الغابات فعكفت على قراءتها ، وكان لى صديق يعمل طبيبا فى القرية وقد شغف بهواية دراسة علم الأحياء وخاصة النبات ، فوجد فى ووجدت فيه زميلا لهواية واحدة ، وسرعان ما توطدت أواصر الصداقة بيننا فأعارنى بعض كتبه فى علم النبات .

وثمة حادث ترك فى نفسى أثرا ليس من السهل أن يمحى ، فقد حلت بقرية مجاورة لقريتنا فرقة تمثيلية ، فدفعنى الفضول إلى حضور إحدى حفلاتها ، فأعجبت بالتمثيل فكررت الذهاب . ولكن أبى وصف ذهابى إلى التمثيل على أنه رجس من عمل الشيطان استحق عليه أقسى ألوان العقاب ، ومع ذلك فقد آمنت فى قرارة نفسى بقيمة التمثيل .

والآن وقد مضى العامان عولت على العودة إلى أبى حيث أدرس مزيدا من الرياضيات وعلم الأحياء ، ولكن أستاذى رغب فى بقائى عاما آخر ، فغافلته وذهبت، ولكنه طعننى فى ظهرى طعنة قوية ، إذ أنه أرسل إلى أبى خطابا وضع فيه الشكوى المريرة منى .

ووجدت زوجة أبى فى إحدى عبارات أستاذى ما يؤيد فكرتها عنى وهى أننى لا أصلح لشىء ، فتمسكت بهذه العبارة لتؤكد وجهة نظرها ... وهكذا بدأت أحس بنسمات باردة تحف بى ، وبدأت أشعر بأن الدفء المحبب الذى حييت فى كنفه ينساب من يدى ، فتعترينى قشعريرة مريرة تؤلمنى وتتراقص أمام عينى عبارات أستاذى اللاذعة فى غير هوادة ، فأتوارى خجلا وأنا المظلوم ، ويخيل إلى أننى موضع الشك فى كل عمل أقوم به ، إننى لا أصلح لشىء ... ولكننى آمنت بأننى على حق وأننى صالح نافع ويجب أن أكون كذلك .... يجب ....

٢- طور التكوين

فى عام ١٧٩٩ ، وكان الفتى فى منتصف الثامنة عشرة من عمره ، دخل جامعة يينا ، ليرتشف رحيق العلم من منهله ، وهو يقول فى ذلك لقد درست الرياضة التطبيقية والحساب والجبر والهندسة والتعدين وعلم الأحياء والتاريخ الطبيعى والطبيعة والكيمياء والزراعة والفنون المعمارية ومسح الأرض . وتفوقت تفوقا واضحا فى بعض هذه المواد بفضل دراستى السابقة ، بل إننى وجدت فى العلوم الرياضية من السهولة مارجوت معه لو أنها كانت أكثر صعوبة وشمولا . وقد لاحظت على معظم أساتذتى فشلا فى قدرتهم على التشويق والربط ، فكنت أتلقى الحقائق منفصلة دون ارتباط بينها يجمعها ، وساءنى بعد كثير من الدروس عن واقع الحياة ولم تستهونى سوى الدروس التى كانت تدور حول الجاذبية والقوة والثقل وما إلى ذلك مما يتصل بالحياة الواقعية ...» .

ويرجع الفتى إلى أيام دراسته فى يينا الفضل فى إيمانه ببعض العقائد والأفكار فيقول إنه تعلم ورأى أن الوحدة فى الاختلاف عامل متحد فى ظواهر مختلفة ، وشاهد ارتباط القوى والعلاقات الموجودة بين الكائنات الحية وأسس الطبيعة وعلم الأحياء .

وقد انتعشت روحه المعنوية عندما وقع الاختيار عليه ليكون عضوا فى جمعية التاريخ الطبيعى . ولم يكن يسمح لغير المبرزين بالالتحاق بهذه الجمعية .

«ومضت الأيام تباعا حتى بلغت السنة الثالثة من مرحلة دراستى الجامعية . وهنا بدأت المتاعب ، فقد كان معى مبلغ من المال لايكاد يكفى نفقاتى الضرورية ، ولكن جاءنى أخى ضائق الصدر مكروبا يطلب منى مساعدة مالية على أن يردها عندما يرسل له أبى نفقاته ، فأعطيته معظم ما كان معى من المال وأنا قرير العين بأن أزيل كربه وأحل أزمته . ولكن المال الذى بذلته لم يعد إلى ، فبدأت المتاعب تفد على

تباعا وقدمت أكثر من مرة إلى مجلس الجامعة ، بتهمة عدم سداد ديوني ، وفي كل مرة كنت أعد بالسداد في أقرب فرصة ، فأرسلت إلى والدي أستعطفه ولكن استجدائي قوبل بالرفض مما أثلج صدر زوجته . وهنا لم يكن مصيري إلا السجن وفاء لديوني المتراكمة، فنزلت ضيفا على سجن الجامعة مدة تسعة أسابيع . ولما علم أبي بذلك «تأثر» فدفع عني الديون بعد أن تنازلت أمام مجلس الجامعة عن كل حق لي في ميراثي منه» .

وعاد الشاب كاسف البال حسير النفس إلى بيت أبيه بعد أن اضطر إلى قطع دراسته الجامعية ، وكان قد بلغ تسعة عشر ربيعا ، ولكنه لم ييأس بل ظل الأمر يراوده ويقوى من نفسه ، وقد وجد لديه ميلا لدراسة الأدب الألماني ، فقرأ ما كتبه شيللر وجوته ووايلاند ، وفي هذا يقول « ... ولكنني لم أجد في مكتبة أبي ما يروي ظمأي لأنها كانت تشتمل في معظمها على كتب دينية ، وقد استهواني من بينها كتاب خاص تحدث عن العلوم والفنون الجميلة حديثا عاما شائقا ، فكونت بفضله فكرة عامة عنها... » .

كان الشاب يعتقد أن الرجل المثقف يجب أن يلم بحقائق كثيرة في مختلف المواد والموضوعات ، وأن يعرف شيئا عن كل شيء ، فعكف على القراءة متخذا من مذكراته مخزنا يختزن فيه المعلومات لوقت الحاجة ، واعتكف في حجرة صغيرة وقد مال على منضدة وأمامه كتاب مفتوح يود التهامه . وكان إذا أتى عليه رفعه ليضع مكانه كتابا آخر ينقل ما فيه إلى مذكراته مهضوما مختصرا ... يقول فروبل : « ...وذات يوم دخل أبي الحجرة على غير انتظار ونظر إلى هذا التل من المذكرات ثم تحول إلي وقال أنني أعبث وأن عملي هذا لاجدوى منه ، وأحمد الله أن كان أخي بالمنزل وقتذاك وقد جاء إليه بعد أن تم تعيينه في منصب حكومي ولم يكن رأيه في جانب أبي ....» .

وعندما ضاق الأب ذرعا بابنه الطموح ... أرسله إلى بعض أصدقائه ، ليعمل فى الزراعة .. نظر الشاب فوجد أن عليه أن يدبر أمر مستقبله ، فالتحق بوظيفة كتابية فى مصلحة الغابات ولم يجد العمل مضنيا بل على النقيض كان يسيرا ، فكان إذا فرغ منه خرج إلى المروج المجاورة يجول فيها ويملأ عينيه من المناظر الطبيعية الخلابة ، ولم يكن هنالك ما يعكر عليه صفو راحته ومتاعه .

وقد وجد الشاب إلى جانب غذائه الروحى غذاء عقليا فى المكتبة الخاصة التى كان يملكها رئيسه وينميها باستمرار بكل ما يستجد من الكتب ، وكان لابد للشاب المطلع أن يعقد أواصر الصداقة مع هذه الكتب فامتزج بها وانتفع بكثير مما فيها .

غير أن الشاب ترك عمله هذا سنة ١٨٠٣ ليلتحق بعمل آخر وجد فيه اشباعا لمؤهلاته وخبراته ، فعمل على رسم الخرائط ومسح الأرض ، وكان يأمل أن يعين ويثبت في وظيفته ، فقدم نموذجا من عمله إلى الجهات المختصة فأعجبوا به ، ولكنهم رفضوا تثبيته فى وظيفته لأنه كان صغير السن وغريبا عن البلدة التى يعمل بها ، وهكذا شاءت المقادير أن تقف ضده مرة أخرى .

ويقول فروبل « ... وقد تعرفت فى هذه الأثناء برجل يحمل الدكتوراه فى الفلسفة وتوطدت أواصر الصداقة بيننا ، وكثيرا ما أمضينا الوقت فى مناقشة آراء شيلنج بعد أن قرأت له ، وقد لمس صديقى شغفى بالفلسفة فحدثنى ذات يوم بعد أن قمنا بزيارة لأحد معارض الفن ، حديثا عن الفلسفة والفن ، وأذكر من حديثه عبارة أثرت فى نفسى تأثيرا بالغا ، فقال : حصن نفسك ضد الفلسفة ، إنها تقودك إلى الشك والظلام ، كرس جهدك للفن الذى يهبك الحياة والسلام والمرح ... » .

ولكن الشاب كان يجد فى الفلسفة قوام حياته ، فهو شغوف بها مـ ال إليها ، أما الفن فإنه حقا كان يحس بلذة عميقة فى مشاهدة اللوحات والتحف الفنية . لكن

ذلك لم يعد يب الفن إلى نفسه . وانكب بعزيمة قوية يعمل ويرسم ، ثم قدم إنتاجه فى مسح الأراضى والتخطيط إلى الجهات المختصة طالبا أن يعين فى منصب يتناسب مع كفاءته .

وكأنما قد هداه الله أخيرا إلى الطريق الصواب فلم يعتمد إلا عليه فدعاه فاستجاب الله له ولبى نداءه فانهالت عليه العروض كثيرة مغرية ، فتخير أحدها ، ولكن طلب منه أن ينتظر قليلا . فترك هذا المنصب وعمل كاتب حسابات فى ضيعة كبيرة ، وقد أحسن تسيير الأمور حتى ناداه المنصب المؤجل فرحل إليه . ولقد خرج الشاب من اقامته القصيرة بهذه الضيعة بفائدتين : إحداهما هذا المران العملى على الأمور الحسابية والتنظيم ، والثانية تمتعه بسحر الطبيعة الخلابة وتذوقه جمالها .

سافر الشاب إلى منصبه الجديد وكان قد استقر رأيه على مواصلة قراءة كتب فى الهندسة وفن البناء ، ولكن وجد أمامه بضعة كتب عن الطبيعة الإنسانية والنبوغ الإنسانى والأجناس البشرية ، فالتهمها التهاما ، ولاح له أن حياته الجديدة أمست رتيبة لا تتغير ولا تتبدل فعول على تغييرها . وكان له صديق فى مدينة فرنكفورت يكاتبه فسأله رأيه عن الحياة فى هذه المدينة ، وهل فى الإمكان أن يدرس ويقرأ عن الهندسة والبناء فيها ، ولكن أنى له بالمال وهو معدم تماما ، فأرسل إلى أخيه الأكبر يطلب العون المالى وعندما جاءه خطاب منه أمسكه بين أصابعه وقد أحجم عن فتحه وظل أمامه عدة أيام خشية أن يكون فيه ما يحطم أماله وآمانيه ، وأخيرا قطع حبل الشك وفض الخطاب فإذا بكل ما فيه منعش لأماله وأحلامه .

وهكذا يزداد إيمان الشاب بالله وقدرته . وإنه نعم المولى ونعم النصير ، بيده ملكوت كل شىء وإليه الأمر والتدبير . فقد وجدت فى صحراء حياته أخيرا الواحة الخضراء والينابيع الصافية الرقراقة التى تدعوه ليرتشف منها ما أمكنه الارتشاف ، حمد الله وشكره ولسان حاله يقول :

جاء النور بعد الظلام واليسر بعد العسر ، نعم ، ما خيب الله رجاء فرد اتجه إليه بإيمان صادق وثقة عميقة ، الله الذى خلقنا وخلق هذه المظاهر الطبيعية التى تنطق شاهدة على قدرته وجلاله ، كل شىء فيها جميل جلت قدرته ، وكل شىء فيها رائع ، أحكمت صنعته . كل شىء فيها منسجم يدل على عميق حكمته .

زار الشاب صديقا له عزيزا عليه ، يعيش فى قرية تحفها الغابات والأشجار فوجد فروبل المتعطش فى هذا المكان محرابه الذى يتعبد فيه : أرض خضراء أنبتت هذه الأشجار الباسقة والشجيرات ذات الأزهار المنمقة ، وفوق كل هذا السماء اللازوردية التى تجذب العيون إليها جذبا قويا . وكان يرى أنه كلما ازدادت الرابطة بيننا وبين الطبيعة قوة ، زاد سناؤها وبهاؤها فى أعين الرائين فيحسون بالعواطف النبيلة تسرى فيهم ويتأثرون بها ... وكان الشاب المفتون بجمال الطبيعة وسحرها يرجو أن يستطيع تبين العلاقة والرابطة بين النفس الداخلية والعالم الخارجى ، إنه يريد أن يعرف كل فرد نفسه .

وتابع الشاب رحلته مع الربيع الخلاب حتى وصل إلى فرنكفورت ، حيث أزمع دراسة فن البناء والاشتغال بالبناء وفن المعمار . ولكن الأقدار كانت تهيىء له أن يبنى أنفسا وعقولا بدل الدور والقصور .

٣- بين التعليم والتعلم

حط الشاب رحاله في فرنكفورت ، وقابل صديقه الذى كان من ذلك النفر الذين يحبون الخير للغير ، لمقدمه إلى رجل مثقف عسى أن يهتديا بهديه النير ، ذلك هو ناظر مدرسة فرنكفورت النموذجية التى كانت تسير فى خطتها حسب آراء بستالوتزى.

واستمع الناظر فى انصات إلى حديث فروبل واستطاع أن يتغلغل قليلا فى خبايا نفسه ليلمح ضوءا خافتا فى الإمكان أن يسطع ويغمر ، وكان الشاب يتكلم من قلبه بحماس واخلاص ، وناظر المدرسة كله آذان تصغى وعيون تشخص ، حتى إذا أتى فروبل على قصته ، رفع الرجل - الذى فكر وتدبر - رأسه وقال «دعك من البناء والهندسة ، وكن مدرسا ... إننا نريد مدرسا فى مدرستنا فإذا وافقت فالمنصب لك» فتردد فروبل قليلا ولكنه فى النهاية مد يده إلى ناظر المدرسة مصافحا ... وهكذا أصبح فروبل مدرسا .

يذكر فروبل فى مذكراته الخاصة أنه تذكر فى هذه الأثناء أنه قرأ ذات يوم فى صحيفة أن رجلا بسويسرا ناهز الأربعين من عمره واسمه بستالوتزى ، قد اعتزل العالم وعكف على تعليم نفسه بنفسه وأنه استطاع بقوة العزيمة والإرادة أن ينجح فى عمله . ويقول بعد ذلك أنه سيقلد بستالوتزى ويعلم نفسه بنفسه ، أو بمعنى أصح سيكمل دراسته معتمدا على الله وعلى نفسه .

وبدأ الشاب يختلط بزملائه المدرسين فإذا بهم يتكلمون عن بستالوتزى وآرائه ويجلس إلى ناظر المدرسة فإذا اسم «بستالوتزى» يطرق أذنيه دائما ويخرج إلى الحديقة ، فتلاحقه الكلمة ويدخل إحدى الحجرات ويسأل عن فكرة تنظيمها فيجد الجواب «بستالوتزى» . وشعر الشاب أن شيئا ينقصه بل هو يطارده فى يقظته ونومه

وأنـه يريـد أن يستزيد معرفة بهـذا الرجل الذى شيد معهـدا يعلـم فيه أبناء الفقراء والمحتاجين، وأحس الشاب أن هنالك مكانا يجب أن يذهب إليه ليستريح قلبه وتهدأ نفسه .

ولم تمض ثلاثة أيام حتى كان الشاب فى طريقه إلى فردون ، وقد سبقته توصيات من ناظر المدرسة ومعارف بستالوتزى ... وقد قوبل مقابلة ودية واصطحب ككل زائر إلى فصول الدراسة ولكنه وجد نفسه كالتائه فى بيداء واسعة ، فقد كان يجهل تقريبا كل شىء عن التربية .

وأحس أنه قزم بين عمالقة . وعندماشرع الشاب فى مغادرة فردون طلب منه أن يكتب بصراحة عن رأيه فى نظام بستالوتزى ، وشعر بالحرج الشديد إزاء هذا الطلب ولعل من الخير أن أترك فروبل يتكلم عن أثر هذه الزيارة فيقول :

«لقد رأيت أولا معهدا كبيرا يعمل وفق خطة للتدريس ، هذه الخطة تحتوى على كل رائع ، فمثلا نجد أن كل أطفال المعهد فى حصة معينة يدرسون مادة واحدة ويوزع الأطفال على الفصول فى هذه الحصة حسب قدرات كل واحد منهم ... وقد أدهشتنى مقدرة الأطفال فى العمليات الحسابية ولكننى لم أستطع تتبع تطبيقاتها النهائية ، أما عن العمليات الميكانيكية الآلية فى هذا الفرع من التعليم فقد شعرت إزاءها أننى وسط دوامة عنيفة .

لقد نجح كراوزى فى عمله كمدرس وكانت نتائج الأطفال رائعة ولكننى وجدت فى هذا عنصر الآلية متغلبا سائدا . أما عن تدريس الرسم فقد شعرت بأنه فى حاجة إلى عناية خاصة ... ونجحت فكرة استخدام الأرقام الحسابية وتشكيلها بحيث تمثل بعض الحاجات التى نستخدمها فى حياتنا اليومية .

وفى الجغرافيا وجدت أن المدرس قد استبعد المنهج العادى والخرائط الملونة ، واننى أعيب عليه أنه جعل كل التعليم من ناحيته وعلى الأطفال حفظ واستظهار ما يقوله . فمثلا يبدأ المنهج بدراسة قاع المحيط وهذا أمر بعيد عن إدراك الأطفال ولكن مع ذلك وجدت أن المنهج أثار حب استطلاع التلاميذ فأقبلوا عليه . وقد أعجبنى فى دراسة مشاهد الطبيعة طريقة المدرس فكان يستنتج الحقائق والمعلومات من الأطفال ثم يطبقها على الطبيعة ... وفى رأيي أنه لم يستطع اعطاء صورة محددة لفكرته وطريقته فكان يقول دائما «اذهب وشاهد بنفسك» وقد يكون هذا متيسرا له هو لأنه يعرف كيف يرى وكيف يسمع ...

لقد أعجبنى بستالوتزى وأثر فى تأثيرا عميقا فأحببته من كل قلبى وخاطبت كلماته الوديعة الهادئة أنبل وأدق احساساتى ....» .

عاد فروبل بعد أن أمضى أسبوعين فى رحاب بستالوتزى وتسلم عمله توا فى المدرسة النموذجية بفرنكفورت . وكانت المدرسة قسمين : قسم للبنين وفيه حوالى خمسة فصول وآخر للبنات وبه ثلاثة فصول ويبلغ تعداد المدرسة حوالى ٢٠٠ طفل ، وبها أربعة مدرسين مقيمين وتسعة زائرين . وعهد إلى فروبل بتدريس الحساب والرسم والجغرافيا واللغة الألمانية . ويقول فى خطاب أرسله إلى أخيه .... «عندما دخلت الفصل كان به حوالى الأربعين طفلا تتراوح أعمارهم بين التاسعة والحادية عشرة ، وقد بان لى أننى وجدت شيئا لم أدر أبدا كنهه ومع ذلك فقد كنت متلهفا عليه ... عثرت على شيء كنت أعتقده دائما ، وكأنما قد وجدت حياتى أخيرا طريقها الصحيح ، لقد شعرت بالسعادة كالسمكة فى الماء والطير فى الهواء ....» .

وفى يوم وفد إلى فروبل ثلاثة أطفال كان صديقه فى فرنكفورت قد زكاه ليقوم بالإشراف التربوى عليهم فأصبح مربيا لهم ، وقد وجد فى طفولتهم الكثير مما ذكره بأيام طفولته فأقبل على تثقيفهم برغبة وشغف عظيمين وكان كثيرا ما يسأل نفسه ويسترجع أيام طفولته ويذكر ما كان يحن إليه ويتمناه .

كان فروبل يدرس لطفلين من الثلاثة الحساب واللغة الألمانية ساعتين كل يوم ، وكان يصحبهما في نزهاتهما . وقد اتبع في تدريس الحساب خطة بستالوتزى فاستراح وأراح ، أما اللغة الألمانية فقد اتبع أولا خطة الكتاب المقرر ولكنه لم يستفد ولم يفد كثيرا ، فألقاه جانبا واتبع خطة بستالوتزى ومع ذلك وجد أن النتائج ليست كما يرجو ... يقول «وعملت أثناء النزهات على بث الخير فيهما وفى الحق أننى عدت مرة أخرى إلى أيام الطفولة مع فارق أساسى وهو السعادة والراحة استشعرهما الآن» ...

ولم يترك الشاب فترة تمر دون أن يستفيد شيئا ، ففى المدرسة وجد فى أطفال الفصل خير معلم بعلمه الطبيعة البشرية ، وأثناء جلوسه مع المدرسين أحس بأن معلوماته تزداد وأنه يستفيد علميا منهم . وكان من قوانين المدرسة أن يشترك المدرس مع أطفاله فى اللعب حتى تزداد أواصر الصداقة بينهم وبينه ، وتدرج الأمر حتى أصبح من واجب المدرس أن يخرج مع أطفاله فى نزهة مرة كل أسبوع وعمل فروبل على استخدام هذه النزهات ، لخدمة علمى النبات والجغرافيا ، فكان يوضح للأطفال علاقة الإنسان بالطبيعة والبيئة وتأثيره فيهما . وبدأ الدراسة بالبيئة المحلية فخرج مع أطفاله لدراسة المنطقة المحيطة بالمدرسة حتى إذا ما وقفوا على عناصرها عادوا مرة أخرى وشرعوا ، بالاشتراك معه ، فى رسم خريطة لما شاهدوه ...

وهكذا تدرج فى الدراسة من البيئة المحيطة إلى المدينة التى بها المدرسة مع تكليف التلاميذ أنفسهم بالرسم مشتركين ، ثم بعد ذلك كلف كل طفل برسم ما يراه وتدوين مشاهداته الشخصية .

وجاء وقت الامتحان ، امتحان للأطفال وامتحان للشباب المتحمس الطموح . وكانت نتيجة الامتحان فى صالحه بل إن أولياء أمور الأطفال صرحوا فى إيمان عميق وسرور زائد ، بأن الطريقة التى اتبعها فى تدريس الجغرافيا هى الطريقة المثلى . «وأن الطفل يجب أن يعرف أولا البيئة المحلية التى يعيش فيها ، فهذا أجدى وأنفع له» .. وكانت هذه الفكرة الجريئة هى حجر الزاوية فى فلسفة فروبل التعليمية .

وفى الحساب دلت النتائج فى فصله على سياسة صحيحة اتبعها . أما فى الرسم فقد اتبع طريقة لم تكن مألوفة إذ أنه استمد موضوعاته من عنصر البيئة التى يقع عليها نظر الأطفال مما حدا بهم إلى الإقبال فى شوق على الرسم .

وكان فروبل يدرس الإملاء فى أحد فصول قسم البنات وهذه المادة لم تكن مرتبطة بغيرها من المواد ولم يكن فروبل ميالا إليها ، ومع ذلك فإن النتائج كانت مرضية . وفى فصل آخر من قسم البنات كان يدرس مبادىء الرسم وكان عليه أن يبدأ برسم الخط المستقيم ثم اتصال وتقاطع الخطوط ، ويقول فروبل إنه لايذكر شيئا عن نتيجة تدريسه لهذه المادة .

لقد أثمله هذا النجاح فأحس بأنه طبع مدرسا . ومادام هذا هو الاتجاه الملائم له فيجب عليه أن يعد نفسه ويكونها تكوينا صحيحا يؤهله ليكون علما من الأعلام . فأخذ يقرأ عن الإنسان والثقافة الإنسانية والمدنيات والطبائع البشرية حتى يستطيع أن يجد التعليل لكثير من أنماط السلوك البشرى التى يراها ، وبدأ يكون لنفسه طريقة خاصة به ونظاما تربويا خاصا به ، ولكنه وجد أن النظام المدرسى لايسمح له باتباعه .

وكأنما كانت هذه الدراسة الشخصية بارادة الله قصد بها أن يغير فروبل نظام حياته فإذا به يسعى إلى مقابلة جرونر Gruner ناظر المدرسة ليصارحه القول بأن العمل فى المدرسة لايتفق الآن مع آرائه ، ورجاه أن يأذن له بالتنحى عن العمل . ولم يوافق جرونر إلا بعد أن أحل فروبل بديلا عنه وصفه بأنه يفوقه فى قواعد اللغة الألمانية وفى الجغرافيا وعلم الأحياء وفى التاريخ . وهكذا ترك فروبل المدرسة النموذجية بفرنكفورت، وكان عليه أن يبحث عن مربٍّ آخر يحل محله فى تربية الأبناء الثلاثة فعكف على البحث وأثناء ذلك كان يتعلم اللغة الفرنسية على يد فرنسى متفقه فيها . غير أن البحث لم يسفر عن نتيجة فإن الشروط المطلوبة لم تكمل فى شخص واحد . ومر الوقت متثاقلا وإذا بالأصابع كلها تشير إليه أن يظل رائد الأطفال، ولا مناص من ذلك ، فهو الجدير بهذا المنصب فليبق فيه ويتفرغ له

ولم يجد فروبل من ذلك مفرا ولكنه اشترط شرطين : أولهما ألا يكون مقيدا بالمكوث فى مكان واحد ، بل له مطلق الخيار والحرية فى الرحيل بأطفاله إلى أى مكان يريد ، والشرط الثانى أن تطلق يده فى تربيتهم التربية التى يتبين فيها وجه الصواب.

بدأ فروبل عمله الجدى معهم وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره . إن السنوات الأخيرة مرت سريعة الخطا مما جعله يحس بأنه قد جاوز سن الشباب .

وسأل نفسه «ما الغرض من التربية؟» . وكان جوابه حينئذ ... «أن يحيا الإنسان فى بيئة تؤثر فيه ويرغب هو أن يؤثر فيها ، فيجب عليه إذن أن يعرف هذه الأشياء وطبيعتها وأحوالها وعلاقاتها بعضها ببعض ثم علاقاتها بالإنسان . هذه الأشياء لها أشكال ومقاييس وعدد ، فيجب أن يلم الإنسان بكل هذا» ... يجب إذن أن يتصل الفرد بهذه الأشياء وأن يكون اتصاله بها عن طريق حواسه ، ولذا فإن فروبل هنا أعجبه جدا ما رآه من العمل اليدوى فى معهد بستالوتزى .

وهو يقول ... «الكل وحدة ، والكل باق مادام فى وحدة ، والكل ينبع من الوحدة ويعمل ويناضل من أجلها وإليها يعود أخيرا . هذا الكفاح والعمل يظهران فى مختلف نواحى النشاط البشرى» ... وفى رأيه أن تعليم الإنسان وتربيته يجب أن ينبعا من ذات نفسه وأن ينصبا على ما يحيط به من مظاهر الطبيعة . لقد أعجبه حقا نظام بستالوتزى التعليمى ولكنه وجده قاصرا ينقصه عنصر مهم جدا كان يتمنى لو وجده ، ذلك هو الوحدة والانسجام بين مختلف المواد . ينبع سرور الطفل من العمل إذا أدرك أن كل شىء أمامه يكون وحدة مترابطة تعمل بانسجام ونظام . ولهذا عمل فروبل جاهدا ، كى يجعل أطفاله يدركون هذه الحقيقة العميقة .

إن طفولة الفرد تمتلك استعدادات خاصة يمكنها أن تستفيد منها فوائد كثيرة ، ولكن الإنسان لايصل إلى هذه الحقيقة إلا بعد أن تكون فترة الطفولة قد انتهت ، فادراكه لهذه الحقيقة يأتى فى وقت متأخر ، حيث يصبح الإدراك لاجدوى منه ، وينظر فروبل حوله ويتساءل : هل من شخص يستطيع أن يجعل الطفل يدرك هذه الحقيقة وهو طفل ؟ هل يأتى الوقت الذى نجد الأطفال فيه قد استطاعوا أن يحسنوا استغلال فترة طفولتهم ! .

وفى صيف عام ١٨٠٨ كان فروبل قد قر رأيه على السفر مع أطفاله الثلاثة إلى معهد بستالوتزى كى يستزيد من المعرفة ويستمع إلى هذا الرجل الذى ترك فى نفسه أعمق الأثر منذ زيارته الأولى له .

وأصبح فروبل مدرسا وطالبا للعلم فى آن واحد .

***

عاش مع أطفاله الثلاثة فى مكان قريب من المعهد بحيث كانوا يتناولون طعامهم مع زملائهم فى المعهد ويختلفون إلى استماع ما كان يلقى من الدروس ، وكان شغل فروبل الشاغل أن يجد الوسائل التى يستطيع بها أن يوطد الصلة بين مختلف مواد الدراسة . وقد هداه تفكيره إلى أن ذلك ممكن لو درس بتعمق أصول كل مادة . غير أنه وجد فى كثير من مواد الدراسة قصورا معيبا مما يجعل فكرة الربط بينها متعذرة . ولم يكن باستطاعته اكتشاف هذا إلا بعد أن درس المواد التى تدرس كأى تلميذ . حقا إن كلام بستالوتزى كان له أثر قوى ، وكان قلبه رءوما عطوفا على الأطفال وكان متحمسا مخلصا لعمله ولأطفاله ، كان كل هذا وأكثر منه . ولكن طريقته أرضت مريديه لأنهم كانوا قد أحبوه فلم تتضح لهم أوجه القصور فيها كما اتضحت لفروبل الذى استمع له ثم وزن كلامه وفكر فيه ثم رأى طرائق التربية وخرج من كل هذا برأيه الذى يقول فيه : إن الربط معدوم بين المواد .

لقد أغضبه ، ما فى ذلك شك ، طريقة تدريس اللغة الألمانية وغيرها من اللغات. فقد كانت طريقة ميتة لا حياة فيها ولا روح ... تدريس آلى روتينى ممل لايبعث على الحركة ولا يثير الشوق . ولابد فى نظر فروبل أن ترتبط اللغة بالأشياء التى يراها ويتعامل معها الطفل فى بيئته ، فتبدأ بها ، وطالما أن لهذه الأشياء صفات ومميزات فيجب أن يعرفها الطفل لغويا معرفة سليمة فيكون لمحصوله اللغوى من الحيوية ما يساعد على تثبيته وحسن استغلاله .

وقد درس فروبل لعب الأطفال فى الهواء الطلق وخرج من دراسته بأن اللعب هو المنبع الذى ارتشفت منه أطفال المعهد أنماط السلوك الخلقى السليم الذى رآه خلال اقامته ، وهو يرى أن الألعاب كونت مجرى انسابت منه ألوان السلوك الشاذ حتى تطهر الجسم منها . وأعجب كذلك بالجولات التى كان الأطفال يقومون بها ورأى فيها احتكاكا مباشرا بالطبيعة يعود عليهم بالخير . وقد قدس فى بستالوتزى خطاباته العديدة إلى أطفاله عن حبه للطبيعة والبشر ، وكيف كان يتكلم كمن دفعته قوة خفية حتمت على الكلمات أن تنساب من بين شفتيه معبرة صادقة عما فى أعماق نفسه .

وفى عام ١٨١٠ ترك فروبل فردون وقفل راجعا إلى فرنكفورت وقد عول على التنحى عن عمله كمرب كى يلتحق باحدى جامعات ألمانيا ليدرس ويستزيد من المعرفة. نفض فروبل يده من العمل الذى ارتبط به فشغل كل وقته وبارح فرانكفورت إلى جوتنجن Gottingen فى مستهل شهر يوليو سنة ١٨١١ . وعندما وصل إليها التحق توا بالجامعة .

لقد كان متأكدا من أن البشرية ، ككل ، تكوّن وحدة عظمى ولابد له من أدلة وبراهين تعضد وجهة نظره ، أى لابد له من البحث عن الشواهد التاريخية التى تؤيد رأيه . فبدأ يبحث ويدرس فى الإنسان الأول ومكان ظهوره ، ثم يتتبع نمو المدنية فى فجرها وضحاها ثم يدرس اللغات التى هيمنت على الأرض فى ضحى المدنية . وقد

هذاه التفكير إلى أن اللغات الشرقية هى نقطة الارتكاز فبدأ على الفور يدرس اللغتين العربية والعبرية ، ودرس إلى جانبهما بعض اللغات الشرقية كالفارسية .

وهداه تفكيره الصائب إلى أن العلوم الطبيعية بظواهرها الحية الملموسة ، يمكن أن تكون عماد وأساس قوانين التقدم البشرى ، بل إن هذه العلوم تلقى ضوءا غامرا على ثقافة الإنسان وتربيته ، وليس غريبا إذن أن يفنى فروبل فى دراسة هذه العلوم. فانكب على الطبيعة والكيمياء يكاد يلتهم كتبهما ويأتى على ما فيها ، ولكنه وجد أن كتب الكيمياء أكثر وضوحا وتعمقا من كتب الطبيعة ، ولاح له أن الحقائق الكيميائية أكثر يقينا وتأكيدا من الطبيعية .

وفى النصف الثانى من العام الدراسى بدأ فروبل دراسة الجيولوجيا والكيمياء العضوية ودرس فى نفس الوقت التاريخ السياسى والاقتصاد السياسى وكان غرضه من هذا الخلط أن يتتبع تطور النمو الإنسانى مقارنا ذلك بالنمو فى الطبيعة .

وفى أكتوبر ١٨١٢ رحل فروبل إلى جامعة برلين ، حيث عرف أستاذا ذاعت شهرته فى الآفاق ، فوجد من الخير له أن يستمع لمحاضراته فى التاريخ الطبيعى . ويعترف فروبل أن محاضرات الأستاذ وايز Weiss أشبعت حاجات عقله وروحه وأكدت له فكرة الوحدة والترابط مدعمة بأدلة مستمدة من الطبيعة ذاتها . وجلس فروبل يفكر فى ضوء محاضرات هذا الأستاذ وخرج من تفكيره الفلسفى بالحقيقة التالية :

«إن الظواهر المختلفة فى حياة الإنسان كالعمل والتفكير والإحساس تتجمع كلها فى وحدة بقائه وكيانه الشخصى» .

وبعد أن وصل إلى هذه الحقيقة المهمة اتجه بكليته إلى تطبيقها على المشكلات التربوية . وحانت له فرصة مواتية سرعان ما أحسن استغلالها فقد عرض عليه منصب مدرس فى مدرسة ذات شهرة كبيرة هى مدرسة بلامان Plamann فعمل

بها كى يتحصن ضد عوادى الدهر إذا قدر ونضب معين ماله قبل أن يستكمل دراسته. وخاف أن يضطر إلى قطع دراسته فى الجامعة ولكنه مع ذلك اضطر إلى قطعها لظروف خارجة عن إرادته وكان ذلك فى مستهل عام ١٨١٣ . فقد دعا داعى الحرب وقرعت الطبول وكان على الشباب أن يحملوا سلاحهم ليدفعوا عن حمى الوطن شنات بونابرت الماحقة .

ترك فروبل أقلامه وكتبه وحمل سلاحه ووقف فى الصف ثم تحرك الجيش جنوبا . وكان معه فى فرقته عدد كبير من طلبة جامعة برلين ، وكثيرا ما كان يجلس إليهم يتقارضون الحنين إلى قاعات الدرس والمحاضرات . ويشعر فروبل بأنه مدين بفضل كبير للحياة العسكرية التى اندمج فيها ، فقد استفاد جسمه من التمرينات الاجبارية فوائد جمة ، وخضع للنظام الصارم مما يجعل حبه للنظام عادة تأصلت فى نفسه ، حانت له فرصة ذهبية فقطع مسافات كبيرة مشيا على الأقدام خلال الغابات والمناظر الطبيعية الساحرة .

وفى ٣٠ مايو ١٨١٤ وضعت الحرب أوزارها وأعلن السلام وسمح لكل حامل سلاح أن يعود إلى سابق عمله إذا شاء ، فعاد فروبل إلى برلين وكان قد عرض عليه منصب الأمين المساعد للأستاذ وايز بالمتحف الملكى للتعدين ، وكان بإمكانه أن يجد فيه هوايته من المعادن وباستطاعته كذلك أن يستكمل دراسته بالجامعة . وظل ببرلين حتى عام ١٨١٦ ، ولكنه رحل عنها فجأة دون أن يودع أصحابه ومضى إلى جهة مجهولة لم يعلموا عنها شيئا أو يقفوا على البواعث المجهولة التى حملته على ذلك .

٤- فروبل الرجل

لم يعلم أحد أن فروبل قد ترك برلين بعد أن امتلأ من المعرفة وتضلع من حقائق العلم ونظرياته حتى أحس بالتخمة وأراد أن يفرغ بعض ما فى نفسه فى عمل تجريبى بعيد عن الصخب وعن أضواء المدينة الكبيرة . وكان معه قليل من المال مكنه من استئجار كوخ أحد الفلاحين فى قريته جريشم Griesheim وأطلق عليه اسم المعهد الألمانى للتربية ، وكان عدد تلاميذ المعهد خمسة . وقد رأى بثاقب بصيرته أن التعليم المثمر لن يتأتى إلا بعد أن يعرف المعلم طبائع أطفاله ويدرسهم ويقف على ميولهم واستعداداتهم ثم يجرب طريقته فإذا فشلت لجأ إلى طريقة أخرى حتى يستطيع أن يصل إلى الطريقة المثلى الصحيحة فيتبعها ، وبذلك يمكنه أن يفيد الأطفال .

ثم استدعى فروبل لمعاونته زميلا تعرف به أيام حمل السلاح وهو مديندورف Middendorff . غير أن منظر الكوخ وحالته كانا مما لايشجع على العمل . فلم يكن له باب يوصد أو يفتح ، ولم تغط أرضيته بل تركت لتحاكى أرض الشارع ولم تكن به مدفأة تخفف من حدة البرد القارس أيام الشتاء . وبعد أشهر معدودات لحق بفروبل زميل آخر هو لانجيثال Langethal . وجاءت النجدة عام ١٨١٨ عندما تبرعت أرملة بمزرعتها الصغيرة فى كلهاو Keilhau . لتكون مركزا للمعهد . وكان عدد التلاميذ حينئذ قد وصل إلى اثنى عشر .

ولكن المعهد كان بحاجة إلى المال حتى يواصل مهمته ولم يكن فروبل كما نعلم على شىء كثير أو قليل من الثراء ولم يكن زميلاه بأحسن حال منه : ووسط هذه الأزمة تزوج فروبل من آنسة رآها أيام كان يعمل فى المتحف ببرلين وكانت قد تتلمذت على يد الفيلسوف فخته وقرأت فى التربية ، ووصفها فروبل بأن جمالها كجمال الطبيعة وأن روحها سامية محبة للخير . وفى الحق أن هنريتا Henrietta زوجته

كانت تشترك معه فى عمله بروحها وعقلها . ولقد رفض والدها أن يمدها بشىء من أجل المعهد حتى بدأ شبح الإفلاس على الأبواب ، ثم إذا بالعناية الإلهية تتدخل فى صورة موت أحد الأغنياء عن تركة طائلة ، وكان هذا والد مدينوورف الذى أوقف ما ورثه كله على المعهد .

واستطاع الثلاثة بهذه النجدة أن يكملوا البناء الذى بدءوه حتى بلغ عدد الأطفال فى عام ١٨٢٦ حوالى الستة والخمسين طفلا ، وخلال هذه السنوات كان فروبل لايفتأ يصدر النشرات والمطبوعات عن معهده معضدا آراءه ومبادئه حتى يجذب إليه الأنظار، ولكن الأنظار ، وياللأسف ، قصرت عن أن ترى هذا المعهد كما أن العقول لم تستطع بعد هضم ما حوته هذه النشرات من آراء ، حتى كان آخر عام ١٨٢٦ عندما طلع فروبل على العالم بتحفته التى فنى فى عملها وكتابتها وأضنى نفسه وعذبها وحرمها من كثير من الملذات حتى استطاع آخر الأمر أن يقدم كتابه «تربية الإنسان»[1] وأسس فى نفس العام صحيفة أسبوعية أطلق عليها اسم «صحيفة العائلة للتربية»[2] .

ولعل من المفيد أن نعرف الظروف التى أحاطت بالمعهد فى هذه السنوات وهى ظروف خارجية أملتها السياسة والحروب . أدت إلى إحساس سادة برلين أن ثمة خطرا قد ينجم من هذا المعهد فضغطوا على أمير الولاية كى يوصد أبوابه فأرسل من لدنه من يراقب أعمال المعهد عن كثب ، وبعد أن زاره مرتين كتب تقريره وضمنه رأيه الصريح فى المعهد . ولعل من الخير أن أنقل شذرات من هذا التقرير :

«إن اليومين اللذين قضيتهما فى هذا المعهد أدخلا السرور على نفسى ورفعا من قيمته فى نظرى . ولشد ما أعجبت بالقائم على أموره فهو رجل قد صبر أمام العقبات الكثيرة التى اعترضته وجاهد وقاوم فى سبيل التغلب عليها معضدا بإيمان

(1) Menschen Erziehung .
(2) Family Journal of Education

عميق وحماس منقطع النظير ... لقد رأيت فى هذا المعهد شيئا لم أجده قط خارجه ، رأيت عائلة متآلفة متعاونة متحابة يزيد عدد أفرادها على الستين ، عائلة منسجمة يعمل كل فرد ما يوكل إليه من واجبات بسرور وفرح ، رأيت أفرادا يكونون وحدة متفاوتة متجانسة تظللهم الثقة المتبادلة ويعمل كل لرفاهية المجموع ، رأيت الحب والسعادة يرفرفان عليهم ... والفضل يعود إلى سيد المعهد ومنشئه ، فترى الأطفال يتعلقون به والزملاء يخضعون لنصائحه الغالية وإشاراته الحكيمة التى صقلتها التجارب والخبرات والقراءات الكثيرة المستوعبة ، فهو دائب العمل لايعرف الراحة أو التلكؤ ... والمدرسون يعملون بإيمان وكلهم مخلصون فى عملهم متحدون متحابون يتعاونون فى سبيل خير المجموع وبهذا ينجح المعهد فى رسالته ويؤتى أكله . والأطفال يلعبون ويلهون فى براءة وسذاجة وحرية تشجعهم وتحميهم ، ولم أر معاملة فظة غليظة ولم أسمع كلمة قاسية من مدرسة ولا لفظة نابية من تلميذ ، والسلوك فى مجموعه سليم خال من الشوائب ، والأطفال كلهم متساوون فى المعاملة لافرق بين طفل وآخر . وكلهم متحابون وكأنهم إخوة فى بيت واحد ، يلعبون فى حرية ولكن تحت إشراف مدرسيهم اليقظين ... ويجد الطفل المجال ميسرا للتعبير الحر عن نزعاته وميوله ، وإذا هفا طفل أو أخطأ وجد المجموعة قد أصابها الضر فيصحح خطأه ويقدم اعتذاره ولا يعود مرة أخرى إلى فعلته ... وتدفع الحياة الداخلية فى المعهد إلى حب النظام التام وإلى الترتيب والنظافة مما لايمكن أن يوجد مثيله فى أى معهد آخر ... وتبدأ الدراسة فى هذا المعهد فى السنة الخامسة من عمر الطفل بتشجيعه على استخدام حواسه ، فيبدأ أولا فى تمييز نفسه عن غيره (من الأشياء الأخرى) ثم يميز كل شىء عن الآخر مما حوله ثم يعرف ما يحيط به ويربط بين كل اسم ومسماه ... ودستور هذا المعهد قائم على النشاط الذاتى للفرد وليس على استظهار حقائق تلقى على الأطفال ، ويسير التعليم فيه من البسيط إلى المركب ومن المحسوس إلى المعقول ، بحيث يقبل الطفل على التدريس إقباله على اللعب . وقد حدث أن رأيت جماعة من الأطفال

الصغار وقد جاءوا إلى رئيس المعهد يبكون لأنهم سيلعبون طول اليوم الدراسى ولن يستمعوا فى ذلك اليوم إلى دروس ...» .

ويلوح أن أيام الصفاء لاتدوم وأن ناحية الشر عند البشر لابد أن تفصح وتعبر عن نفسها ، فقد حدث سوء تفاهم بين فروبل وأحد زملائه واستطاع هذا أن يضم إلى صفه أخت زوجة فروبل وكانت أرملة لها ثلاثة أطفال ، وغادر المعهد وقد بدأ يتهدده الخراب والأفول ولم يأت عام ١٨٢٩ إلا وقد تطرق الفشل إلى المعهد فنقص عدد تلاميذه حتى أصبح لايتجاوز أصابع اليد الواحدة .

ولكن الله لايضيع أجر من أحسن عملا ، ولو كان فروبل حقا كما نعته هذا المارق الأحمق ، لو كان فظا غليظ القلب لانفضوا من حوله ولكنه جاء إلى هذه القرية بقلب رحيم ونفس آمنة متطلعة إلى الخير . وكما عود الله فروبل انقاذه فى الأزمات فقد أنقذه هذه المرة أيضا ، أنقذ الطائر المترنح من السقوط فى الهاوية ، وكان انقاذه على يد جماعة من أصدقائه الذين عرفوه وقدروه حق قدره فهؤلاء ملأوا مجلس دوق ميننجن Meiningen باطراء معهد فروبل حتى اشتاق الرجل إلى رؤية صاحب هذا المعهد وطلب إليه الحضور ، فمثل بين يديه واستمع له وأعجب به ثم سأله عن خططه للمستقبل ، فعرض عليه فروبل خطة لإنشاء معهد تعليمى -Volkserziehungs Anstalt ولم يقتصر العمل بهذا المعهد الجديد على مجرد المواد الدراسية بل اشتمل على الناحية العلمية كذلك كأعمال النجارة والنسج وتجليد الكتب وما إلى ذلك واتخذت هذه الأعمال كوسائل للتربية .

وكانت فكرة فروبل هنا ترى أن الطفل لايجب أن يعامل على أنه شخص مستقبل لما يلقى إليه قط بل على أنه كائن يبتكر وينتج وهو يرى أن أعمال الطفل تعبير صحيح عن احساساته وميوله . ولم يستطع أن يخرج فكرته هذه إلى حيز الوجود أيام «كلهاو» ولقصور ذات يده وقلة المدرسين . ولكن عندما عرضت عليه هذه

الفرصة الذهبية سارع باقتناصها والافادة منها . وفى هذه الأثناء كتب إلى صديق له يصف شعوره ومشروعاته وألمع إلى أن هذا المعهد سيضم بين جنباته الأطفال من سن الثالثة إلى السابعة وهو يرى أن دستور هذه «المدرسة» سيكون العمل على تهيئة الظروف الملائمة لنمو الطفل فهى ليست مدرسة بالمعنى المفهوم من التعليم والامتحان ، ولعل هذه الفكرة هى أساس مشروعه الجبار عن رياض الأطفال .

وكيفما كان الأمر فإن إرادة الله شاءت أن تذوب هذه الأحلام وأن تذورها الرياح. ذلك أن المحيطين بالدوق وجدوا نفوذ فروبل يتزايد فأكلت الغيرة قلوبهم وأماتت ضمائرهم ووجداناتهم فكادوا له عند الدوق حتى سحب هذا ثقته فى المشروع . وكانت صدمة قاسية لفروبل صاحب الروح المتلهفة والنفس الطموح ، ثم سافر فروبل إلى فرنكفورت ، حيث التقى برجل ذائع الصيت فى التلحين الموسيقى هو شنيدر Schnyder وعندما وقف هذا على قصته عرض عليه أن يقيم معهده فى قلعة له بسويسرا ، فسافر فروبل على التو غير أن السلطات الحكومية هناك عارضت الفكرة ، وحاول الأب جيرار معاونته ولكنه لم ينجح فى أول الأمر ، وحتى نجاحه بعد ذلك كان خافتا لأن موقعه وبناءه لم يشجعا على العمل ، فقر الرأى على الهجرة إلى مدينة صغيرة قريبة اسمها ويليزاو Willisau ثم عاد فروبل إلى كلهاو حيث اصطحب زوجته معه فى أوبته إلى ويليزاو ، وفى مايو ١٨٣٣ افتتح المعهد أبوابه لستة وثلاثين طفلا، واستمرت المعارضة تحاول تحطيمه ولكنه مع ذلك نجح .

وترامت الأخبار إلى حكومة برن السويسرية بنجاح المعهد وبطريقة فروبل الحديثة فاستدعته وطلبت منه أن يضع خطة لإنشاء ملجأ فى برجدورف وأن يلقى محاضرات فى هذه المدينة على المدرسين بعد أن أرسلت إليه خمسة من الطلبة الذين يعدون للتدريس ، للتلمذة عليه فى ويليزاو . وذهب الرجل العصامى إلى برجدورف وألقى محاضراته فى اعتزاز وثقة ، ونالت هذه المحاضرات كل نجاح وتقدير ، وظل

فروبل يعمل فى معهده بجد ونشاط وإيمان ، والإيمان أساس النجاح ، حتى استدعته حكومة سويسرا ليدير شئون المعهد الذى كان قد تم إنشاؤه كما أراد فى برجدورف . وهكذا يدور الزمن دورته ويقف فروبل مكان أستاذه بستالوتزى بعد ثلاثين سنة ليحاضر فى التربية وليشق لاسمه طريقا إلى الجوزاء بعزيمة حديدية وإرادة لاتعرف الوهن ولا الكلال وإيمان عميق بث فى نفسه الصبر حتى نال ما تمنى ، وأصبحت سويسرا بل كل أوربا تتكلم عن الرجل الذى شيد نظاما تعليميا محكما ، ولعل عمله فى هذا الملجأ مع هؤلاء الصغار هو الذى أوحى له بأن تربية الصغير تحتاج إلى إصلاح كبير ، ولعله هنا أيضا قد هبط عليه وحى تربية الأمهات وإعدادهن لكى ينشئن الأطفال نشأة صحيحة مجدية .

وفى عام ١٨٣٦ اشتدت وطأة المرض على زوجته التى حنت إلى العودة إلى ألمانيا ، فصحبها فروبل قافلا إلى أرض وطنه بعد أن ترك اثنين من مساعديه لإدارة الملجأ . وبعد سنة من رحيله آب إلى كلهاو ، حيث قابل أحد الزملاء وكانت قد اختمرت فى ذهنه فكرة إنشاء معهد لتعليم صغار الأطفال . وفى مدينة بلانكنبورج Blankenburg تم إنشاء ما أسماه فروبل «معهد لمساعدة صغار الأطفال Anstalt fur Kleinkinderpfiege» جذب هذا المعهد الناس إليه وكتبت الصحف عن هذه التجربة الجريئة وتسابقت المدن على دعوة فروبل لالقاء محاضرات بها فحاضر فى درسدن وليبزج ، بل إن ملكة ساكسونى استمعت إلى محاضرته فى درسدن وكان ذلك عام ١٨٣٩ .

وسط أكاليل الغار التى طوقت جيده وبين هالات المجد والسؤدد الذى وصل إليه فروبل ، لاح له شبح الموت يحوم حول زوجته التى كانت نعم العون والسند له . ووقف الأطباء واجمين أمام سلطان الموت العاتى فأسلمت الروح وأسلم زوجها نفسه إلى الحزن. ولكن حزنه لم يثنه عن عمله فانكب عليه يجد فيه السلوى والعزاء . وكانت تفد إليه

أعداد من المعلمين يستمعون إلى طريقته حتى أنه اضطر إلى تنظيم دراسات دورية خاصة بهم . ومن بين الذين تخرجوا على يديه اثنان افتتحا مدرستين لصغار الأطفال فى فرنكفورت ، وكان فروبل لايفتأ يفكر فى اسم لائق لمعهده حتى إذا كان ذات يوم وفد مع زميلين له على مدينة بلانكنبورج وكانوا طوال الطريق يفكرون فى اسم لائق. وفجأة وقف فروبل وصاح صيحة هائلة دوى صداها فيما حوله : ثم قال «روضة الأطفال» Kindergarten .

وهكذا ولدت رياض الأطفال بعد جهاد دائم ومجهود جبار . وكان الشيخ قد بدأ يحس وطأة السنين على جسمه ، ومع ذلك فقد كان نشيطا حيا لايعرف الخمول أو الكسل ، فطفق ينشر ويذيع آراءه بحماس . وطالب البلدية بأن تعطيه قطعة أرض يقيم عليها روضة نموذجية ويضم إليها فصولا لتدريب المدرسات على طريقته الجديدة، على أن يعهد إليهن بتعليم الأطفال من الثالثة حتى السابعة . وفى هذه الأثناء طبع فروبل كتابه «الأغانى للأمهات وصغار الأطفال» Mutter-und Kose Lieder وكان ذلك عام ١٨٤٣ وفى العام التالى جال وفى صحبته مدبندورف - فى أنحاء ألمانيا يحاضر وينشر تعاليمه وآراءه .

وفى الحق أن الرجل لم يلق التقدير الذى يستأهله ، فإن مواطنيه لم يستقبلوه كما يجب أن يكون استقبال العبقرى النابه ، بل إن المدرسين فى كثير من أنحاء ألمانيا لم يتحمسوا للقائه . ولنا أن نتساءل : أكان سبب ذلك الثورة على كل جديد أم الغيرة من تألق نجم فرد ؟ أم عدم تقدير لرسالته النبيلة ؟ قد يكون هذا أو ذاك ، ولكن المؤكد أن فروبل عاد من رحلته وفى قلبه غصة وفى نفسه لوعة وحسرة فقد توقع غير ما رأى ، ولكنها الطبيعة البشرية لاتعطى كل ذى حق حقه ، وقد لاتعترف لفرد بفضله إلا بعد سنوات عديدة من وفاته ، إنه الإنسان الجحود الظلوم .

على أن الغريب فى أمر فروبل أنه - وقد رأى جحود الرجال - كرس نفسه وجهده لصالح النساء والنهضة بمستواهن فإذا به يقضى عامين كاملين ١٨٤٦ : ١٨٤٨ فى التدريس وإلقاء المحاضرات على المدرسات والأمهات وكان مركز اقامته كلهاو ، وقدر لأحدى تلميذاته أن تكون زوجته الثانية فيما بعد . ويصرح فروبل بأن فكرته عن الأعمال اليدوية جاءت إليه من ملاحظته لتلميذاته .

وقد رد إلى الرجل بعض اعتباره عندما استدعى لالقاء محاضرات فى درسدن وقوبلت محاضراته بما هى جديرة به من النجاح والتقدير . وعاد بعد ذلك إلى كلهاو ومنها إلى لبنستشين Leibenstien حيث عكف على إعداد المعلمين والمعلمات ، وكانت ساعده الأيمن فى عمله من قدر لها أن تكون زوجته الثانية ، كما ذكرنا ، واسمها لويزليفان Luise Levin وهنالك قابل أيضا البارونه برتافون مارينهولتز بيلو Bertha von Marenholtz Bulow وإليها تدين حركة رياض الأطفال بجانب عظيم من الفضل . فإذا كان فروبل هو الذى ابتدع نظامها فهى التى رعتها ونشرتها . وفى نهاية ١٨٤٩ استدعى إلى همبورج كى يحاضر فى ربية النساء بدعوة من الاتحاد النسائى ، وكان الاتحاد قد دعا أيضا كارل فروبل ابن أخيه وكان أستاذا فى جامعة زيورخ ، غير أن هذا ضمن محاضراته مبادىء ثورية ووقف ضد عمه فى كثير من الآراء .

ولاح خريف حياة فروبل هادئا ناعما فأنشأ جريدة أسبوعية فى التربية عهد إدارتها إلى الدكتور لانج Dr. Lange وكان ذلك عام ١٨٥١ ، وفى نفس السنة تزوج من لويزليفان ، وأحس الرجل أنه وجد فى بيته آخر الأمر الراحة التى عدمها طوال هذه السنين وأحس أنه أدى رسالته خير أداء وأنه وصل إلى ما ابتغاه . ولكن تأبى المتاعب إلا أن تلاحقه فقد صدر أمر فى ٧ أغسطس ١٨٥١ من وزير المعارف والدين البروسى نص فيه على إلغاء رياض الأطفال فى الولايات حاضرا ومستقبلا . وسبب ذلك أن كارل فروبل ألقى محاضرة عن تعليم البنات ورياض الأطفال واتهم فيها نظم

فروبل بأنها تدفع الأطفال والبنات إلى الإلحاد ، وعبثا حاول وسطاء الخير أن يثنوا الوزير الأهوج عن رأيه . وقدر لفروبل أن يموت وهذا الأمر نافذ المفعول ، ولم يلغ إلا عام ١٨٦٠ .

هاجر الشيخ إلى ولاية أخرى وبدأ ينشر تعاليمه ويدافع عن نفسه غير أنه وجد الأصابع تشير إليه على أنه ملحد ووجد ضباب الشك ينتشر حوله وستور الليل تسدل والظلام يخيم عليه . ولكن ثمة ضوءا انبثق أمام ناظريه ، فقد عقدت جمعية فى جوته Gotha ودعى إلى الحضور ، وعندما خطا داخل مكان الاجتماع بقلب واجف يرجف ، وقف الحضور احتراما له فاستجمع شجاعته وتقدم فى خطى ثابتة حيث المنبر ، وتكلم عن تدريس العلوم الطبيعية بكل جوارحه ، واستمعت الآذان فى صمت تام حتى إذا ما سكت لسانه تعالت حناجرهم بالهتاف ودميت أيديهم من التصفيق .

لقد نصر الله الشيخ المؤمن وأعلى كلمته ولكن نهايته كانت قريبة ففى طريق العودة أحس بالمرض فحمل إلى سريره وعاده أصدقاؤه الأوفياء وجلسوا حوله وهو يحدثهم عن الدين ، وعن قدرة الله تعالى وعن جمال الأزهار ونضرتها وأشباه ذلك ، ولكن قواه كانت تخور يوما بعد يوم وبدأ عقله يضعف فى رأسه الذى اشتعل شيبا ثم فارق دنياه فى الحادى والعشرين من شهر يونيو ١٨٥٢ .

٥- كتاب تربية الإنسان

تمهيد

على النقيض من بستالوتزى كان فروبل فيلسوفا ، فلسف الكثير من الحقائق التى اقتبسها عن سيد فردون . لم يكن فروبل حالما يجول فى بيداء الخيال وصحراء الأوهام ، بل كان واقعيا عمليا .

إننا نسجل هنا مفخرة للقرن التاسع عشر ، نسجل أن رجلا فكر ولكنه لم يعش فى برجه العاجى بل ترك صومعته ونزل إلى الميدان فجرب واختبر وشاهد ودون، وإذا كنا قد اعتدنا أن نرى فلاسفة يتكلمون فى التربية وهم بعيدون عنها ، فها هو ذا واحد تفلسف وجرب ونزل إلى ساحة الوغى يختبر أسلحته ، دون درع يحميه اللهم إلا الإيمان والثقة واليقين ، فخرج منتصرا باذن الله .

نقدم إلى القارىء فى الصفحات القادمة مقتطفات من ثمرة عمل فروبل فى معهده فى كلهاو «تربية الإنسان Die Menschen Erziebun » . وهو كتاب ضخم فى حجمه ، ومادته وتخيرنا لك منه ما يرتبط بتربية الطفل قبل المدرسة .

الأسس العامة

يسود ويوجد فى كل شىء قانون أبدى خالد . ويؤسس هذا القانون الكامل الشامل على الوحدة الأبدية الحية المهيمنة على كل شىء . ولن يخطىء التفكير الإنسانى والذكاء البشرى فى معرفة هذه الوحدة . بل إن التفكير والذكاء لم يفشلا مرة فى التعرف على الوحدة الأبدية الخالدة .

هذه الوحدة هي الله، خلق كل شيء وإليه مآل كل شيء ، وهو يعمل باذنه وأمره فهو يملك كيانه ، ووجوده ، وبناءه ، وهو المهيمن المسيطر ولامرد لارادته ، وهو على كل شيء قدير ، منه الأمر وإليه التدبير . كل شيء يحيا بإذنه ، بقدرته الإلهية .

فيجب على الإنسان أن يعرف هذه القدرة الإلهية المهيمنة عليه ثم يعى سلطان الله وجلاله ، يجب على الإنسان ككائن عاقل مفكر أن يعرف هذا ثم يفصح عن روحه الالهية في سلوكه وحريته .

إن دور التربية يمكن أن يلخص في أنها تعد الإنسان ، ككائن مفكر عاقل ، تعده ليظهر قانون الوحدة المقدسة الباطنى في حرية ونقاء ، وتعمل التربية على أن تهيىء له السبل والوسائل التى توصله إلى هذه الغاية ..

وعلم التربية هو معرفة هذا القانون الأبدى والتبصر في أصوله وفي روحه وفى تأثيراته وتأثر الأشياء به ، ثم علاقة هذه الأشياء بالإنسان وعلاقته بها .

أما نظرية التربية فهى العقائد التى اشتقها الإنسان من دراسة هذا القانون والتى ترشد الناس العقلاء والمفكرين إلى فهم عملهم وتحقيق مصيرهم .

أما فن التربية فهو تطبيق هذه المعرفة الحرة والبصيرة في نمو الإنسان المفكر وإعداده لتحقيق مصيره .

وغرض التربية هو حصول الفرد على حياة حرة مقدسة فيها الوفاء والاخلاص وهذه هي الحكمة في أسمى صورها .

ولعل هدف الإنسان الأسمى أن يكون عاقلا حكيما ، بل هذا هو خير نتاج لإرادة الفرد .

وإن لب الحكمة أن يعلم الإنسان نفسه والآخرين ، وقد بدأ ذلك منذ ظهور الإنسان على الأرض واتضحت بجلاء عندما أحس الفرد بأنه كائن قائم بذاته . والتربية الآن أمر ضرورى ولازم للبشرية . وبالتربية يستطيع الإنسان أن يلج باب الممر الذى يقوده إلى الحياة فيعبر عن نزعاته الداخلية وينفذ مقتضيات إنسانيته ، وبهذا يحيا الفرد سعيدا طاهرا .

فالتربية تعمل إذن على أن نهيىء (الروح) الفرد أن تفصح عن نفسها فى الظاهر وفى الخارج ، ويجب أن تكون الحرية شعار هذا الافصاح والتنفيس .

وستؤدى التربية ، عن طريق التعليم ، بالفرد إلى إدراك ومعرفة المبدأ الروحى الأزلى والالهى الذى يوهب إلى كل ما يحيط به من كائنات . وسيعى الفرد أن الإنسان والطبيعة مصدرهما الله ، وأن الله هو المهيمن عليهما .

فالتربية إذن تسوق الفرد إلى إدراك نفسه وما فيها ، وإلى أن يحيا فى سلام مع الطبيعة وفى وفاق ووحدة مع الله ، ولذا فلابد له من معرفة نفسه والجنس البشرى، من معرفة الله والطبيعة ، ثم عليه أن يعرف الحياة الهانئة الرغيدة التى تؤدى إليها هذه المعرفة .

يعبر سلوك الفرد الظاهرى عن إحساساته وميوله الداخلية ، فنستطيع أن نقف، من ملاحظة سلوكه ، على مافى نفسه ، ويجب أن نراعى فى تربيتنا له هذه الحقيقة . ومهما اختلفت مظاهر السلوك البشرى فكلها مصدرها نبع واحد هو الوحدة الإلهية ، وحدة الله .

ولعل منشأ كل الأخطاء فى التربية مرجعه إلى تجاهلنا طبائع الأطفال أو أننا نفهم هذه الطبائع فهما خاطئا ، وذلك يؤدى حتما إلى عدم تقدير نزعات الطفل فنحكم على أنماط سلوكه أحكاما جائرة ، وبذلك تكون تربيتنا له مشوبة بهفوات لاعدد لها ، ولا يستطيع الأب أن يفهم حقيقة ابنه الطفل ، ويؤدى هذا إلى تكليف الصغير بما لاطاقة له به .

ويجب على الآباء والمربين أن يكونوا حذرين ، فلا تخدعهم الظواهر فيظهر الطفل غير ما يبطن ، ويخدع المدرس والوالد بهذا المظهر فيسرع فى حكمه وبذلك يحيد عن الصواب . فهذا الطفل الكثير الحركة والكلام والدائب النشاط لايدل سلوكه على نفسية شريرة ولكنه يريد أن ينفس تلقائيا عن طاقة عنيفة يحس بها فى الداخل. والتربية الحقة هى التى تسمح للأطفال بالحركة والعمل والايجابية لا أن يستمع ويحفظ.

إننا نعطى النبات الصغير الوقت والمكان اللازمين للنمو ، ولانتدخل نحن فى هذه العملية (النمو) إلا لكى ندرأ عنه خطرا يهدده ، ولكن دون ذلك أتركه لطبيعته وفطرته فإذا به ينمو نموا سليما جميلا رائعا . أما نحن معشر البشر فنرى فى الطفل قطعة من الشمع أو قالبا من الطين أشكله كيف أشاء ، فاتدخل فى نموه وأجبره على أفعال خاصة وأدفعه إلى سلوك معين ولا أتركه إلى طبيعته الفطرية مع أننا نرى الطبيعة جميلة منسجمة لأنها تركت لتنمو دون تدخل خارجى فى هذا النمو .

يخضع نمو الإنسان ونمو النبات إلى قانون واحد ، ومع ذلك فإننا نربى النبات تربية صحيحة فينتج ويثمر لأننا نتبع الطريق الصحيح ، أما فى تربيتنا للطفل فلا نتبع الطريق السوى الصحيح ، بل نشت ونضل ، ولكن يجب أن نراعى هنا حقيقة لامراء فيها وهى أن بين الأطفال اختلافات ولم يصبوا كلهم فى قالب واحد ، ولذا فإن كل فرد شخصية قائمة بذاتها . والتربية فى هدفها الأسمى تسعى إلى أن تهيئ لكل فرد الفرص ليظهر إحساساته ونزعاته الباطنية ولكى يستطيع فى النهاية أن يحيا الحياة الطاهرة السعيدة .

ويجب أن نستغل نشاط الطفل الذاتى ليتعرف على ما حوله ويتفاعل معه ويؤثر فيه ثم يرى استجابته له ، والمقصود بالنشاط الذاتى أن ينتفع الطفل نفسه بما يفعل ويعمل ، ويتطلب هذا أن يكون الطفل يقظا واعيا إلى ما حوله وأن يشمل النشاط الطفل كله ، من جميع جوانبه ونواحيه .

إن مجرد تقليد أنماط مثالية من السلوك لايكفى للنمو الكامل الصحيح للطفل بل لابد من تأثير فى الداخل ومنه ، أى لانكتفى بالسلوك الظاهرى ، بل نريد أن يكون الفرد صورة للمثال الخالد ، ويصبح بذلك كل فرد أنموذجا لنفسه ومثلا أعلى لغيره ولنفسه أيضا . وبذلك يكون التحسن والنمو من الداخل ، من الأعماق والجذور ، فلا يمكن اجتثاثه .

وتعمل التربية الصحيحة والتعليم المجدى والتدريب المثمر على النمو الصحيح المتزن ، وهنا يبتعد الفرد عن الغش والخداع والخضوع والاستكانة ، ويحيا فى حرية وأمن وطمأنينة عزيزا مكرما ، ولن يتمكن من ذلك إلا إذا وضعنا نصب أعيننا مراعاة ميول الطفل ونزعاته .

والتربية فى كل مظاهرها يجب أن تكون مزدوجة الجانب ، تهب وتأخذ ، توحد وتقسم ، فيها الايجابية والسلبية ، فيها الصلابة والليونة ، ولكن بين كل نقيضين ، وحتى بين المعلم والمتعلم ، يجب أن يوجد شىء ثالث يخضع له كل من المعلم والمتعلمَ ، هذا الشىء هو «الحق» أو «الأفضل» . والأفضل ، أفضل تبعا للظرف الخاص الذى يوجد فيه ، ويجب على المربى أن يخضع لهذا الحكم ، لهذا الشىء الثالث ، وعليه أن ينتهز كل فرصة مواتية ليعلن ولاءه وخضوعه له .

ويجب علينا أن ننظر إلى الأطفال على أنهم هبة الله ، وأنهم مظهر للروح الالهية القدسية فى شكل بشرى وهيئة إنسانية [١] ولا غرو ، فإن هؤلاء الصغار هم أحباب الله ودليل على قدرته وهيمنته وقربه منا .

---

(١) نلاحظ أن المسلمين يسمون أبناءهم : عبدالله ، عبدالمعين ، عبدالستار ، عبدالرحمن ، عبدالقوى ، عبدالعظيم وهى كلها صفات مشتقة من الله . وكذلك المسيحيون عبدالملك ورزق الله ووهبه ... إلخ .

كل طفل ، بل كل كائن بشرى يجب أن ينظر إليه وأن يعامل على أنه فرد من أفراد البشرية ، وجوده ضرورى . ولذلك فإن الآباء والمربين مسؤولون أمام الله عن هذا الكائن ، لقد خلقه الله وأبدع خلقه فمن الخطأ أن نشوه هذا الخلق بأن نقف فى سبيل نموه الطبيعى الصحيح .

ويجب على المربين وعلى الآباء أن يراعوا العلاقة الوطيدة الواضحة بين الطفل وبين نمو البشرية حتى يكون هنالك انسجام بين مستلزمات نمو البشرية فى الماضى والحاضر والمستقبل . فالإنسان إذن مرتبط بالله وبالطبيعة وبالبشرية وتنطوى نفسه على : الوحدة (الممثلة فى الله) والاختلاف (الممثل فى الطبيعة) والفردية (الممثلة فى البشرية) ، وتنطوى نفسه كذلك على الماضى والحاضر والمستقبل .

ويجب أن ننظر إلى الطفل ، وإلى البشرية عامة ، ننظر إلى الطفل على أنه كائن فى طريق النمو وليس كائنا قد نما واكتمل نموه ، يجب علينا أن نرى فيه فردا يصعد سلم النمو متقدما باطراد ومتنقلا من مرحلة إلى أخرى صوب تحقيق هدفه . وبالمثل لايجب علينا أن ننظر إلى الإنسانية على أنها ثابتة قد كملت وأتمت نموها ، لأن فى ذلك معنى يوحى بأن الطفل فى نموه إنما هو صورة ميتة لاحياة فيها لمن سبقه من الأطفال . لا ، إن البشرية لم يكتمل نموها بعد ، فهى فى تقدم مطرد صوب الكمال ، والفرد يعمل فى هذا السبيل فهو يبنى للأجيال القادمة ، وهو بذلك ليس صورة ميتة لمن سبقه . ولن يتأتى للفرد ذلك إلا إذا كان نشطا حيا ، نشاطه ذاتى وحيويته تلقائية . وعليه أن يقدم هذا النشاط والحيوية بحرية ملموسة حتى تكون عبرة وأنموذجا لغيره ممن يعاصرونه أو حلقة فى سلسلة التطور بالنسبة لما سيلى من الأجيال. ففى كل طفل ، كفرد فى الإنسانية ، نجد روح الإنسانية ، ولكن كل واحد يفصح عنها بطريقة غير الطريقة التى يفصح بها غيره ، وكذلك فى كل طفل ما يبين أنه هبة الله ، ولكن كل واحد يعبر عن هذه الهبة بشكل خاص . ومهما اختلفت ألوان الافصاح وأصناف التعبير فهى تثبت أن فى الاختلاف وحدة .

وليحذر الآباء فإن وجود الطفل وهو غض صغير بينهم من شأنه أن يجعله يقتبس منهم بعض ألوان السلوك ، وما دام الآباء حراسا على هبة الله ، والله لايهب إلا كل جميل طيب ، فيجب أن يكون سلوكهم معقولا مقبولا حتى يؤدوا الأمانة التى فى أعناقهم خير أداء وحتى لايقتبس الطفل منهم ألوانا من السلوك لانرتضيها له .

ويصل الآباء إلى هذا الهدف إذا راعوا فى تربيتهم للطفل التمشى مع طبيعته وأطلقوا له الحرية للتعبير عن امكانياته وقواه واستعداداته . وليس معنى الحرية هنا اطلاق الحبل على الغارب بل نريد حرية فى حدود النظام ، نريد حرية دون فوضى ، وأقصد هنا اشرافا من جانب الكبير على الصغير . أريد إشرافا فيه المجال للإفصاح عن داخلية الطفل بحيث لايتطور الأمر إلى تدليل من شأنه أن ينشىء الطفل متواكلا لايعتمد على نفسه . فيمسك الطفل بيديه ويقف على قدميه ويرى بعينيه ، أى يعرف كيف يستخدم أطرافه وحواسه استخداما نافعا مثمرا .

يبدأ الطفل حياته مستخدما «القوة» فهو يقبض على الشىء فى راحته بالقوة ويضرب الأرض بقدميه وهو مستلق بالقوة ، بل ويصيح بقوة ويبكى بحرقة . وبعد ذلك يلازم القوة عامل آخر هو «الطمأنينة» فترى الابتسامة المشرقة تتلألأ على شفتيه عندما يحس بالدفء والراحة والحنان . وهكذا نجد الراحة جنبا إلى جنب مع القوة والعنف ، الابتسامة مع الدموع .

وتدل الابتسامات وعلامات الرضا والسرور على أن الطفل ينمو نموا طبيعيا (كما يريد الله وكما تريد الطبيعة) فيجب أن نشجعه على ذلك . أما الدموع والقوة والعنف من جانب الطفل فتدل على أن معاملتنا قد حادت عن الصواب وأن الطفل يناضل ويجاهد ضد ما يتعارض مع طبيعته ، فيجب أن نبحث عن الأسباب ونوقف مثل هذا الاجراء الجائر . ولعل أس الداء فى سوء التربية ، عامل الاهمال وعدم العناية بأمر الطفل . فإن الاهمال أقصر طريق يوصل الطفل إلى كل ما هو سيىء شرير ، والطفل يحتاج إلى إرشاد وتوجيه فيجب ألا يحرم منهما .

ومما هو جدير بالذكر أن الطفل الصغير له قدرة على اكتشاف مواطن الضعف فى الكبير ، وهو بذلك يستغل هذه القدرة أيما استغلال ، فشدة حنان الكبير نقطة ضعف يعرف الطفل كيف يحسن استغلالها . ولذا فمن الخطأ البالغ أن يعمد الكبار ، تحت وطأة شعورهم بالحنان والعطف ، إلى سرعة تلبية نداء الصغار وتنفيذ مطالبهم ، مهما تكن تافهة . والواجب أن يترك الطفل لنفسه طالما أننا قد أبعدنا عن كل مثيرات الدموع والألم .

والطفل فى هذا الطور الأول كائن (يمتص) ما حوله ، هو عين كبيرة ترى كل شيء وتتأثر به وليس من السهل أن يمحى هذا التأثر بعد أن يكبر الطفل ، فجدير بنا أن نهيىء كل حسن جميل له فى حجرة نظيفة مرتبة ، - السلوك مقبول خلقى - الكلمات والعبارات صحيحة ليست نابية - معاملة الغير حسنة ... إلخ .

وسيكتشف الطفل أنه مرتبط بوالديه وأخوته وأن هؤلاء مرتبطون بوحدة أكبر هى الإنسانية عامة ، وأن هذه ذات ارتباط وثيق بالقوة الأبدية . بالله . ويجب أن ينتهز الوالدان هذه الفرصة المبكرة ليبذرا فى نفس الطفل محبة الله والتدين فيدفعانه إلى شكر الله الذى أنعم عليهم بكل هذه النعم وبحمده وتسبيحه وعلى الأم أن تراعى ذلك عندما تحمل الطفل إلى سريره ، وأن تكون إلى جانبه عندما يستيقظ فيفتح عينيه على ابتسامتها النقية وتتقبل منه ابتساماته العذبة ، وشكر الله هنا واجب . يجب على الطفل أن يحس من بواكير الطفولة بنعمة وقدرة الله ، ويجب أن يكون الوالدان مثيرين لهذا الاحساس .

إن تربية الطفل الصحيحة يجب أن تقوم على مراعاة طبيعة الطفل فى كل مرحلة من مراحل نموه ، ولكل مرحلة ميزات خاصة ، وكل مرحلة تعد الطفل للمرحلة التالية . ولا نستطيع أن نقول أن الطفل وصل إلى مرحلة الغلومة أو الشباب لأنه وصل إلى سن معين ، ولكن أقول إنه وصل إلى مرحلة الغلومة بعد أن يكون قد

أحسن استغلال فترة طفولته واكتسب من الخبرات القدر الكافى بحيث نما نموا طبيعيا دلت طبيعته وتصرفاته الحرة على أنه ترك طور الطفولة إلى دور الغلومة . ويخطىء الآباء والمربون خطأ فاحشا عندما يتوقعون من الطفل أن يسلك سلوك الشباب أو سلوك شخص مكتمل النمو ، وعليهم أن يعرفوا أن الطفل طفل فى كل شىء وليس رجلا صغيرا ، ولعل منشأ الخطأ أن المربين والآباء يتخطون المراحل المختلفة ويتطلبون من الطفل معايير للسلوك خاصة بمرحلة متأخرة عن مرحلة نموه الحالية .

العبرة إذن بالتمهل وعدم التسرع ، وليس من الحكمة فى شىء أن أدفع الطفل دفعا لأنماط من السلوك لاتتناسب مع سنه أو مرحلة نموه . بل ليس من العدل فى شىء أن أطلب من الطفل أن يسلك سلوك الشاب المكتمل النمو ، إن الزهرة تمر فى مراحل نموها حتى تستطيع فى النهاية أن تصل إلى الكمال .

ويجب على الإنسان أن يكشف فى سلوكه عن روحه ، روحه الالهية ، يكشف فى سلوكه عن قدرة الله تعالى . ألم ير إلى الزهرة والوردة فى الحديقة كيف أنها كسّت نفسها برداء من صنع الله . ألم ير إلى الطير كيف بنى عشه وأحس فيه بالأمن والدعة والراحة ، إن سلوك الطير والزهرة تعبير ظاهر عن قدرة الله الكائنة فى كل شىء .

ولذا فمن الضرورى أن يعتاد الطفل الصغير منذ أيامه الأولى العمل الخارجى ، يعتاد النشاط المثمر والعمل المنتج والابتكار . وهذا يدفعنا إلى القول بأن تربية الطفل يجب أن تشتمل على نواح شتى من الحركة ، ولابد أن يكون العمل مشتقا من بيئة وحياة الطفل . ويخطىء المربون الذين لايعطون العمل أهميته ، فإن مواد الدراسة البحتة النظرية من شأنها أن تبعث الخمول والكسل . بل يجب أن تكون ساعات العمل متساوية مع ساعات التحصيل العلمى .

وثمة فكرة أخرى وهى أن تعليم مبادىء الدين دون أن نعمل بها من شأنه أن يجعل تعليم الدين غير مثمر ، بل تصبح تعاليمه مجرد أضغاث أحلام أو أوهام لا سبيل لها إلى عالم الحقيقة والواقع . كما أن مجرد أن يعمل الإنسان ويشتغل دون أن يراعى مبادىء وتعاليم الدين من شأنه أن ينحط به إلى مرتبة الحيوانات والبهائم ، بل يصبح مجرد آلة صماء .

إن المهم أن يعبر النشاط البشرى عن نفسه فى العمل مع مراعاة أوامر الدين وتعاليمه ، ويجب أيضا أن يتجه النشاط البشرى إلى مافيه الخير للذات نفسها ولغيرها كذلك .

وليس من شك فى أننا بعد هذا السرد الطويل يمكن أن نصل إلى حقيقة لا مراء فيها وهى أننا نجد فى الطفل الإنسان كمجموعة ، أى أن وحدة الإنسانية تظهر فى الطفولة ، وبذا تصبح فى الطفل كل بذور سلوك الإنسان فى المستقبل . فإذا ما استطعنا أن ندربه وأن نربيه تربية صحيحة فى طفولته من حيث هو فرد ومن حيث هو عضو فى جماعة أمكننا بذلك أن نضمن له حياة خيرة رغدة . ويجب عليه أن يدرك من الخبرات والتجارب الكثيرة أن العالم الخارجى يتصل به وأن حياته الداخلية متصلة بالعالم الخارجى ، وبهذا نسمح لقواه وميوله وحواسه وأطرافه أن تنمو النمو الطبيعى .

الإنسان فى بواكير الطفولة

تلوح مظاهر العالم الخارجى للطفل فى بداية الأمر غامضة مختلطة حتى أنه يكاد يخال نفسه جزءا لايتجزأ منها ، ثم تبدر من الوالدين كلمات وعبارات تشير كلها إلى انفصال الطفل عن هذه المظاهر ، ويتدرج الأمر حتى يرى الطفل فى نفسه كائنا له كيان خاص منفصل عن العالم الخارجى بما فيه من أشياء . ثم يبدأ بعد ذلك يميز بين هذه الأشياء المختلفة ، والشىء عن الآخر .

ويمثل نمو الخبرة الشعورية لكل طفل ، من اللحظة التى يظهر فيها إلى الدنيا حتى يعرف ويشعر أنه يعيش فى أرض الله ، يمثل المراحل المهمة للتاريخ كما سردتها الكتب المقدسة . كما أن أعمال وأفعال الطفل فى المستقبل القريب ستمثل نمو وتطور التفكير الإنسانى ، ومراحل تقدم البشرية .

إننا قد عرفنا أن السلوك الخارجى للفرد يعبر عن إحساسه الداخلى ، ويدفع الشىء الخارجى الفرد إلى محاولة معرفة أصله وسببه وكنهه وعلاقاته بالأشياء الأخرى وبه نفسه . ويشجع الفرد على محاولة معرفة هذه الحقائق والأسرار أن الله وهبه من الحواس عددا رأينا تيسر له هذه العملية . ولكن الأشياء تعرف وتتضح بأضدادها فنحن نعرف صفات وطبائع الشىء أو الكائن إذا قورن بضده وبمضاهاته بغيره من الأشياء والكائنات . ونصل إلى الحقائق والأسرار الصحيحة إذا كانت المقارنة والمضاهاة واضحة متيسرة .

وهب الله الإنسان الحواس ، وهذه تستطيع أن تجعله يتفهم الأشياء الخارجية فى حالاتها الصلبة أو السائلة أو الغازية . وتظهر الأشياء للإنسان إما فى حالة حركة أو سكون ، ولكل حالة من حالات الصلابة والسيولة والغازية حاستان فى الجسم ، إحداهما تظهر جلية فى الحركة والأخرى فى السكون . فمثلا الاحساس بالحالة الغازية موزع بين العين والأذن ، والاحساس بالحالة السائلة موزع بين الشم والذوق ، والاحساس بالصلابة موزع بين اللمس والتحسس[1] .

ويرى فروبل أن أول الحواس التى يجب العناية بها هى حاسة السمع ثم حاسة الإبصار وهذه تهتدى بهدى حاسة السمع . وبهاتين الحاستين يمكن للآباء والمربين أن يوجدوا علاقة وثيقة بين الشىء المادى واسمه

---

(١) يرى فروبل أن حاسة اللمس قاصرة على الاحساس بالنعومة والخشونة . أما ما يسميه بالتحسس فيقصد منه حالة الجسم من حيث الحرارة ووجوده فعلا .

ويستتبع نمو الحواس المطرد استخدام الجسم استخداما منظما واستخدام الأطراف استخداما مثمرا . ويتأثر الطفل بالحاجات الخارجية . أى الأشياء المادية ، فإذا كانت ثابتة راسخة دعت الطفل إلى الثبات ، أما إذا كانت متحركة فإنها تدفعه حتما إلى الحركة ، فهو يحاول القبض عليها وامساكها ، وقد تكون بعيدة عنه فإما أن يقترب منها أو يقربها منه ، وفى هذا كله تدريب عملى للأطراف .

وفى هذه المرحلة يقف الطفل ، ووقوفه دليل على اتزانه ، اتزان الجسم والأطراف، وثمة ملاحظة هنا وهى أن الطفل فى هذه المرحلة يستخدم جسمه وحواسه وأطرافه رغبة فى مجرد الاستخدام (العمل والحركة) لاسعيا وراء نتيجة يبتغيها ، فإما أن هذه النتيجة لاتعنيه ألبتة أو أنه يجهلها . ولذلك نلاحظ على الأطفال فى هذه المرحلة شغفا باللعب بأطرافهم : أيديهم ، أصابعهم . شفاههم ، ألسنتهم ، أقدامهم ، بل بتعبيرات وجوههم وأعينهم . ويجب أن نحذر هنا ، فهذه الأعمال وهذا (اللعب) ليس تعبيرا عن الاحساس الداخلى بعد ، وسيصبح تعبيرا عن الاحساس الداخلى ، وتنفيسا عن الذات الباطنية فى المرحلة التالية . ومع ذلك يجب علينا أن نهتم بهذه الحركات الجسمية لئلا يعتاد الطفل بعضها الضار . ولعل من المثمر ألا نترك الأطفال الصغار مدة طويلة دون رعاية منا ، والمستحسن أن نمد الصغير بشىء مادى يشغل نفسه به . وليس من المفيد أن يكون فراش الطفل وثيرا جدا بل الأفضل أن يكون مريحا فى غير رفاهية ، ويجب ألا يغطى كل جسم الطفل عند النوم حتى نسمح للهواء الطلق النقى بأن يداعب جسمه الرقيق .

ولعل مما يجعل تفكير الطفل مرتبطا بالطبيعة أن يعلق إلى جانب سرير نومه قفص صغير فيه طائر حى [1] ، وهذا يضمن انشغال حواس الطفل وعقله فى شىء

(١) اننى أعجب لهذا الرأى الغريب وأرى فيه تناقضا لما يجاهر به فروبل فهو يدعو إلى الحرية والانطلاق وإذا به يسمح بتقييد حرية طائر حى ، فيه روح ومن صنع الله وخلقه ، يغلب أن فروبل فى أخريات أيامه نصح بأن يستبدل بالطير الحى نموذجا من الورق الملون.

مفيد معظم الوقت . ونلاحظ هنا أن كيان الطفل الداخلى ما زال غير منظم ، وإلى أن ينظم يستطيع الطفل أن يعبر فى سلوكه الخارجى عن إحساسه الداخلى .

وبعد أن يبدأ تعلم اللغة ، يبدأ بالتعبير الخارجى عن إحساسه الداخلى فيفصح عن نفسه فى الخارج بشكل دائم وباستخدام شىء مادى . فالداخل يتوق للتعبير عن نفسه خارجيا ، ولابد إذن من وحدة تربط الداخل بالخارج وعند البحث عن هذه الوحدة تبدأ تربية الإنسان الفعلية ، وهنا يتجه الاهتمام والعناية إلى العقل أكثر من الجسم .

وتعهد التربية فى هذه المرحلة البدائية إلى الأم ومعها الأب والأخوة والمحيطون بالطفل ، وكل هؤلاء يكونون وحدة كاملة تحيط بالطفل وتؤثر فيه فيتأثر بهم ولذا فمن الضرورى أن يكون كل ما يقع عليه نظر الطفل ويطرق أذنيه خلقى جميل مقبول صحيح . ويجب أن يربط اسم الشىء به وأن ينطق الاسم نطقا صحيحا واضحا لاتحوير فيه . ومادام الأمر كذلك فيجب أن تعرض الأشياء على الطفل بنظام وترتيب خاص حتى يستطيع أن يتعرف عليها فى هدوء ووضوح .

ويتمشى الكلام مع اللعب تمشيا واضحا ، فالطفل يتكلم إذا لعب ، ويتخيل الأشياء تسمع بل وتتكلم ، وسبب ذلك راجع إلى أنه عندما سمح لذاته الداخلية بالظهور والتنفيس ظن أن كل شىء على شاكلته فما دام هو يسمع فإذن كل شىء (كل جماد) يسمع ، مادام هو يتكلم فكل ما يحيط به قادر على ذلك .

ويعتبر اللعب فى هذه المرحلة النشاط الروحى النقى للإنسان ، ويمثل الحياة البشرية عامة ، لأنه يمنح الطفل السرور والمرح والحرية ، بل إنه يشتمل على كل منابع الخير .

فالطفل الذى يلعب بنشاط ولا ينفك يلعب حتى يصيبه الاجهاد فيكف ، هذا الطفل سيكون فى مستقبل حياته شخصا ذا إرادة وعزيمة يكافح ويستميت فى النضال

لخيره وخير غيره ، بل إن خير مظهر لهذه الفترة أن نرى طفلا قد فنى فى اللعب فناء تاما حتى استنفد طاقته ونشاطه فغلبه التعب واستسلم للكرى . فإلى الأمهات نرجو تشجيع الطفل على اللعب ولتقر قلوبكن وتهدأ نفوسكن عندما تجدن الأطفال وقد انهمكوا فى اللعب اللذيذ ، وإلى الآباء نرجو أن تدفعوا بأطفالكم إلى اللعب وهيئوا لهم المجال لذلك فهذا هو الطريق السلطانى إلى النمو الصحيح والمستقبل الباسم المشرق - ولتعلموا أن مصائر أبنائكم معلقة بهذه الفترة من حياتهم وآثارها ستستمر تعمل طوال حياتهم .

انتبهن أيتها الأمهات وانتبهوا أيها الآباء ، أطفالكم ودائع الله بين أيديكم ، أمانات غالية ودرر لاتقدر بمال فحافظوا عليها وهيئوا لها ما تريد وتحب : اللعب ففيه مفتاح العلاقات بين الطفل وغيره فى المستقبل وفيه يخط الطفل طريقه فى الحياة المرتقبة . ومع ذلك فلا يستطيع الطفل فى هذه المرحلة المبكرة أن يحكم أيهما أثمن فى نظره : الزهرة أم فرحه بها أم سرور والدته بها عندما يهديها إياها ؟ من يدرى ؟ ومن يستطيع تحليل أفراح الطفل وسروره ؟ .

أما عن ملابس الطفل فلا يجب أن تكون ضيقة تضايقه فى حركته ، ولا يصح أن تكون فضفاضة فى ترهل ، بل الأفضل أن تكون متسعة اتساعا معقولا يهيىء لجسمه فرصة النمو السليم الخالى من الضغط على العضلات . وكما يتأثر الجسم بالضيق من الملابس كذا يتأثر العقل وتتأثر الروح ، فالملابس الضيقة قيود توضع لقوى الطفل . ولايجب أن نجعل للون وتفصيل رداء الطفل غرضا فى ذاته من شأنه أن يحول تفكير الطفل إلى ملابسه عن أمور أخرى أكثر أهمية لنموه العقلى والخلقى ، ونحن لانريد طفلا ينشأ ميالا إلى التأنق والاهتمام بالمظهر الخارجى فحسب .

ولعلنا نستطيع أن نخرج من الحقائق السابقة إلى أن الطفل بين أسرته كائن ينمو ولكى يكون نموه صحيحا متزنا يجب أن نعمل على مراعاة ميوله واستعداداته

وألا نقف في سبيله أو نكون عقبات تعترض هذا النمو . وأقرب المحتكين بالطفل في هذه السنوات الأولى هي الأم ، وتقوم بدورها المقدس هنا بشكل غريزي ، دون تعلم . فلو أنها كانت على دراية بأن عملها إنما يتوقف عليه مستقبل هذا الكائن الصغير لتخلصنا من الكثير من نواحي القصور والخطأ في تربيتنا للطفل .

تجلس الأم إلى طفلها وتمسك بيده لتتحسسها وإلى الأذن لتطلق عليها اسمها وهكذا مع بقية الأعضاء . ثم تهدى أنفه وتقبض كفها مع ابراز جزء صغير من أحد أصابعها وتريه للطفل وتقول «هذه أنفك» فيجزع الطفل ويهلع ثم يمد إلى يده يتحسس بها أنفه حتى إذا ما اطمأن أنها مازالت في موضعها بدت الابتسامة اللطيفة على شفتيه في مرح ملائكي .

وشيئا فشيئا يتعلم الطفل أسماء كل أجزائه ووظائفها ويستطيع بعد ذلك أن ينفذ ما يلقى إليه من الأوامر مثل : «أرني أسنانك» ، «عض أصبعك الأصغر» ، «ضع الحذاء في قدمك اليمنى» . وهكذا يقدم حب الأم لابنها خدمة جليلة للطفل فيعرفه بنفسه وبما يحيط به ، ويبدأ هذا من الكل العام إلى الجزئي الخاص ومن القريب إلى البعيد .

ويتعلم الطفل منها كذلك خواص الأشياء ، فتمسك بالشمعة المضيئة وتقرب يد الطفل من اللهب وتقول «الشمعة تحرق» فيحس الطفل بالحرارة دون أن يصاب بأذى . وتضغط بحافة السكين على يده وهي تقول «السكين تقطع» ثم هي تعمد بعد ذلك إلى خطوة أكثر تقدما فتحذره من الشراب الساخن بعبارة بسيطة «الشراب ساخن ، إنه يحرقك» أو تحذره من اللعب بالأشياء الحادة فتقول «السكين حادة ، إنها تجرحك ، لاتقربها منك» ويستطيع الطفل بعد ذلك أن يعرف من تلقاء نفسه العلاقة الوطيدة بين كلمة «حاد» وكلمة «قطع أو شطر» .

ويجب على الأم منذ البداية أن تعمل على أن يحب الطفل من حوله فتمسك بيده الصغيرة وتضعها على رأس أخته مشفعة عملها بعبارة تبين أنه يحب أخته ، ثم تضع اسمه وسط أسماء أخرى مبينة أن كل شخص يحب الآخر . وتعلمه عمليا كيف يتحسس وجه أبيه في حب وشفقة .

وطبيعى أن يتعامل الطفل مع ما يحيط به ، فإذا وجد مثلا قطعة من الطباشير فهو لايعرف شيئا عن فوائدها وسيخلط بينها وبين قطعة السكر مثلا ، ولكنه سيسر حتما عندما يحك بها سطحا فيجد أنها خطت خطا دائريا أو مستقيما ، ونجاحه هذا يشجعه على الاستمرار فى (اللعب) بها حتى يحيل السطح إلى عشرات الخطوط المستقيمة والمنحنية المتقابلة والمتقاطعة .

وعندما يلعب الطفل بالكرة أو يدفع أمامه شيئا يلاحظ أن هذا الشيء يتدحرج أمامه فإنما يرسم خطا على غرار الخطوط التى خطها بقطعة الطباشير وعندما (يرسم) الطفل شجرة مثلا نراه يضع نقطة على غصن منها ، والمفروض أن هذه النقطة تمثل طائرا ، فإذا ما طار الطائر مثل الطفل طيرانه واتجاهه بخط طويل . وفى الحق إن دنيا الخطوط تشوق الطفل جدا ، فترى وجهه يتهلل بشرا عندما يقوم والده فيرسم له حصانا أو إنسانا ، بل إنه يسر للرسم أكثر من رؤيته للشيء أو الكائن ذاته . ولو أننا راقبنا الطفل عندما يكلف برسم شيء معين فإننا نجده يتحسس أطرافه بيده أولا ثم يرسم شكله العام ملقيا الاهتمام (فى حالة المنضدة) إلى القوائم الأربعة التى تحفظ التوازن العام . ويجب علينا أن نشجع الطفل على الرسم بأن نمنحه الورق والأقلام وأن نوجه نظره إلى بعض أثاث الدار مما يسهل عليه رسمه .

إننا نجد فى تمثيل الأشياء بالرسم عاملا يوضح خصائصها ويثبت ذلك التوضيح فمثلا نعرف الطفل أن للإنسان قدمين ويدين وعينين وخمسة أصابع ، فنجده عندما يرسم إنسانا يقول ..... «وهذه يد ... وهذه يده الثانية ، وهذه العين اليمنى وهذه

العين اليسرى ... إلخ». وتستطيع الأم أن تنتهز الفرصة فتعلم الطفل مبادىء العد ويكون ذلك تدريجيا : فهى تعرض عليه تفاحة ، ثم تفاحة أخرى ، ثم تفاحة أخرى ، ثم تفاحة ثالثة ورابعة ، وتشفع عملية العرض بقولها : «تفاحة ، وتفاحة أخرى ، وتفاحة أيضا ... تفاحات كثيرة» ، وبعد ذلك تحذف كلمة «أخرى وأيضا» وتضع بدلهما الأرقام فتقول : «تفاحة واحدة ، تفاحتان (اثنين تفاحة) ، ثلاث تفاحات ، أربع تفاحات ...» . المرحلة التالية تستبعد فيها التمييز حتى الرقم الأخير ، بمعنى أن الطفل يقول : «واحد ، اثنين ، ثلاث ، أربع ، خمس تفاحات» . وفى المرحلة الأخيرة يكتفى الطفل (بعد الأم) بذكر الرقم مجردا من التمييز حتى فى الرقم الأخير .

قد يلوح للبعض أن هذه طريقة طويلة ، وقد يكون هذا صحيحا . ولكن لاشك أنها مفيدة منتجة ، والخطر ينشأ إذا حاولنا تعليم الطفل للعد دون ربط الرقم بشىء مادى . ولا شك أننا سمعنا أطفالا يخطئون فى العد فيقولون ... «واحد اثنين خمسة سبعة أربعة» وهذا نتيجة التعليم دون ربط الرقم بشىء حسى .

والطفل يمتص الكثير من الحقائق عند احتكاكه بعمل والده ، فابن الحداد يشاهد أباه وقد أمسك بقطعة الحديد ودسها فى النار مدة ثم أخرجها وهى جمرة ملتهبة شديدة الإحمرار ثم أخذها بالطرق حتى استوت فى شكل ابتغاه ثم غمسها فى الماء البارد وعندما لثمت وجهه بعثت صوتا لطيفا شفع (بدخان) جعل مقلتى الطفل تزدادان اتساعا وتتعاقب علامات الاستفهام على وجهه وتتزاحم الأسئلة العديدة على لسانه يريد كل أن يخرج باحثا عن اجابته فهذه العمليات المتعاقبة تزيد من خبرات الطفل ، خبرات ومعلومات يتعلمها الطفل من منبتها الأصلى . (ويتكلم فروبل عن عدد كبير من المهن التى فيها الآباء الذين يصحبون صغارهم إلى مقر أعمالهم ، ويشرح الفوائد العلمية التى يجنيها الأطفال) .

فلا يجب على الآباء أن يكبتوا هذا الميل إلى الاستطلاع ، بل عليهم أن يتقبلوا أسئلة الأطفال قبولا حسنا وأن يجيبوا الأطفال بلغة يفهمونها وتتناسب مع عقولهم ومداركهم وألا يتغلغلوا فى النظريات التى لايستطيع عقل الطفل القاصر هضمها . ولا يجب عليه أن يجيبوا الأطفال تو انطلاقهم السؤال بل يحاولوا معاونة الطفل على كشف الحقيقة بنفسه إن أمكن عن طريق ملاحظته واستنتاجه لما رأى . ولعل خير هدف يجنى من مران الطفل وتربيته هو تعويده كيف يفكر ويتبصر فى الأمور . فالطفل الذى يعرف كيف يفكر هو الطفل المثالى الذى نريده .

إننا نعيب على أنفسنا أن كلامنا إنما هو أفكار استظهرناها وحفظناها ، أفكار لم تكن نتاج ملاحظتنا أو مجهود بذلناه ، فهى لذلك أفكار خامدة غير منتجة لأنها لم تنبع من الحياة . وكلامنا فيه الكثير من الشطط ، هو طبل أجوف لأننا أخذناه من غيرنا كما هو ، وليس لتجاربنا أثر فيه . هذه حالنا ، ولا يجب أن تكون حال أطفالنا ، لنعلمهم مالم يعط لنا ولندربهم على مالم ندرب عليه .

يجب أن نحيا مع الأطفال حياة يسودها الهدوء والسلام والأمن بل والحكمة ، فإذا اندمجنا فى حياتهم سيتسرب الهدوء والسلام إلى نفوسنا ونحس بالطمأنينة والأمن يحيطاننا ، وعندئذ نستشعر الحكمة ونحس بها .

والطفل ينمو ، وفى نموه يتعلم ، وها نحن قد منحناه الفرص الكثيرة ليزيد من خبراته ومعلوماته ، وعندما يستطيع التفريق بين الاسم والمسمى ، بين الكلمة والشىء الدال عليه ، بين الكلام والمتكلم ، وعندما تعبر الرموز والكتابة عن المعانى ، عندما يعرف الطفل هذا ، يكون هذا الكائن الحى قد ترك مرحلة الطفولة المبكرة وتخطى حدودها إلى دولة أخرى ، دولة الغلومة .

خصائص الطفل في مرحلة ماقبل المدرسة

تتميز هذه المرحلة بأن الطفل فيها يستطيع أن يعى ويستوعب الظواهر الخارجية ، وفيها يتعرف على خواص الأشياء وعلاقاتها بعضها ببعض ، ومعرفة الخواص والعلاقات تأتى عن طريق التربية .

وتبدو هذه المرحلة وفيها عامل جديد غير معهود ، الروضة ، وليس المقصود بها مطلقا حجرة دراسة ، أو حصصا ، أو كتبا مقررة ، أو مدرسين وما إلى ذلك . وتعمل الروضة على تعريف الطفل بالعالم الخارجي وما فيه ، وطبيعة الأشياء المادية وعلاقاتها بعضها ببعض والقوانين التى تهيمن عليها ، ولعل هدف (الروضة) الأول فى هذه المرحلة هو العمل على تقوية إرادة الطفل وتوجيهها إلى الخير وإلى الحياة الطاهرة النقية .

والإرادة هى النشاط العقلى ، وهذا النشاط يبدأ من نقطة محددة ويتجه فى اتجاه محدد صوب تحقيق غرض محدد . وهذا الاجراء المثلث يتم فى إتقان وانسجام مع طبيعة الإنسان .

ويجب أن يعلم الآباء والمربون هذه الحقيقة . ومن الضرورى أن تكون نقطة بداية النشاط العقلى حية عاملة دافقة ، وأن يكون الاتجاه بسيطا واضحا، أما الغرض فيجب أن يكون ثابتا جليا جديراً بالمجهود الذى يبذله ويعمله الإنسان .

ولعلنا نذكر أن الطفل يتوق جدا إلى اللعب ويجد فيه مجالا للتنفيس عن ميوله واستعداداته فيستطيع أن يفصح خارجيا عما يحس به فى الداخل ، والطفل فى اللعب يضع نفسه وسط كل الأشياء ويقارن بين الشىء وبين نفسه . ولكن مجرد اللعب بالأشياء لايمنح الطفل الاحساس بالأمن والطمأنينية ، فيضاف إلى اللعب وجود الطفل وسط أفراد أسرته وعائلته . وإلى جانب الشعور بالأمن نجد شعورا آخر ، قد يكون

على نقيض ذلك الشعور ، وهو رغبة الطفل فى تقليد ما يراه بعينيه أو يسمعه بأذنيه. حقا إن هذا الميل وجد فى المرحلة السابقة ، ولكن تقليد الطفل كان من أجل النشاط . حبا فى التقليد ، أما فى هذه المرحلة فالطفل يقلد رغبة فى الوصول إلى نتيجة ، وقد تحولت (غريزة) النشاط عنده إلى (غريزة) التكوين . وإننا نرى الأطفال وقد مدوا أيديهم يساعدون آباءهم فى الأعمال الصعبة . لا فى السهلة فحسب . فلا يجب حينئذ على الآباء أن يردعوا أبناءهم ويحولوا دون مساعدتهم لهم ، وإلا وقفوا دون تيار سلوك طبيعى يجب أن يأخذ مجراه . إن كبت النزعات الداخلية للطفل والتى هى منبع النشاط التكوينى ، فيه ضرر بالغ لحياته فى المستقبل وخاصة إذا كان مصدر الكبت هى إرادة الوالدين وهما دائبا الاحتكاك بالطفل . ولعل فى استمرار الكبت عاملا قويا يؤدى حتما إلى خمول دائم وجمود لهذا النشاط . ولنا أن نتصور طفلا يغلى صدره كالمرجل بنزعات حيوية مشتعلة فتسرى إلى لسانه وأطرافه وكل جسمه فتبعث فيها الحركة ويقوم كل عضو بدوره وما كلف به ، وفجأة يجد الطفل قوة من الخارج تجبره على أن يوقف الحركة وكأنما أصيبت أعضاء جسمه بالشلل ، إنه سيحس حتما أن جسمه صار عبئا ثقيلا على روحه ونفسه الطلقة النشطة ، فأى جور أكثر من هذا ؟ .

أيها الآباء : أيها المربون ، حذار ! حذار ! اتركوا طريق الخطأ واسلكوا طريق الصواب ، أبناؤكم أمانة فى أعناقكم ، دعوهم ونشاطهم ، بل هيئوا لهم المجال لظهور هذا النشاط ، اياكم وكبتهم ووضع العراقيل أمامهم ، إنكم بذلك تجنون عليهم جناية عظمى ، مهدوا السبيل لهم وكونوا لهم لا عليهم . أيها الأب إذا جاءك طفلك مشمرا عن ساعده يعينك فى القيام بعمل ما فتبسم له ودعه يعاونك وإذا أخطأ فلا تنهره ولا تقل له قولا غليظا بل قومه وصححه .

يشغف الطفل باختبار قوته الجسمية فى كل فرصة تسنح له ، بل ويعمل على تنمية هذه القوة . فتراه يحمل شيئا من مكان لآخر ويحرك المقعد ويحاول انتزاع مسمار مثبت بالحائط أو دقه ، وقد يمسك بفأس صغيرة يحفر الأرض أو يملأ الحفرات بالطين والتراب . ونراه يتشبث بوالده عند خروجه عسى أن يكون خارج الدار ما يثير شغفه للعمل وثغرة يدلف منها للنشاط المشتعل فيه . وإذا رأى شيئا جديدا أو غريبا تتزاحم الأسئلة على شفتيه بسرعة غريبة ! لماذا ومتى وكيف وهل ..... ؟

يعمد الطفل كثيرا إلى التجوال هنا وهناك مستكشفا ومنقبا فى اهتمام واضح ، بل إنه يخاطر فى تنقله ، والمخاطرة تفتح آفاقا جديدة للمعرفة . ويستطيع هنا أن يستقرىء خواص الأشياء التى يصادفها بملاحظته لها فى حالتها الطبيعية ولا تسل عن سرور الطفل عندما يتسلق شجرة . ويرى فى هذا العمل حدثا خطيرا ، ويجد فيه اكتشافا لشىء بل أشياء جديدة . إنه سيرى من أعلى الشجرة منظرا لم يره من قبل ، سيجد نفس الشىء له منظر آخر يختلف عن منظره الذى رآه وهو على سطح الأرض، فهل من العدل حينئذ أن نصيح بالطفل طالبين منه أن ينزل ؟ لا ، إنه الآن فى أوج مجده فليتمتع به قليلا ! .

أرأيت إلى الطفل وقد تسلل بعيدا إلى الشقوق فى الجدران أو الأرض أو فى الأشجار يلتهم سيقانها بنظراته الفاحصة ، ويمد يديه الصغيرتين تتصيدان كل ما يجده صالحا للتصيد ، وقد يكون ذلك حشرة كبيرة أو طيرا أوقعه سوء الحظ بين يديه أو زهرة أو ثمرة . ثم يحمل الطفل هذا الاكتشاف العظيم إلى ذويه وهو يتيه فخرا وينتظر منهم كلمات الاعجاب والثناء ، ويبدأ يلقى الأسئلة : ما اسمها ؟ وكيف تأكل؟ ... ولكن الكلمات تقف حائرة على شفتيه عندما يصيح فيه الأب (أو الأم أو غيرهم) طالبا منه أن يرمى هذه القذارة من يده أو يوهمه بأنها كفيلة بالقضاء على حياته . ويرى الطفل الحشرة ويرى معها أيضا أملا عريضا ورغبة أكيدة فى المعرفة ويعود الطفل أد.احمد جاسر الرأس كسير القلب ومازلنا مع كتاب تربية الإنسان لفروبل .

يعمل الطفل جاهدا فى سبيل تقليد مظاهر الطبيعة التى يجدها أمامه ، فإذا وجد شقا فى الأرض سكب فيه الماء رقراقا وقال عنه إنه نهر . وقد يقيم حاجزا صغيرا حول قطعة من الأرض ويدعى ملكيته لها ، بل قد يقيم عدة ألواح من الخشب متساندة ويسمى هذا كوخا يسكنه هو وذووه . وكثيرا ما يتعاون الطفل مع زميل له فى هذه العملية المهمة ويتخذ منه شريكا يتأبط ذراعه وينهمك معه فى حديث جدى عن خطوات العمل وكيف يكون .

(يتكلم فروبل بعد ذلك من عمل الأطفال فى معهده عندما يشتغلون بصناديق البناء ويشيدون من الكتل الخشبية أبنية متعددة : قصر أو كنيسة أو قلعة . ويخال الرائى الذى يقف على كرسى ليشاهد (القلعة) التى (وضعت) على الأرض أنه يقف على قمة جبل وقد استقرت على أرض الوادى قلعة . وقد يتحد عدد من الأطفال يضمون أبنيتهم بعضها إلى بعض ليقيموا مدينة . والمفروض أن يخططوا شوارع منظمة وأن يتركوا مساحات خالية حتى تضاهى المدينة الحقيقية ، ويستطرد فروبل فيصف شعور الطفل بالفرح والسرور عندما يرى أنه استطاع أن يزرع نباتا وأن الأرض أنبتت كأنما هذا من عمله ، وقد لاتتيسر الفرصة لإعطاء طفل قطعة أرض يزرعها فلنهبه حينئذ أصيصا من الزرع به نبات صغير) .

يمارس الطفل فى هذه الروضة ألعاب متنوعة : الجرى ، القفز ، اللعب بالكرة ، ألعاب المطاردة ، ألعاب العصابات ... إلخ . ويحس الطفل فى لعبه بسرور بالغ ، ولعل خيرا فى هذا ، لأن اللعب لايفيد قوته الجسمية فحسب ، بل فيه فوائد جمة لنموه العقلى والخلقى . يتعلم الطفل الولاء للمجموعة والخضوع للقوانين والأنظمة ، والتعاون فى سبيل مصلحة المجموعة ، وأنه ينجح لأنه فرد فى مجموعة ، ثم فيها أيضا الاعتماد على النفس والمثابرة والصبر والكفاح لتحقيق هدف ، فيها كل هذا وأكثر . وليذهب أحدنا إلى ملعب يلعب فيه الأطفال ليرى أى حياة يحيون وبأى روح

يلعبون . إن هذه البراعم لاشك ستتفتح يوما على أرض الملعب وفى اللعب ، فى هذه المدرسة العظمى التى تعلم بالعمل فيؤتى التعليم أكله . ولذا نرجو أن تتجه عناية الحكومات إلى إنشاء ملاعب للصغار فهذا منتهى أملهم وغاية رجائهم .

ولكن الطفل لايستطيع أن يجد الملعب واللعب كما يريد ، فلا يحقق إذن آماله ورجاءه ولذلك ينتحى ناحية أخرى تكمل ذلك النقص فيصغى إلى القصص والحكايات الخرافية ويجد فيها أيضا شيئا يشتهيه ، وهو بث الحياة فى الجماد واعطاء الحيوان القدرة على التحدث والكلام بل والتفكير والتدبير . ويجد الطفل فى القصص الكثير من الحوادث والمعانى التى تهدىء من نفسه وتوازن بين ما يريد وبين ما يريد الواقع ، وعدم التوازن من شأنه أن يسبب له بعض الضيق .

يرتاح الطفل جدا لهذه القصص ويفنى فى سماعها . وجدير بنا أن نطعم القصص ببعض الأغنيات (الترنيمات) البسيطة السهلة ذات النغم العذب الذى يستهوى الطفل ويلذ للطفل جدا أن يردد ما حفظه من الترنيمات عندما يجلس إلى نفسه وحيدا أو عندما يسير فى الطريق من الروضة إلى البيت . ويحس كأنها أنيس لطيف المعشر .

* * *

هذا ، وإذا تأملنا سلوك الطفل فى هذه المرحلة ، (وفى السابقة كذلك) وإذا لاحظنا معاملته للغير نصطدم بحقيقة أنه معاند مكابر صلب الرأى خداع لنفسه ولغيره متسلط على غيره ، وبالجملة فإنه يظهر بمظهر لا يبعث الطمأنينة والرضا فى نفس من يحيطون به . ولعل السبب فى ذلك راجع إلى أمرين :

(أ) إهمالنا التام لبعض جوانب نموه .

(ب) تدخلنا التعسفى فى نموه

وهكذا نرى أن ما يظهر من الطفل من ظواهر لانرضاها لادخل له فيها لأن طبيعته خيرة ، وإنما سببها سوء تعارف من عندياتنا ، موقف خاطىء من جانبنا أدى إلى كل هذا السلوك المرذول . وثمة سبب آخر لهذا السلوك هو جهل الطفل وعدم تقديره للعواقب تقديرا صحيحا ، فقد يعمل شيئا لايرى فيه أى بأس ومع ذلك فإن فيه ضررا لغيره ، ولنفسه وهنا لادخل لطبيعته فيما عمل . فمثلا يلقى الطفل بالحجارة متخذا نافذة زجاجية هدفا له ، وهو هنا لايدرى أى ضرر سيصيب أصحاب الدار ، عندما ترتطم الحجارة بالنافذة فتحطمها محدثة صوتا يفيق الطفل إلى نفسه ويولى هاربا ، فهو هنا كف عن العمل السيء عندما عرف مغبته . وللأسف الشديد ينظر البعض (من قصيرى النظر) إلى عمل الطفل هنا على أنه دليل الشر ، فيحكمون على أساس نتيجة العمل فحسب ولا يبحثون فى الدوافع والأسباب .

ألا ما أظلم الإنسان لأخيه الإنسان !!

فى رياض الأطفال

أولا : الدين

الغرض من الدين وتعليمه أن يفهم الإنسان علاقته بربه الذى خلقه حتى تكون العلاقة بين الخالق والمخلوق علاقة أمن وسلام . ويعمل تعليم الدين فى سبيل هذه الغاية فيبصر الإنسان بالقوة الإلهية المهيمنة على الكون ويعرفه بأنه من الله وإليه يعود فيجب أن يتجه صوبه ويخضع لأوامره ونواهيه ، حتى لايتعارض سلوكه مع السنن الإلهية . ويؤدى تعليم الدين إلى إلمام الفرد بواجباته نحو ربه ونحو غيره من الناس ونحو نفسه . ويشعر الدين الفرد بأنه جزء من مجموعة ، متحد مع أفرادها وهذه الوحدة من إرادة الله الخالق الأعظم .

عندما يدرك الإنسان العلاقة بينه وبين الله وأنه منه وإليه يؤوب . عندما يحس بأنه لايستطيع إلا أن يكون معتمدا على الله يكل إليه أموره وأحواله ، حينئذ يرفع رأسه إلى السماء وينطق من أعماق قلبه بايمان مفعم «الله مولاى» .

وعلى الإنسان أن يقدر هذه الروح التى نفحه الله إياها وأنها سر حياته وكيانه، وهنا يستطيع أن يحقق الغرض من وجوده وخلقه ويستطيع أن يبلغ غاية مقصده فيحقق الوحدة مع المجموع ويعمل لصالح فرديته ويحسن العلاقة بينه وبين غيره ، هذا الهدف المثلث الجوانب هو أساس كل التربية الدينية ، بل هو مفتاح تربية الفرد تربية صحيحة فيوجه نظره إلى الوحدة والانسجام فى الطبيعة ويعمل لخيره ونفعه كفرد وكجزء فى مجموعة يتأثر بها وتتأثر به .

ولنعمل منذ البداية على أن يخاف الطفل من الله ، ومن الله فقط ، فلا يهاب الأوهام والخرافات التى تتسلط على عقول الكثيرين من الكبار فيخضعون لها

ويعيشون مقيدين بهذه الأغلال الخفية ، ثم يتجهون إليها لقضاء حوائجهم تاركين صاحب الأمر والنهى ومن بيده كل شيء .

علينا أن نتبع كل هذا حتى يحس الطفل منذ صغره بوجود الله وقدرته جل جلاله . وقد لايستطيع أن يصب إحساسه فى ألفاظ وتعبيرات تشرح بدقة وجهة نظره، ولكن يكفى أن يدرك ، وعندما يكبر يستطيع أن يعلن أفكاره فى جلاء ووضوح .

ثانيا : مشاهد الطبيعة والرياضيات

تعبر الطبيعة عما يقول به الدين ، وتؤكد فى مظاهرها الخارجية ذلك الإعجاب الذى نحس به عندما نتأمل قدرة الله ، بل إنها تحقق ما يتطلبه الدين . فالطبيعة تفصح فى مظهرها الخارجى عن قدرة الله المتأصلة فيها والتى هى أساسها ومنبتها .

وطالما أن كل مشاهد الطبيعة متحدة فى أساسها فهى تكون وحدة وكلها خاضعة لقانون أبدى أزلى ، ونحن معشر البشر نخضع لهذا القانون أيضا ، فنحن والطبيعة ندين بالولاء والخضوع لقانون أزلى واحد ،

وسنقارن العلاقة بين الله والطبيعة بالعلاقة بين الفنان وعمله :

١- نجد أن فكرة وإحساس الفنان يظهران للعين الخبيرة فى إنتاجه . كذلك تظهر القدرة الإلهية فى الطبيعة .

٢- نتاج عمل الفنان يثبت وجوده وكذلك الطبيعة وما فيها تثبت وجود الله .

٣- كما أن روح الفنان تكمن فى عمله ويمكن للعمل أن يعرف بها فإن قدرة الله تكمن فى الطبيعة وتتمكن ظواهرها من تعريف الخلق بها .

٤- لايشتمل عمل الفنان على جزء مادى من جسمه ، وكذلك لاتشتمل الطبيعة على جزء مادى من (جسم الله) ، بل تتجلى قدرة الله فى الطبيعة لمساعدتها على البقاء والنمو .

ويأمل الفنان أن تكون صورته أو التمثال الذى صنعه من نصيب شخص يقدره ويقدر المجهود الذى بذل فيه والفن الذى اشتمل عليه .

ومهما درس الأطفال أنواعا عدة من النباتات وشاهدوا الاختلافات الظاهرية واضحة ، فإنهم لاشك سيجدون عاملا مشتركا بينها ، ذلك هو الطاقة الحيوية . ولابد للطاقة الحيوية من أن تنبع من طاقة حيوية وتنتج حياة . وهذه الطاقة تلقائية بالضرورة فتتجه إلى كل الجهات وتتناسب قوتها مع القوة التى تعارضها بحيث تعمل على حفظ وحماية الكائن . وإلى جانب هذه القوة الحيوية نجد الجسم المادى الذى يتخذ أشكالا مختلفة متباينة . وهذا الجسم المادى مرتبط ومتحد مع الطاقة الحيوية ولا يمكن فصلها . وعندما تنبعث الطاقة تتجه فى اتجاهات مختلفة مكونة (مع الأجسام المادية) شكلا دائريا كالكرة . فالشكل الكروى هو الشكل البدائى والنهائى لكل الأشياء فى الطبيعة كالشمس والكواكب .

يجب إذن أن يرى الطفل الطبيعة منذ البداية على أنها كل حى عظيم خلقه الله ويجب أن يراها كما هى وأن يطمئن إلى أنها تنمو من الداخل ، من نفسها . ويسأل الأطفال أسئلة كثيرة تدور كلها حول مظاهر الطبيعة . ولو حللت هذه الأسئلة لخرجنا منها برغبة الطفل فى الكشف عن الوحدة الموجودة بين كل هذه المظاهر المختلفة . ومن الضرورى أن نربط الحقائق بعضها ببعض حتى يحس الطفل بالوحدة واضحة جلية . وجدير بنا أن نوجه نظر الطفل إلى تأثير الشمس فى الكائنات وتأثر الكائنات بها كما يتأثر الطفل الصغير بحنان وعطف الوالدين ، فالوالدان ضروريان للطفل وكذا الشمس بالنسبة للكائنات الحية .

علينا أن نمد الأطفال بكل الفرص التى تمكنهم من ملاحظة التشابه والاختلاف وعليهم أن يدرسوا ذلك ، ولا يجب أن تقف المصطلحات العلمية أو الأسماء الفنية عقبة فى سبيل عملنا . فالمهم أن يلاحظ الطفل ثم يستنبط ويستخرج الملاحظات

بنفسه دع أسئلة الأطفال توجهك فإذا فشلت فى الإجابة عن سؤال ، وكثيرا ما يسأل الأطفال أسئلة لايمكننا الاجابة عنها ، فقارن نفسك بما حولك وكلف طفلك بتقليدك، وفى الغالب ستصلان إلى الإجابة .

إن معرفة الطبيعة والالمام بالغرض من أى شىء يبدأ بفهم علاقاته مع ما يحيط به ، فلابد للطفل إذن من دراسة الأشياء فى علاقاتها الطبيعية بعضها ببعض حتى يستطيع أن يدرك حقيقتها ، فمثلا يبدأ الدرس بسؤال الأطفال عما يرونه فى الحجرة ومم تتكون الحجرة (جدران وسقف وأرضية ... إلخ) ثم يسأل بعد ذلك عن علاقة هذه الحجرة بحجرات البيت (أو المدرسة) ، وهل كل المنازل بهذا الشكل ، ثم فوائد المنازل (وقد تتكلم هنا عن أساس البيت وارتباط قطع الأساس بعضها ببعض) . ويتقدم الطفل فيبين أنواع الأبنية وكيف أن ذلك التنوع ضرورى ولازم لأن لكل بناء وظيفته وأن القرية تشتمل على أنواع عدة من البنايات . ويجدر بنا هنا ذكر حقيقة لامراء فيها وهى أن الجغرافيا ومشاهد الطبيعة يجب أن تكون بدايتها بالبيئة المحلية.

ثالثا : اللغة

تعمل اللغة على توضيح الوحدة وسط الاختلاف وكشف الرابطة الداخلية التى تربط كل الأشياء . فالدين والطبيعة واللغة ، بالرغم من وجود العلاقات المختلفة بينها ، لها غرض واحد هو توضيح الداخل عن طريق المظاهر الخارجية ثم خلق الانسجام بين الداخلى والخارجى . ولا شك أن هذه المواد الثلاث : الدين والطبيعة واللغة ، تعمل لخير الفرد حتى يوازن بين مطالبه وميوله وبين سلوكه الخارجى وقيود المجتمع . ولهذا فلابد أن تدرس باتساق وانسجام فلا ندرس مادتين ونترك الثالثة .

ننظر إلى اللغة على أنها إفصاح عن الداخل ، فاللغة تعبر عن دخيلة الشخص . ودور اللغة خطير لأن دخيلة الشخص فى حركة دائبة النشاط والحيوية ، وهى بذلك تعبر عن تعامله .

لكن التعبير الخارجى يمضى بمضى لحظته ، وقد يذكر الفرد فكرة أو حركة لوقت معين ثم تحتويها زوايا النسيان ، وهنا هدى الله الإنسان إلى الكتابة كى يستطيع بها أن يحافظ على خبراته بل ويستطيع أن يحتفظ بخبرات الآخرين أيضا فلا تتحكم أمام سلطان النسيان . وعبر الإنسان قديما عن أفكاره فى كتابة كانت الصور عمادها ثم استطاع بعد لأى أن يستبدلها بالحروف الهجائية . ولما كانت الكتابة هى التعبير (التحريري) عن دخيلة الإنسان ، فيجب على المعلمين أن يزودوا أطفالهم بالأفكار والمعانى والإحساسات النبيلة .

يتعلم الإنسان القراءة والكتابة ، وبهذين السلاحين يتفوق على جميع الكائنات الحية ويقترب من تحقيق غرضه ، وعن طريقهما يكون الفرد لنفسه شخصية تختلف عن شخصيات الآخرين . ويعلم الفرد مبادىء القراءة والكتابة فى الروضة وهى ذلك المكان الذى أعد وهيىء ليساعد الطفل فى الوصول إلى هدفه .

رابعا : الفن

بينا أن اللغة تعبير خارجى عن الداخل ، ولكن ذلك التعبير يشوبه عنصر نقص فهو ليس كاملا شاملا ، وهنا يأتى دور الفن ليكمل هذا النقص . وإذا كانت كل الأفكار البشرية متصلة مترابطة فإننا نجد أن الفن وطيد الصلة بالرياضيات وباللغة وبالطبيعة وكذلك بالدين . ومع ذلك فعندما نحكم على الإنتاج الفنى نترك كل هذه العلاقات ونركز أنفسنا فى نظرتنا إلى الفن على أنه الوحدة النهائية التى يعبر فيها عن الداخل . ويجب أن نذكر أن التعبير عن الحياة الداخلية للفرد فى إنتاجه الفنى تبعا للمادة المستعملة .

هذه المادة قد تكون قابلة لإصدار نغم ، وقد تكون خطوطا مرئية وأسطحا مختلفة وألوانا عدة . فالفن الذى يظهر على شكل أنغام هو الموسيقى والأغانى ، أما

ذلك الذى يظهر فى الألوان فهو التلوين ، وهذا الذى تستعمل فيه مواد مرنة قابلة للتشكل يسمى بعمل النماذج . والنوعان الأخيران مرتبطان بالرسم وهو تعبير عن طريق الخطوط .

ويجدر بنا أن تهتم الروضة الأولى بالغناء والرسم والتكوين وعمل النماذج ، وليس الغرض خلق فنانين ولكن توضيح ناحية من نواحى النشاط البشرى وتقدير الجمال فى الطبيعة .

فلسفة فروبل التربوية

سيطرت فكرتان على تفكير فروبل التربوى هما : مثالية غامضة وحب أكيد للأطفال والطفولة .

ومما لاجدال فيه أن فترة الطفولة تثير الشوق والفهم ، ويرى فروبل أنه لايوجد شىء أمتع من الاتصال القريب بالأطفال . ويجد الكبار متعة ولذة عندما يراقبون سلوك الأطفال الساذج الطريف ولذا فإن الكبير الذى لايتأثر بهذا السلوك تنظر إليه على أنه شاذ .

وفرق واضح بين أن نمضى ساعة بين الأطفال وبين أن نكرس كل حياتنا لمراقبتهم وتعليمهم فنصحح الأخطاء ونرشد إلى الصواب ونبث أطيب العادات . وقد اتهم الناس من يتعاملون مع الأطفال تهمة خطيرة فاستنتجوا أن من يتعامل مع الصغار يضيق أفقه ويحدد تفكيره ونظرته إلى الحياة ، وقد أخافت هذه الفكرة الكثيرين ممن يتعاملون معهم ، غير أن تعاليم وفلسفة فروبل قضت على هذه التهمة لأن آراءه ارتفعت بالمربين إلى مستوى أرقى من مجرد النزول إلى الطفل بل إنها قد سهلت عليهم الكثير من المشاكل التى تصادفهم فى عملهم النبيل .

يتكلم فروبل عن التطور أو النمو وكيفية تكوينه ، وهو لايقصد النمو من حيث الكم أو الزيادة العددية بل الزيادة فى تعقد التكوين والتحسن فى القوة والمقدرة والمهارة ، وفى تنوع مظاهر الوظائف الطبيعية وكيف أن هذه تنتج عن طريق الممارسة والمران ، مران الشىء نفسه ، أو ما نطلق عليه اسم النشاط الذاتى ، ويصر فروبل على أن يحدد للممارسة وقتا محددا بحيث تنسجم مع طبيعة الشىء .

ويرى فروبل أن الحياة والنمو إن هما إلا تطور تقدمى من الدركات السفلى إلى العليا للكائن الحى ، وأن نمو الأفراد يمثل إلى حد بعيد نمو الجماعة الإنسانية فى مراحل التاريخ ، وأن المراس الوظيفى للكائن من شأنه أن يجعل عملية النمو تستمر ، كما أن أنعدام المراس من شأنه أن يوقفها أو يحطمها . ويرى تشابها فى نمو الكائنات الحية مما دعاه إلى القول بأنها خاضعة كلها لقانون أزلى أبدى يهيمن عليها وهو خالقها .

وعندما تكلم عن الصغار وصفهم بأنهم طبيعيون بسطاء وجاهر بأن الطبيعة البشرية منزهة عن الشر وأنها لاتحيد عن جادة الصواب . وقد دفعه هذا الاعتقاد إلى الجهر بضرورة استغلال قدرات الطفل الطبيعية وامكانياته فيدرس المواد المختلفة ليتأتى له النمو المتزن ، بدليل أنه صرح بأن تعليم الطفل الرسم لن يخلق منه فنانا وحفظه بعض الأغانى الخفيفة والأناشيد لن يخلق منه موسيقيا ، ولكن هدفنا الأسمى إتاحة الفرصة للطفل لينمو نموا طبيعيا هادئا كما أراده الله . ولهذا فلا يجب علينا أن نحمل الطفل على اتيان عمل لم ينبع منه تلقائيا أو وجدنا تبرما منه واحجاما عنه لأنه ضد طبيعته وبعيد عن فطرته .

ولا يتفق فروبل مع روسو الذى قال بابعاد الطفل عن غيره كما أنه لايسمح بترك الطفل لنفسه وسط غيره من الأطفال ، ولكنه يؤكد ضرورة الإشراف عليه والتأكد من أنه يوجد وسط ظروف ملائمة مناسبة . أما هؤلاء الذين يشرفون عليه فلا بد أن تكون لهم من المعلومات والخبرات ما يسمح لهم بتوجيه الصغار ومساعدتهم . بهذا

يعمل فروبل على تحرير الطفل من النزعات الشريرة ومواطن الزلل ، وبعده ليكون مرشد نفسه ويكون ذلك بتحريره منذ حداثته من الخضوع للقوانين الجائرة الخاطئة والقيادة السقيمة العقيمة .

ويتكلم فروبل فى كتابه «تربية الإنسان» عن هذا القانون الأبدى الأزلى الذى يتحكم فى كل شىء ويرى أنه يعبر عن نفسه فى مظهرين : مظهر خارجى وهو الطبيعة ومظهر داخلى هو الروح . وهو يرى أن الله يسيطر على كل شىء وتتشكل مظاهر الطبيعة بأمره وتخضع له وتوجد بإذنه فهو فيها وهى منه ، يخلقها كيف شاء ولكن الطبيعة ليست جسم الله . ويوجد عامل مشترك بين كل الكائنات هو ذلك القانون الإلهى وهو أساس حياتها أو ما يمكن أن نطلق عليه اسم فردية الشىء . وفردية الشىء أو فردية الشخص هى التى نرنو إليها بأبصارنا ساعين كى تعبر عن نفسها لكى تنمو نموا صحيحا ، ويكون ذلك عن طريق مظاهر سلوكها الخارجى ونشاطها الحر الذى تعبر فيه عن مكنوناتها وما يعتمل فيها .

فعندما أقول انتى أربى شخصا ، فمعنى ذلك : أننى أوقظ هذا الشخص من سباته وأعامله على أنه كائن يفكر ذكى يشعر بما يعمل ، وأنا أهيىء له الفرص المواتية لينفذ ما يريد وما تمليه عليه مشاعره الداخلية دون أن أتعرض له بما يحد من نشاطه الحر أو أكبت فيه هذه الرغبة التلقائية الملحة .

فبالتربية والتعليم يستطيع الإنسان الافصاح عن نفسه لخير نفسه وإلى مسالمة الطبيعة وتأكيد المودة بينه وبين الله . ويرفعه التعليم إلى درجة يستطيع فيها أن يعرف نفسه وغيره ويرفعه إلى حياة نقية طاهرة منزهة عن أدران الرذيلة .

وطالما أن التربية تسمح لإمكانات الطفل بالتعبير ولقدراته بالإفصاح عن نفسها وتهيىء له البيئة والظروف المناسبة للنمو الصحيح دون إلقاء العثرات والعقبات فى

الطريق ، فإنه مما لاشك فيه أن اختلاف الأطفال فى مستويات تحصيلهم العلمى مرده إلى عوامل داخلية فطرية لا اتصال لها بالتربية ذاتها . هذه الفروق الموجودة بين الأطفال واضحة لدرجة أننا نستطيع بغير كثير من العناء ملاحظتها عند الصغار . لذا فمن الواجب أن نعامل كل طفل حسب امكاناته فلا يصبغ الأطفال كلهم بصبغة واحدة ويخضعون لظروف متماثلة وتعليم واحد لأن الاختلاف بين الأفراد عامل فعال ، آثاره عنيفة قوية لا يمكن تجاهلها أو التغاضى عنها ، وهذا الاختلاف ليس صناعيا أو مكتسبا يمكن تغييره أو محوه بل هو أساسى فطرى عميق الجذور لايمكن اجتثاثه .

ويقول فروبل إن الطفل طفل لا لأنه فى سن معين أو لأنه لم يصل بعد إلى سن معين ، ولكن لأنه يحيا بصدق بما تمليه عليه نظرته وما تتطلبه طبيعته (نفسه وجسمه وعقله) ، والشاب شاب لأنه عاش بنفس الصدق فى طفولته حتى استنفد مطالبها وانتقل إلى مرحلة أخرى تتطلب أشياء أخرى . والرجل رجل لا لأنه وصل إلى سن معين فاستحق هذا النعت ولكن لأن ما تطلبته فطرته وطبيعته فى طفولته وحداثته ومراهقته وشبابه قد حصلت عليه فعلا وهى الآن تتطلب منه معايير أخرى ومستويات خاصة جديرة بمرحلة الرجولة واكتمال النمو .

وليست هذه المراحل منفصلة بعضها عن بعض ولكنها تكون نموا منسجما متصلا فى ارتباط بديع يؤدى كل طور إلى الذى يليه وتعتمد كل مرحلة على ما سبقها من المراحل . وهذا الاتصال والترابط بين أطوار النمو المختلفة له صدى فى المواد التى يدرسها الطفل ، فإن كل مادة دراسية لها معنى وقيمة بالنسبة لغيرها من المواد . ويوجد هنالك ارتباط آخر بين مختلف أنواع النشاط النفسى كالإدراك والإحساس والإرادة ، وهذا الترابط يسمح لها بأن تعمل ككل منسجم منظم .

لدينا إذن نوعان من الترابط :

(أ) المواد الدراسية .

(ب) مختلف أنواع النشاط النفسي .

سنطلق على النوع الأول اسم «**الترابط الخارجي**» ، وعلى الثاني اسم «**الترابط الداخلي**» . وعلينا هنا أن نعمل على الربط بين الخارجي والداخلي . فإن ما يعرفه الطفل فعلا وأصبح أمرا داخليا يجب أن يرتبط بما يتعلمه أي بما هو خارجي، أي ترتبط رغبته (الداخلية) للنشاط وأفكاره وإحساساته وإرادته بما يعمله خارجيا وهذا ما يعبر عنه فروبل بعبارة «جعل الداخلي خارجيا» أو «الخلق والابتكار».

وينصب لب نظرية فروبل على أن الطفل منذ وجوده في العالم يخضع لقوى الطبيعة والكائنات الحية وغير الحية والبشرية عموما . وتسيطر وتوجه قدرة الله هذه القوى ، ويبلغ ظهورها أقصاه في البشرية . وجسم الطفل يربطه بالكائنات والطبيعة والبشرية ، أما قلبه وعقله فيربطانه ويجعلانه عضوا في الجسم الأكبر وهو الإنسانية في الماضي والحاضر والمستقبل . ويعتمد كيانه كله وروحه على الله ومنه يستمد قوته ونشاطه وحيويته . وما دام الأمر كذلك فيجب على الطفل أن ينمو تحت تأثير الطبيعة، ففيها سيجد الظروف الملائمة التي تمكنه من تعلم القوانين التي تتحكم في كل الكائنات، ويرى أنها تجاهد للوصول إلى درجة الكمال ويلم بالقوانين التي تؤثر فيه، ثم يستنتج عن طريق عمليات الاستقراء الكثيرة أن القوانين الموجودة في الطبيعة والتي تتحكم فيه أيضا يمكن أن ترجع كلها في مختلف مظاهرها إلى قانون واحد . فالطفل بذلك يضم - بادراك واسع وبصيرة عريضة - ما يلوح لنا أنه لا ارتباط فيه أو أنه متعارض . فعندما يحنو الطفل على الطيور والدواجن يضع بذلك البذور الأولى للمستقبل ، حين يأتي الوقت الذي يحنو فيه على الكائنات البشرية ويشعر أن أفرادها أخوته . كما أنه بدراسته لمظاهر الطبيعة المختلفة كما هي وتقليده لبعض عناصرها سيصل إلى محبة الله وأنه الخالق الأعظم القادر المتحكم المهيمن على الطبيعة وما فيها، فهو حينئذ يستنشق نسيم السلام الذي يسود الطبيعة وكل ما يتصل بها قبل أن تلج جلبة الدنيا وضوضاؤها أبواب نفسه وقبل أن تعرف الرذيلة طريقا إليه .

ويرى فروبل أن الوسائل التى تستخدمها الطبيعة لتنمية جسم الطفل هى تحريك أعضائه ، ولذا فهو ينصح بأن تمرن الأطراف دائما ولكن فى غير إسراف مقيت أو افراط مجهد . ولابد أن يقوم بهذا التمرين شخص له خبرة ودراية بتركيبها التشريحى وطريقة حركتها . ولعل أهم أداة عند الإنسان هى اليد ، فلنعمل إذن على أن تستخدم وأن تمرن حاسة اللمس بعناية حتى تؤتى ما ينتظر منها ، ويتدرج فروبل بعد ذلك قائلا أن أهم غرائز الطفولة هى غريزة الحل والتركيب وهى تقليد فى بدايتها ثم تتطور إلى شىء من الإبداع والابتكار ولو أن هذا ليس نقيا تماما . وما دام الأمر كذلك فلنعمل على تشجيع هذه الغريزة وتهيئة المجال لها للتنفيس والظهور فى الصور التى ترضينا وترضيه . أما العين فإنها تسر فى البداية عندما ترى الألوان ويتبع ذلك ابتهاج لرؤية الأشكال ، ولذا فيجب أن نعتنى أولا بالألوان ثم بالأشكال . وتأتى بعد ذلك الأذن ومجال ابتهاجها هو الأصوات ، ولذا فيجب أن نساعد حاسة السمع على النمو عن طريق الأغانى والموسيقى .

ونلاحظ رغبة ملحة من الطفل لمعرفة الأشياء وحب الاطلاع عليها ، وهذه الرغبة ككل حاجة طبيعية يجب أن تشجع وألا تخمد ، فنسمح له بالقاء الأسئلة ويجب أن نحترس هنا ، فلا بد من التأكد من أن هذه النزعة تلقائية وليست صناعية مفتعلة ناتجة عن دوافع خارجية لا اتصال لها بطبيعته الفطرية . ويجب أن نضع أمام أنظاره أشياء بينها أوجه تشابه أو أوجه اختلاف حتى يستطيع الوصول إلى أسس التشابه أو عناصر الاختلاف ، والواجب علينا أن نعاونه على المقارنة وخاصة إذا كانت فى ظروفها الطبيعية لأننا بذلك ننمى قدرته على الانتباه والملاحظة .

وقد أدت ملاحظة فروبل ودراسته لطبيعة الطفل إلى الخروج بالسمات المميزة للطفولة ، وهذه جذبت انتباهه فعكف على دراستها . هذه السمات المميزة تلخص فى رغبة الطفل الفطرية للنشاط أو ما تواطأنا على تسميته باسم «اللعب» وينصح فروبل المربين باستخدام اللعب فى التعليم ، وكانت هذه السمات المميزة هى الوحى الذى ألهمه الفكرة الكبرى ، فضرب هذا العبقرى ضربته الرائعة التى تمخضت عن تنظيم اللعب فى رياض الأطفال . ونستطيع عن طريق استخدام اللعب أن نبث فى الطفل المبادىء والأفكار التعليمية فى أشكالها البدائية البسيطة فيمكننا أن نهيىء له لعبا للأطراف أو أغانى ساذجة أو ألعابا للحل والتركيب أو المقارنة .

وقد نجح فروبل نجاحا بعيد الشأن فى جمع هذه اللعب وتنظيمها تنظيما يدل على مهارة كبيرة ، وأطلق على هذه الألعاب اسم «الهدايا» . وينصح فروبل باختيار الألعاب والأغانى بعناية قبل أن تعرض على الأطفال . وأضاف فروبل إلى ذلك عمل الأطفال فى فلاحة البساتين ، وقد جعلت الطبيعة منه عملا مثيرا مثمرا . ويرى أن عمل الأطفال متعاونين يقربهم بعضهم من بعض ويؤدى إلى تآخيهم وتحابهم ، ومن حبهم لأقرانهم ينمو حبهم لله فلا يعصون له أمرا .

بعض كتابات فروبل

- F. Froebel on H. Pestalozzi : Letter to the princesse- regen. of Schwarzburg-Rudolstadt. (Yverdun, 1809) .
- To our German People (Written to Keilhau, 1820) .
- Principles, Aim and Inner Life of the Universal German Educational institute at keilhau (1821) .
- On German Education (1822).
- Report Continued on the Universal German Educational Institute at keilhau (With a plan of study for the year 1828-1829) .
- Christmas Festivals at the Institute in Keilhau (1816-24) .
- The Education of Man, (Keilhau 1826) .
- Letter to the Duke of Meiningen, (1827) .
- Letter to Krause , (1828) .
- The Family Journal of Education (Keilhau 1829) .
- Plan Drawn up by Froebel and His Friends for the Institute at Helba, (1829) .
- The New year, 1836, Demands a Renewal of Life, (1836)

- Sunday Journal, (1838).

- Mutter and Kose-Lieder (Songs for Mothers and Nursery Songs 1843).

- The Weekly journal of Education, (1850).

- A Journal for Friedrich Froebel's Educational Aims, (1951-52).


الفصل السادس
ماريا
منتسورى

الفصل السادس

منتسوري

* هذه الفتاة الجميلة الجريئة .
* هذا الفتى الذئب .
* هذه الطبيبة جذبتها التربية .
* هذه البيوت للأطفال .
* هذه الركائز الأساسية .
* هذا الطفل نريده .
* هذه الطريقة المنتسورية .

مدام منتسورى

إيطاليا

أرض وعرة ولكن فيها سهولا عديدة جدا ، تقتحم مياه البحر المتوسط فى ثبات وصمود ، فيما يشبه الساق الضخمة تحوطها بعض الجزر . وفى شمالها جبال شاهقة ، تكاد تحميها من رياح باردة تهب عليها شتاء ، والشمس تحنو أياما غير قليلة من العام، فيدلف الدفء إلى الأوصال مثيرا رغبات ، ومثيرا أحيانا سرعة انفعالات .

روما

مدينة التلال السبع . كانت عاصمة واحدة من أعتى الامبراطوريات التى عرفها التاريخ ، وكانت مصر مزرعة لها ، تمدها بالقمح ، هندسة معمارية فائقة ، وكل الطرق توصل إلى روما .

ولم تكن إيطاليا التى عاشت فيها منتسورى ذات امبراطورية ، ولكنها كانت تحاول أن تجد لها مكانا يستعيد مجد الماضى .

ودخلت هذه الفتاة الإيطالية جامعة روما ، وكان حدثا محل أحاديث تناولها زملاؤها الطلاب بكثير من التعليقات والإشارات والهمسات . ودار كل هذا فى عالم من الرجال الذين تعجبهم هذه الجرأة المتحدية من فتاة اقتحمت عليهم دنياهم . وضعت فى طريقها العراقيل الكثيرة ، فإذا بإرادة داخلية قوية لم تثنها عن عزمها فتخطت العراقيل ، وكأنها فترة حساسة انبثقت فى مراحل نموها ... فنجحت .

هذه الفتاة الجميلة الجريئة

ولدت ماريا منتسوري عام ١٨٧٠ م ، وكان أبوها من رجال السيف ثم ترك الجيش ليعمل موظفا مسئولا عن الشئون المالية لإحدى شركات الدخان . وكانت أمها سيدة مثقفة ومتدينة ، أخذت ماريا عنها حب التثقف والإرادة الصلبة ، والتى أدت بها إلى أن تعارض أباها فى تخير مستقبلها ، إذ كان يريدها أن تكون معلمة فرفضت ، وكانت وظيفة التدريس بالنسبة للإناث هى الوظيفة الأكثر قبولا فى المجتمع .

ولكن هذه الفتاة التى اصطبغت بشرتها بحرارة الشمس ، كانت تتطلع إلى أمور أخرى بعد أن أعجبت بالرياضيات وحل المسائل المستعصية . ونفذت رغبتها عندما التحقت بجامعة روما ، لتكون مهندسة فبدأت دراسة الرياضيات والفيزياء والعلوم الطبيعية ، واجتذبها علم الأحياء (البيولوجى) واستحوذ على تفكيرها ، فتركت فكرة الهندسة إلى دراسة الطب . ولم يوافق أبوها لا على الهندسة ولا على الطب ... ومع ذلك فكان يصحبها يوميا فى ذهابها إلى الجامعة، ويعود ليأخذها إلى البيت ، إذ لم يكن أمرا مقبولا أو مأمونا أن تسير فتاة جميلة بمفردها ، وكانت ماريا رائعة الجمال.

وكان الجو فى مدرسة الطب بجامعة روما ملبدا بسحب التعقيدات والعقبات التى توضع أمام هذه الجريئة الجسورة ، التى دخلت قلعة الرجال الذين خافوا من هذا الاتجاه ، فتركوها ، فانعزلت ، فصممت أكثر لا على مجرد النجاح ، بل التفوق كذلك . وكان لها ما أرادت بعد أن هدأ غضب الطلبة إثر تخصصها فى السنتين الأخيرتين فى طب الأطفال . وهنا سكت الرجال . وجلست إلى الامتحان النهائى وفاقت زملاءها وكانت من بين أوائل الدفعة التى تخرجت عام ١٨٩٦ .

وعملت ماريا كمتطوعة فى العيادة النفسية بمدرسة الطب ، وكان عليها أن تزور المصحات العقلية ، لتخير بعض الحالات من المرضى ليعالجوا فى تلك العيادة . وكان

اهتمامها الأول منصبا على المرضى من الأطفال . ودفع الاتجاه العلمى ماريا منتسورى إلى دراسة مجهودات السابقين الذين اهتموا بالأطفال فقرأت عن بستالوتزى وفروبل ، وقرأت لهما ما كتباه من مؤلفات . وتتحول حياة منتسورى إلى التركيز على الأطفال والطفولة ، وتأثر فكرها بعالمين فرنسيين ، هما : جان ايتارد Jean Itard ، وادوارد سيجوان Edouard Seguin وكان لهما أثر واضح فى آراء ونظريات منتسورى.

هذا الفتى الذئب

كان منطلقا جريئا عندما فاجأ جان ايتارد [1] الأوساط العلمية باهتمامه بفتى وجد فى غابة أفيرون بفرنسا ، كان يعيش وسط الذئاب ، وكان واحدا منها . دفع التحدى الطبيب ايتارد إلى رغبة قوية فى أن يعلم هذا الفتى الذئب بعد أن انتزعه من (قبيلته) وأسماه فيكتور . كان فيكتور ضعيف البصر جدا ، ولا يكاد يسمع إلا بصعوبة ، ومع ذلك فقد تحدى ايتارد زملاءه من العلماء ، فأعلن أن فيكتور قابل للتعلم .

أسس ايتارد نظريته فى تعليم فيكتور على :

١ - ملاحظة السلوك .

٢ - اعتبار الحواس هى المنافذ التى تؤدى إلى نمو العقل .

ولم يدر هذا الفتى الذئب أن اسمه سيخلد فى تاريخ التربية وعلم النفس ونظريات التربية . ولم يعلم ان اسمه ستذكره ماريا منتسورى كثيرا ، وسيؤثر على تفكير جان بياجيه السويسرى الذى اهتم أساسا بملاحظة سلوك الأطفال كما فعل ايتارد كما أن منتسورى اهتمت بصورة واضحة بتربية الحواس عند الصغار .

(1) Robert F. Biehler, Psychology Applied to Teaching, 2nd Ed. Houghton Mifflin Co., Boston, U.S.A. 1974, p. 131

أما العالم الفرنسى الثانى وهو إدوارد سيجوان .. فكان أيضا طبيبا ، تتلمذ على ايتارد وشاركه فى أبحاثه وتجاربه على الطفل الذئب . وفى رأيه أن الضعف العقلى مسألة تربوية أكثر منها طبية ، وقد ابتكر مجموعة من التدريبات المتدرجة لتساعد فى التنمية الحركية عند الأطفال المتخلفين عقليا . وتأثرت ماريا منتسورى بفكرته عن أهمية التدريب المتدرج فى تعليم الأطفال .

ومن الجدير بالذكر أن أفكار كل من ايتارد وسيجوان كانت متأثرة بآراء جان جاك روسو ، وهو أيضا فرنسى ، والذى اعتقد بضرورة الاهتمام بكل حواس الطفل كأدوات تستخدم فى تعلمه . كما رأى ان مفتاح التعلم يكمن داخل كل طفل ، وأن تكون بداية التعلم بالمحسوسات ، أى يتعلم الطفل مستخدما حواسه فيرى ويلمس مثلا ، قبل أن يعرف الرموز مثل الأرقام ..

وهكذا كانت طريقة تعليم فيكتور الفتى الذئب .

هذه الطبيبة جذبتها التربية

قرأت ماريا منتسورى الكتاب الذى كتبه ايتارد عن فيكتور واسمه «فتى أفيرون المتوحش» ، وأعجبها ، ثم مدت يديها تلتقط كتبا فى التربية وعلم النفس لتقرأها بعناية ، واستمعت بإنصات وتفكير إلى محاضرات فى هذين الميدانين . ثم تتلمذت على يد أستاذ فى علم الأجناس (الأنتروبولوجى) ، وتعلمت منه كما تقول أصول البحث العلمى . وتقول أيضا إنه أقنعها بأهمية البيئة المدرسية فى تكوين شخصية الفرد ، وامتد نشاطها الأكاديمى فشمل دراسة الفلسفة . وهكذا تنقلت ماريا منتسورى بين ديار المعرفة ، حاملة من كل دار كثيرا من الأفكار ، اعتملت فى عقلها وانطلقت ..

وفى عام ١٩٠٠ م تولت ماريا إدارة مدرسة تجريبية خاصة بالأطفال المتخلفين عقليا ، وكان عددهم ٢٢ طفلا . وقد أتيحت لها أول فرصة - فى تلك المدرسة - لاستخدام أدوات تدريب الحواس التى ابتكرها ايتارد وسيجوان ، بل إنها عدلت فيها لتستخدمها كما يتراءى لها ، وصممت ونفذت مجموعة من الأدوات التعليمية ، مبنية على أفكارهما .

يتحدث يان Yahn بن نينهويس Nienhuis فيقول ... كانت الدكتورة تذهب إلى والدى الذى يصنع لها الأدوات التعليمية التى تطلبها ، وتحدد مواصفاتها بكل دقة ... كانت عصبية تكثر من الأوامر ومتشددة وملحة فى طلباتها ، مما أرهق صحة والدي، ولكنه كان فخورا ومقتنعا بعملها ، وبما تحاول أن تصل إليه ، وكانت سعادتها بالغة جدا عندما يتمم أبى أداة تعليمية صنعها بيديه وطابقت مواصفاتها .

ومات الأب بعد أن أسس شركة لصنع أدوات منتسورى التعليمية وورثها ابنه يان واتسع نطاق أعمال الشركة التى توجد الآن فى هولندا .

كرست ماريا كل وقتها للاثنين والعشرين طفلا فى تلك المدرسة التجريبية ، وغيرت من الطريقة المتبعة ، وأعدت مجموعة من التمرينات والتدريبات ، بحيث يعطى كل طفل واحدا منها ويتدرب عليه تحت إشرافها حتى يتقن مهارة ما . وقد نبعت تلك التمرينات بعد ملاحظة منتسورى الدقيقة والمنظمة لسلوك الأطفال ، والتعرف على حاجاتهم الفردية .

وظهر النجاح واضحا ... إن هؤلاء الأطفال الذين استبعدهم المجتمع لأنهم غير قادرين على التعلم ، وبالتالى لايمكنهم إنتاج ما ينفعهم أو ينفع غيرهم ، أي أنهم عالة على المجتمع ... بدأوا يظهرون قدرة على العمل المنتج .

كانت قنبلة دوت فى العالم التربوى ، بل زلزالا جبارا هز كثيرا من الأفكار التقليدية كانت صيحات الطبيبة الإيطالية تدوى ، وفرحتها لاتوصف ، وكلما

الدنيا تزغرد لها ، فإن ما حدث صعب التصديق ... هؤلاء الأطفال المتخلفون عقليا - وبصبر منتسوري وأدواتها التعليمية - استطاعوا أن ينجحوا في نفس الامتحان الذي عقد لهم وللأطفال الأسوياء ... كانوا سواء بسواء ، إن شريحة من المجتمع استبعدت فإذا بها تعود إلى المجتمع منتجة . لقد وضعت منتسوري علامات استفهام كبيرة أمام تعبير (الطفل العادي) أو (الطفل السوي) ، وكان سيجوان قد سبقها في وضع مثل تلك العلامات .

وهكذا .. دخلت الطبيبة عالم التربية من أوسع الأبواب وبدأ اسمها يتردد ، فإن ماحققته من نجاح أشعل حماس الآخرين ، كما أثار تشكك البعض من القلة . وتساءلت الوافدة إلى الحقل التربوي ... لماذا لاتتبع هذه الطريقة مع الأطفال العاديين ؟ ... كان هذا التساؤل نابعا من يقينها بإمكانية تطبيق طريقتها على غير المتخلفين عقليا ، وإنها يمكن أن تحقق نتائج هائلة ، كان تساؤلها بداية التنفيذ ، وتركت عملها مع المتخلفين إلى دنيا الأسوياء .

قالت منتسوري ... «بعد أن تركت مدرسة المتخلفين صرت مقتنعة بأن تطبيق طريقتي على الأطفال الأسوياء سوف تنمي وتحرر شخصياتهم بصورة رائعة ومذهلة ... إن ايمانا جبارا كان يدفعني ، وعلى الرغم من أنني لم أكن واثقة من إمكانية اختبار أفكاري ... إلا أنني تركت كل مشاغلي ، وكرست كل وقتي لتعميق وتوسيع هذه الأفكار ... وكأنما كنت أعد نفسي لمهمة غير معلومة»[1] .

وعادت ماريا إلى الدراسة وجلست طالبة أمام أساتذتها في التربية وعلم النفس، وفي ذات الوقت بدأت تكتب ... وانتشرت كتبها ، وهي تمضي في طريقها إلى ذلك العالم المجهول الذي بدأ الخيط الأبيض فيه يتميز في وضوح عن الخيط الأسود .

إنه ميلاد مفكرة في التربية ، بوضع اسمها الآن بجوار من قرأت لهم وعنهم .

(2) Maria Montessori, The Montessori Method, Schocken Books, New York, 1964, p 33

هذه البيوت للأطفال

التاريخ : ١٩٠٧ المكان زقاق فى حى سان لورنزو الفقير - بمدينة روما .

أعطيت ماريا منتسورى مكانا جمعت فيه أطفالا أسوياء ، تطبق عليهم أفكارها بناء على رغبة وجهت إليها من أمهات عاملات ، كن يتركن أطفالهن فى الأزقة المجاورة حيث يتعرضون لما لايجب أن يتعرض له الطفل ، مما يسىء إلى تكوينه الأخلاقى والجسمى والانفعالى .

سمت منتسورى هذا المكان (بيت الأطفال) Casa dei Bambini وأنقذ الصغار من شارع الفساد ، بل إنه حولهم إلى تلاميذ أثبتوا جدارتهم فى المدارس التى دخلوها فيما بعد .

وبيت الأطفال يعتبر بيئة أعدت خصيصا لهم ولحسن تنشئتهم وتربيتهم ، وهو محاولة للاقتراب من البيت الذى تعيش فيه أسرة متوسطة المستوى اقتصاديا . ويتكون من حجرات ، ويفضل أن تكون له حديقة يلجأ إليها الصغار يلعبون ويحركون أجسامهم بحرية ، وربما يرسمون أو يستريحون فى فترة نوم قصيرة تحت شجرة ظليلة تحميهم وهج الشمس ، أو تحت مظلة تقيهم ماء المطر .

وفى داخل البيت توجد حجرة كبيرة ، هى مركز للأنشطة العقلية التى أعدتها منتسورى بعناية . ويحيط بهذه الحجرة حجرات صغيرة ودورات مياه ، ولكل حجرة فائدة أو وظيفة كالراحة والرسم والتمرينات الرياضية والأعمال اليدوية الخفيفة . والأمر الملفت للنظر بحق هذا الاتجاه الذى نرى أنه (فى ذلك الوقت) ثورى فى العملية التربوية التى تقدم للأطفال قبل المدرسة ، ذلك هو الأثاث المستخدم ، والذى يتناسب مع أحجام الأطفال ، خفيف الوزن ، مطلى بدهان فاتح اللون ، يقبل أن يغسل بالماء والصابون . تأتى المناضد فى أشكال مختلفة ، منها المستدير ومنها المثلث والمستطيل والمربع ،

وكلها يسهل تحريكها كما يسهل تحريك الكراسى . وعلى جدران الحجرة - فى ارتفاع منخفض - توجد سبورات تتناسب مع قامة الأطفال الذين يجدون فى دورات المياه أيضا الأحواض والصنابير فى متناول أيديهم ، وقد صنع كل الأثاث والأدوات فى البيت خصيصا لتتناسب مع أحجام الأطفال .

فى مقارنة بين هذا الأثاث وبين ما هو معهود .. كتب أن الأطفال يعيشون فى بيوتنا كالأقزام أو كالأفراد العاديين فى أرض العمالقة . الطفل الصغير يجلس على الكرسى مثل الذى يجلس عليه والده ، ومنضدة الطعام واحدة ، والشوكة والسكينة والملعقة هى هى ... فى حين أن يد الطفل الصغيرة الناعمة أصغر بكثير من يد والده، ويصعد الطفل سلم البيت كما يصعد الكبير ... وفرق واضح بين أطوال السيقان [1] .

شيدت عبقرية ماريا منتسورى للطفل عالمه المحدد ، وهى تخطو إلى العالم المجهول على حد تعبيرها . ونركز قليلا على ما أسمته حجرة العمل Working Room ... بالحجرة قطعتان ضروريتان من الأثاث : الأولى خزانة (دولاب) منخفض الارتفاع ، بحيث يمكن للطفل أن يضع على سطحه بعض الأشياء الصغيرة كالزهور أو المفارش ... إلخ ، وللخزانة أبواب يسهل فتحها وغلقها ، وبداخلها مجموعة من الأرفف . تستخدم هذه الخزانة لحفظ المواد التعليمية وهى خاصة بكل الأطفال .

القطعة الثانية من الأثاث تحوى مجموعة أدراج صغيرة الحجم ، لكل منها مقبض بلون جميل مخالف للون الدرج ، وعلى كل درج بطاقة عليها اسم أحد الأطفال، ولكل طفل درج يضع به أشياء تخصه .

على الحوائط - وعلى ارتفاع منخفض - توجد السبورات التى يمكن للأطفال الرسم عليها ، كما توجد لوحات لمناظر طبيعية أو فاكهة ، أو صور أطفال أو بعض الزهور...إلخ . ومن الضرورى وجود زهور طبيعية أو نباتات فى الحجرة .

(١) سعد مرسى أحمد . سيكلوجية الطفل . دار الفكر العربى . القاهرة . ١٩٥ المقدمة

فى مكان آخر بحجرة العمل .. توجد قطع من السجاد بألوان مختلفة منها الأحمر والأزرق والأخضر والبنى . يفرش الأطفال هذه القطع على الأرض ليجلسوا عليها عند استعمالهم المواد التعليمية المختلفة ، ومن المفضل أن تكون حجرة العمل هذه متسعة نوعا ، حتى تتاح الفرصة لترتيب المناضد والكراسى ، ولإتاحة مكان فسيح لفرش السجاد واستخدام المواد التعليمية .

وننتقل إلى حجرة أخرى فى بيت الأطفال يطلق عليها (النادى) Club-room أو حجرة الجلوس Sitting-room ، وفيها من التجهيزات والإمكانات الكثيرة ما يتفق مع الحالة الاقتصادية (للمدرسة) ، عادة يوجد بها بعض الكراسى المريحة والمناضد التى يمكن للأطفال الجلوس إليها والمشاركة فى بعض الألعاب الجماعية ، أو الالتفاف حول المرشدة ، وهى تقص عليهم قصة ... تجمل هذه الحجرة ببعض الصور والرسوم والأزهار ... ويعطى كل طفل مسئولية العناية بأصيص زرع عليه أن يرعاه ويباشره لينمو ويزدهر ... بالنادى أيضا بعض الأدوات الموسيقية البسيطة المناسبة لسن الأطفال .

أما حجرة الطعام .. فتحوى - إلى جانب المناضد والكراسى - بعض الخزانات لحفظ أدوات المائدة المختلفة ، والمفارش والفوط ... إلخ .

وفى حجرة الملابس .. توجد خزانات صغيرة يضع فيها الأطفال ملابسهم (فيخصص لكل طفل خزانة أو رف) وهناك بعض المشاجب لتعليق الملابس الخارجية كالمعطف أو غطاء الرأس ... إلخ . وملحق بهذه الحجرة مجموعة أحواض وأدوات ومواد الحمام من صابون وفراجين .

وتتوفر فى البيت أدوات ومواد التنظيف المختلفة ، لأن الأطفال يقومون بكنس الأرضيات ، وتلميع الأثاث . وتنظيف السجاد ، وترتيب الخزانات ، وغسل بعض الفوط والمفارش الصغيرة [1] .

---

(١) هذا ما كان موجودا فى الماضى فى بيوت الأطفال ، وهو موجود أحيانا فى دول أو مجتمعات أو أحياء تستطيع تدبير كل هذا

سابقا كان هناك ما يسمى لعبة بيت العرائس ، وهو مكان محدود جدا صغير الحجم جدا ،يحوى كل ما بالبيت العادى ولكن فى أحجام صغيرة ، أعطت منتسورى الطفل الفرصة ليعيش فى بيئة معدة خصيصا له ، ما يعمله أو، ما يجب أن يعمله فى بيته ، لا أن يتعامل مع مصغرات للأدوات والأثاث، كما كان شائعا فى بيت العرائس.

. . . . . .

. . . . . .

وجاءت الوفود إلى سان لورينزو لترى النشاط الهادىء فى صمت الأطفال فى حركة دائبة ، والهدوء يسود المكان . كل طفل يعمل ، ولا جلبة ولا ضوضاء . أية معجزة هذه التى تحققها من كانت طبيبة ، فأصبحت أول من تزامل فلاسفة وعباقرة التربية فى العالم ، قديمه ووسيطه وحديثه ..

هذه الركائز الأساسية

حيث لاتكون كرامة لنبى فى وطنه .

هكذا شاء قدر ماريا منتسورى .. فقد تزايدت الوفود إلى بيوت الأطفال ، وعادت مثقلة بالأمانى والأفكار .

تساءل بنيتو موسولينى فى حماسة انفعالية كانت جديرة بالدوتشى (أى الزعيم القائد) عن هذه التى تعمل بتربية الأطفال . وكان زعيما له أطماع سياسية ، ويحلم بإمبراطورية تمتد كما امتدت الإمبراطورية الرومانية قديما . انبهر للإنجاز التربوى فى تنشئة الأطفال على يد تلك السيدة التى استهوتها التربية . فأخذتها بعيدة عن المهنة الطبية ... لم تقبل منتسورى تعديلات أو تجريحات فى طريقتها لتنشىء أطفالا ينمون ويؤكدون فاشية موسولينى ، حدث هذا بعد أن طوفت ماريا بأنحاء متفرقة من العالم ، مبشرة بطريقتها فى إيمان الواثقين وجدية العارفين .. فما طريقتها ؟

العصارة المركزة لما كتبته منتسوري ونادت به تلخص في عبارة قصيرة لها ، معان طويلة واسعة وعميقة (حرية الطفل في بيئة معدة له) معنى ذلك في تحليل قصير :

الاعتراف بأن الأطفال ليسوا متساوين في رغباتهم وقدراتهم

- أن المشرفين عليهم يتدخلون بقدر محدود في أعمالهم .
- أن واجب المشرفين تهيئة الظروف المناسبة للأطفال في نموهم .

أن هذا النمو يتطلب متطلبات معينة تبعا للتطور البيلوجي للطفل .

- انهماك الطفل في عمل يرضيه ويسعده من شأنه ألا يتدخل في أعمال غيره من الأطفال .
- استغراق الطفل في عمل يهمه وينجح فيه ، أمر له دلالة محببة عنده .
- من يشرفون أو يشرفن على الطفل يجب أن تتوفر فيهم صفات معينة ، تتطلب بالضرورة إعدادا تربويا ونفسيا معينين .
- ضرورة وجود أدوات أو أجهزة تعليمية ذات مواصفات خاصة ، تعتبر من مستلزمات البيئة المعدة .
- البيئة المعدة تعنى ما يجب توافره من إمكانات بشرية ومادية متنوعة ، حتى يمكن أن تتاح للطفل مواقف غزيرة وثرية يمر فيها ... أي خبرات .

كل هذا .. يمكن أن يضع القارىء أمام ثلاثة اتجاهات رئيسية هي اللبنات الأساسية في تفكير منتسوري التربوى : طبيعة الطفل - مكان التعلم - من يشرف على الطفل . وقد لاحظت منتسوري الأطفال ودرستهم عن كثب ، وعرفت عنهم غير القليل، أما عن مكان التعلم .. فقد أعدت لهم ما يلزمهم إعدادا صالحا جدا لتكوينهم المتكامل كأفراد . والنقطة الثالثة الخاصة بمن يشرف على هؤلاء الأطفال ، فقد كانت قاسية وحريصة كل الحرص على النوعية من المرشدات الصالحات للتعامل مع الأطفال .

وكان لها ما يمكن أن نطلق عليه معهد إعداد المرشدات ، الذى يمنح دبلوما فى طريقتها - وكانت تطلب من الملتحقات التدريب والممارسة الفعلية فى بيوت الأطفال مدة سنتين.

بهذه الركائز الثلاث ، وهى : طبيعة الطفل ، البيئة المعدة ، إعداد المرشدات ، تكتمل حلقة الفكر المنتسورى عن العمل فى بيوت الأطفال .

مزيد من الضوء على الركائز الثلاث السابقة .

أولا : طبيعة الطفل

(أ) هو كائن بشرى يولد مكتشفا ، منذ أن تقع عيناه على الأحياء والأشياء ، يريد أن يستكشف ليعرف . هو عالم عجيب وغريب يتفتح تدريجيا أمامه . كل شىء فيه مثير . الأصوات ، الحركات ، الساعة التى تدق ، الحذاء ، الملعقة ، أخوه الأكبر منه ، العقد الذى يتدلى من رقبة والدته ... الشارب الذى يكسو وجه أبيه... بل أصابع قدمه هو . الباب يقفل ويفتح ، الحجرة مظلمة ثم مضاءة . فى يد الأم مروحة تهزها فنسيم يداعب وجهه ... ويشعر بالبرد فإذا بشىء يغطيه فيشعر بالدفء ... أسرار لا نهاية لها ، وكلها تثير . وعيناه الواسعتان تحاولان فهم هذا الذى يوجد ويدور حوله ، لقد خلقه الله محبا لاكتشاف أسرار هذا العالم الذى وجد نفسه فيه . وتدريجيا .. عندما يبدأ اكتساب اللغة يتحرق شوقا لمعرفة أسماء الأشخاص والأشياء بعد أن عرف اسمه ، وكان ذلك اكتشافا عظيما ، فله كيانه وله جسمه وله اسمه .

وهو يود أن يعرف العلاقة بينه وبين غيره ، وبين الأشياء بعضها والبعض الآخر ... وقد أعدت ماريا منتسورى أدوات تعليمية تشبع هذه الرغبة الاستكشافية عند الطفل ، ولم يكن هذا النهج معروفا فى أساليب التعامل مع الأطفال فيما قبل ، ويرى بعض المفكرين أن منتسورى كشفت عن رغبة الطفل فى الكشف

والاستكشاف ، فأصبح الطفل هو الذى يكتشف وكانت (المدرسة) هى التى تكتشف له . كما أن منتسورى حررت الأطفال من قيود الجلسة المعينة على مقاعد ثابتة ، فتحركت أجسامهم وتحررت عقولهم فانطلقوا يستكشفون بأنفسهم، تقول منتسورى ... «كلما أخذنا على عاتقنا نحن الكبار عمل شىء نيابة عن الأطفال ، وكان المفروض أن يفعلوه هم ، فإننا بهذا لانساعدهم ... بل نعرقل نموهم» [1] .

(ب) تعال معنا ندخل أحد بيوت الأطفال ، ولتكن خطواتنا هادئة ، وأفواهنا مقفولة ، وعيوننا شاخصة ، وآذاننا مرهفة ... كل شىء هادىء ... كل طفل مستغرق تماما فى عمله . الجسم والتفكير منهمكان كأنما لكل طفل عالمه الخاص الذى أخذه بعيدا عن العالم الكبير . إنه يخرج مجموعة أشكال اسطوانية ويرتبها ، ثم يعيدها إلى الصندوق ، ويكرر هذا العمل مرات قد تصل إلى أكثر من عشرين مرة، وهو فى حالة اندماج كامل . والملاحظ هنا :

- لم يكلف أحد الطفل بهذا العمل .
- إنه سلوك تلقائى فيه سعادة له .
- لايهم الطفل ماذا يفعل طفل آخر .
- المعلمة تلاحظ من بعيد ما يدور فى تلك الحجرة التى تضم عددا ، قد يصل إلى ثلاثين طفلا .

السر يكمن فى عدة عوامل ، أهمها الطاقة العقلية التلقائية للطفل . وتعتمد منتسورى على هذه العقلية التلقائية فى طريقتها فى تربية الأطفال ، مؤمنة بأن

(1) E.M. Standing. The Montessori Method, A Revolution in Education The Academy Library Guild, California U.S.A 1962. p 11

استخدام هذه الطاقة التلقائية يؤدى إلى تكوين حصيلة معرفية منظمة عند الطفل.

وتنمو هذه التلقائية نموا طبيعيا ، مارة بمراحل حددتها منتسورى . وهى مراحل ذات حساسية معينة ، ولذلك أطلقت عليها الفترات الحساسة The Senstive Periods ، وتلفت منتسورى نظر العالم إلى إن الطفل يندفع تلقائيا فى فترات معينة ومحددة إلى عمل ما ، يستشعر داخليا رغبة عارمة فى القيام به ، بمعنى أن عند مرور الطفل بفترة حساسة ما تتولد لديه رغبة داخلية ملحة للقيام بنشاط عقلى أو جسمى من تلقاء نفسه ، يفرحه أن يقوم به دون أى دافع خارجى . بل إن استغراق الطفل فى العمل لمدة زمنية غير قليلة خلال تلك الفترات شكك فيما كان يقال عن منحنيات التعب فى التعلم : وإن الطفل يشعر بالإرهاق والملل بعد فترة ويحب أن يستريح . لكن طفل منتسورى كغيره من الأطفال يكرر العمل عشرين وثلاثين مرة دون تعب أو ملل ، ذلك لأن هذا العمل يتناسب مع الفترة الحساسة التى يعيشها الطفل : والتى يمكن أن ينتج خلالها أفضل وأروع إنتاج ، وأن يتعلم كل ما يتعلق بهذا العمل ، بأسرع وقت ممكن وبأفضل نتائج متوقعة .

ولا يمكن استثارة فترة حساسة معينة بمثير خارجى ، وإنما هى تنبثق من داخله. هى كالوهج شديد الإضاءة ، تدفع الطفل إلى عمل تتطلبه هذه الفترة ... وتزول. ومن الغريب إن علماء النفس المهتمين بالنمو المعرفى ذكروا حديثا إنه فى السنوات الستة الاولى يجب أن يتعلم الطفل كيف يتعلم ، وأنه يصعب تعلمه ذلك بعد سن السادسة .

ولكل فترة من تلك الفترات الحساسة مطالب متميزة عن غيرها من الفترات ، وتظهر فى أنواع النشاط التى يريد الطفل ممارستها ، مع ملاحظة تداخل هذه الفترات ، وأنها تتفاوت من طفل إلى آخر

وفيما يلى تحديد لهذه الفترات كما ارتأتها منتسورى ، والأعمال أو السمات التى يتميز بها الطفل فى كل منها .

- **من الميلاد إلى ثلاث سنوات**

* عقلية استيعابية
* خبرات تأتى عن طريق الحواس .

- **من سنة ونصف إلى ثلاث سنوات**

* نمو اللغة .

- **من سنة ونصف إلى أربع سنوات .**

* النمو العضلى والتناسق بين العضلات .
* الاهتمام بالأشياء الصغيرة .

- **من سنتين إلى أربع سنوات**

* تحسين الحركات الجسمية .
* الاهتمام بمعنى الحقيقة والصدق .
* إدراك النظام والتتابع فى الوقت والأمكنة .

- **من سنتين ونصف إلى ست سنوات**

* تحسن فى الإدراك الحسى .

- **من ثلاث سنوات إلى ست سنوات**

* التأثر بنفوذ الكبار .

- **من ثلاث سنوات ونصف إلى أربع سنوات ونصف**

* التهيؤ للكتابة

- من أربع سنوات إلى أربع سنوات ونصف .

* الإحساس اللمسى .

- من أربع سنوات ونصف إلى خمس سنوات ونصف .

* التهيؤ للقراءة .

ولنأخذ مثالا عن إحدى هذه الفترات الحساسة والتى تنمو فيها اللغة ، حيث إن هذه الفترة تفصح عن نفسها بوضوح كامل، يتمثل فى القدرة الفائقة للأطفال فى هذه الفترة من عمرهم على الاستماع إلى أصوات الكلمات وتقليدها . وفى هذه الفترة.. تكون قدرة الطفل على تعلم اللغة كبيرة جدا للدرجة التى تمكنه من تعلم أكثر من لغة فى وقت واحد بدون مجهود كبير ، ولن يستطيع مرة أخرى - فى مرحلة نمو تالية - أن يلتقط وينطق الكلمات بهذه الإجادة وتلك السهولة . وكأن بكل طفل وعاء ضخما ، يجب أن يملأ بالكلمات والتعبيرات سواء كانت لغته الأصلية أو لغة أجنبية ، بل إنه أحيانا يخترع كلمات لامعنى لها ، إذ أن الوعاء محتاج إلى أن تصب فيه كلمات جديدة . ويرى ستاندنج Standing أنه يمكن للطفل تعلم لغة أجنبية إلى جانب لغته الأصلية ، دون مشقة تذكر ، بل دون أن يلاحظ هو ذلك [1] .

(جـ) تكلمنا عن رأى منتسورى فى طبيعة الطفل ، وعرضنا لموضوعى الاستكشاف والتلقائية ، والموضوع الثالث فى طبيعة الطفل هو فى اختلاف نظرة الطفل عن الكبير فى العمل ، حيث يهتم الكبير أساسا بنتائج العمل ، أما الطفل فإن دافعا قويا ينبثق من لاشعوره ، ومتضمن فى أعماق شخصيته يدفعه إلى النشاط والعمل ، ولا يستهدف بالضرورة تحقيق نتائج معينة . فالأمر إذن أن الطفل يعمل إرضاء لرغبة ملحة متأججة صادرة من أعماقه تدفعه إلى العمل

---

(1) E. M. Standing, Op. Cit., p. 39

انها حاجة بيولوجية هى التى تدفع الطفل إلى هذا النشاط والعمل ، ولابد أن يعمل حتى يكفى تلك الحاجة ما تريد ، وهنا يشعر بالراحة والسعادة . كالظمآن أو الجائع .. لابد من إرضاء حاجة حيوية ، وإلا يظل الفرد فى حالة توتر . إن أكثر ما يؤلم الطفل ألا تشبع حاجاته البيولوجية ودوافعه ، فإن استمرار حالات من التوتر سوف تسبب له كثيراً من المتاعب فيما بعد ، يكون الطفل هنا نفسه ليكون الرجل فى المستقبل سواء من ناحية التكوين العضلى أو النفسى أو العقلى ... إلخ . إن الطفل يكرر عملا ما عشرات المرات لا انتظارا للنتيجة ، ولكن إشباعا لرغبته فى العمل . وتطلق منتسورى على هذا تعبير النشاط الذاتى الابتكارى للطفل ، كما يعبر عنه فروبل أيضا «بالنشاط الذاتى» .

ثانيا : البيئة المعدة أو المهيأة

ترى منتسورى أن الطفل يستوعب كثيراً من البيئة المحيطة به لا شعوريا ، ولهذا فإن الأمر يتطلب بالضرورة إعداد بيئة صالحة يعيش فيها الطفل داخل بيت الأطفال ، وتتضمن هذه البيئة عددا وافرا من الأدوات التعليمية التى يتعامل الأطفال معها منفسين عن حاجاتهم ودوافعهم الداخلية ، وقد سبقت الإشارة إلى مناسبة أحجام الأثاث لأحجام الأطفال ، بل وتتميز قطع الأثاث بالجمال والخفة فى الوزن وسهولة الحركة. كما أنها ذات ألوان جميلة فاتحة حتى إذا ما اتسخ جزء منها بوضع الطفل يده مثلا عليها ، إذا لم تكن نظيفة ، فإنه يشعر بالخطأ وسرعان ما يزيله .

أحست منتسورى بأن الدافعية الذاتية هى مفتاح التعلم المثمر . ويأتى الطفل أولا محتلا مكان الصدارة فى العملية التربوية ، ثم يأتى المنهج وغيره فيما بعد . ويركز المنهج المنتسورى على سيطرة الطفل على نفسه وعلى البيئة المحيطة به ، وقد صممت الأدوات التعليمية لتحقيق هذه السيطرة ، ولتتيح لكل طفل النمو حسب قدراته وإمكاناته ... إذن فالبيئة المعدة أو المهيأة يقصد بها مكان ، يتعرض فيه الطفل لما يؤدى إلى نموه العقلى والجسمى والنفسى بصورة مطلوبة ومقبولة

وتؤكد منتسورى على موقف المعلمات فى هذه البيئة المعدة ، فلا يجب أن يكن عقبات أمام النمو المتكامل للطفل فلا يتدخلن إلا عند الضرورة . وتترك للطفل الحرية فى التعامل مع الأدوات التعليمية ، فيتخير منها ما يشاء فى أى وقت ولأية مدة .

ولا يتصور القارىء أن العمل فى بيت الأطفال فردى فقط ، فهناك أعمال يشترك فيها مجموعة من الأطفال فى تعاون بعيد عن التنافس . وهناك احترام للبيئة وللأفراد الموجودين فيها .

ويحقق الطفل ذاته من خلال تعامله مع الأفراد والأدوات فى هذه البيئة المتسمة بالحرية غير المطلقة .

ثالثا : المعلمة

التى تتعامل مع الأطفال لاتحب مدام منتسورى أن تسميها (مدرسة) أو (معلمة) ، وإنما تطلق عليها اسم مرشدة Directress ، ومعناها المسئولة التى ترشد وتوجه الأطفال ، ولكنها لاتدرس لهم ، ولا تبين لهم أنهم اخطأوا . ويعرف كل طفل أنه إذا نجح فى عمل ما فهذا لايعنى بالضرورة أن المرشدة ستفرح وإنما هو الذى سيسعد . وهذه المعلمة «المرشدة» لاتقف أمام الأطفال تدرس لهم ، وإنما هى بعيدة عنهم فى المسافة ، ولكنها مع كل واحد قريبة ، ولا يجب على الأطفال أن يلتفوا حولها إلا فى ظروف قليلة معينة.

وتعد المعلمة كما بينا سابقا إعدادا خاصا للعمل فى بيوت الأطفال ، وقد ذهبت منتسورى إلى لشبونة وإلى بريطانيا وإلى هولندا وإلى الهند وإلى أمريكا ... وألقت محاضرات فى خمسة وثلاثين برنامجا تدريبيا دوليا ، وأنشأت معاهد لتخريج معلمات بيوت الأطفال . والأمر المهم فى برامج إعداد هؤلاء المعلمات أنهن يتعلمن أصول الدور الذى سيلعبنه فى بيوت الأطفال ، فالمعلمة همزة وصل بين الطفل والبيئة المعدة . وفى

مسار إعدادها .. تؤمن بأهمية الأعمال التى ستناط بها ، وتعد داخليا للتعامل مع الصغار ، بادئة بالتخلص من العيوب أو نواحى النقص فى شخصيتها .... وتنصح منتسورى معلمات المستقبل أن «تبدأ كل واحدة أولا فتقتلع الجذع فى عينيها ، حتى تستطيع أن ترى بوضوح كيف تزيل القذى (القشة) من عين الطفل ....»[1] .

الأمر المهم أيضا تكوين الاتجاه السليم عند المعلمة ، أكثر من الاهتمام بالتدريب على مهارات آلية فى التعامل مع الأطفال ، أى التركيب على روح العمل وليس ميكانيكياته أو آلياته ، على النظرة الثاقبة العميقة لا على القشور السطحية الهزيلة. إن أعماق الطفل تحفزه إلى النشاط والعمل ، والأهم هو تلك الأعماق ، والأقل أهمية جدا هى نتائج الأعمال . عندما تفهم المعلمة أن الخطأ فى النتائج لايعنى كثيرا فهى لن تركز على تصحيحه إلا عند الضرورة ، وهى لن تفعل هذا إلا بعد أن تقتنع وتؤمن فى أعماقها بمعنى سلوك ونشاط الطفل ، وهذا ما تدرسه وتتدرب عليه لمدة سنتين .

تتطلب طريقة منتسورى أن تتدرب المعلمة على ملاحظة الأطفال واكتشاف حاجاتهم وميولهم ، وأن تميز بين نزوات الأطفال وطاقاتهم التلقائية .... وبناء على قدرتها على هذا التمييز .. تستطيع أن تلاحظ بوعى وأن توجه بحكمة . ولكن ... يجب على المعلمة ألا تقصر دورها على الملاحظة ، بل أن تتعدى ذلك إلى التجريب ، فكل لقاء مع الأطفال هو (تجربة) فى تربية الطفل ، يمكن للمعلمة أن تستخلص منها نتائج مهمة ، ترتبط بعملها فى تربية وتنشئة الأطفال فى مرحلة ما قبل المدرسة .

وتحاول المعلمة أن يتصف لقاؤها بالأطفال بخصائص ثلاثة : أن يكون اللقاء قصيرا ، وبسيطا ، موضوعيا ...

(1) Maria Montessori The Secret of Childhood, Notre Dame Indiana, Fides Pub Inc, 1966, P. 182

هذا الطفل نريده

في ختام محاضرة ألقتها ماريا منتسوري في الهند قالت ... «ساعدنا يا الله ، حتى ندلف إلى أسرار الطفولة ، حتى يمكننا أن نعرف الأطفال ونحبهم ونخدمهم متمثلين بقوانين عدالتك السماوية ومتبعين مشيئتك المقدسة» [1] .

لماذا يجب علينا أن نعرف الطفل ونحبه ونخدمه ؟ المعرفة والحب يؤديان منطقيا إلى فهم سليم للطفل والطفولة ، وبالتالي إلى محاولة مساعدته أو خدمته ، أي إلى حسن تنشئته ليكون مواطنا يعرف ماله من حقوق وما عليه من واجبات . ولذلك ... فإن هناك مواصفات وسلوكيات ، ارتأت منتسوري ضرورة تكوينها عند الصغار في بيوت الأطفال ، هي :

أولا : الاستقلال والاعتماد على النفس

أن يكتسب الطفل الاستقلالية والاعتماد على النفس أمر جد مهم في تطور نموه. وهذا الاستقلال والاعتماد على النفس يتغير في طبيعته مع مراحل نمو الطفل ، ويشترك كل الأطفال في حاجاتهم وعزمهم على التمتع بالاستقلال والاعتماد على النفس ، فهم يتوقون إلى أن يعملوا لأنفسهم وبأنفسهم ما يعلمه الكبار لهم . إن الاستقلالية جزء أساسي في نمو الأطفال ، وهي الهدف النهائي لطريقة منتسوري التي تعتمد على خطوات متصلة ومتتابعة ، في تقدم مؤد إلى السيطرة الذاتية والاستقلال الوظيفي .

(1) Maria Montessori The Absorbent Mind, Dell Pub Co. New York, 1967, p. 286

ولا يمكن للفرد أن يكون حرا مالم يكن مستقلا ، ومن يحتاج أن تؤدى له الخدمات لايتمتع بالاستقلال ، إن كثرة اعتماد الأطفال على الكبار ينزلهم من على ظهر حصان الاستقلال الذى ينقلهم عبر مراحل النمو السليم ، بل مالنا نخنق أنشطتهم التلقائية المفيدة .

إن الطفل الذى لايعمل لن يعرف كيف يعمل ، يظن البعض أن وضع الطعام فى فم الطفل ، وإدخال قدمه فى الحذاء ، وإلباسه الملابس ... إلخ عمليات صعبة ومرهقة ، ولكنهم لايعلمون أن الأصعب هو تعليمه كيف يأكل . وكيف يلبس ، وكيف ينظف نفسه ... إلخ

وتتسع دائرة الاستقلال والاعتماد على النفس مع تطور نمو الطفل ، فكلما نما كانت حاجته أكثر إلى مزيد من الاستقلال والاعتماد على نفسه . ويبدأ أول استقلال يتمتع به الطفل عندما يخرج من رحم أمه ويصبح مواجها العالم ، ثم يفطم فلا يكون ثدى الأم هو مصدر غذائه فقط ، وبذلك ينال استقلالا ثانيا ، ثم يتعلم الكلام فيستقل ليعبر بنفسه عما يريد ، ثم يمشى فيتخطى بذلك مرحلة مهمة فى طريق الاستقلال ، ومازال هذا الطريق ممتدا ويقطع فيه الطفل أشواطا وأشواطا وهو يطوى السنوات طيا .

وعلى الكبار المحيطين بالطفل سواء فى البيت أو فى المدرسة احترام رغبة هذا الصغير ومحاولته الدائبة نحو الاستقلال . فلكى ينمو الطفل ويصبح شخصية متكاملة بمعنى الكلمة ، لابد أن يتعلم أن يفكر ، وأن يشعر ، وأن يختار ، وأن يقرر ، وباختصار أن يتصرف بنفسه ولنفسه .

ثانيا : الطاعة

لعل القارىء الكريم يذكر زيارتنا القصيرة الهادئة لأحد بيوت الأطفال ، ويذكر أننا كنا نرهف السمع ونعجب بهذا السكون ، بينما الأطفال فى أعمال مختلفة استغرقوا فيها ... ولعله يعجب أيضا بهذا الترتيب والتنظيم فى البيت الذى يربى فيه الطفل مع تواجد العشرات من الأطفال ، وإذا لاحت لك أيها الزائر فرصة .. فسوف تجد المرشدات مبتسمات ، والنفوس مستريحة عند الكبار والصغار ، لأن كل شيء هادىء فى بيت الأطفال .

الكلمة السحرية هنا هى «الطاعة» ، أى إن الأطفال يطيعون تعليمات وتوجيهات معينة ، وهم يحبون أن يطيعوها . وهم سعداء بهذه الطاعة ، وكانت ماريا منتسورى تطير فرحا بتلك الطاعة، فلا غرو.. فإن الطاعة مكون أساسى فى بيت أطفال منتسورى ، ومن المفيد أن نعلم سويا كيف تتكون هذه الفضيلة عند الأطفال ، وقد دعت الأديان السماوية إلى الطاعة ... طاعة الله عز وجل، وطاعة أولى الأمر ، وطاعة الوالدين ... وفى دول نامية وغير نامية أحيانا تلطم طاعة القوانين ويعبث بها ، فإما يكون رفضا أو تحايلا أو... فإذا توصلنا إلى معرفة كيف ينمو هذا السلوك التقدمى ، أى الطاعة عند الأطفال .. فإننا نتمكن من مساعدتهم البلوغ غاية نموهم الطبيعى .

والطاعة لاتتكون تلقائيا عند الأطفال ، بل هم يتعلمونها تدريجيا مع نمو قدراتهم على التفكير وفهم العلاقات ، فلا يطيع الطفل إلا إذا تمشت الأوامر مع إحدى رغباته الحيوية . وإذا لم يكن الطفل قادرا على طاعة إرادته هو .. فلن يطيع رغبات إرادة شخص آخر . وقد عهدنا أن يرتكز النظام فى المدارس على التهديد والوعيد ، وبهذا يصبح الطفل غير المطيع شريرا ، والطفل المطيع هو إنسان محمود الأخلاق ... فى نظرنا . معنى هذا أن إرادة الطفل يجب أن تنحى جانبا ، وإرادة الكبير هى التى يكون لها الكلمة العليا . وهذا خطأ كبير ... أن نعتقد أن إرادة فرد ما يجب أن تكسر قبل أن يطيع ... أى لكى يطيع .

الطاعة إذن تنمو مع صفات أخرى فى شخصية الطفل ، وهى مرتبطة بنمو الإرادة ، ولا نتوقع من الطفل الصغير أن تكون لديه فى هذا السن المبكر الإرادة على ضبط سلوكه بدوافع داخلية ، وإنما هى فى بداية مراحل تكوينها ، وتتهذب وتتشذب مع وجوده فى بيئة تنشيئية صالحة . **للطاعة مستويات :**

(أ) فى المستوى الأول يطيع الطفل أحيانا ... ولكن ليس دائما .

(ب) فى المستوى الثانى يمكن للطفل أن يطيع دائما .

(جـ) فى المستوى الثالث يمكن للطفل - عن جدارة - أن يستوعب ويقدر أوامر الكبار وينفذها ، وهذه أعلى مراحل الطاعة التى ترنو إليها التربية .

إن القوة على الطاعة هى أعلى مراحل نمو الإرادة ، كما تقول منتسورى [1] ... أى أننا لو ركزنا فى تربية الطفل على تنمية إرادته فتصبح الطاعة أمرا ممكنا ، إذ ترى منتسورى أن اللجوء إلى التأديب الصارم للأطفال أمر غير مستحب ، وخير منه تنمية قدراتهم على اتخاذ القرارات ، على الفهم ، وعلى إدراك العلاقات ... وهنا يصل الأطفال إلى المرحلة التى يستطيعون فيها تهذيب أنفسهم بأنفسهم .

ثالثا : الحرية والنظام

تتمثل الحرية فى بيوت أطفال منتسورى فى ترك الصغار يتخيرون الأدوات التعليمية التى يلعبون بها ما شاء لهم من وقت ثم يتركونها بإرادتهم ، كما تتمثل فى موقف المرشدة من أنشطة الطفل وعدم التدخل إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك ، كما تظهر أيضا فى تلك التنقلات من مكان إلا آخر . وفى تصميم الأثاث بحيث لايكون مثبتا فى مكان واحد ، بل يسهل تحريكه . وعلى أن هذه الحرية ، كما سنرى ، وكما

---

(1) Maria Montessori, the Absorbent Mind., Ibid., p. 260

رأينا فى صفحات سابقة ليست مطلقة .. فإن هناك نظاما يضع لها حدودا ، فى حدود المقبول تربويا ، والذى يتمشى مع الأصالة العلمية للنمو النفسى للأطفال .

إن طريقة منتسورى هى مزيج من فلسفة لنمو الطفل ، ومنطق لتوجيه هذا النمو. وتحترم فلسفة منتسورى كل طفل كإنسان له فرديته ، وهو يحمل فى أعماقه غير المرئية تكوينه الراشد فى المستقبل . ولكى تتم عملية النمو فيما يقترب من الكمال .. يجب أن يتمتع الطفل بحرية فى نطاق من النظام والحكم الذاتى .

ويجب أن يحس الطفل بالتلازم المستمر بين الحرية وتحمل المسئولية ، فالحرية حق أخذه ، وواجب عليه أن يتحمل مسئوليات . الحرية وتحمل المسئولية مطلبان يجب أن يشعر الطفل بهما ، وهو يتدرج فى نموه ، إن ما تقدمه منتسورى من تكنولوجيا ، أى أدوات وتخطيط وتنظيم وإعداد وإستراتيجيات التدريس ... إلخ ، تعمل متضامنة لتشييد طريقة فعالة للحياة، تتكامل فيها فردية الطفل مع العالم الخارجى.

إن ما تقدمه منتسورى للطفل هى مفاتيح ، تفتح الأبواب واسعة إلى بيئة يجد فيها الفرص سانحة لينمى إمكاناته الأساسية ، ويصبح قادرا على أن يتبوأ مكانه بجدارة فى مستقبل السنوات . آمنت الدكتورة ماريا منتسورى بأن التربية تبدأ بمولد الطفل (آراء أخرى تقول إنها تبدأ فى رحم الأم) ، وأن السنوات الأولى هى أهم السنوات فى تكوين الفرد . وآمنت بأن الطفل يستوعب التعلم من خلال الخبرات المتاحة له فى البيئة المحيطة به ، فالتربية لاتفرض على الطفل إذا هيئت له بيئة تعليمية ، حيث يكون حرا فى الفعل وفى النمو الذى يتمشى مع موجهاته الداخلية .

إن الحرية الممنوحة للأطفال فى (بيوت الأطفال) ليست حرية بدون قيود ، أى أنها ليست مطلقة كما أشرنا سابقا ، هى تحد بالحدود التى تتطلبها المواقف ، كما تقيد بحقوق غيره من الأطفال .

الطفل الحر (أو الراشد الحر) فى نظر منتسورى هو ذلك الفرد الذى نمت قدراته وأصبح لديه التمكن ليفضل أن يعالج بنفسه المشكلات التى تصادفه ، كما أنه يحسن تقبل التوجيهات والإرشادات ، ولا يتردد فى السؤال عما يعترضه من صعوبات أو مشكلات .

إن الطفل أو الراشد الذى يفتقد المهارة فى العمل ، ولا ينقاد للأوامر ويقابلها فى تحد سافر أو مستتر هو فرد غير حر ، وإن تصور أنه حر . ذلك لأنه عبد لنزواته ورغباته ، وهو عبد أيضا لأنه يعتمد باستمرار على غيره .

فالراشد المستعبد كان طفلا فقد الحرية فاعتمد على أبويه فى البيت ، وعلى مدرسته فى الفصل ، وعلى زملائه فى الملعب ... إلخ ، فالطفل الحر ينمو - بدون شك - ليكون رجلا حرا .

. . . . .

. . . . .

كان يوم أحد والربع الأخير من شهر أغسطس ١٩٨٣ يقترب ، وباريس تودع كثيرا من السائحين والسائحات . والمؤلفان فى غمرة انهماكهما فى التفكير والكتابة فى هذا الكتاب ، أغرتهما طيابة الجو . إلى نزهة فى حديقة قريبة يحتضنها بوليفار فوش وشارع صغير فيه مسكنهما المؤجر . وهما يفكران عن الطفل والطفولة وإذا بهما أمام حديقة صغيرة للأطفال . جلسا على إحدى الأرائك ، والأطفال يلعبون فى لهو ممتع بالرمل والأدوات فى منطقة أعدت خصيصا لهذا النشاط . الأمهات موجودات يراقبن أطفالهن ، بينما تجرى الأحاديث والحكايات . وهذه الطفلة الهادئة الساكنة فى حوالى الرابعة من عمرها ، جلست تبنى تلا من الرمال فى حركات ترفع فيها الرمل من مكان، وتثبته على التل فى دأب لاينقطع . كل قسمات وجهها ، كل نظرات عينيها ، كل خلجة فيها مهتمة فى نشوة بما تفعل ، وعندما انتهت من بنا ، التل تلفتت حواليها ،

وللغرابة كانت تنادى على طفل اسمه (هوسين) وتعنى حسين ... ثم أخذت (الجاروف الصغير) ووضعته حيث كان وأعادت ترتيب ما حولها ، ونفضت عن ملابسها آثار الرمال وتحسست فستانها الصغير ، وخطت بثبات ، حيث تركت مكان اللعب لتجلس بجوار أمها وكأنما كانت فى مهمة وأنجزتها . استراحت وهدأت وهى باسمة سعيدة .

.....

.....

بيوت أطفال منتسورى أماكن تكاد تكون دور عبادة ، كأنما هى تخضع لأوامر سماوية منزلة ، تحتم بكل الصرامة أن يكون كل شىء منظما وفى مكانه ، كأنما هى ساعة تعمل ، بل كأنما هو النظام يقول أنا هنا فتعالوا وشاهدوا . لايمكن تصور طفل يعيش وسط هذا النظام الدقيق ويتبعه فى اقتناع ، ويعاقب نفسه إذا أخل بهمسة خفيفة فيه ، ويسرع إلى إصلاح الخلل ، ولايمكن تصور أن مثل هذا الطفل لن ينشأ فردا مقدسا للنظام .

يتضمن تنفيذ قوانين النظام فى بيوت الأطفال - بالدرجة الأولى - طاعة للأوامر والتوجيهات والإرشادات . وهنا تظهر عبقرية طريقة منتسورى فى التكامل بين الركائز والأساسيات والوسائل لتحقيق الأهداف . النظام فى حرية ، والنظام مرتبط بالطاعة وبالاعتماد على النفس وبالاستقلالية ، النظام مستتب فى البيئة المهيأة للطفل ، مراقبة حفظ النظام من أهم مسئوليات المعلمة ، وهى من أهم واجبات الطفل .

ومن الغريب الطريف أن إحدى الفترات الحساسة فى طبيعة نمو الطفل ينبثق فيها وازع فطرى ، يدفع الطفل بقوة إلى الترتيب والتنظيم ، وهذه الفترة تمتد من بعد سن الثانية إلى القليل بعد سن الرابعة ، والقصد فى فترة زمنية خلال تلك السنتين أو تزيد قليلا كتلك الصغيرة صاحبة التل الرملى . إن انبلاج هذه الرغبة الدافقة عند الطفل للتنظيم قد تؤدى إلى حدوث انفعالات عنيفة عنده كالبكاء المستمر ، أو

الصياح ، أو الغضب ، أو الإحجام عن الطعام ، إذا وجد أمورا فى البيت لاتخضع لمقتضيات النظام الذى يريده ، ولا يراه أخوه الأكبر سنا أو الأم أو الأب ، ولكن عينى الطفل المشبعتين بهذا التدفق الداخلى تريان فى الخلط فى وضع الأكواب فى محلها ، فى عدم وجود غطاء الوعاء على الوعاء ، فى التمزق النظامى فى وضع الكراسى كما عهدها ، فى عدم استواء وضع السجادة ... إلخ ، يجد فى هذا تحديا صارخا للهاتف الداخلى الذى يدعوه إلى النظام والترتيب . إن هذه الدفعة الداخلية الخفية تغيب عن كثيرين ولا يعرفونها ، وبالتالى لايفهمون سر هذه الانفعالات التشنجية ، ويضربون كفا على كف وكأن بطفلهم مسا من الجان ، وهو براء .. فإن النداء الداخلى للنظام لم يجد مستجيبا .

هذا النداء دفع طفلا فى أحد بيوت أطفال منتسورى ، عندما دخل صباحا فوجد صورتين معلقتين ولكن اليمنى محل اليسرى عكس ما تعود ، وكانت المعلمة بالحجرة، وعجبت عندما رأت الطفل يضع اليمنى محل اليسرى وتنبهت إلى نفسها ، إذ كان هذا هو الوضع الذى عهدته ، وأرادت أن تجرب فأعادت اليمنى محل اليسرى ، على عكس ما عهده الأطفال ، وفى صباح اليوم التالى دخلت طفلة وأعادت بتلقائية الترتيب إلى المعهود ... واستمرأت المعلمة اللعبة فعكست الوضع ، وأعاد طفل ثالث فى اليوم التالى الأمر إلى مكانه . وتكررت العملية فى اليوم الرابع .

لم تدر المعلمة كمعظمنا- نحن الكبار - هذا السر الدفين فى هذه الفترة الحساسة الخاصة بالنظام عند الأطفال .

لسنا ندرى كيف يمكن لنا فى مجتمعاتنا أن نفهم بعض الأمور المهمة جدا ، والخافية جدا عنا ، والخاصة بالأطفال ونموهم ، وكيف نربيهم قبل أن يدخلوا المدرسة الابتدائية ؟ .

العظمة التى نتطلع إليها فى رجال المستقبل تكمن فى تربية أعماقهم قبل سن السادسة .

هذه الطريقة المنتسورية

يمكن تقرير المبدأ الرئيسى لطريقة منتسورى فى ... «الطفل فى حالة تحول مستمرة ومكثفة سواء فى جسمه أو فى عقله» . وترى منتسورى أن السنوات من ٣ إلى ٦ هى مرحلة بناء الفرد ، أى السنوات التى تنمو فيها الذاكرة والتفكير والإرادة. وينهمك الطفل فى هذه السنوات فى بناء نفسه : فيفضل العمل على اللعب ، والنظام على الفوضى ، والهدوء على الضوضاء ، والاعتماد على النفس لا الاعتماد على غيره ، والتعاون لا المنافسة .

ويؤسس النظام المنتسورى على احترام شخصية الطفل ، فيبعده عن تأثيرات الكبار حتى ينمو نموا طبيعيا . ولهذا توجد البيئة المعدة أو المهيأة التى توفر له التعلم فى جو مشبع بالهدوء والطمأنينة ، مع استمتاعه بقدر كبير من الحرية ، تعتبر ركيزة للنظام .

إن أى نظام تربوى مؤسس على طريقة منتسورى يعتبر الطفل مشاركا إيجابيا فى إطار بيئة أعدت خصيصا له ، وتتاح له الفرص فى تلك البيئة للتحرك واختيار الأعمال بتلقائية من شأنها أن تعمل على تنمية إمكاناته ، فيجرى ويستخدم حواسه الخمس يستكشف بها العالم حوله . ويمنح كل إنجاز جديد الطفل إحساسا بقيمته الذاتية ، مما يؤدى إلى احترام الذات وهو الخطوة الأولى فى تعلمه كيف يحترم الآخرين وحقوقهم . وقد صممت منتسورى هذه البيئة للطفل فى نظامها التربوى بطريقة علمية لتنمية شخصيته فى تكامل وشمول من حيث :

- التناسق الجسمى واكتساب المهارات الحركية .
- القدرة العقلية .
- الإرادة والعزم .

- المبادأة .

- الاختيار الحر .

- الدافعية الداخلية وضبط النفس .

وتتيح الطريقة للطفل الفرص والمثيرات ليكتسب خبرات حياتية ، وليزيد انطباعاته ، وليتعلم بالعمل ، ويعرف طريقه إلى النجاح فى مراحل متدرجة ، تتمشى مع أطوار نموه ... ويتم كل ذلك بتوجيه من معلمات مدربات تدريبا خاصا على العمل فى بيوت الأطفال المنتسورية ، وهكذا تبنى طريقة منتسورى على الفهم الواعى والعميق للطبيعة البيولوجية والنفسية للطفل ، بل إن الطريقة تعمل مع الطبيعة، خاصة فى الفترات الحساسة ، فتساعد الطفل على تقوية وتدعيم إحساسه بالنظام ورغبته فى الاستكشاف .

كما تعترف طريقة منتسورى باهتمام الطفل التلقائى بالتعلم ، وتحترم حق الطفل فى أن يتعلم بنفسه ، وحقه فى الاختيار ، وأن يتمتع بالاستقلالية وهو ينمو ، وتنظم المثيرات التى تحفز قدراته الابتكارية ، وتوجه كل طفل حسب حاجاته وإمكاناته ليحقق نموه الطبيعى بالسرعة التى تتمشى مع طبيعة هذا النمو الخاص بكل طفل .

ومع الاعتراف بأهمية أن يعتمد الطفل على نفسه ، وبالدور التوجيهى للمعلمة، وبضرورة تهيئة بيئة خاصة ... فإن هذه العناصر الثلاثة تعمل فى تعاون تؤكده منتسورى داخل نظامها التربوى .

ولتحقيق أهداف الطريقة ... صممت منتسورى مجموعة كبيرة من الأدوات والأجهزة التعليمية التى يستخدمها الأطفال ، وقد راعت فيها أمورا عدة ، منها - على سبيل المثال - التدرج فى العمل من البسيط إلى المركب ، وقد يجد الطفل أن ما تخيره من أداة تعليمية صعبة ولا يستطيع التعامل معها فيتركها إلى أبسط منها .

والقصد هنا أن الخطأ أو الفشل أمر مؤقت ، ولا يجب أن يؤثر على نفسية الطفل ، وبالذات على ثقته فى نفسه .

كما أن هذه الأدوات صممت بحيث ينتقل الطفل فى تعلمه من المحسوس إلى المجرد أو المعقول أو الرمز ، ويتحقق ذلك فى جميع الأنشطة والمجالات التى يعمل فيها الطفل .

. . . . . .

. . . . . .

تقول منتسورى [1] ... إن تكنيكات طريقتى التى تتبع النمو البيولوجى والنفسى للطفل يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أجزاء ، هى :

(أ) التربية الحركية .

(ب) تربية الحواس .

(جـ) اللغة .

وتعتبر إدارة البيئة التعليمية المهيأة للأطفال واشتراكهم الفعال فى العناية بها ، وبما فيها من أدوات وأجهزة ... هى الوسائل الأساسية للتربية الحركية ، أما تربية الحواس واللغة فتعتمد على أدواتى التعليمية» [1] .

وعن **التربية الحركية** فهى فى رأى منتسورى عملية معقدة جدا ، إذ أنها تتطلب التنسيق بين كل عضلات جسم الطفل . ولهذا فلا يجب أن يكون هناك إصرار على تقييد حركة الطفل ، بل يسمح له بالحرية فى التنقل وأداء الأعمال ، مع توجيه المعلمة ، وهذه الحرية هى أساس النظام والهدوء فى بيوت الأطفال .

(1) Maria Montessori, Montessori's Own Handbook, Robert Bentley Inc., Cambridge Massachusetts, 1966, p. 17

وتهتم تربيه الحركة بتعليم الأطفال كيف يعتنون بأنفسهم . ويعتمدون على أنفسهم أيضا ويمكن أن نقسم تربية الحركة إلى قسمين رئيسيين :

قسم يتم داخل جدران بيت الأطفال . حيث - فى البداية - تجلس المعلمة بجوار الطفل . وهو يرى كيف تعمل أصابعها فى فك وتركيب (زر فى عروة) مثلا أو ربط شريط بطريقة معينة ويلاحظ الطفل بعناية شديدة حركات أصابع المعلمة المتأنية جدا والدقيقة . وتتكلم المعلمة قليلا ولكنها تعمل كثيرا فمثلا يتعلم الأطفال كيفية الجلوس إلى المائدة . وتوزيع الأطباق وجمعها . وترتيب المائدة . وأماكن أدواتها . ويكاد لايسمع لهم صوت وهذا شرط أساسى . فتبدأ المعلمة الحركة ويتلوها طفل ثم آخر وثالث . ومازال الهدوء مخيما .

وترسم المعلمة على أرضية الحجرة خطا بالطباشير . وتمشى عليه واضعة قدما على الخط ثم قدما أخرى أمامه وهكذا .. يتبعها الأطفال . ثم تعزف الموسيقى مقتحمة الصمت فى نغمة معينة . ويمشى الأطفال وتتبع حركاتهم أنغام الموسيقى .

ويزود بيت الأطفال عادة بعدد من المشاجب للملابس أو المناشف أو غيرها . وتستخدم هذه فى نظام محكم يتدرب الأطفال عليه كما يتدرب كل طفل على حركات الربط والفك . والفتح والغلق . والحل والتركيب مستخدما بعض الأدوات التعليمية . كما يشتركون فى تنظيم الحجرات .

- أما القسم الثانى.. فيتم فى حديقة بيت الأطفال. حيث يقومون بأعمال ترتبط برعاية الأرض والنبات . أو يشتركون فى بناء سور منخفض حول حوض من الزهور..

وقد يمارس الأطفال بعض التمرينات الرياضية التى تتخير لهم بعناية . وإذا لم تسمح الظروف الجوية فيمكن أداء بعض التمرينات داخل البيت

أما عن تربية الحواس ... فتعتقد منتسوري أن محتويات العقل تتكون مما يأتيه من حواس الفرد . لذلك اهتمت اهتماما واضحا بتربية الحواس ، وصممت عديدا من الأدوات التعليمية لهذا الغرض .

ولم تكن منتسوري صاحبة هذا الاعتقاد ، فقد سبقها فردريك هيربارت[1] ١٧٧٦ - ١٨٤١ الذي قال ... إن الحواس هي البوابات أو المداخل التي تدخل من خلالها المعلومات والمعارف التي يكتسبها الطفل ، وأنه لايوجد شيء في العقل مالم يكن من قبل في الحس .

وعود إلى ماريا منتسوري ونبدأ بتدريب العين ... تتدخل المعلمة - في أول الأمر - عندما يستخدم الطفل صندوقا خشبيا به فتحات مستديرة ، يعمل على تثبيت مجموعة من القطع الخشبية ، تختلف في قطر كل منها ، لا في تلك الفتحات. والمطلوب أن يرى الطفل القطع الخشبية أسطوانية الشكل ، ويمسكها من المقبض الخاص بكل منها ، ويضعها في الثقب أو الفراغ الذي يتناسب قطره مع قطر القطعة . ويكاد ينحصر عمل المعلمة على إعطاء الإرشادات ، أما وضع القطع في الثقوب .. فلا يقبل الطفل إلا أن يقوم هو بها . ويخطيء الطفل أحيانا ويكتشف خطأه عندما لا تثبت القطعة الأخيرة في الثقب المتبقي . إن عيني الطفل تلاحظان قطر القطعة وقطر الفراغ وتتعلمان اختيار المناسب ، وتبرق عينا الطفل بفرحة النجاح ، ثم يكرر هذه العملية من نفس القطع مرات ، ومرات قد تصل إلى أربعين مرة ، ثم ينتقل إلى صندوق آخر وفيه قطع أخرى ذات شكل مختلف ، وتستمر اللعبة .

هذا ... وهناك أدوات تعليمية متعددة لتدريب حاسة البصر عند الطفل لما تطلق عليه منتسوري الذاكرة البصرية ، خاصة في الألوان والتعرف على الأشكال والتمييز بينها .

---

(1) C. Uffer, Introduction to the Pedagogy of Herbart, Boston, Heath and Co., Pub. 1900, P. 5

ونتنقل إلى تدريب حاسة اللمس، وتعتبرها مدام منتسوری من أهم الحواس . يغسل الطفل يديه بالماء الدافىء والصابون ثم يجففهما ، ويعلق المنشفة حيث كانت . وفى أول الأمر .. تتدخل المرشدة فتعرض على الطفل مسطحا ، ينقسم إلى قسمين : قسم ناعم وقسم خشن ، ثم تمسك يده الصغيرة وتدع أنامله تتلمس القسم الناعم ، وتأخذها بهدوء إلى القسم الخشن . هنا لمس الطفل سطحين وأحس الفرق فى الملمس بينهما ، وتدرب على ذلك بمفرده ، ويزداد عدد الأسطح المختلفة فى النعومة والخشونة حتى تصل إلى ستة .

ينتقل الطفل بعد ذلك من اللمس إلى التحسس .. فتعرض عليه مجموعة قطع من الأقمشة مختلفة فى ألوانها الزاهية وفى درجات نعومتها وخشونتها ، فمثلاً قطع من الصوف ، الحرير ، التيل ، المخمل ، الخيش ، ... إلخ ومن كل عينة قطعتان . ويحضر الطفل منديلا نظيفا يعصب به عينيه ، ثم تتحسس أطراف أصابعه القطع، ويضع كل قطعتين من ملمس واحد معا ، ثم يرفع المنديل عن عينيه ويطويه ويعيده إلى مكانه ويرى مدى نجاحه ، يساعده فى التعرف على ذلك أن كل قطعتين ذات نعومة أو خشونة واحدة لهما لون واحد ، ثم عليه أن يرتبها متدرجة من النعومة إلى الخشونة ، ويكرر العملية التدريبية لحاسة اللمس عدة مرات . وينتقل الطفل إلى أدوات تعليمية أخرى لنفس الغرض ، لتدريب حاسة اللمس على التعرف على الأشكال المختلفة... مثلا يستطيع أن يفرق بين المستطيل والمربع والدائرة وهو مغمض العينين، معتمدا على تتبع الخط الخارجى للشكل بأصابعه ، ويستخدم الورق المصنفر مسطحات عليها رمل أو زلط ... إلخ لتحديد الأشكال المطلوب التعرف عليها .

ثم ننتقل إلى تدريبات خاصة بحاسة السمع ... إنها ست علب أسطوانية الشكل مصنوعة من الورق المقوى ولها غطاء ، وتحوى كل علبة مادة معينة مثل الرمل، والخرز ، زلط ، قطع من الزجاج ، قطع من الصفيح ، دقيق ... إلخ ، بحيث

إذا هز الطفل علبة صدر عنها صوت ... أمام الطفل إذن ستة أصوات مختلفة عليه أن يميز بين الصوت المنخفض والصوت العالى ، ثم يعطى ست علب أخرى مماثلة ، وعليه وهو معصوب العينين أن يصنف كل اثنتين متماثلتين معا ، وذلك تبعا للصوت الصادر من كل منهما .

أما الخطوة الثالثة .. ففيها يرتب الطفل هذه العلب ، بادئا بصاحبة الصوت المنخفض ، ومتدرجا إلى صاحبة أعلى صوت .

وكالمعتاد .. فإن المعلمة تبدأ بشرح الفكرة ، وتترك الطفل إلى الأداة التعليمية يتعامل معها ويتدرب ويكرر التدريب عدة مرات .

وهنا ما تطلق عليه منتسورى تعبير (الحاسة الموسيقية) ، حيث تستخدم مجموعة من الأجراس ذات شكل واحد ، ولكنها تعطى أصوات السلم الموسيقى إذا طرقها الطفل بمطرق خشبى ، وعليه أن يتعرف على الصوت الصادر من كل جرس ، ثم يرتبها تبعا لذلك السلم الموسيقى .

وتقول منتسورى [1] ... «فى الحقيقة إننى لا اكتفى بتلك الأجراس ، ولكننى استخدم بعض الآلات النحاسية والوترية وآلات النفخ البسيطة ، ويحاول الأطفال الربط بين الأنغام الصادرة عنها بالأنغام التى صدرت عن الأجراس ... ويمكن أيضا استخدام البيانو لنفس الغرض ...» .

ومن التدريبات المهمة فى تدريب حاسة السمع عند الأطفال ، ما أطلقت عليه منتسورى (درس الصمت) ، وله أثر واضح فى تعويد الأطفال على النظام والهدوء فى عملهم .

---

(1) Ibid. p. 63-64.

وليتصور القارىء ثلاثين أو أربعين طفلا جلسوا مع المعلمة فى حجرة ، أقفلت نوافذها وسادها بعض الظلام . ويخيم السكون التام إلا أحيانا من أصوات تسللت من الخارج ، ولكنها لاتجرح الصمت . والأطفال جلوس على كراسيهم الصغيرة ، أو مفترشون أرضية الحجرة ولكنهم مستريحون .... فى هذا الصمت الرهيب غير المريب لاتصدر عن أى طفل أية خلجة أو شاردة ، فالعضلات فى حالة استرخاء ، الرأس ثابتة، قسمات الوجه هادئة ، التنفس بطىء غير مسموع ... كأنما انتقل الأفراد إلى عالم التأمل والسكينة ، كأنما صار جدار عال بينهم وبين العالم الخارجى ، وكونوا لأنفسهم شرنقة ، تحتويهم فى جو الصمت والهدوء والسلام .

أنه أمر رائع من منتسورى وهى تدرب حاسة السمع ، والأجراس ، والعلب ، والأصوات ، والسلم الموسيقى أن تنقل الأطفال إلى عالم الصمت والسكون .

ويستمر درس الصمت وتنسحب المعلمة فى هدوء كامل إلى المؤخرة ، حيث لايراها الأطفال ، وتنادى على كل طفل فى همس خفيف يحمله الهواء إلى الآذان فيشير الطفل بيده دليلا عن أنه سمع همسة اسمه ...

عندما يتعرض الأطفال لعالم الصمت فى دروس الصمت .. تصبح آذانهم مرهفة يضايقها الصوت المرتفع ، كما انها تقدر على التقاط أضعف الأصوات . وبعد هذا يسود جو هدوء فى العمل ، فى الحركة ، فى الحديث ... فى كل شىء وهذا ما يميز بيت الأطفال .

حركة دائبة مستمرة ، ونشاط لاينقطع ، ونظام لايتطرق إليه الخلل .... وهدوء يحس به الزائر إلا فى فترات يتطلب عمل الأطفال فيها صدور أصوات .

وترى منتسورى فى ختام عرضها لتربية الحواس أن خطوات الطريقة التى تتبع هى :

١- تدريب الحاسة للتعرف على (الأشياء) المتماثلة تماما .

٢- (*) تدريب الحاسة للتعرف على (الأشياء) المتضادة ، أو التى بينها تفاوت كبير .

٣- تدريب الحاسة للتمييز بين (الأشياء) المتشابهة ، أى التى بينها اختلافات طفيفة .

ويفيد عند تدريب حاسة معينة أن يكون التركيب الأساسى عليها ، مع محاولة قفل بقية الحواس بقدر المستطاع ، حتى لايتشتت انتباه الطفل ، كأن يعصب الطفل عينيه عندما يتحسس قطع القماش .

وترى منتسورى أن على المرشدة أو من يريد استخدام الأدوات التعليمية المخصصة لتدريب حواس الطفل ، أن يستخدمها بنفسه أولا ويتدرب عليها ... إنه عندئذ يشعر بما سيمر به الطفل من أحاسيس ، وبذلك يمكنه استخدامها مع الأطفال بنجاح .

أما عن تنمية اللغة

ألحت بعض الأمهات الإمهات على الدكتورة ماريا منتسورى أن تعلم صغارهم فى بيوت الأطفال القراءة والكتابة . إلا أن هذا لم يكن فى خاطر ولا خطط منتسورى أو طريقتها ، بمعنى إنه لا إلزام على طفل أن يتعلم القراءة والكتابة والأعداد ، ولكنه يمكنه تعلم هذا إذا أراد ، وبطريقة بعيدة عن الشكلية التى نجدها الآن فى كثير من رياض الأطفال . وتسمح منتسورى بأن يتناول الأطفال بعض الألعاب التعليمية ويلعبوا بها ويكرروا مرور أصابعهم على حروف ذات ملمس خاص ، وتذكر المعلمة اسم

(*) وفى رأى أن تسبق الخطوة رقم (٢) الخطوة رقم (١) .

هذا الحرف ، كما يلعبون ويكررون اللعب - إذا أحبوا - بأشكال للأرقام ، ويتعرفون على اسم هذا الشكل الرقمى [١] .

إن جوهر فكرة منتسورى فى تعليم الطفل مهارات الاستماع ، والتحدث ، والكتابة ، والقراءة يمكن أن تتبلور فى العبارة التالية «الشروع مبكرا فى التهيئة لبداية طيبة» ، بمعنى أن تهيأ للطفل الظروف المواتية فى وقت مبكر ، يتمشى مع إمكاناته وقدراته حتى يعد من جميع النواحى إلى تقبل أنواع التعليم التى تقدم له فى النصف الأول من المدرسة الابتدائية . نرجو ألا يفهم القارىء أن هناك فكرة نحو التعجل والإسراع فى عملية التهيئة هذه فتبدأ مبكرة . إن منتسورى لم تقصد هذا مطلقا ، والدليل على ذلك أنها رفضت أن يكون تعليم الكتابة والقراءة والعد من إلزاميات طريقتها ، قائلة بأن هذا التعلم سيأتى عندما يحين الوقت طبيعيا وتلقائيا بالنسبة للطفل . أى أن بيوت الأطفال لم تشتمل على دروس منظمة ، تقف فيها المدرسة ، وتعلم الأطفال مبادىء القراءة والكتابة والعد .

فإن منتسورى كانت تمجد عمليتى الملاحظة والتجريب ، ولم تصمم أداة تعليمية إلا بعد ملاحظة وتجريب لها ، وإجراء تعديلات فيها حتى تتحقق الفائدة التربوية المرجوة منها ، وهذا مافعلته فى قضية تعلم **الكتابة** ، والكتابة تسبق القراءة فى نظامها .

---

(١) استخدم سعد مرسى أحمد ما أسماه لوحة الأشكال فى أواخر الاربعينات وأوائل الخمسينات ، فى الأقسام الإضافية بدور المعلمات تخصص رياض الأطفال . وهى عبارة عن مسطح خشبى مستطيل ٤ × ٢ قدم به أربعة صفوف ... فى الصف الأول تعلق مجموعات من البلى فى خطوط تبدأ ببلية إلى تسع بليات . وفى الصف الثانى تعلق بطاقات صغيرة كأوراق الكتشينة (أوراق اللعب) مرسوم عليها دائرة أو دائرتان ... إلخ . فى الصف الثالث أشكال الأرقام معلقة فى خيوط من ١ إلى ٩ . وفى الصف الرابع بطاقات مكتوب عليها واحد - اثنين - ثلاثة ، ويربط الطفل بين الشىء المجسم والصوت والرقم والكلمة المكتوبة . وللوحة استعمالات أخرى كثيرة .

لاحظت الأطفال وهم يكتبون ، ولا نعلم فى أى سن كان هؤلاء الأطفال ، ولكنهم كثيرون وكانوا يكتبون ، ودققت النظر إلى حركات أصابعهم وأيديهم ، ثم حللت المهارات العديدة المتضمنة فى عملية الكتابة ، ومنها كيف تمسك أصابع الطفل بأداة الكتابة ، وتحريكها فى انسيابية متدفقة ، ثم فى حركات دقيقة لرسم شكل الحروف . وفى ضوء هذا التحليل ... صممت بدقة وعناية مجموعة تدريبات وأدوات تعليمية من شأنها - بعد أن يتدرب الطفل بها - أن تمكنه من إجادة الحركات العضلية المطلوبة والتوافق بينها وبين الرؤية والتفكير ، مما يجعله مستعدا لعملية الكتابة الفعلية . تتم هذه التدريبات فى تتابع مدروس ومقصود ، بحيث تؤدى نتائج كل تدريب منها إلى اكتساب القدرة على إجراء التدريب التالى .. وهكذا . وقد أخضعت منتسورى هذه التدريبات وتتابعها إلى التجريب العلمى مرات ومرات ، حتى توصلت إلى ما اعتقدت أنه برنامج ناجح فى الإعداد للكتابة .

يهيىء برنامج الإعداد للكتابة الطفل ليس فقط للكتابة ، وإنما أيضا - وفى ذات الوقت - للقراءة ، وهذا يؤكد قدرة ماريا منتسورى فى استغلال البيئة التعليمية لأكثر من هدف تربوى ، من خلال توظيف أكثر من حاسة من حواس الطفل فى التعلم .

وتنقسم التدريبات إلى مجموعتين مختلفتين ، تهدف **المجموعة الأولى** إلى تمكن الطفل من استخدام الأداة التى يكتب بها ، فيجد أمامه لوحا خشبيا فى وضع مربع بالنسبة له ، ثم مجموعة من القطع المعدنية لأشكال هندسية مجوفة ، ثم عشرة أقلام ملونة ، وعلى الطفل أن يضع شكلا هندسيا ويثبته بيده اليسرى ويتخير قلما ملونا ، ويمر به حول الحدود الداخلية لهذا الشكل الهندسى . ويتخير قلما آخر له لون مختلف ويدور به حول الحدود الخارجية لنفس الشكل ، ثم يرفعه فتظهر له نتيجة ما خطه وهى حدود الشكل الهندسى بلونين مختلفين ، ويكرر العملية مع شكل هندسى

آخر وآخر وبألوان مختلفة . هذا يعني أنه ربما في المرة الأولى رسم الحدود الخارجية لشكل هندسي مربع ، وفي الثانية لمستطيل ، وفي الثالثة لدائرة ... إلخ . ثم يأتي بعد ذلك تمرين آخر ، حيث يملأ الطفل الفراغ بخطوط غير منتظمة ولا علاقة لها بالحدود المرسومة . وتدريجيا .. تنتظم الخطوط المستخدمة في ملء الفراغ ، ويحافظ على الحدود الخارجية للشكل ، وتكرر العملية في أشكال متعددة ... ويجد الأطفال لذة كبيرة في رسم تلك الأشكال ، وملء الفراغات بألوان مختلفة . وتختلف مساحات الأشكال وأنواعها حتى يتدرب الطفل على عمل الحدود ، وملء الفراغات بالألوان التي يختارها ، ويسعد الطفل بما انتجه ويحتفظ بهذا (الكنز) في (الدرج) الخاص به .

وهكذا ... تتدرب أصابع الطفل على أدوات الكتابة في أحجامها ، وفي المواد التي تصنع منها بحيث تصبح أصابعه سيدة الموقف .

وتهدف **المجموعة الثانية** من التدريبات إلى تمكن الطفل من رسم أشكال الحروف الهجائية ، فتوجد في الأدوات التعليمية مجموعة من الصناديق التي تحتوى على أشكال الحروف الهجائية (*) ، ففي صندوق منها توجد مجموعة بطاقات ، كل بطاقة ملصق عليها حرف صنع من ورق مصنفر . وفي صندوق آخر توجد مجموعة بطاقات ، أكبر مساحة من السابقة ، وقد لصق على كل منها عدة حروف بينها تشابه في الشكل مثل (ب – ت – ث) ، (جـ حـ خـ) (د ذ) ، (ر ز) ، (س ش) ، (ط ظ) (ع غ) ... إلخ .

ويخرج الطفل بطاقة والمرشدة معه ، وتمرر أصبعين على شكل الحرف ، ويقلدها الطفل فيمر بإصبعيه السبابة والوسطى على الحرف المصنف في نفس الاتجاه، كأنما هو يكتب فعلا ذلك الحرف ...

(*) حاول المؤلفان تكييف ما عنته منتسوري وتغييره من الحروف اللاتينية إلى حروف الهجاء العربية لراحة القارىء العربي .

.... التدريب ... التكرار .... التكرار ...

يالهذه الفرحة الغامرة التى تستشعرها تلك الأنامل الصغيرة التى تعكسها تلك النظرات السعيدة ... سبق لتلك الأنامل أن مرت بخبرة متشابهة شاهدتها عيناه ، وأحس بها وجدانه وهو يميز بين ملامس النعومة والخشونة ... تلك الخبرة السابقة هى التى أهلته لمعرفة شكل الحرف ... والآن تؤكد له ذلك الشكل .

......

......

لنتمهل قليلا حتى نتفهم طريقة منتسورى فى تعليم الكتابة والقراءة ... عندما يتحسس الطفل حرفا من الحروف .. تنطق المعلمة بجواره صوت الحرف ، وتلمس أنامله شكل الحرف وهو ينطقه ، ويصير الربط بين العين وأطراف الأصابع والأذن ، فأى حاسة منها تستدعى بالضرورة الحاستين الأخريين ، أى أنه لو أغمض عينيه وتحسست أنامله أشكال الحروف لعرفها ونطق صوتها ، أو بمعنى آخر لو سمع الطفل صوت حرف لرأت عينا عقله صورة هذا الحرف وأحست أنامله شكله .

وعندما يصل الطفل إلى هذه الدرجة من التمكن التى يستطيع فيها إذا رأى شكل الحرف أن يستدعى عقله صوت هذا الحرف ... فهو إذن قد بدأ **يقرأ** .

أيها الطفل ... لقد صرت الآن مستعدا ومجهزا بكل الحركات اللازمة لعملية الكتابة، ولذلك فأنت ياطفلى الآن قادر على أن (تكتب) ... إنك لاتدرى انك أحرزت انتصارات هى فى سنك رائعة ، هى نتيجة مشوار طويل فى تكوينك الداخلى . أنت ياطفلى لاتدرى ما هى وكيف صارت ، وكيف كونتك إلى ماصرت إليه ... يا طفلى ... اليوم الذى (ستكتب) فيه آت عن قريب ، بل هو وشيك الحدوث ... سوف يكون حدثا مدهشا لك ، إنه حصاد نشاط أنت بدأته وأحببته .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أما عن العد والحساب .. ففى رأى منتسورى أن الطفل يكون مفاهيم متعددة ترتبط بها من خلال تدريبات تنمية الحواس التى سبق أن مارسها مرات كثيرة. وعندما يتكون مفهوم متصل بالعد والحساب .. فإنه يتأصل لدى الطفل ، ولذلك ففى المستقبل عندما يتعامل مع الأرقام والعمليات الحسابية المجردة لا يجد صعوبة تذكر . فالطفل عندما يلعب بمجموعة عيدان خشبية متفاوتة الطول - وهذه واحدة من المواد التعليمية التى سبق استخدامها فى تدريب حاسة البصر - ويرتبها من الأقصر إلى الأطول يكون قد كون فعلا مفهوما حسابيا وعدديا . وعندما يضع الأجسام الأسطوانية الشكل فى ثقوب موجودة بصندوق خشبى - وهذه أداة أخرى مارس التدريب عليها - فإنه يكون مفهوما عن الأشكال والأحجام التى سيدرسها فيما بعد ، بل إذا أخطأ فى وضع هذه الاجسام فى أماكنها الصحيحة ، وتبقى منها واحد لم يستطع تثبيته فى المكان المتبقى هنا سينطق كلمة (ناقص واحد) ...

يتكون مدرك أو مفهوم الرقم والعد عند الطفل بصورة بطيئة ، ولكنها متدرجة ومستمرة ، ولم تفرض على الطفل بل اشتقها هو بنفسه فى ثنايا تدريب بعض حواسه، وهو يتعامل مع الأدوات التعليمية . وبهذا .. يتكون لدى الطفل المعنى ، ولا يلقى إليه من المعلمة أو المدرسة .

ويتدرج الطفل فى تمريناته بالأدوات التعليمية إلى مستوى أعلى فى المفاهيم الحسابية ، وهو ما زال يدرب حواسه . ففى تدريب المكعبات ... على الطفل أن يكون مكعبا كبيرا من أربعة مكعبات صغيرة ، وآخر أكبر من ثمانية مكعبات صغيرة ..

وآخر أكبر وأكبر مستخدما سبعة وعشرين مكعبا صغيرا ... وهكذا . وهنا تتكون عنده فكرة الأحجام والنسب .

وعندما يبدأ الطفل تعلم العد .. فإن المعلمة تستخدم العيدان الخشبية المتدرجة فى الطول وأقصرها طوله ١٠ سم ولونه أحمر ، والثانى طوله ٢٠ سم ويتكون من جزءين أحمر وأزرق طول كل منهما ١٠ سم ، أما الثالث فيتكون من ثلاثة أجزاء : أحمر ، أزرق ، أحمر ، والرابع من أربعة أجزاء : أحمر : أزرق ، أحمر ، أزرق . وتشير المرشدة إلى هذه العيدان فى تتابع ، ويلمس الطفل كلا منها مرددا واحد ، اثنين، ثلاثة ، أربعة ... إلخ . ثم تعرض عليه المعلمة أحد هذه العيدان بمفرده وتسأله : أى العيدان هذا ؟ ويتعرف الطفل على رقم العود من عدد الأجزاء المكونة له. فيجيب ثلاثة مثلا ... وتطلب منه المعلمة العود رقم أربعة فيتعرف عليه من عدد الأجزاء المكونة له ... ويتكرر التمرين ، وتتأكد لدى الطفل فكرة أن عملية الإضافة تتم : بالزيادة – وأجزاء من نفس النوع – وأن مجموع الأجزاء يكون وحدة هى الرقم ، أى أن رقم ٩ يمثل ذلك العود المكون من تسعة أجزاء متساوية . وإذا طلبت المرشدة من الطفل أن يجمع ٧ و ٢ .. فإنه يضع العود المكون من سبعة أجزاء ، وبجواره العود المكون من جزءين .

وتتضمن هذه العمليات عن العد والجمع أيضا تكوين فكرة عن عملية الطرح ، فإن العود المكون من ستة أجزاء (أى ٦) هو مساو لمجموع العودين ٤ و ٢ ، وإذا رفع الطفل العود الأخير .. فإن المجموع لن يكون ٦ ، ولكن ينقص إلى ٤ الممثلة فى العود الرابع .

وإلى هنا .. كان التعامل مع الأعداد والأرقام لفظيا فقط ، بعدها يبدأ الطفل فى تعلم شكل هذه الأرقام . وتستخدم منتسورى فى ذلك نفس فكرة تعلم الحروف الهجائية السابق شرحها ، فتعرض المرشدة على الطفل بطاقات ، ملصق على كل منها

رقم قص من ورق مصنفر ، يمر الطفل بأصابعه على الرقم فى نفس اتجاه كتابته ، وفى نفس الوقت ينطقه ، ثم يحاول التعرف على شكل الرقم الدال على كل عود من العيدان الملونة السابقة ، وتضع المعلمة أرقاما على المنضدة ، وعلى الطفل أن يضع بجانب كل رقم عددا من المكعبات المساوية لهذا الرقم ... وهكذا . وينتقل بعد ذلك إلى التدريب على كتابة الأرقام كما تعلم كتابة الحروف .

* * *

وقد اعتقد كثير من نقاد طريقة منتسورى أنها كانت ضد الخيال Fantasy عند الأطفال ، وأنها استبعدت طريقة تمثيل الأدوار أو اللعب الإيهامى نهائيا ، ولم تسمح للأطفال بالاستماع إلى القصص الخيالية .

والواقع إن كتابات منتسورى حول هذا الموضوع محيرة ، فهى لم توضح ما تقصده بالخيال ، وما الفرق بين الخيال والتصور imagination ، فهى تشجع - وإلى درجة كبيرة - تنمية قدرة الطفل على التصور ، وكانت تقول إن هذا التصور يبنى على الواقع المحيط بالطفل ، وقدرة الطفل على التصور تساعده على استخدام عقله بطريقة ابتكارية ، هذا إذا كان مؤسسا على واقع ، لا على تخيلات طفولية بعيدة عن الواقع وعن الحقيقة .

وكانت منتسورى تعتقد أن الطفل الذى يشعر بالوحدة أو الغربة عن البيئة المحيطة هو الطفل الذى يلجأ لعالم خيالى يبتدعه لنفسه يشعر فيه بالراحة . وإذا بالغ الطفل فى هذا السلوك ... فهى علامة غير صحية ، قد تتطور حتى لا يستطيع الطفل التفرقة بين الواقع والخيال . ولم تلجأ معلمات منتسورى إلى قصص الخيال لأن الأطفال - فى رأى منتسورى - لايحتاجونها ، فهم وهم ينمون فى عالم الكبار ، يواجهون عالما غريبا بالنسبة لهم ، وهذا يكفى لخبرتهم المحدودة .

وس تعلم الفنون التشكيلية والموسيقى . فلم تعط منتسوري تعليمات محددة في هذا الشأن ، ولكنها اعتمدت على تلقائية الأطفال وحريتهم . واعتبرت التدريبات التي يمارسها الأطفال لتنمية عضلات اليد والأصابع كافية لتشجيعهم على الرسم ، خاصة إنها اعتمدت على هذه الحركات اليدوية لتهيئة الطفل للكتابة .. فاستخدمت الألوان المختلفة والأشكال المنوعة . كما اهتمت منتسوري بتدريب عين الطفل على الجمال والنظافة والنظام ، فقد تميزت بيوت الأطفال بالجمال والألوان المتناسقة ، مما يعود الطفل على حب وتذوق الفن والجمال . ولم تهتم مطلقا بالرسم الحر للأطفال ، وكانت تقول ... «إني أحاول تجنب هذه المجهودات عديمة الفائدة وغير الناضجة، ... ولم أحاول أن أعلم الأطفال الرسم ولا عمل المجسمات ... ولكن كانت لهم حرية رسم الزهور والطيور والمناظر الطبيعية ، وحتى بعض تصوراتهم الشخصية . وقد نلاحظ أن أفضل طريقة لتعليم الطفل الرسم ، هي إعداد البيئة المناسبة التي تساعده على النمو الطبيعي ، وتدريب اليدين والعينين وليس بتعليمه الرسم ... حيث إن البيئة المهيأة كفيلة بإتاحة الفرصة للمواهب الحقيقية أن تظهر وتعبر عن نفسها »[1] .

واعتمد تعليم الموسيقى في طريقة منتسوري على التدريب السمعي ، وعلى التمييز بين النغمات والأصوات وترديدها . واهتمت منتسوري بدقة الأداء والتعبير ، وأن يتعود الطفل سماع الموسيقى ، فكانت الألحان تصاحب تدريباته الحركية والحسية ، ويتدرب الطفل على اللعب بالآلات الموسيقية البسيطة ، سواء الوترية أو النحاسية أو آلات النفخ ويقدم له تدريجيا السلم الموسيقى .



---

(1) Elizabeth G. Hain stock, The Essential Montessori, New American Library, New York, pp. 105-106.

آمنت ماريا منتسوري بأن الطفل الذي يصفه الكبار (بالشقاوة) هو طفل يريد الحركة والنشاط ، يريد لتلك الحوافز الداخلية عنده ، وللفترات الحساسة التي يدفعها النمو البيولوجي والنفسي ... يريد لكل هذا متنفسا ، أي إن هناك احتياجات مهمة جدا ، تصيح مطالبة أن تشبع . ترى منتسوري في طريقتها وما فيها من أدوات تعليمية ، ونشاط حركي وحسي وجسمي في إطار من جو اجتماعي تحت إشراف من مرشدات على وعي كبير بأدوارهن ، ترى أن بيت الأطفال يتيح الجو المناسب جدا للنمو الطبيعي للطفل ، فتنقشع سحب (الشقاوة) ، وتسطع شمس النظام والطاعة في إطار الحرية المكفولة بالعملية والتقنين المناسبين .

* * *

لم تجد منتسوري آذانا صاغية في إيطاليا ، وربما عز على الرجال أن تظهر امرأة لتقول ... جابت أطرافا من العالم في آسيا وأوروبا وأمريكا تبشر بطريقتها ، وسافرت إلى بعض الأقطار ودعيت إلى كثير من الأقطار .ارتفعت آراؤها في الهند وغيرها ، وفتحت الولايات المتحدة الأمريكية صدرها لآرائها ولها ، وأمضت سنوات هناك أعجب بها البعض وهاجمها البعض الآخر . وربما كانت تعتز بنفسها إلى الدرجة التي وصفها حسادها أو معارضوها بالغرور وشدة الصلابة والإصرار في التمسك بالرأي ، فلم تحب هذه الدنيا الجديدة وغادرتها مقسمة أن لا رجعة إليها فقد عارضها - بقسوة لاذعة - مفكرو التربية التقدمية ، وناوأها في ضراوة وليم كلباتريك . ولم ترجع منتسوري بجسمها إلى أمريكا ... ولكن ... عندما فاض كيل الأمريكيين بما أسموه تلك (التربية التقدمية) عادت أمريكا إلى منتسوري ، وعادت أفكارها بكل الفخر والإجلال إلى آلاف مؤسسات التربية الأمريكية فيما قبل المدرسة ، وحتى في المراحل التعليمية التالية . وظهرت كتب عديدة لعل من أطرفها كتاب عنوانه «زيارة أخرى لمنتسوري» Montessorie Re-visited ، أي أن الأمريكيين هم الذين زاروها لتقول

لهم عن طريق كتاباتها ماذا يفعلون لأطفالهم قبل أن يدخلوا إلى المدارس الابتدائية . فى مؤسسات تعد خصيصا لهم

وأثقلت السنون بأحمالها على تلك الفتاة الايطالية الجميلة ، فأضافت كميات كبيرة من الشحم على اللحم ، وبدت فى آخر صورها بدينة جدا ، بدرجة لم تكن تسمح لها أن تصعد درجات من السلم الخشبى لترى حفيدتها فى الطابق العلوى ... كان جسمها البدين ينحشر على الدرج ولا تستطيع الحراك .

كان ذلك فى بيت ابنها ماريو بهولندا .

* * *

الدكتورة الطبيبة ماريا منتسورى ... مدام منتسورى ... ماريا ... عادت إلى إيطاليا التى استقبلتها بكل الحب والتقدير بعد أن اعترف العالم بها وبطريقتها ، فقد رشحتها الحكومة الإيطالية ممثلة لإيطاليا فى مؤتمر اليونسكو الدولى فى مدينة فلورنس ، فى شمال ايطاليا سنة ١٩٥٠ ، وقد رشحت ثلاث مرات لجائزة نوبل للسلام . ولم تهدأ هذه المتحمسة المجددة ، فما زالت نشطة وهى تقترب من عيد ميلادها الثانى والثمانين . حضرت المؤتمر الدولى التاسع لجمعية منتسورى فى لندن ١٩٥١ ونظمت واشتركت فى دورة تدريبية لمعلمات بيوت الأطفال ، عقدت بالنمسا فى نفس العام . كما ألقت سلسلة من المحاضرات فى روما فى أوائل عام ١٩٥٢ ، وكان هذا آخر نشاط لها ، قبل أن تلبى نداء ربها فى هولندا يوم ٦ مايو ١٩٥٢

تلك كانت ماريا منتسورى وطريقتها ، وبيوتها لتربية الأطفال قبل المدرسة .


الفصل السابع
چان
بياچيه

الفصل السابع

بياجيه

* التصوير .... وجهاز العرض
* سويسرا .... وسيرة عالم
* الطفولة .... وثلاثة كتب
* بياجيه .... ونمو الطفل
* بياجيه .... وماقبل المدرسة
* بياجيه .... والسؤال الأمريكى
* التدريس .... وعملية التربية
* الصفات .... وإجراءات عملية

جان بياجيه

ما كان الهنود الحمر يتصورون ولو فى أقصى درجات جموح الخيال أن تلك الجزيرة التى باعوها إلى الوافدين لهذا العالم الجديد بحفنة من الدولارات لم تصل إلى المائة ، ما كانوا يتصورون أن جزيرة منهاتن ستصبح قاعدة ناطحات السحاب والعمارات والمبانى الضخمة . وهى مركز ثقافى عظيم الشأن . كما أن بها مبنى هيئة الأمم المتحدة، وتضم جامعتين كبيرتين إلى جانب كليات أخرى .

وفى المحيط الثقافى والعلمى .. يوجد نادى هارفارد Harvard Club الذى كان يحتفل مساء أحد أيام عام ١٩٧٣ م باستقبال شخصية علمية مرموقة ، دعيت لتسلم جائزة دولية مقدارها ٢٥٠٠٠ دولار أمريكى ، اعترافا بتفوق حائزها وتميزه فى الانجازات العلمية .

يقول دافيد الكايند David Elkind [1] الذى كان أحد الحاضرين : إن هذا العالم المحتفى به تقدم بخطى ثابتة ، وقد اقترب عمره من الثمانين إلى المنصة الرئيسية ، حيث يتسلم الجائزة .

وقف الجميع احتراما لهذا العالم السويسرى الذى ارتدى حلة داكنة اللون كعادته، وتحت السترة صديرى . ويجلل وقاره تاج من الشعر الأبيض الغزير ، ومثبت فى فمه غليونه الشهير الذى لايكاد يفارق وجهه ، ووراء نظارته الطبية تكمن عيناه ذواتا النظرات الثاقبة فى عمق ، يلاحظه من يقترب منه – هاتان العينان كانتا أداة أساسية لما توصل إليه من علم نشره على العالم ، وكثر الاحتفاء به .

---

(1) ... Elkind, Piaget, in Readings in Human Development 77/78, Annual ... Dushkin Pub. Co. Inc. 1977, p. 29

إنه جان بياجيه .

.... لقد طلع على العالم بفكر ثورى فى نظرية المعرفة ، هز كثيرا من الآراء المتواترة حينئذ فى العلوم الاجتماعية .

قال قبل أن يتسلم جائزته فى تواضع ومداعبة العلماء المتمكنين من علمهم والواثقين من أنفسهم : إن اللجنة التى تخيرتنى تحيرت لأى عالم فى فروع العلوم تمنح الجائزة ، والظاهر أننى كنت من أخرجهم من هذه الحيرة فتخيرونى لها وانتهى المأزق الحرج فى حساسيته بابتسامات ورضى من علماء ، من تخصصات كالفسيولوجيا والأعصاب وعلم النفس ... إلخ .

وتقدم من سيسلمه الجائزة قائلا ردا على بياجيه إنها دعابة طريفة لطيفة أضحكتنا جميعا ، ولكن خياله جمح بعيدا ، إذ إن واقع الأمر أن اللجنة بالإجماع رشحته للجائزة ولم يكن اختياره خروجا من مأزق ، إذ كيف يمكن لعلماء إلا يقدروا جان بياجيه ، صاحب الفكر المتميز الذى خرج به إلى العالم ولم يسبقه أحد إليه ...

يقول زميل له فى تمجيد لهذه الشخصية الجامعة ... إن بياجيه متخصص فى علم الحيوان من واقع دراسته ، وضليع فى نظرية المعرفة بطبيعة مهنته ، وهو رجل منطق بأسلوبه فى البحث والدراسة . ولم تسنح الفرصة لمقابلته بعد تسلم الجائزة وأثناء ذلك الحفل - كما جاء على لسان الكاتب - إذ قد عرف عن بياجيه عزوفه عن هذه المقابلات الثنائية ، ويفضل - عوضا عنها - لقاءات تتيح له الفرص للتحدث عن عمله وشغله الشاغل ، وهو مرتبط بذكاء وتفكير ولغة الأطفال .

إن ما أنجزه هذا العالم الفذ فى العقدين الأول والثانى من القرن العشرين ، ودعم بثبات ورسوخ فى العقد الثالث لم يجد متنفسا يتناسب مع ضخامته وأهميته . ربما كان السبب حاجز اللغة إذ إنه لم يكتب ولم يتحدث إلا بالفرنسية ، إذن ضاق

النطاق إلى المتكلمين بتلك اللغة ، ولم تنتبه المحافل العلمية إلى تلك الكنوز إلا فى بداية الستينات ، عندما ترجمت بعض أعماله إلى الإنجليزية .

وحتى من قرأ لبياجيه وعنه من الأمريكيين ، وهذا القرن ينتصف ، لم يهتموا كثيرا بما كتب ، كما أن ما ترجم له فى ذلك الوقت لم تحترمه المجلات العلمية ، وذلك لافتقاد شىء مهم آنذاك ، فقد أكبر الأمريكيون الأرقام والاحصاءات ورفعوها إلى مراتب عليا ، فسيطرت على تفكيرهم العلمى حتى أصبح الإنسان مجرد رقم إحصائى، وما كونوه وأقاموه أصبحوا عبيدا له . ولعل خلو دراسات وأبحاث بياجيه من الإحصاءات وجداولها والأرقام ، ومعاملات الارتباط ، ومستويات الدلالة والنسب الفائية والانحرافات المعيارية ... إلخ لم يجد قبولا فى دوائر المهتمين ، فلم تنتشر أبحاثه ولم تنتشر .

وربما كانت الساحة التربوية وصيحات أولياء الأمور تمهد لاستقبال شىء مثير ، كرد فعل فجرته تلك الأقمار الصناعية الروسية التى تسبح فى الفضاء .

ومن الفضاء.. سطع برق خاطف للأبصار ، ودوى رعد يصم الأسماع ، فقد تناقلت الأوساط النفسية والتربوية ما توصل إليه ذلك العالم السويسرى الفذ . فماذا فى نظرية وعمل بياجيه ما رفعه إلى تلك المنزلة السامية فى صعود صاروخى ، على الرغم من بعض آرائه وأفكاره التى أثارت جدلا ؟

لماذا هذا الحماس الهادر لبياجيه ، على الرغم من أسلوبه وطريقته ومنهجه فى البحث مما لم يعجب ما درج عليه كثيرون من العلماء الأمريكيين ؟

قد يكمن السر فى أنه يصف كيف يفكر الأطفال ، وكيف يتعرفون على العالم من حولهم ، يصف ذلك بطريقة تجد قبولا وتصديقا من كل من يسمعها ... فعندها يقول بياجيه إن الأطفال يعتقدون أنهم عندما يخرجون فى نزهة ليلية والقمر ساطع فى

السماء . فإنه يتبعهم خطوة خطوة ، كما يعتقدون أن الأحلام تأتى إليهم وهم نيام من خلال النافذة . قد يبدو لنا هذا الوصف غريبا ، ولكنه فى الوقت نفسه يتوافق مع بعض مشاعرنا وأحاسيسنا الداخلية .

إن هذه الأفكار ليست فطرية عند الأطفال بدليل أنهم يتخلون عنها عندما يكبرون ، وهى ليست مكتسبة إذ لم يعلمها لهم أحد من الكبار ، وقد قادت محاولات بياجيه للتعرف على مصادر هذه الأفكار (الغريبة) عند الأطفال إلى تكوين نظريته الثورية عن المعرفة .

لماذا إذن هى نظرية ثورية ؟

التصوير ... وجهاز العرض

كانت هناك آراء وأفكار عرفها العالم عن الطفل ونموه العقلى والنفسى ، وعن لغته وتفكيره ... إلخ . ويحلو للبعض أن يلخص ما كان سائدا قبل آراء بياجيه فى تشبيهين ، أو قل تعبيرين لهما وجاهتهما ودلالتهما فيما يتعلق بالتحصيل المعرفى :

١- نظرية (آلة التصوير = الكاميرا)

تقترح هذه النظرية فى المعرفة أن العقل يعمل كما تعمل آلة التصوير عند التقاطها الصور ... وهذه النظرية تبنى على مسلمة أن هناك حقيقة خارج عقل الفرد وهى منفصلة إذن عنه ، وإن كاميرا العقل تلتقط صورا لهذه الحقيقة أو الواقع . وهذه الصور تختزن مكونة رصيد عقل الفرد ، ولكن الموجود فى عقول الأفراد متفاوت ، فإن ما اختزن فى ذاكرة الطفل ، أقل فى الكم مما اختزن فى ذاكرة الراشد . ويمكن تفسير الفروق الفردية فى الذكاء بتأثير نوع الكاميرا ونوع الفيلم ، إذ إن آلة التصوير الجيدة مع الفيلم شديد الحساسية يعطيان صورا أكثر وضوحا ودقة . والكاميرا الهزيلة

مع الفيلم السيىء يعطيان صورا باهتة غير محددة المعالم ، نتاج هذا أطفال أذكياء وأطفال أغبياء ... وما بينهم .

٢- نظرية (جهاز العرض = Projector)

وهى نظرية فى المعرفة أقل شيوعا ولا تستهوى كثيرين ، وترى أن العقل لايعمل كآلة تصوير ، ولكن كجهاز عرض صور . وتنص هذه النظرية على أن الأطفال يأتون إلى العالم ، وقد زودت عقولهم بمكتبة تحوى عديدا من الأفلام ، وهبتها الطبيعة لهم.

وترى هذه النظرية أن العالم الذى يعيش فيه الفرد ليس فيه شىء جديد . إن كل ما فيه مختزن فى عقله (فى مكتبة الأفلام) ، وتعرض آلة العرض (العقل) فى الوقت المناسب صورا عن ذلك العالم . ليس هناك جديد ، وإنما العقل يستدعى ما هو موجود فيه ، أى إن آلة العرض تعرض أحد الأفلام التى ولد الفرد وهو مزود فطريا بها ، والفرق بين عالم الراشد وعالم الطفل يمكن تفسيره بأن عقل الراشد قد عرض أفلاما أكثر مما عرضه عقل الطفل . وتتوقف الفروق بين الأفراد على نوعية آلة العرض من حيث الجودة والصنف ، أو طبيعة ومحتوى الأفلام .

إذن فهناك نظريتان لكل معالمها الواضحة ، الأولى : ترى أن عقل الفرد خاو تأتيه المعلومات من الخارج ، والأخرى ترى أن الطفل يولد وفى عقله ميراث بشرى من الخبرات التى يرثها من الأجيال السابقة .

ويقول سعد مرسى (١) فى هذا الصدد ... «بدأ الجدل قديما بين أفلاطون وأرسطو . اعتقد افلاطون أن العقل والروح لايفترقان ولا يمكن أن يفترقا ، وانهما

---

(١) سعد مرسى أحمد، التربية والتقدم، ط ٣، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ص ٢٨ ، ٢٩ .

يبعثان المرة بعد الأخرى فى أجسام مختلفة ، وعندما ينتقل العقل من جيل إلى جيل.. فإن الحكمة تتراكم فى ازدياد عبر العصور ، وإنها بهذه الصورة موجودة وتحت الطلب ، وعلى هذا الأساس .. فالتعلم عند أفلاطون عملية يعيد فيها العقل - المشكل سابقا - تجميع ما تعلمه خلال مرات بعثه وحلوله فى أجسام سابقة . من فكرة أفلاطون هذه جاءت كلمة education (تربية) ، وتعنى (أن نسحب من) والسحب هنا معناه استخراج شىء موجود ، والمفروض أن هناك حكمة متراكمة موجودة ، وهذه تسحب من الأعماق إلى السطح والخارج .

أرسطو لم يعجبه هذا الكلام ، ورأى أن كل طفل يولد بروح جديدة وبعقل لم يتشكل بعد ، وعلى الرغم من أن للمولود غرائز حيوانية ، فإنه أى المولود ، لايحمل مع ميلاده معرفة سابقة . وعلى ذلك .. فالتعلم - حسب رأى أرسطو - هو عملية وضع المعرفة فى عقل فارغ - أو قل خاو - ولكنه قابل لتقبل هذه المعرفة . ومن فكرة أرسطو .. جاءت كلمة Instruction (تعليم أو تدريس) ، ومعناها تزويد أو تأثيث كما تؤثث شقة خالية .

ومع أن رأى أفلاطون لايجد ترحيبا بين جماعة المربين .. إلا أن فكرته عن العقل المشكل سابقا - كموقف مضاد للعقل غير المشكل - مازالت تستهوى بعض الدارسين .

وقد لايقبل البعض طرفى النقيض : عقل قد سبق تشكيله ، وعقل خاو ولكنه مستعد لأى تشكيل . مرة أخرى ثمة شىء بين الأبيض والأسود ... رمادى اللون ؟ ربما .

نحن هنا أمام فكرتين ، الاختلاف بينهما واضح وعميق ، وتكاد فكرة آلة العرض تنبىء عن اتجاه أفلاطون فى نظرته المثالية وتكاد فكرة آلة التصوير تكشف عن نظرة أرسطو الواقعية .

ثم يفاجأ القرن العشرون برأى يخالف النظريتين الآليتين (آلة التصوير وآلة العرض) . وهو رأى نلخصه الآن فى عبارات موجزة ، كموجز نشرة الأخبار التى تأتى تفاصيلها فيما بعد .

دعونا إذن من الفكرتين السابقتين ، ولنتأمل برهة الرأى الجديد القائل بأن المعرفة البشرية هى عملية بنائية ابتكارية . وهذا يعنى أن الأطفال يكونون (الواقع) بالنسبة لهم من خلال خبراتهم مع البيئة ، بالضبط كما يرسم الفنان لوحة نابعة من انطباعاته .

ليست اللوحة الفنية مجرد انعكاس لانطباعات الفنان ، كما أن صورة شخص يرسمها فنان (بورتريه) هى أكبر من مجرد رسم لقسمات وجهه ... إن عبقرية الفنان تظهر فى هذا المزيج الرائع من خبرته السابقة التى اصطبغت فى حساسية فائقة بخياله المرهف .

وهذا ما يحدث فى عقل الطفل عندما يكون ويبنى واقعه ، إذ إن فهمه ووعيه بما هو موجود فى الواقع لايطابق مطلقا ما تستقبله حواسه من انطباعات ، فهذا الفهم يتأثر بطريقة الطفل فى تكوين المعرفة التى يستوعبها عقله ويحتفظ بها ، حتى تصبح من ممتلكات ذاكرته .

الطفل يعيد بناء الواقع الذى جاءت به حواسه من البيئة .

يقول بياجيه ...: نحن لانعرف حقا البيئة ، ولكن نعرف ما صارت إليه فى عقولنا .

الواقع هو دائما إعادة تكوين ما هو موجود فى البيئة ... وليس مطلقا مجرد نسخة منها .

ليس الطفل مصغر رجل ، وليس الفرق بينهما فى كمية الصور التى التقطها عقل كل منهما ، ولا فى عدد الأفلام التى يعرضها عقل كل منهما

وإنما الفرق فى كيفية بناء الواقع الذى تستقبله الحواس ، وإعادة بنائه ، وأيضا إعادة وإعادة بنائه . عملية البناء وإعادة البناء عند الطفل قوتها محدودة ، وتزداد بزيادة خبراته وسنى عمره .

كان هذا ما فاجأ العالم به ... جان بياجيه ... من هو ؟

سويسرا ... وسيرة عالم

جبال شاهقة تغطى قممها سحب هى غالبا داكنة ، بعضها أبيض اللون طوال العام ، والجليد الذى يكسوها لايذوب بحكم الارتفاع الشاهق . دولة تضم مقاطعات (دويلات) صغيرة يتكلم ثلثها الإيطالية ، وثلثها الألمانية ، وثلثها الفرنسية . دولة كانت دائما على الحياد فى الحروب ، وتكاد تخلو من أنهار الدم التى تفجرها النزاعات الدولية . وكر ممتاز للجاسوسية الدولية إبان النزاعات ، ثم صارت مركزا لجمعيات دولية تعمل للسلام .

بالاضافة إلى سحر طبيعتها ، فلعل من أهم ما تتميز به سويسرا هو ذلك العدد المذهل ، بالنسبة لسكانها الذين يبلغون مليونى نسمة ، من العلماء الأفذاذ التى احتفت بهم العالم . وغريب أن معظمهم فى مجال علم النفس ، منهم على سبيل المثال ممن يندرجون فى قائمة القمم ... كلاباريد Claparede الذى سبق بياجيه بسنوات ، وزار مصر ، وكتب تقريرا عن التعليم فيها ، وكارل جوستاف يونج Carl Gustav Jung فى مضمار التحليل النفسى ، وهيرمان رورشاخ Herman Rorschach صاحب اختبارات بقع الحبر و ... وجان بياجيه Jean Piaget بالطبع . والظاهر أن ظروف الحياة السويسرية ، وتأثير الجينات الوراثية أدت إلى هذا التفوق الكبير فى العلوم الاجتماعية، مع صغر عدد السكان النسبى .

بيرن عاصمة سويسرا اليوم صغيرة المساحة أنيقة وشيقة فى المنظر ، شعارها المميز الدب إذ تملك سبعة منها . ألحوا علينا فى شتاء عام ١٩٨٣ أن نزور أحد المعالم السياحية ، حيث وضعوا هذه الدببة فى حفرة جميلة ، وتتطلع الدببة إلى الزوار والينا ، لتلتقط فى نشوة كميات التين المجفف الذى يلقى إليها .

كل شىء تقريبا فى سويسرا يعمل بنظام دقيق كهذه الساعات السويسرية ، سواء فى القرى المتناثرة فى وديان الجبال الكثيرة ، أو فى المدن الرائعة كزيورخ وبيرن وجينيف ولوزان ، حيث تتوقف رحلتنا فى التاريخ القريب عندها .

عام ١٨٩٦ م فى قرية صغيرة خارج لوزان اسمها نيوشاتيل ... ولد جان بياجيه من أب يعمل أستاذا لتاريخ العصور الوسطى بجامعة لوزان ، ومن أم شديدة التدين فى تمسك عميق بالمسيحية . وكانت الأم دائما لاتجد الارتياح لتلك الآراء الغريبة عن مفاهيمها ، والتى يؤمن بها ذلك الأستاذ الجامعى الذى آمن بعقلانية معينة لم ترض زوجته . وكثيرا ما تعرض الطفل جان لمواقف سمعت فيها أذناه ذلك الجدل بين موقفين الاختلاف فيهما يكاد يكون صارخا . وعندما بدأ عقله يعى أطرافا من تلك العبارات المتداولة بين أمه ووالده ... ازداد الموقف بالنسبة له تعقيدا ، فهرب منه إلى اهتمامات تشغل تفكيره حتى ينفض عنه هذه المصادمات الكلامية التى عبأت جو البيت فى مجادلات لاتكاد تنتهى ، كما شجعته على ذلك قدرات عقلية كانت تتلهف شوقا لترجمة الإمكانية إلى تعبير . وربما كان التفاعل بين هذا الاغتراب المنزلى ، مع تلك القدرات المتطلعة – فى تحفز دافعا – إلى محاولات لكشف واستجلاء أشياء أثارت الكثير من تساؤلاته . إن ثمة شيئا فى داخله يمكن أن تسميه (ماردا فى قمقم) تحرك فى عنف وفى جسارة اللهفة ، بل وفى تحد لهذه البيئة الاجتماعية ، طالبا الانطلاق إلى تفكير عقلانى فى أمور محسوسة بدأت تستحوذ لب وتفكير هذا الطفل الذى ينمو عقليا بسرعة غير عادية . ربما كان القدر يخطط طريقا لميلاد عبقرى ، يعتبر واحدا من قمم علماء النفس فى العصر الحديث .

وقد أثبتت مراحل نمو بياجيه العقلية تنبؤات القدر ، إذ تظهر سمات هذا التفوق العقلى العلمى عندما كتب (وهو فى سن العاشرة) مقالا فى مجلة علمية لها وزنها عن عصفور نادر من عصافير جبال الألب . وجذب هذا المقال أنظار المهتمين - ربما لعلمية وموضوعية لفتتا أفكاره ، وكانتا جديرتين بالاهتمام . أية روعة تلك التى تدلف إلى قلب وعقل هذا الطفل ، كان الأمر كله بالنسبة له رائعا ومثيرا .

وكان من النادرات القليلة التى يجود بها القدر فى أوقات لايعلم متى تكون ، ولكنها تكون . إذ كيف لهذا الصبى وما يزال فى طريقه إلى التعلم والتحصيل أن تنطلق من داخليته شعلة وضاءة فتنجلى أمام عينيه فورة علمية - ربما استعصت على بعض المتخصصين - فإذا هو يكتب فى براعة عن الرخويات . ويعمل فى متحف كمتخصص له الدراية الكافية فى عمله، والتى أرضت رؤساءه ... وكتب ... وكتب ، مما أثار الإعجاب ولما يبلغ السادسة عشرة . إن ثمة شيئا مبشرا ، قد يكون نذيرا يعتمل فى عقل هذا المراهق اللامع ، وهو يخطو فى كل الثقة إلى مشارف النضج .

كانت دلائل تلك الألمعية العلمية وهو يعمل مساعدا لأمين متحف الرخويات ، ثم مسئولا عن قطاع خاص به ، حيث كان يدون فى دقة علمية ما يلاحظه مما يراه فى سلوك كائنات حية هى الرخويات على شواطىء البحيرات ، وتبلورت ملاحظاته فى مجموعة مقالات نشرتها مجلات متخصصة فى علوم الأحياء . وذاع صيته إلى الدرجة التى أضفت عليه صفة (عالم) فى الرخويات ، وفرش الطريق بالورود أمامه عندما عرض عليه ان يكون أمينا لمتحف فى جنيف ... جنيف المدينة الكبيرة ... لمتحف له صيت مدو ، ولكنه لم يستطع أن يتبوأ هذا المقعد الضخم ، فقد كان فى سن السادسة عشرة ولم يتمم بعد مرحلة التعليم الثانوى ، هى روعة فى قمة .

حتمت ظروف معينة على بياجيه الاكتفاء بعمليات الملاحظة الدقيقة للنبات والحيوان ، ولكنه لم يستطع أن يمارس التجارب المعملية ، فقد كانت بيديه علة تهدد

التوافق فى الحركات والدقة المطلوبة فى التجريب المعملى فى علم الأحياء . وكانت لبياجيه اهتمامات عقلانية فى الفلسفة ، خاصة فيما كتبه أرسطو وبيرجسون ، وبالذات فيما كتب عن علم الأحياء والعلوم الطبيعية . وقد أثار انتباهه رأى بيرجسون فى الثنائية بين قوى الحياة والقوى الطبيعية ، ولم تعجبه هذه الثنائية ، ولكنه أعجب بموقف أرسطو ، وهو يكتب فى العلاقة بين الكائنات الحية وغير الحية ، وأنها كلها تخضع لقوانين تتسم بالمنطقية . وفى رأى بياجيه أن الذكاء البشرى هو الذى استطاع - بمنطق رائع - أن يكتشف مبدأ الوحدة بين جميع العلوم : الاجتماعية والبيولوجية والطبيعية ، وكانت وجهة نظره هذه هاديا له فى أعماله التى بهر بها العالم .

وفى عام ١٩١٤م .. عزم النية على السفر إلى إنجلترا ليتعلم الإنجليزية بين أهلها كما كان يفعل شبان عصره ، ولكن الحرب العالمية الأولى اندلعت ، ولم يكتب للعزم أن يخرج إلى حيز التنفيذ ، وربما كان هذا هو السبب فى أن كل كتاباته كانت باللغة الفرنسية ، ويقال إنه كان يفهم الإنجليزية مكتوبة ولكنه لم يكن يتكلمها .

كان تخصصه الأساسى فى جامعة لوزان علم الأحياء ، وكتب رسالته لدرجة الدكتوراه فى الرخويات ، وربما كان يحبها منذ كان يعمل فى المتحف قبل التحاقه بالجامعة .

فى بداية عمله بالجامعة تراءى له أن يترك كل شىء حتى يخلو إلى نفسه بعيدا عن العمل والأسرة والأصدقاء ، ليتأمل فى صفاء التفكير ، واتخذ لنفسه مكانا قصيا فى أحد النزل على ربوة من ربى جبال الألب الشاهقة ، وكان فى ذلك الهدوء الشامل يحاور نفسه عن مستقبله العلمى . وألحت عليه الأفكار فى إصرار فكتب قصة طويلة ضمنها خططا للمستقبل وكأنما هو يزيح ستائر كثيرة ليظهر ما وراءها ، وكأنما كل ستارة تعبر عن عقد من الزمان . وللغرابة المثيرة أن تنبؤاته عن خطط بحثه التى انتوى اتباعها فى مستقبل سنواته ودونها .. تحققت

وأيضا فى بدايات عمله بالجامعة بدأ ينقب فى التراث البشرى عن شىء يهمه ، آملا أن يجد إنتاجا ، خلفه السلف يساعده على أن يربط بين اهتمامه الفلسفى بنظرية المعرفة (هى أحد فروع الفلسفة الذى يهتم بكيفية معرفة الحقيقة - Epistomology وعلم الأحياء - وأمضى فترة فى العيادة النفسية بزيوريخ التى عمل بها يونج ، وكان يلاحظ ويتعلم ويدون . وقد اهتم جان بياجيه بنظرية فرويد فى التحليل النفسى ، بل إنه كتب مقالا عن (أحلام الأطفال) ، استرعى انتباه فرويد . ولم تكن لديه أية رغبة فى الاتجاه إلى ميدان التحليل النفسى ، ذلك أن اهتمامه به لم يعنى عنده أن يكون هذا الميدان مستقبله فى حياته العملية .

وشد الرحال إلى باريس ، حيث عمل فى المعهد الذى أجرى فيه الفريد بينيه Alfred Binet تجاربه عن اختبارات الذكاء . وقد كلف بياجيه بتقنين بعض اختبارات عالم النفس الإنجليزى سيرل بيرت Cyril Burt بحيث يمكن تطبيقها على الأطفال الفرنسيين . وكانت عملية إجراء الاختبارات بالنسبة له غاية فى الملل ، ولكن ثمة شيئا ما شد انتباهه وأثار اهتمامه ، ذلك أن إجابات الأطفال عن الأسئلة كان بها من الغرابة وعدم التوقع ما يثير الدهشة عنده ، فقد كانت من ناحية توقع الاختبار خاطئة ، لكنهاأثارت عنده تساؤلات . وعلى سبيل المثال ما يلى :

سؤال : لون بشرة هيلين أسمر من لون بشرة روز ، ولون بشرة الطفلة روز أسمر من لون بشرة الطفلة جويس . من منهن لونها أقل اسمرارا ؟ (أى الأفتح لونا) ؟

جواب : كلهن شعرهن أصفر .

لم تعن الإجابات الخطأ بياجيه بقدر ما عنته تلك العمليات العقلية عند الأطفال والتى أنتجت هذه الإجابات غير الصحيحة ، ولاح له أن محتوى أخطاء الأطفال فى اجابتهم والوسائل التى أدت إلى تلك الاخطاء لم تكن مصادفة وإنما كانت نتيجة

تكوين عقلي معين أدى إلى هذه الاجابات ، وهذا التكوين العقلي هو المسئول عن تكرار تلك الإجابات غير الصحيحة .

الخبرة التي مر بها بياجيه في باريس أضاءت كثيرا من الشموع في طريق تساؤله ، وهو ينقب عن التراث البشري فيما يتعلق بنظرية المعرفة وعلم الأحياء . وبدأت ملامح الطريق تتضح عندما ارتأى في تحليل طريقة تفكير الأطفال ، ما يمكن أن يشبع رغبته فيما يريد من اكتشاف تلك الصلات بين نظرية المعرفة وعلم الأحياء .

وقد ظن بياجيه أن دراسة تفكير الأطفال لن تستغرق وقتا طويلا ، ولكن حدث غير ما توقع (كما تنبأ في قصته التي كتبها في ذلك المكان القصي على ربوة من جبال الألب) فقد شغلت دراسة تفكير هؤلاء الأطفال بقية حياته العلمية .

وصار بياجيه واحدا من أبرز علماء هذا القرن في علم النفس . وكان معهد جان جاك روسو في جينيف - الذي عاش فيه بعد عودته من باريس - يسجل مع الزمن خطوات صعوده إلى تلك المنزلة العلمية العالية وهو يبحث في (تفكير الأطفال) ، وكتب على التوالي الكتب التالية : اللغة والفكر عند الطفل - الحكم والاستدلال عند الطفل - مفهوم العالم عند الطفل - الحكم الأخلاقي عند الطفل .

هكذا رفعت هذه الكتب مؤلفها إلى منزلة سامية بين علماء النفس في العالم . ولم يبلغ سن الثلاثين حينئذ ، وكانت في رأيه ليست القول النهائي وإنما هي تمهيدات لكتب لاحقة ، ومع ذلك فقد حلا للبعض مناقشتها ومهاجمتها . ومازال الرجل يلاحظ ويفكر ويكتب . وخلا مقعد مدير معهد علم التربية بجامعة جينيف باعتزال العالم كلاباريد،فاختير بياجيه ليكون المدير مع احتفاظه بعمله أستاذا بالجامعة ، واحتفظ بهذين المنصبين حتى اعتزاله .

وجاءت الوفود تترى حيث كان مديرا ، وحيث كان أستاذا تنهل من علمه وتتعلم من منهجه . طلبة أتوا ليتتلمذوا على هذا العالم القدير ، وكانت طالبة اسمها فالنتينا .. وتزوج جان فالنتينا . وسار لبياجيه منها ثلاثة أطفال .. جاكلين ولوران ومونيكا . دخل هؤلاء الأطفال تاريخ علم النفس ، عندما لاحظ بياجيه وبجواره فالنتينا الزوجة الأم سلوك أطفالهما ... وكتب ملاحظاته فى ثلاثة كتب :

- منابع الذكاء عند الطفل .
- تكوين الواقع عند الطفل .
- اللعب والأحلام والتقليد فى الطفولة .

* * *

الطفولة .... وثلاثة كتب

قصد بياجيه من دراسة تفكير الأطفال أن يصل إلى نظرية عامة عن النمو العقلى عندهم ، يتمكن بها من تفسير أسباب أفكارهم الخاطئة التى اكتشفها فى دراساته المبكرة ، وكيف تتحول هذه الأفكار إلى المنطقية المقبولة عندما يكبرون .

وبدا واضحا لبياجيه أن القدرات العقلية التى يكون بها الأطفال الواقع يجب دراستها منذ بواكير الطفولة . وانكب فى عمق ملاحظا أطفاله . ولم يفترض أن للطفل عالما خارجيا يحاول التعرف عليه وتمثله ، وإنما رأى أن الطفل يبنى الواقع كما يحسه ، وتخطى هذا يعنى أن الواقع يختلف من طفل إلى آخر .

هذه النظرة إلى سلوك الأطفال ، سمحت لبياجيه أن يلاحظ ويدرس جوانب من تفاعلاتهم لم تكن تحظى باهتمام العلماء من قبل ، فمثلا .. لاحظ أن الطفل لا يبحث عن شىء يرغبه أو يريده إذا اختفى هذا الشىء عن ناظريه إلا فى نهاية عامه الأول ،

وفسر هذه الظاهرة بأن الطفل الصغير لم يكون بعد فكرة استمرار وجود الشيء ، بعد أن يحجب عن حواسه .

كان علم النفس التقليدى فى هذا الوقت شديد الاعتراض - فى قسوة - على أية تلميحات ، تظهر فى كتابات علماء النفس عن قراءة أفكار الغير ، أو تفسير مشاعرهم بدون دلائل وتبريرات مقنعة تماما . وكان بياجيه يريد أن يضع تصورا عن ماهية خبرة الأطفال عن العالم فى هذا السن المبكر ، ويريد أن يفعل ذلك بطريقة علمية مقبولة وممكنة القياس .

إن حل هذا المشكل الصعب هو دليل آخر على عبقرية هذا العالم الفذ .

فى كتاب «منابع الذكاء عند الطفل» وصف بياجيه نشوء العمليات العقلية عند الأطفال ، كما تلاحظ من الخارج ، أى فى سلوكهم الظاهر ، وقدم شرحا لبعض المفاهيم الأساسية فى نظريته عن الذكاء ، منها مفهوم التنظيم Organization والتكيف Adaptation .

ويتضمن التنظيم عمليات : التصنيف ، والترتيب للأشياء ، والعمليات ، والأحداث فى نظام مترابط ترابطا منطقيا فى عقل الطفل ، فمثلا .. عندما يجمع الطفل الصغير بين مهارتين مستقلتين فى سلوك واحد مثل (النظر إلى شيء) ، و (القبض على شيء) وتتولد عن هاتين المهارتين مهارة أخرى أكثر تقدما هى (التقاط شيء ينظر إليه) .. فإنه هنا قد صنف الأحداث ورتبها ، أى قام بعملية تنظيم عقلى ، مكنه من القيام بالسلوك المطلوب .

ويتضمن التكيف عمليتين أخريين وان كانتا على طرفى نقيض ، إلا أن بينهما صلة وثيقة . هاتان العمليتان هما الملاءمة أو المواءمة Accommodation والتمثيل Assimilation ، والمواءمة تعنى تغيير سلوك الفرد ليتمشى مع البيئة بينما يعنى

التمثيل تغيير البيئة لتتمشى مع سلوك الفرد . فمثلا ... عند الرضيع نجد سلوك المواءمة واضحا ، فهو محتاج إلى الغذاء ولذلك يلائم فمه ليتناسب مع المصدر الذى يرضع منه ، رضاعة طبيعية أو صناعية . وعندما يمس شفتيه أى شىء فهو يتصوره مصدرا للغذاء ويحرك شفتاه ، كأنه يرضع متمثلا هذا الشىء مصدرا للغذاء الذى اعتاده ، وهذا مثال من أمثلة التمثيل .

وقد استمد بياجيه هذين المصطلحين (الملاءمة والتمثيل) من العلوم البيولوجية، فإن الإنسان حين يأكل يتحول الطعام عن طريق المضغ والبلع إلى مادة جديدة ، ويفقد صورته الأصلية ، وذلك حتى يمكن الإفادة منه فى العملية الفسيولوجية التى يقوم بها الجسم . وعملية تغيير عناصر البيئة بحيث يمكن إدماجها داخل تركيب الكائن العضوى ، هى التى تعرف باسم (التمثيل) ، أى تمثل العناصر الخارجية لتصبح جزءا من التكوين العضوى . ولكن الكائن العضوى أثناء قيامه بعملية التمثيل للطعام ، يقوم أيضا بعملية أخرى مهمة ، فهو يلائم نفسه معها ، وبطرق متعددة خلال جميع مراحل التكيف . فالفم يجب أن يفتح ، لكى تمر المادة الغذائية إلى الجهاز الهضمى كله . والأسنان يجب أن تعمل لقطع الطعام ومضغه جيدا ، والطعام يجب أن يبتلع ، وأن تتكيف العمليات الهضمية نفسها مع الخصائص الطبيعية والكيميائية للغذاء حتى تتم عملية الهضم ، أى ان الكائن الحى العضوى يتلاءم مع خصائص الأشياء التى يحاول تمثلها . ويمكن القول بوجه عام إن التمثيل يعنى أن الكائن الحى العضوى قد تكيف ويمكنه معالجة الموقف الذى يواجهه ، والملاءمة تعنى أنه يجب أن يتغير من أجل أن يتكيف والعمليتان فى الواقع مترابطتان احداهما بالأخرى ، فالتمثيل يتضمن الملاءمة ، والملاءمة هى - فى نفس الوقت - تعديل تمثيلى للشىء المتلائم معه

وعملية التكيف بشقيها - التمثيل والملاءمة - تفترض مقدما ، وبصورة دائمة عملية تنظيم . وهذا التنظيم هو عنصر وظيفي ثابت ، كما أن التمثيل هو العنصر الآخر الثابت وظيفيا .

فتمثل الكائن العضوي للطعام وتلاؤم الكائن العضوي معه هما نشاطان منتظمان، يقوم بهما الكائن الحي وبشكل منتظم . ويتضح هذا التنظيم في علاقة الأجهزة العضوية المختلفة داخل الكائن العضوي [1] .

وإذا انتقلنا إلى المجال العقلي أو مجال الذكاء ... فإننا نجد نفس العناصر الوظيفية الثابتة التي وضحت لنا في مجال البيولوجيا ، ويذهب بياجيه إلى أن الذكاء نوع من التكيف ، ولا يمكن الفصل بين التنظيم والتكيف بالنسبة للذكاء - كما هو الحال من وجهة النظر البيولوجية - فهما وجهان مكملان لعملية واحدة سواء كان الكلام عن الذكاء العملي ، أو الذكاء اللفظي .

وكما يتضمن التكيف البيولوجي عمليتي التمثيل والملاءمة ... فكذلك يتضمن التكيف العقلي هاتين العمليتين أنفسهما . والتمثيل العقلي لايختلف كثيرا عن التمثيل البيولوجي ، ففي كلتا الحالتين ، فإن الكائن الحي يتكيف ويمكنه أن يعالج الموقف المعروض عليه . والتمثيل والملاءمة العقليان - كما هو الحال في البيولوجي - عمليتان مترابطتان ، فعملية الإدماج العقلي لحقيقة ما تتضمن دائما كلا من التمثيل والملاءمة ، فلتمثل حادثة معينة .. فمن الضروري - في نفس الوقت - التلاؤم معها ، والعكس صحيح .

---

(١) سيد محمد محمد غنيم . النمو العقلي عند الطفل في نظرية جان بياجيه . حوليات كلية الآداب المجلد الثالث عشر جامعة عين شمس ١٩٧٢ . ص ص ١٣٠ ، ١٣١

ولقد حاول فلافيل Flavell توضيح مفهوم التمثيل والملاءمة عند بياجيه بمثال محسوس ... لنفرض أن طفلا يوجد لأول مرة أمام حلقة تتدلى من خيط . سنلاحظ أن هذا الطفل يقوم بسلسلة من الأفعال التلاؤمية ... إنه ينظر إليها ، يلمسها ، يجعلها تتأرجح يمينا ويسارا ، يمسكها ... وهكذا . وهذه الأفعال لاتحدث من فراغ ، فالطفل لديه خبرة سابقة من تفاعلاته مع عديد من الأشياء ، وكون نتيجة لذلك مجموعة تراكيب تمثيلية توجه هذه الأفعال . يقول بياجيه إن التراكيب التمثيلية هى صور ذهنية عامة ، تعد جزءا من التنظيم العقلى للطفل ، وأفعال الطفل بالنسبة للحلقة عبارة عن ملاءمة هذه الصور الذهنية إلى الواقع المحيط بالحلقة ، وتمثل هذا الشيء الجديد أو دمجه واحتوائه فى هذه الصورة الذهنية العامة .

إن مفهوم الصور الذهنية العامة أو (المخططات العقلية) The Schemas هو من المفاهيم المهمة ، والأساسية التى أوردها بياجيه فى هذا الكتاب . ولم يقدم لنا تعريفا دقيقا لهذا المصطلح ، ولكن يستطيع الدارس المجتهد أن يستنبط المعنى من كتابات بياجيه المتعاقبة .

يقول بياجيه إن الطفل يقوم بعمليتين أساسيتين ، هما : التنظيم والتكيف : وتتحد هاتان العمليتان لينتج عنهما مخطط عقلى ، أى صورة ذهنية عامة يستطيع الطفل بواسطتها أن يفرق بين المواقف المختلفة التى يقابلها أو يتعرض لها ، وكذلك يستطيع فى ضوء هذه الصور الذهنية العامة أن يعمم بين الخبرات والمواقف المتشابهة .

فعندما يواجه الطفل موقفا .. فإنه يقارن بينه وبين مخططاته الذهنية السابقة ، ويتخذ ما يلزم من تلاؤم للموقف أو تمثيل له حتى يستطيع أن يتصرف إزاءه ... ونتيجة لهذا التصرف (الجديد) .. تتغير الصورة الذهنية لتتضمن هذه الخبرة (الجديدة) ، ويصبح لدى الطفل مخطط جديد ، يستخدمه فى تفسير وفهم ما يواجهه

من مواقف مستقبلة .. ولذلك يطلق الكانيد على هذا المصطلح تعبير (أنماط سلوكية) (Behavior Patterns)[1] ، وذلك لأنها تتضمن مجموعة أفعال متتابعة ومترابطة في وحدة ، وتحتوى على العناصر السلوكية المكونة لتلك الأفعال .

وعلى ذلك .. تتضمن هذه الصور الذهنية كلا من العمليات الحسية الحركية والعمليات العقلية والمعرفية ، وهى تتضمن الاستجابات البسيطة التى يمكن التنبؤ بها عمليا على مستوى الفعل المنعكس ، مثلما تتضمن أيضا التنظيمات المعقدة كفهم نظام العدد .

هذه الصور الذهنية وإن كانت قابلة للتكرار إلا أنها - باعتبارها تركيبا عقليا - هى تنظيمات مرنة ، وهى أطر متحركة تطبق على مواقف مختلفة [2] ، وكون هذه الصورة دائمة التلاؤم مع الأشياء وهى تتمثلها ، فهذا دليل على مرونتها وديناميتها ، فهى دائمة الحركة والتغير وتزداد مع تقدم السن .

ويعرض بيهلر Biehler [3] مثالا يوضح فيه كل هذه المفاهيم ... «طفل صغير يواجه بجسم مستدير (كرة) لأول مرة ... هذا الطفل قد كون من خبراته السابقة بعض المهارات البسيطة ونظمها فى تفكيره ... من هذه المهارات القدرة على أن ينظر إلى الشىء الذى أمامه ، والقدرة على القبض أو الإمساك بالأشياء . وعندما يواجه بهذا الجسم الكروى .. يحاول أن يستخدم خبراته السابقة ، ويفيد منها فى التعامل مع هذا الموقف الجديد ... فينظر إلى الكرة ويمد يده محاولا الإمساك بها والتقاطها ... ولكن

---

(1) David Elkind, Op. Cit., p. 33

(٢) سعيد محمد محمد غنيم . مرجع سابق . ص ١٢٩ .

(3) Robert F. Biehler, Psychology Applied to Teaching Houghton Mifflin Co., Boston U.S.A., 2nd ed., 1974, pp. 114, 115

محاولاته الأولى تفشل لأن هذا الشيء الجديد (الكرة) يتدحرج ، ولم يعهد من قبل الإمساك بشيء يتدحرج بهذا الشكل ، فيحاول التكيف مع الموقف بأن يلائم سلوكه طبيعة هذا الشيء الجديد ، فيغير من طريقة إمساكه بالأشياء التى اتقنها من قبل ، ويتمثل المواصفات الجديدة للكرة فى إطار ما لديه من صور ذهنية عن الأشياء وطرق الإمساك بها .

فإذا كانت أول كرة يقابلها صغيرة الحجم حمراء اللون ، فسوف يعتقد أن هاتين الصفتين تنطبقان على كل الكرات ، أى أن كل الكرات بهذا الحجم ولونها أحمر ... حتى يقابل كرات أخرى من أحجام مختلفة ، ومن ألوان مختلفة . وتدريجيا .. تتغير الصورة الذهنية عند الطفل لتتسع لجميع أحجام وألوان الكرات ، وأن يتفهم خصائصها العامة كسهولة الحركة والدحرجة ... إلخ . وفى سبيل ذلك .. يمر الطفل بعدة مراحل فى نموه العقلى ، تحدث فى تتابع منتظم بحيث تبنى كل مرحلة منها على المرحلة السابقة لها، وتمهد كل مرحلة للمرحلة التالية . ويعتقد بياجيه أن جميع الأطفال يمرون بهذه الخطوات نفسها ، وفى التتابع نفسه وتتضح الفروق الفردية بينهم فقط فى سرعة تكوين هذه المراحل ، والانتقال من مرحلة إلى أخرى .

وفى كتاب منابع الذكاء عند الطفل يؤكد بياجيه إمكانية ملاحظة سلوك الأطفال ، والتعرف من خلال الملاحظات الدقيقة ، على سمات مراحل النمو التى يمر بها الأطفال بالنسبة لنمو العمليات العقلية والذكاء .

أما الكتاب الثانى **«تكوين الواقع عند الطفل»** .. فقد اهتم فيه بياجيه بمحتوى تفكير الأطفال أكثر من اهتمامه بنمو العمليات العقلية عندهم . وقد استخدم أسلوبه نفسه فى البحث العلمى ، الذى يعتمد على الملاحظة الدقيقة لسلوك وانفعالات الأطفال ، ولكن هذه المرة حاول تبنى وجهة نظر الطفل نفسه ، وكيف يرى العالم من حوله، وذلك عكس كتابه الأول ، حيث كان الاهتمام موجها لملاحظة سلوك الأطفال كما

يراه الآخرون . وكان يحاول تبرير وشرح ما يعتقد أن (الطفل يراه) أو (يدركه مما حوله) بناء على ملاحظات مرئية بعيدة كل البعد عن التفسير الذاتى . أى أنه تحرى الموضوعية الكاملة فيما يلاحظه وما يدونه عن رؤية الطفل للعالم من حوله . ولمزيد من التأكد .. كان بياجيه يكرر الموقف الواحد عدة مرات ، وبطرق مختلفة حتى يطمئن إلى سلامة نظريته .

فى هذا الكتاب .. تحدث بياجيه عن حاسة الأطفال بالنسبة للمكان والمساحات، وللزمن وعن العلاقة بين الأسباب والنتائج ... وفى كل حالة كان يضرب الأمثلة ويشرح عديدا من التجارب البسيطة التى توضح مقاصده ، وتثرى مناقشاته عن هذه الموضوعات .

ومن أهم النتائج التى توصل إليها بياجيه فى هذا الكتاب أن الوليد فى عمر أقل من ثلاثة أشهر لايرى أن الأشياء لها صفة الدوام ، فإذا اختفت عن حواسه فقد زالت . فمثلا .. ما اختفى عن ناظريه أى حاسة بصره فقد اختفى عن ذهنه ، ولكن يتحول الأمر مع نموه الزمنى [1] .

وفى ثلاثية كتب بياجيه عن الطفولة المبكرة .. يتناول الكتاب الثالث موضوعات «اللعب والأحلام والتقليد فى الطفولة» . وفيه يقول إن الرموز التى يعبر بها الطفل عن الواقع هى نفسها تركيبات كتلك التركيبات التى تكون الواقع، أى إن الرمز المعبر عن الواقع تكون من مجموعة أشياء ، وهذه الأشياء هى نتيجة مواقف مر بها الطفل وأدركها عقله واحتفظت بها ذاكرته ، فمثلا .. عندما يرى

---

(١) وإن كان بياجيه قد أسهب فى وصف التحولات التى تحدث للطفل فى هذه المرحلة ، فلا داع فى هذا الكتاب إلى أن نطيل فيها . فالفكرة العامة أن ثمة تغييرات تحدث فى عقل الطفل ، وقد ترجمت هدى قناوى هذا الكتاب إلى العربية .

الطفل قطعة ورق ممزقة فإنه يصفها باسم شيء رآه سابقا ، كأن يقول إنها فراشة لأن شكل هذه القطعة قريب الشبه ، بالنسبة لنظرته ورؤيته وإدراكه هو ، بالفراشة ، وربما يطلق عليها - حسب خبرته - اسم كسرة خبز (عيش) . وعندما تفتح علبة أمامه .. فإنه يقلدها بفتح فمه ، وعندما تقفل يقلدها بضم شفتيه ... إلخ أى أنه يكون الرموز (وتركيباتها) من التقليد واللعب . وعلى ذلك .. ففى رأى بياجيه أن تكوينات الرموز عند الطفل تتمشى فى نموها مع بقية العمليات التى تؤدى فى مجموعها إلى نموه العقلى ، وإن هذه العمليات الرمزية لاتظهر قبل سن الثانية . وقد يفسر ذلك ما نلاحظه من أن الأطفال لايقصون أحلامهم ، أو يحكون عن كابوس أزعجهم فى نومهم قبل هذا السن . والظاهر أن الأطفال - هنا - ليست لديهم القدرة الفعلية على تكوين الرموز التى تكون محتوى الأحلام .

* * *

ويلوح أن بياجيه كان مشغولا جدا فى الثلاثينات من هذا القرن ... فقد انكب - فى شوق واستمرارية - على ابحاثه عن الأطفال فى نموهم العقلى خلال سنى العمر الأولى ، والتى سينتقل منها إلى مراحل عمرية أخرى . وفى الوقت نفسه كان يحاضر بالجامعة ، وقد بدأ صيته يعم الآفاق ، ويتبوأ مكانة عالمية بين العلماء ، هذا إلى جانب ما قدمه من مقالات ودراسات فى المنطق ونظرية المعرفة .

جذبت شهرته عددا كبيرا من الدارسين النابهين ، وبعضهم دخل تاريخ علم النفس، ومنهم بولندية اسمها جيرترود سيمنسكا Gertrude Szeminsk ، وكانت دارسة رياضيات وهندسة ، واشتركت مع بياجيه فى بحوث مستفيضة عن «إدراك الطفل للأعداد» ونشرت نتائج هذه الجهود فى كتاب يحمل الاسم نفسه ، ويعد من المراجع المهمة فى هذا الموضوع . كانت هناك أيضا باربل انهلدر Barbel Inhelder .

وقد كتبت رسالتها عن الأطفال المعوقين . وقد اختارها بياجيه لتكون مساعدة ، ثم مشاركة مستديمة معه فى بحوثه ودراساته ... ثم خلفته فى كرسى الأستاذية بالجامعة، وكانت أول امرأة تتولى منصبا علميا مهما كهذا المنصب فى سويسرا ، تلك البلد التى لم تمنح النساء فيها حق التصويت فى الانتخابات .

وفى بدايات الاربعينات - عندما كان بياجيه مديرا لمعهد جان جاك روسو - نجحت مجهوداته فى ضمه إلى الجامعة كمعهد للبحوث التربوية والنفسية ، ولكنه كان حريصا كل الحرص على أن يكون ذا طابع ، يختلف عما عرف فى ذلك الوقت عن معاهد وكليات التربية ، التى لم تكن لها حرية الحركة المرغوبة ، وظهر ذلك جليا فى البحوث البينية Interdisciplinary التى كانت تجرى فيه .

واستطاع بياجيه أن يلقى ثقلا كبيرا فى برامج إعداد المعلمين على نمو الطفل وعلى البحوث الخاصة بنفسيته .

وليس صحيحا أن دراسات بياجيه اقتصرت على ملاحظة أطفاله الثلاثة فقط ، ربما حدث هذا وهو يدرس صغار الأطفال . وفى الواقع أن تلاميذ كثيرين له انتشروا بتوجيهاته وإرشاداته ، يدرسون ويبحثون ، يقدمون التقارير عن ملاحظاتهم لمئات الأطفال فى أعمار مختلفة وفى موضوع يحدده هو ..

كان بياجيه يستشعر رغبة لها أساس منطقى ، أو علمى نتيجة دراسة سابقة دفعته إلى سؤال مهم ، يصبح هو موضوعا للبحث . يقتنع بياجيه ويكرس لهذا الموضوع انتباهه واهتمامه لمدة زمنية ، تقل قليلا عن العام أو تزيد قليلا عنه . ويكون هذا الموضوع شغله الشاغل ، ولا يستريح إلا إذا عولج الموضوع من كافة جوانبه . وكان طلبته ومساعدوه ومعاونوه وزملاؤه دائما معه وحوله فى اجتماعات أسبوعية ، لمناقشة ما يجرى فى بحث هذا الموضوع .

وعندما يتجمع لديه حصاد مجهودات البحث فى ذلك الموضوع ، يحمله إلى مكان منعزل فى أحد جبال الألب السويسرية ، ويتفرغ كلية لما أمامه من أوراق . ولا ينزعه من هذه الجلسة إلا رغبة فى المشى على الأقدام ، أو طهى طبقه المفضل من (العجة) . ويتطلع إلى الطبيعة الساحرة حوله ، وعقله يسبقه إلى حيث الأوراق التى تنتظره فى لهفة ، وهو يسرع إليها فى شوق ، وعندما ترتب وتنظم وتدون الأفكار على الورق مربع المساحة وبخطه الكبير ... تنتهى الإقامة فى كوخ الجبل ، ويعود إلى عائلته ، ثم يشغل بميلاد فكرة جديدة تبدأ فى أن ترى نور الشمس .

بياجيه ... ونمو الطفل

النمو كما يراه بياجيه .. عملية لها صفتان :

- الصفة الأولى أن الفرد يولد وبه خاصية النمو ، أى إن النمو فطرى عند الفرد .
- أما الصفة الثانية وهى مرتبطة بالأولى فحيث إنه فطرى فلا يمكن تغييره أو التعديل فى مساره وتطوره .

أى إن النمو عملية فطرية تطورية .

وتمر عملية النمو هذه فى مراحل كبرى أو قل أساسية ، تشتمل كل واحدة منها على مراحل أصغر أو قل ثانوية . ويصف بياجيه المراحل بأنها أدوات لاغنى عنها لتحليل عمليات النمو وفهمها ، وهو يقارنها بالطريقة المستخدمة للتصنيف البيولوجي.)

تعكس كل مرحلة من تلك المراحل مجموعة من الأنماط السلوكية ، التى تحدث فى تتابع محدد فى حقبة تقريبية من العمر ، وإتمام إحدى هذه المراحل يمهد لمرحلة جديدة . مع ملاحظة أن بياجيه استبعد الأسلوب الإحصائى فى وصف هذه المراحل مفضلا الأسلوب الوصفى .

ويمكن تلخيص فكرة بياجيه عن النمو فى التعميمات الستة الآتية [1] :

١- هناك استمرارية محددة لكل عمليات النمو .

٢- النمو يتقدم خلال عمليتى التعميم والتمييز (أى القدرة على ملاحظة أوجه الشبه وأوجه الاختلاف) ، وتتصف هاتان العمليتان بالاستمرارية .

٣- الاستمرارية تتصف بأنها عملية تفتح ، أى إن ما يحدث فى مرحلة نمو ما قد مهد له فى المرحلة السابقة ، كما أنه يمهد للمرحلة التالية . أى إن صفة الاستمرارية موجودة فى كل مرحلة .

٤- كل مرحلة تتضمن تكرارا للعمليات التى تمت فى المراحل السابقة ، ولكن بتنظيمات مختلفة [2] .

٥- التنظيمات المختلفة هذه تكون ترتيبا تصاعديا (أى متزايدا) للخبرات والأفعال عند الأفراد .

٦- يحقق الأفراد مستويات متباينة داخل هذا الترتيب التصاعدى ، ولو أن لكل فرد القدرة على اكتساب كل الخبرات وإمكانية أداء كل الأفعال التى يمكن لأفراد (أى لأطفال) تحقيقها فى مثل أعمارهم .

وقد قسم بياجيه مراحل النمو العقلى إلى أربع مراحل أساسية ، هى :

١- المرحلة الحسية الحركية : The Sensorimotor Stage

وتشمل السنتين الأوليين من حياة الطفل ، أو من الميلاد وحتى يبدأ الكلام . وقد أسماها بياجيه المرحلة الحسية الحركية لأن الطفل خلالها يكون مشغولا بحواسه وأنشطته الحركية ، وقد تعرضنا للكتب الثلاثة التى تناول فيها بياجيه هذه المرحلة .

---

(1) Henry W. Maier, Three Theories of Child Deuelopment, Revised Ed., Harper and Row Pub., New York, 1969, p. 102.

وقد ترجمت هدى قناوى هذا الكتاب إلى العربية

(2) قد أشار المؤلفان سابقا إلى فكرة بياجيه عن الصور الذهنية العامة The Schemas .

٢- مرحلة التفكير التصورى ، أو مرحلة ما قبل العمليات

The Pre-operational Stage

وتشمل الفترة من سن السنتين حتى السابعة . وقد اهتم بياجيه بهذه المرحلة ، خاصة السنوات الأخيرة منها ودرسها بدقة بالغة ، وبشكل لم يتكرر فى دراسته لمرحلة أخرى من مراحله النمائية ، ابتداء من الميلاد حتى النضج .

وحيث إن كتابنا يركز على تربية الطفل قبل المدرسة الابتدائية ، خاصة فى مرحلة رياض الأطفال ، فسيتناول المؤلفان هذه المرحلة بشيء من التفصيل لشرح سبب تسميتها (مرحلة ماقبل العمليات) ، ومعنى مصطلح (العمليات) وخصائص تفكير الطفل فى هذه المرحلة ، وتطبيقات كل ذلك تربويا .

٣- مرحلة العمليات المحسوسة أو العيانية

The Conetete Operations Stage

وتشمل الفترة من السابعة حتى الحادية عشرة .

٤- مرحلة العمليات الشكلية أو المنطقية

The Formal Operations Stage

وتشمل الفترة من الحادية عشرة وما بعدها .

بياجيه ... وما قبل المدرسة

وتنتهى المرحلة الحسية الحركية ... ويكون الطفل قد نظم خبراته إلى الدرجة التى يستطيع فيها محاولة استخدام طرق جديدة ، ليتعامل مع مواقف حديثة عليه ، وهو هنا لايستخدم مالديه من صور ذهنية عامة ، كانت تفيده فى التصرف فى مواقف مشابهة ، أى إن هناك نموا عقليا حادثا عند الطفل .

ويتركز تفكير الطفل فى مرحلة قبل المدرسة الابتدائية على تمكنه من استخدام الرموز ، التى تمكنه من الاستفادة أكثر من خبراته السابقة . وهو هنا يستطيع التعامل عقليا مع أشياء سبق تعامله معها حسيا وجسميا ، إذ إن بياجيه يؤمن بأن الرموز تشتق من عملية تقليد ذهنى ، وأنها تتضمن صورا بصرية وكذلك أحاسيس جسمية . ولأن الرموز تؤسس على مالدى كل طفل من خبرات سابقة .. فإنها - أى الرموز - تختلف من طفل إلى آخر ، فقد يرمز الطفل لصوت صادر من عجلة سيارة بكلمة ، هى رمز مشتق من خبرة سابقة .. فقد يكون هذا الصوت طنين نحلة عند طفل ، وقد يكون دوران ساقية عند طفل آخر . مثال آخر ... كل طفل يدرك معنى الدراجة (العجلة) ولكن لكل طفل فكرته الخاصة المنفردة عن «العجلة» ، وذلك لأن خبرات الأطفال عن الدراجات (العجلات) مختلفة .

إذن فالكلمة كرمز لها ، عند كل طفل ، معنى خاص ، ويرى بياجيه أن من أهم سمات اللغة والفكر عند الأطفال الصغار هى الخصوصية أو التمركز حول الذات ، أىَ إن الطفل يستقل بفكرته ولا يهتم بفكرأو رأى غيره ، فهو يترجم الكلمات ويستخدمها حسب مالديه من خبرات سابقة . ولا يدور بخلد الطفل أن لغيره من الأطفال والكبار أفكارا ومدركات تختلف عما لديه ، وذلك لاختلاف خبرات كل منهم . أن يكون للطفل قدرة على إدراك أن لغيره فكرا ولغة خاصة بهم ، قد تختلف عن فكره ولغته هو، فهذا ما يسمى باللغة والفكر الاجتماعى ، أو التفاعل الاجتماعى ، وهو أمر لايظهر عنده إلا فى سن السابعة أو الثامنة .

ولا ينتج فكر ولغة الطفل المتمركزان حول ذاته من مجرد طريقته الفردية فى فهمه الكلمات ومعانيها . ولكنهما ينتجان أيضا من عدم قدرته على التفكير فى أكثر من شىء واحد فى وقت واحد ، وتؤثر عدم قدرته هذه - بشكل واضح - على منطق تفكيره .

وقد شغلت هذه المسألة بياجيه شغلا كبيرا ، مما دعاه إلى إجراء تجارب عديدة لتحديد درجة فهم الأطفال لمبدأ الثبات أو الحفاظ "Conservation" ، ويعنى أن الكتلة أو المادة لاتتغير بتغير شكل أو هيئة الشيء .

ففى إحدى التجارب .. هناك وعاءان متماثلان تماما فى الشكل والسعة ، وبكل منهما كمية متماثلة من سائل له لون واحد . أمام عينى الطفل فرغ السائل الموجود فى أحد الوعاءين المتماثلين فى إناء ضيق وطويل ، وضع محتوى الوعاء الثانى فى إناء متسع ومنخفض . لاحظ أيها القارىء أن كمية السائل واحدة فى كلا الوعاءين . أفاد الطفل أن كمية السائل فى الإناء الضيق الطويل أكثر من كمية السائل فى الإناء المنخفض الواسع . الطفل هنا يرى أن الإناء الطويل به سائل أكثر ، لأنه يركز فقط على شيء واحد ألا وهو الطول أى الارتفاع ، إذ يرى الطفل أن هذا الإناء يحوى مقدارا من السائل أكثر لأنه أطول . وقد يقول بعض الأطفال أن الإناء الاقصر يحوى مقدارا من السائل أكثر لأنه أوسع . ان قدرة الطفل العقلية فى هذه المرحلة لاتمكنه من إدراك علاقتين فى وقت واحد ، أى الطول والاتساع . ولابد من مضى سنتين أو ثلاثة – فى عمر الطفل – حتى يستطيع أن يتخلص من تركيز انتباهه على شيء واحد ، وعندئذ يمكنه أن يفكر عقليا فى شيئين فى وقت واحد ، مثل : الطول والسعة فى التجربة السابقة. وحينئذ يمكن للطفل أن يفهم أن كمية السائل هى واحدة سواء وضعت فى إناء طويل ، أو قصير ، أى لاتتغير الكمية بتغير شكل الاناء .

ويتدرج الأمر فى نمو الطفل العقلى ، حتى يستطيع الوصول إلى تعميمات مرتبطة بمبدأ الثبات فى الكم والحجم والوزن ... (سوائل – كتلة من الصلصال – عدد من حبات الفول ... تظل هى هى ولو تغيرت الصور أو الأشكال التى تصير إليها . أى إن وزن كتلة من الصلصال ، قطعت إلى عدد من الكرات يظل كما هو بعد أن كانت كتلة واحدة ، وصارت مثلا عشر كرات صلصالية صغيرة) .

ويطلق بياجيه تعبير (العملية أو العمليات) ليصف الطريقة التى يمكن للطفل بها تفهم معنى الثبات أو المحافظة . فيعرف العملية بأنها فعل داخلى يشكل موضوع المعرفة . وأهم صفات هذه العملية قابليتها للانعكاس ، أى عودة الشىء إلى وضعه الأصلى فى الطفل .

ولا يستطيع عقل طفل مرحلة قبل المدرسة أداء هذه العملية . ولذلك أطلق بياجيه على مرحلة النمو هذه مصطلح مرحلة ما قبل العمليات . إن الطفل هنا لايستطيع أن يدرك أن ما كسبه السائل فى الارتفاع لم يفقده فى الاتساع ، فكمية السائل لم تتغير فى الإناء المرتفع عنها فى الإناء المتسع ، وهو لايستطيع تصور عودة السائل إلى الوعاء الأصلى ، حتى يتأكد عقليا أن الكمية لم تتغير .

ومع اقتراب الطفل من سن دخول المدرسة الابتدائية يبدأ ما أسماه بياجيه مرحلة العمليات المحسوسة أو العيانية ، وما زالت عملياته العقلية مرتبطة بالأشياء المادية التى يستطيع أن يدركها بحواسه ، ولكنه لايدرك الصفات المشتركة والعامة بينها ، مما يساعده على إجراء عملية التعميم .

وكما أن الطفل فى مرحلة ما قبل العمليات متمركز حول ذاته فى لغته وتعبيراته ، ومحدد فى تفكيره نتيجة لهذا التمركز الذاتى ... فإن أحكامه أيضا تتأثر به فهو لايستطيع أن يأخذ فى اعتباره آراء ووجهات نظر غيره - سواء من الصغار أو الكبار ، ولا يستطيع أن يفكر إلا فى شىء واحد ، فى وقت واحد .

أطلق بياجيه على هذه الصفة تعبير «الواقعية الأخلاقية» ، ويوضح المقصود بها فى المثال التالى :

الطفل (أ) أراد أن يملأ القلم من دواة للحبر ، فسقطت بعض قطراته على مفرش فلطخه . هنا كان الطفل يريد أن يعاون في ملء القلم بالحبر . طفل آخر (ب) يلعب بقلم والده دون إذن منه ، فسقطت منه قطرة صغيرة على المفرش ... سئل طفل في رياض الأطفال أي الطفلين (أ) أو (ب) خطؤه أكبر ... نتيجة لتركيز طفل هذه المرحلة على شيء واحد (في هذه الحالة حجم بقعة الحبر) فإن حكمه الأخلاقي يكون ضد الطفل (أ) ، والذي كانت دوافعه أفضل إذ كان يريد أن يعاون والده - بأن يملأ له قلم حبره ، وسميت بالواقعية الأخلاقية ، لأن الطفل يركز على الجانب المادي للموقف أي واقعه .

وتتمثل مركزية تفكير الطفل حول ذاته أيضا ، عندما يفسر القوانين والأوامر التي يتعرض لها ، فهو يفسرها دائما من وجهة نظره هو وفي ضوء خبراته هو ... وإذا بدا لنا أن الطفل يخالف الأوامر أحيانا .. فقد يرجع ذلك لعدم فهمه لوجهة نظر الآخرين وما يقصدونه ، فهو لايطيع الأمر لأنه فهمه بطريقته الخاصة (أي أنه لم يفهمه تماما) .

بياجيه .... والسؤال الأمريكي

لقد طاب لقوم من العلماء في غرب أوروبا وعبر الأطلسي في الولايات المتحدة الأمريكية ما خرج به بياجيه من وصف لمراحل نمو الطفل العقلي . وربما تحمس بعض الأمريكيين لهذا التحديد الدقيق لتلك المراحل التي ثبت صدقها وجدواها عند بعض العلماء الاوروبيين الغربيين ، لكن هؤلاء الأمريكيين انتهزوا الفرصة ، وكان السؤال الأمريكي الشهير : كيف يمكن أن نسرع في نمو الطفل عبر تلك المراحل ؟ إن بياجيه ترك الأطفال يفعلون ، ولاحظ أفعالهم من هدى طبيعتهم ، ومن خلال بيئتهم ، وحدد مراحل النمو ، ولم يفكر في أن يسرع في دور الفطرة بل تركها تفعل ما تفعل في نمو الطفل في بيئته . وشاركه في هذا الرأي بعض الأمريكيين الذين تشربوا نظريته وآمنوا

بافكاره فى فهم ووضوح ومنهم دافيد الكايند ، وهيربرت جينسبرج ، وسيلفيا أوبر . وقد أزعجهم ذلك السؤال الأمريكى ، وهو : كيف نسرع فى عملية النمو ، أو الإسراع فى التعلم .

ويرى بياجيه أن أى محاولة فى التعجيل بالنمو العقلى ليست فقط غير محتملة النجاح ، ولكنها أيضا محفوفة بالخطر. وفى مقابلة أجراها الكايند مع بياجيه، وكان موضوعها هذا السؤال الأمريكى ، لخص العالم السويسرى رأيه فى القول التالى:

«فى دنيا التربية ... يجب أن يتاح للأطفال أقصى قدر ممكن من النشاط الذاتى باستخدام الأجهزة والأدوات التى تمكنهم من تحصيل المعارف والمعلومات ، إلا يمكنهم فى العمليات المنطقية - الرياضية أن يفهموا ما يصلون إليه بأنفسهم . وإذا حاول الكبار أن يسرعوا فى إحداث هذا التعلم .. فإن الأطفال سوف يحرمون من لذة اكتشاف المعلومات بأنفسهم ، ولذلك تقل فاعلية ذلك التعلم المفروض عليهم .

ولهذا فلا جدوى من محاولات هذا الإسراع فى النمو ، ونحن لانضيع وقتا عندما يبذل الطفل مجهودا طويلا لاكتشاف المعلومات ، وذلك لأنه يكون مجموعة من العادات والاتجاهات العقلية التى من شأنها أن تختصر الوقت فى عمليات مستقبلية .

إذن .. فالطفل يفهم معنى الرقم والعمليات الحسابية، تبعا لدرجة نموه العقلى ، وفى وقت مناسب لهذا النمو ، أما مايفرض عليه من الكبار لتعلم ذلك المفهوم والضغط عليه والتبكير فيه ... فإن كل ما يحدث أن الطفل يحفظ أو يعرف ولكن الفهم مفقود . وخير من كل هذا أن يكتشف الطفل بنفسه وفى وقت نموه العقلى المناسب» .

لو حاولنا أن نسرع فى عملية التعلم عند الأطفال فى حد لمرحلة النمو العقلى التى وصل إليها الفرد فإننا نجد أنفسنا أمام احتمالين :

(أ) احتمال أن يحول الطفل الخبرة إلى شكل ، يمكنه أن يتمثله تبعا لخبرته السابقة ، وقد يكون هذا التمثل مغايرا لما يريد له الكبير أن يتعلمه .

(ب) احتمال أن يتعلم مجرد رد فعل آلى لمثير ما دون أن يفهمه أو يستوعبه . وهذا التعلم ضعيف فى أثره ، ولا يمكن استخدامه فى عمليات التعميم ، أو فى مواقف مستقبلية ، كما أنه سرعان ما ينسى .

لهذا .. لا يجب الإسراع فى تعليم الطفل سواء داخل المدرسة أو خارجها ، فهناك أشيا، لايمكنه تعلمها فى سن ما ، لأن التكوين المعرفى عنده غير مستعد لهذا التعلم . وإذا حدث وأجبر الطفل على هذا التعلم ، فالنتيجة أن يوصف هذا بأنه تعلم سطحى وغير أصيل وغير نافع ، بل ان ما يتصور الكبار إن الطفل قد تعلمه هو أمر على جانب كبير من الخطأ ، فأثره وقتى ومحدود .

وينصح بياجيه ومعاونوه بأنه بدلا من هذه المحاولات الكثيرة للإسراع فى التعلم .. فإنه لابد أن يفهم المربون أن (القدرة تحدد التعلم) ، وأن معظم أفكار الطفل لاتتكون عنده عن طريق التلقين والحفظ ، لكنها تكتسب تلقائيا . وإن على المدرسين أن يتعرفوا على مرحلة النمو التى يمر بها أطفالهم ، حتى يهيئوا الأنشطة المختلفة التى تساعدهم على أن يتعلموا بأنفسهم . ولأن الأطفال يختلفون فى تفكيرهم عن الكبار ... فجدير بهم أن يتعلموا من زملائهم الأطفال أيضا [1] .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

---

(١) فكرة أن يتعلم الطفل بنفسه ، وأن يتعلم من غيره من الأطفال ، لأن عالمه يختلف عن عالم الكبار من حيث التفكير ظهرت فى كتابات واتجاهات عالمين تربويين ، هما : نيل Neill وهولت Holt ، وكانت ركيزة لآرائهما التربوية .

وتمر السنون

ويستمر بياجيه الذى جاوز الثمانين من عمره فى أبحاثه دون كلل ... يلاحظ ويدون ويضيف إلى المعرفة ...

وتستمر آراؤه فى الانتشار ، وتكتب عن أفكاره الرسائل العلمية ... وتعلو مدرسته شأنا ، وإن ظهر من لهم آراء لاتوافقه تماما ...

وفى يوم ١٦ سبتمبر ١٩٨٠ ... فقدت الأوساط العلمية واحدا من أبرز علماء القرن العشرين ... جان بياجيه .

التدريس ... وعملية التربية

هى نظرة عالم أمريكى قريبة فى ملامحها ، بل وفى مضمونها إلى ما توصل إليه جان بياجيه . ولابد لنا أن نعترف بأن دنيا النصف الثانى من القرن العشرين صارت صغيرة على الرغم من مساحتها التى لم تتغير ... هى صغيرة بفضل وسائل الاتصالات التى قربت المسافات ، ومن ثم صار فى الإمكان الإسراع المذهل فى انتقال الأفكار والآراء .

من جينيف فى سويسرا .. صارت اشعاعات فكرية ، أثرت فى كثير من الأقطار ، والتقطتها عقول المهتمين ، واحتوتها فى تفكير عقلانى متمهل فى تحمس .

من جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية .. يبرز أستاذ فى علم النفس ، وهو مدير الدراسات المعرفية فى المجال التربوى ، بآراء هزت التفكير الأمريكى المهتم بأمور التربية ، وله إسهام كبير فى تربية أطفال قبل المدرسة ، هو كبير وقريب الشبه بآراء بياجيه ، وهذا ما دعا المؤلفان إلى إلقاء نظرة سريعة على موقفه فيما نحن بصدده .

و جيروم برونر Jerome Bruner ، الذى فجر المناقشات التربوية الرائدة بكتابه «عملية التربية» The Process of Education فى بواكير الستينات من هذا القرن . أما كتابه الذى أعطاه عنوان «نحو نظرية للتدريس» Toward a Theory of Instruction (١٩٦٦ م) ، فقدم فيه أسسا لتشكيل النمو العقلى عند الأطفال فى نطاق مخطط مسبق وطويل الأمد . هذا المخطط الذى يتصف بأنه يتضمن تحديدا وتوصيفا لمراحل النمو العقلى ، يعكس اهتمام برونر بالهيكل البنائى للمعرفة ، ومعنى هذا أن للمعرفة بناء له تكوين وتنظيم معينان ، وهذا التكوين يجب أن يؤخذ فى الاعتبار عندما يتعرض الطفل لتعلم المعرفة . ويقول برونر ... «نحن نفتقد وجود نظرية للتدريس ، توجه المعلم فى العملية التربوية . وأى نظريات فى نمو الطفل يجب أن ترتبط بنظريات المعرفة ، وبنظريات التدريس أيضا ، وإلا كانت قليلة الجدوى... بل وتافهة»[١]

وفى نظريته فى التدريس .. يرى برونر أن النمو العقلى يسير فى ثلاثة أنظمة متتابعة موازية لمراحل النمو العقلى عند بياجيه ، ولكنه يختلف عنه فى تفسيره لدور اللغة فى هذا النمو؟ إذ يرى بياجيه أن اللغة والفكر مرتبطان ارتباطا وثيقا ، ولكن كلا منهما يعتبر نظاما مستقلا وأن تفكير الطفل إنما يبنى على أساس من منطقه الذاتى الذى يتكون ويتبلور من خلال تنظيمه لخبراته . وهو - كما سبق القول يؤمن بأن الرموز التى يستخدمها الطفل تنشأ مما يراه حوله وما يقلده من بيئته ، فى حين يرى برونر أن الفكر هو لغة داخلية فى عقل الطفل أى كامنة فيه ، وأن تركيبات اللغة عند الطفل هى التى تتحكم فى مهمة لمبدأ الثبات ، والمحافظة ، وغيره من المبادىء أكثر مما يتحكم المنطق

(1) Jerome S. Bruner, Toward a Theory of Instruction, W.W. Norton and Co. Inc., New York, 1968 p. 21

وثمة اختلافات أخرى بين برونر وبياجيه ، لعل من أبرزها موقف كل منهما من التفكير الرمزى والتخيل عند الطفل ، وفى قضية مدى المساعدة التى تقدم للطفل للتفكير فى مستويات أعلى ، وفى مدى تأثير البيئة المحيطة على النمو العقلى ، وفى إمكانية الإسراع فيه ، وهو الاختلاف بين الرأى السويسرى والسؤال الأمريكى ... يقول برونر فى هذا الصدد ... إن فكرة الاستعداد هى - فى الواقع - نصف حقيقة لعوب ، فلو تركت الطبيعة فى مسراها لصار الطفل مستعدا عندما يكون نموه العقلى مهيأ ، لكن إذا أردت أن تستخدم طرائق وإمكانات ، تعين الطفل .. فقد تنجح فى أن تأخذ بيده حتى يكون مستعدا ، أى يصل إلى مرحلة الاستعداد العقلى، ويتم هذا بلعبة طريفة هى تهيئة بيئة فيها من اللعب والأجهزة والإرشاد الذكى، مما يمكنه من بلوغ هذا الاستعداد ... هذا رأى برونر الذى يؤكده فى عبارته المعروفة ... «إننا (ندرس) الاستعداد ولا نقف متفرجين انتظارا لحدوثه» .

الصفات .. وإجراءات عملية

من وحى ما سبق من آراء بياجيه وغيره من المعاصرين .. سوف نحاول إلقاء الأضواء على الصفات أو السمات البارزة لنمو أطفال مرحلة ما قبل المدرسة ، ومقترحين بعض الإجراءات التربوية التى تواكب هذا النمو ، مع ملاحظة أننا نتناول خطوطها عريضة ، ولا نقصد فى هذا المقام التعرض المفصل لا للصفات ، ولا للإجراءات التربوية التطبيقية .

أولا : الصفات الجسمية

١- يتصف أطفال هذه المرحلة بالنشاط الجسمى الزائد ، ولديهم قدرة طيبة على التحكم فى حركاتهم الجسمية ، ويستمتعون بالحركة لذاتها ، ولذلك هم دائبو النشاط الجسمى

* يتطلب هذا منح الأطفال فرصا كثيرة للجرى والقفز والتسلق ، شريطة أن تعد المعلمة الظروف لإمكانية تحقيق هذه الأنشطة وتحت إشرافها ، ويصعب هذا الإشراف إذا كان عدد الأطفال كبيرا ، وهنا تحتاج المعلمة إلى مساعدة أو أكثر.

٢- ينزع أطفال هذه المرحلة إلى تفجرات نشاطية ، وينسيهم النشاط أنهم فى حاجة إلى الراحة من فرط سعادتهم بهذا اللهو المحبب إليهم .

* يجب أن تعد المعلمة البرنامج ، بحيث تتنوع النشاطات فيعقب كل نشاط جسمى حاد نشاط آخر خفيف هين ، ثم يخصص وقت يستمتع فيه الأطفال بالراحة ، فقد يعقب جرى وقفز مشاركة فى لعبة جماعية ، تستخدم فيها ألعاب تعليمية ، أو آلات موسيقية مناسبة .

٣- تنمو العضلات الكبرى عند الأطفال أكثر فى تلك العضلات التى تتحكم فى حركات الأيدى والأصابع ، لذلك فقد لايوفقون فى أداء حركات تتطلب مهارات يدوية دقيقة ، كإحكام وضع (الزر فى العروة) أو ربط الأحذية ... إلخ .

* تستبعد المعلمة فى تخطيطها أنشطة تتطلب مهارات يدوية دقيقة ، مثل قص ولصق الأشكال الصغيرة بالورق ، أو الرسم بفراجين رفيعة ... وان توفرت لهم الفراجين والأقلام الكبيرة سهلة الاستعمال ...

٤- يجد الصغار فى رياض الأطفال صعوبة فى تركيز أبصارهم على الأشياء الصغيرة ... لذلك يفتقدون القدرة على التوافق الدقيق بين العين واليد .

* نقلل بقدر المستطاع تعرض الأطفال للتعامل مع الأشياء الصغيرة دقيقة الحجم، ولهذا .. يجب أن تكون الصور وأشكال الحروف إذا وجدت كبيرة الحجم ... وعلى العموم .. فالواجب استبعاد التعامل مع الأشياء الصغيرة .

٥ مع أن أجسام الأطفال تتمتع بالمرونة والتطويع ، إلا أن عظام الجمجمة التى تحمى المخ ما زالت رقيقة .

* حذار أيتها المعلمة ثم حذار من تلك المشاحنات بين الأطفال التى قد تتحول من الكلامية إلى استخدام الأيدى ، والتى قد تطول إلى الرأس ، وأن تكون التنبيهات والمراقبة شديدة ، حتى لايحدث فى أثناء الألعاب ماقد يتسبب فى إصابات تضر بالطفل جسميا ، خاصة الرأس .

٦- مع أن طبيعة النمو تحتم أن يكون الأطفال الذكور أكبر جسما من البنات ، إلا أن البنات يكن متفوقات فى جميع مظاهر النمو الأخرى ، خاصة فى المهارات الحركية الدقيقة ، وهذا التفوق من جانب البنات يظهر الأولاد أقل مهارة منهن .

* يجب الابتعاد عن عمليات التنافس فى أداء المهارات بين البنين والبنات ، فيما ترى المعلمة أن نتائج الأولاد ستكون أقل من أداء البنات .

ثانيا - الصفات الاجتماعية

١- يتميز أطفال هذه المرحلة بالمرونة فى علاقاتهم الاجتماعية ، فهم يلعبون ويمارسون الأنشطة مع معظم زملائهم من الأطفال . وقد يكون للطفل صديق أو صديقان مقربان ، ولكنه ينتقل من صداقتهما إلى صداقات أخرى وبسرعة . ويفضل الأطفال أن تكون الصداقة مع نفس الجنس ، أى البنات مع البنات والأولاد مع الأولاد ، وهذا لايمنع من أن تنمو صداقات بين الأولاد والبنات .

* على المعلمة أن تلاحظ باستمرار الأطفال فى نشاطهم ، لتقف أمام حالات الانزواء أو عدم المشاركة فى النشاط ، إذ قد يفضل بعض الأطفال ملاحظة غيرهم ، دون مشاركتهم النشاط . وقد يفضل الطفل الابتعاد عن المجموعة وقد يكون السبب خجلا منه أو عدم ثقته بنفسه ، وهنا يجب على المعلمة أن

تتدخل بالتشجيع والمساعدة . وقد تستخدم فى مثل هذه الحالات بعض الأساليب العلمية كالسوسيوجرام الذى يصف العلاقات بين أفراد المجموعة بعضهم البعض .

٢- تتصف مجموعات اللعب بأنها صغيرة العدد ، أى عدد أفرادها قليل وليست محكمة التنظيم ، وعلى ذلك فهى سريعة التغير .

* على المعلمة ألا تنزعج إذا أكثر الأطفال من تغيير أنواع الأنشطة التى يمارسونها، أى ينتقلون من لعبة جماعية إلى نشاط آخر ، ثم إلى آخر وإلى آخر وهكذا ، فهذا سلوك طبيعى ومتوقع من أطفال هذه المرحلة . وقد يسبب ذلك للمعلمة إزعاجا ومتاعب . ولكنها طبيعة الأطفال ، وعلينا أن نتحمل كل هذا بصدر رحب . وقد يدور بفكرنا أن نحاول ضبط هذه التنقلات من نشاط إلى آخر ... وهذا أمر طيب ، ولكن يجب أن نراعى أنه يحدث أحيانا من بعض المعلمات إصرار على استمرار الطفل فى نشاط معين ، ولا يتركه إلى نشاط آخر، وقد يحدث فى هذه الحالة أن يتحول الطفل إلى سلوك فيه تمرد .

٣- قد تحدث مشاجرات ومنازعات بين الأطفال ، وهذا أمر طبيعى ومتوقع ، ولكن الجميل أن هذه المشاجرات مداها قصير ، فالأطفال يتشاجرون وسرعان ما يتصالحون .

* ولنتصور معلمة ومعها ثلاثون طفلا ، والألعاب والأجهزة التعليمية محدودة . وللأطفال حقوق ورغبات فى استخدام هذه الألعاب والأجهزة . من المتوقع أن تحدث مشاحنات طفيفة .. كأن يتنازع طفلان فيريد كل منهما أن تكون الكرة مثلا من نصيبه . وعلى المعلمة - عندئذ - ألا تتدخل إلا فى الحالات التى يحتدم فيها النزاع ، وهنا تحول انتباه الطفلين المتنازعين إلى شىء آخر ... وقد

سبقت لنا الإشارة إلى واقعة بين طفلين . تنازعا على كرة فدعتهما المعلمة إلى الاشتراك فى نشاط آخر . فرميا الكرة وانهمكا فى ذلك النشاط ، وانقشعت سحابة النزاع وسطعت شمس الوفاق .

حذار أن تلعبى أيتها المعلمة دور الحكم .

٤- يميل أطفال هذه المرحلة إلى التمثيل ، ومعظم ما يحاولون تمثيله ينبع من خبراتهم التى ترتبط بحياتهم مع أسرهم ، وبالحكايات التى يستمعون إليها سواء من أفراد ، أو من خلال أجهزة الإذاعة ، أو من البرامج التليفزيونية .

* على المسئول عن روضة الأطفال أن ينهم بوعى هذه الصفة فى نمو الصغار اجتماعيا ، ويحاول أن يشبعها بما لديه من قدرات ابتكارية ، فقد يؤلف من عندياته موقفا دراميا (الدراما تعنى المأساة والملهاة أى المشاهد الجادة والضاحكة ، والتى تندرج كلها تحت كلمة دراما) ويحكيه للأطفال وتوزع الأدوار ، ويكون تمثيلا من الصغار . يرى البعض أن تمثيل الصغار لأدوار العنف قد يكون متنفسا لما لديهم من كبت نفسى ، ويرى البعض الآخر أن هذا النوع من التمثيل ينمى لدى الأطفال النزعات العدوانية . وكيفما كان الأمر .. فإن الأطفال يحبون التمثيل ، ولعب الأدوار ، وقد يكون من المفيد لهم أخلاقيا أن يعد المسئولون مواقف تمثيلية ذات مغاز خيرة وهادفة نحو تنمية اتجاهات يرتضيها المجتمع .

ثالثا - الصفات الانفعالية

١ يعبر الصغار فى رياض الأطفال عن انفعالاتهم بطريقة صريحة ، وفى حرية . التفجرات الغضبية كثيرة الحدوث .

* أنا طفل لى إحساساتى ورغباتى ... دعونى أعبر وأفصح عنها ، ولا تعاملونى كما تعاملون الإنسان الراشد الذى يستطيع بحكم خبراته وارتباطاته فى المجتمع أن يخفف من غلواء انفعالاته ، أنا لست مثله . وأشعر بالارتياح عندما أغضب وانفجر غضبا ، هذا قد يريحنى . افهمونى . سوف تقولون لى أن هناك حدودا ، ربونى وعلمونى هذه الحدود ، لكننى أحب عندما أغضب أن أعبر عن غضبى .

أنا لاأنسى يوم غضبت على زميلى فضربته ، وجاءت المعلمة وكانت مازالت باسمة الوجه ... ولكنها سألت سؤالا كان لى غريبا ... إذ قالت لى هل فكرت قبل أن تضربه ماذا تكون النتائج ؟ أنا فى مثل سنى لا أفكر بهذه الطريقة ... أنا غضبت فضربت ، ربما بعد ذلك أتعلم أن هذا خطأ ، وعندئذ لن أفعل ذلك مرة أخرى .

جلست إلى نفسى وقد ساءنى ما فعلت مع زميلى . وعندما ذهبت إلى منزلى لاحظ والدى ما أنا عليه وحكيت له الحكاية من البداية . لم يغضب منى وقال لأمى إننى أغضب (يعنى أنا) عندما أكون متعبا أو جائعا ، أو عندما يكثران هما وغيرهما من الكبار الضغط على، والتدخل فى تصرفاتى أكثر من اللازم ، لم أفهم ما قاله والدى ولكننى أقوله الآن ، ربما سأفهمه فيما بعد .

إذا فهمنى الكبار.. فسوف يعرفون أن هذه مرحلة فى عمرى وسوف تمر ، ويحاولون تخفيف ما يقع على من ضغوط هم يسمونها ولا أفهمها (مثيرات للغضب) تنتهى عندما أدخل المدرسة الابتدائية .

٢- نظرا لأن أطفال هذه المرحلة يتعرضون لمواقف كثيرة جديدة عليهم ، ونظرا لأن خيالهم واسع وجامح ، فلذلك تكثر وتضخم مخاوفهم وأوهامهم .

* اعلمى أيتها المعلمة - جزاك الله خيرا - أن هذه المخاوف أمر طبيعى فى حياة

الطفل فى هذه المرحلة ، فلا تسخرى منها ولا تقللى من شأنها ، وخذى الطفل بالهدوء والهوينا ... إن كبت هذه المخاوف بأقوالك هو أمر لن يخلص الطفل منها ، وإن ظهر ذلك لك ، ولكن عواقبه فى المستقبل وخيمة فقد تظهر فى مخاوف مرضية (Phobias) أو إحساسات عامة بالقلق .

ولهذا .. استمعى إلى بانصات ، فإن الأمر شديد الأهمية ، وأرجو أن تتبعى الآتى :

- لاتسفهى بالقول أو بالإشارة من مخاوف الطفل .
- لاتدفعيه إلى نفس الموقف الذى سبب له الخوف .
- لاتتجاهلى ما يذكره الطفل من مخاوفه .

وواجب عليك أن تشعرى الطفل بتقديرك له ولمشاعره ، وأن تبثى فيه الإحساس بالأمن والطمأنينة .

تذكرى أيتها المعلمة أنك مثل ، يقتديه الطفل فى كل تصرفاتك ، فإذا ظهرت حشرة فى الفصل يزعجك وجودها كصرصار مثلا فتمالكى أعصابك وإلا انتقل الانزعاج إلى الأطفال .

لاتجبرى الطفل على عمل ما يثير لديه تخوفا ، بل اتركيه يلاحظ غيره من الأطفال فى نفس الموقف ، ودعيه - على قدر استطاعته - يحاول تقليدهم دون ضغط أو إكراه منك له لعمل شىء يثير تخوفه .

٣- الغيرة بين الأطفال فى هذه المرحلة أمر شائع ، خاصة عندما يطلبون الإحساس التعاطفى من المشرفة نحوهم ، وهذا انفعال طبيعى إذ إن الأطفال يكثرون من حبهم لمعلمتهم ، ويتوقون لرضاها عنهم سواء بالقول أو الفعل . والأمر لا يختلف إذا كان الذى أمامهم معلما أو معلمة . وتوقعى أو توقع أيها المسلم أن الغيرة بين

الأطفال حادثة ، فلا يعقل أن يوجد ثلاثون طفلا وأمامهم راشد ولا يتوقون إلى رضاه واستجداء عطفه ، ولذلك فهم يتنافسون للحصول على الرضا والقبول .

* عليك أيتها المعلمة أن تكوني عادلة وأمينة (بقدر استطاعتك) عندما توزعين عطفك وقبولك وانتباهك واستحسانك بين الأطفال . قللى بقدر استطاعتك من التمجيد والاستحسان العلنى والمبالغ فيه لطفل أمام غيره من الأطفال وتذكرى إحساسك أنت عندما كنت صغيرة أو كنت صغيرا ، وتسمع هذا الإطراء والاعجاب الشديدين لزميل أو زميلة لك هل أحسست بالغيرة ؟

رابعا : الصفات العقلية

١- لدى الصغار فى رياض الأطفال مهارة عالية فى اللغة ، ويحب معظمهم التكلم ، خاصة أمام مجموعة .

* جدير بالمعلمة أن تتيح أكبر عدد من الفرص والوقت ليتحدث الأطفال أمام زملائهم ، واذكر انهم هنا ليس فى المقدره على الكلام والتحدث ولكن فى المقدرة على السكوت والاستماع أيضا . وهذه القدرة تحتاج إلى بذل المجهود من المعلمة لمساعدة الأطفال على تعلم كيف ينصتون ويستمعون . وتستطيع المعلمة أن تعود الأطفال فى حالات تكلم فرد أمام مجموعة أن يكون هناك صوت واحد ، إما هو صوت المتكلم فينصت الآخرون أو صوت واحد من المستمعين فيصمت المتكلم . هو صوت واحد فى وقت واحد .

وجدير بالمعلمة أن توازن بين رغبة الطفل الذى يحب الإكثار فى الكلام ، وبين آخر لايحب الكلام ، وبين ثالث لايجد الفرصة للتحدث أمام المجموعة ، أى لايطغى واحد ويحجب الفرص عن غيره .

ويمكن أن تعد ظروف خاصة يجد فيها الأطفال الخجولون ، فرصا للمرور بخبرات شيقة (القيام بزيارة - مشاهدة فيلم ... إلخ) ، بحيث تعطيهم زادا من المعلومات يشعرهم بشيء من الثقة والأمن ، إذ هم في هذه الحالة يعرفون أكثر مما يعرفه غيرهم من الأطفال فتدب فيهم الشجاعة للتحدث أمامهم .

٢- قدرتا التخيل والابتكار فى تمتيهما فى هذه المرحلة .

* يجب أن تنمى تلك الصفتان من خلال اللعب والرسم وقص القصص ، حيث إن البعض يفتقدون القدرة الابتكارية والتصورية عندما يكبرون فى العمر الزمنى، وهذا يظهر أحيانا فى سلوكهم ، وهم يعملون فى وظائف ، تتطلب أحيانا تصرفات معينة .

ولو أن بعض الأطفال يقعون نهبا لعدم قدرتهم على التمييز بين الخيار والواقع، مما يؤدى إلى مشكلات ترتبط بتكيفهم الاجتماعى ، وعلاقاتهم مع غيرهم صغارا كانوا أم كبارا .

إن جموح خيال الأطفال قد يدفعهم إلى اختراع حوادث وقصص لم تحدث ، ولكنها مبنية على أفكار سولت لهم مخيلاتهم أمورا ، تحولت إلى تخيلات هى من محض أفكارهم . إن دور المعلمة هنا شديد الأهمية فعليها أن تبذل الجهد لوضع اللجام فى فم الحصان الجامح . وهذا أمر جد عسير ، ولكن المحاولة فيه ضرورية ، فلقد تحدد الوقت المخصص لقص القصص لتتيح لهذا الطفل أن يسرد ما يريد قوله ، وقد يكون فى هذا تحديد لانطلاقات خياله ، خاصة أنه يعرف أن بعض المستمعين قد لايقبلون تماما ما يقوله .

وعلى الطفل أن يتعلم - بقدر المستطاع - أن هناك أوقاتا يجب عليه فيها أن يذكر ما حدث كما حدث .

. . . . . .

. . . . . .

تلك كانت إشارات وتنبيهات ترتبط فى هذا الجزء الأخير من الكتاب ببعض صفات نمو طفل ما قبل المدرسة الابتدائية وهى مقدمة فى عجالة سريعة وفى خطوط عريضة .

إن التعرض للخصائص النفسية والجسمية ، لطفل مرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية ، يحتاج إلى أكثر من كتاب ليشفى غلة الدراسة العلمية لهذا الموضوع المهم. وقد يكون فى إثارة بعض الخصائص والاشارة إلى الاجراءات العملية التى تتناسب معها فى مواكبة علمية اجرائية دافع إلى إثارة الاهتمام بضرورة إجراء بحوث كثيرة وعميقة ، لمزيد من الفهم الواعى العلمى ، لما يجب أن يحدث فى تربية الطفل قبل المدرسة الابتدائية .

الدعوة إذن يقدمها هذا الكتاب ، فاتحا الأبواب العريضة لإشباع الرغبات العلمية الصادقة لتربية سليمة قوية للأطفال ، هم عماد المستقبل وثروة الأمم وكنوز تقدمها وارتقائها لخير مجتمع ما وخير مجتمع البشرية بعامة .

* * *

يرجو المؤلفان أن تتجه أنظار الباحثين ، فى بحوثهم عند المقارنة بين النمو النفسى أو الأخلاقى أو المعرفى ... إلخ عند بياجيه وبين عينات من أطفال بيئات محلية ، إلى أن هناك اختلافات بيئية واضحة بين أطفال جينيف ، وأطفال من بيئات قد تكون أقل تقدما ، مع مراعاة فارق الوقت الزمنى .

الفصل الثامن

معلمة رياض الأطفال وكفاياتها
«اليقظة»

* اليقظة
* مواصفات معلمة رياض الأطفال
* الأدوار والمهام
* كفايات معلمة رياض الأطفال
* معلم أم معلمة ؟

الفصل الثامن

معلمة رياض الأطفال وكفاياتها «اليقظة»

اليقظة

كثيرةٌ هي المجهودات البناءة التي بذلت في السنوات الأخيرة على صعيد المجتمع العربي من مشرقه إلى مغربه للاهتمام بالطفل عامة ، بعد أن اتضحت في جلاء أهمية مرحلة الطفولة في بناء الأجيال. تصاعدت هذه الأهمية من أعلى المستويات منتشرة بين صفوف الجماهير في حماس كبير ، إذ إن التغيرات الاجتماعية حتمت نظرة إلى الطفل تتمشى مع تغير الظروف ، وتتمشى أيضا مع ما يجرى في أقطار كثيرة وأجزاء من العالم خارج الوطن العربي ، مع التمسك الراسخ في مجتمعنا بأصالة الاتجاهات والقيم التي يتصف بها هذا المجتمع .

عرفنا القول في الفصل الثالث عن نشأة رياض الأطفال في مصر ، ثم إلغائها ، ثم جاءت الصحوة واليقظة فصار اهتمام حماسي وضروري لوجودها وانتشارها ، بعد أن قلت أعدادها من حيث الدور وإعداد معلماتها .

أما اليوم .. ونحن في السنوات الأخيرة من القرن العشرين .. فإننا نجد يقظة تتمثل في الازدياد المستمر لافتتاح دور حضانة ورياض أطفال ، كما يتواكب هذا مع ازدياد أعداد شعب وأقسام رياض الأطفال والطفولة في بعض الجامعات ، بل وإنشاء كليات خاصة لتخريج معلمات رياض الأطفال ... وما نفتأ نقرأ ونسمع ونرى مكتبات خاصة للأطفال ، ومجلات ، وسينما ومسارح الأطفال ... إلخ . إنها بحق يقظة وبداية لعصر ذهبي للطفل ، يحياه ويعيش مستظلا باهتمام ورعاية الكبار ... أطفال اليوم هم رجال المستقبل .

وقد حظيت معلمة رياض الأطفال باهتمام كبير من المسئولين عن التربية ، وبدأ التفكير الجاد في فتح شعب متخصصة في كليات التربية لتخريج المعلمة المؤهلة تأهيلا عاليا للعمل في رياض الأطفال . ولعل من المفيد إلقاء الضوء على تطور هذا الإعداد في مصر ...

كانت أول محاولة للارتقاء بمستوى من يعملون في تربية أطفال - مرحلة ما قبل المدرسة - في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وذلك بموجب لائحة إعادة بناء التعليم في مصر عام ١٨٨٠ ، وفيها ظهر اهتمام بتحديد مؤهلات من يعمل في هذه المرحلة . وتطور إعداد معلمات رياض الأطفال عندما أرسلت وزارة المعارف العمومية بعض البعثات العلمية إلى إنجلترا عام ١٩٠١ ، واستمر إرسال تلك البعثات حتى عام ١٩١٢ . وفي عام ١٩١٧ .. أنشأت الوزارة القسم الإضافي بمدرسة المعلمات ببولاق ، لإعداد معلمة متخصصة للعمل في رياض الأطفال ، وكانت مدة الدراسة بهذا القسم سنتين ، وكانت تلتحق به خريجات مدارس المعلمات الأولية

وفى عام ١٩٣٦ أنشئت شعبة لإعداد معلمات رياض الأطفال بمعهد التربية للبنات فى الزمالك ، وفى عام ١٩٤٦ أنشىء القسم الإضافى بمعلمات شبرا ، وكانت مدة الدراسة به سنتين أيضا ، وقد حدثت تغيرات كثيرة فى نظم إعداد معلمات رياض الأطفال ، وكأنما كانت العملية تتبع أسلوب التجريب ، حتى إذا كان عام ١٩٥٩ أصبح الالتحاق بالأقسام الإضافية الملحقة بمعاهد المعلمين والمعلمات مقصورا على خريجى وخريجات هذه المعاهد ، واعتبروا أعضاء بعثة داخلية ، واشترط عليهم الاشتغال لفترة لاتقل عن أربع سنوات بمهنة التعليم ، وكانت شعب التخصص هى : التعليم العام ، التربية الفنية ، رياض الأطفال ، والتربية الخاصة ، والاقتصاد المنزلى . ولكن - وبالتوسع فى إنشاء شعب الدراسات التكميلية ، التى انشئت عام ١٩٦٣ - بدأ عدد الأقسام الإضافية بدور المعلمين والمعلمات يتناقص ، ولم يبق منها سوى قسم التربية الخاصة .

وفى ٤/ ١٠/ ١٩٧٠ .. صدر قرار وزارى رقم ٢٤٨ ، بإنشاء شعبة لمعلمات الحضانة بدور المعلمات نظام الخمس سنوات ، ولكن الإقبال على الالتحاق بها كان قليلا ... وفى عام ١٩٧٩ تم تطوير دور المعلمين والمعلمات ، حيث أصبح التخصص فيها يهدف لإعداد مدرس فصل ، وذلك خلال الثلاث سنوات الأولى ، ثم يبدأ التشعيب فى السنتين الرابعة والخامسة إلى شعبتين : شعبة اللغة العربية والمواد الاجتماعية ، وشعبة العلوم والرياضيات . وكانت الطالبة تختار إلى جانب التخصص الأساسى تخصصين آخرين ، أحدهما أساسي وله سبع حصص أسبوعيا ، والثانى فرعى وله حصتان أسبوعيا ، وكان تخصص رياض الأطفال أحد الاختيارات المطروحة للطالبة . وفى عام ١٩٨١ أنشىء قسم خاص (للحضانة) فى كل من معلمات العباسية ومعلمات أسيوط ومعلمات أسوان .

أما على مستوى الدراسة الجامعية ففى عام ١٩٧٤ أنشأت كلية البنات بجامعة عين شمس شعبة لدراسات الطفولة ، لإعداد المتخصصات فى الطفولة ، مدة الدراسة بها أربع سنوات ، تحصل فى نهايتها الطالبة على درجة البكالوريوس . وفى عام ١٩٨٠ تحولت هذه الشعبة إلى قسم مستقل ، تركز فيه الدراسة على الجوانب النفسية ، مثل : الصحة النفسية والقياس النفسى ، بالإضافة إلى مواد ثقافية أخرى، تهم المتعاملات مع الأطفال ، مثل : التربية الفنية والموسيقى والتربية الرياضية .

وتزايد الاهتمام بإعداد المعلمة المؤهلة - تربويا - على المستوى الجامعى للعمل فى رياض الأطفال ، ففى عام ١٩٨٢ تم إنشاء شعب لإعداد معلمة رياض الأطفال فى ثلاث كليات للتربية هى : كلية التربية بجامعة حلوان ، وكانت تقبل الطلاب والطالبات للتخصص فى هذا المجال ، وكلية التربية بجامعة طنطا ، التى أصبحت - فيما بعد - قسما علميا تحت مسمى قسم تربية الطفل ، كذلك كلية التربية بجامعة المنصورة ... ثم توالى فتح هذه الشعب المتخصصة فى كليات التربية بجامعات أخرى فى مصر ، منها ، المنيا وقناة السويس .

وللحاجة المتزايدة لمعلمات رياض الأطفال ، ولمواكبة التوسع فى إنشاء الحضانات ورياض الأطفال على صعيد مصر .. تم إنشاء كلية متخصصة لمعلمات رياض الأطفال، وهى تتبع وزارة التعليم العالى ، وكان ذلك فى عام ١٩٨٨ وموقعها القاهرة، ثم افتتحت كلية أخرى فى الاسكندرية ، وأخرى فى بورسعيد ، هذا بالإضافة إلى شعب لرياض الأطفال ببعض كليات التربية النوعية التابعة لوزارة التعليم العالى .

مواصفات معلمة رياض الأطفال

ورد فى تقرير الحلقة الدراسية التى عقدها المجلس العربى للطفولة والتنمية فى القاهرة فى الفترة من ٣ - ٦ يوليو ١٩٨٩ ، وكان عنوانها «رياض الأطفال فى الوطن العربى بين الواقع والمستقبل» ما يلى :

إن تحقيق الأهداف المنشودة لرياض الأطفال يتوقف - فى المقام الأول - على المعلمة التى يلقى على عاتقها مسئولية تربية أطفال الفئة العمرية من ٣ - ٦ سنوات. ومن ثم يبرز الدور المهم لمعلمة رياض الأطفال المتخصصة والمعدة إعدادا تربويا ، ولذلك فإن قضية إعداد هذه المعلمة لم تعد عملية عشوائية ، بل أصبحت تستند إلى التخطيط المبنى ، على أسس علمية . وبناء على نتائج البحوث المعاصرة والخبرات المكتسبة فى هذا المجال ...

ووضعت الندوة مجموعة شروط لاختيار معلمة رياض الأطفال ، وهى :

١- أن تكون لديها رغبة حقيقية للعمل مع الأطفال الصغار .

٢- أن تتمتع بالاتزان الانفعالى .

٣- أن تكون لديها القدرة على إقامة علاقات اجتماعية ايجابية مع الأطفال والكبار (زميلات فى العمل / أولياء الأمور / المسئولين) .

٤- أن تكون سليمة الجسم والحواس ، وأن تكون خالية من العيوب الجسمية ، التى يمكن أن تحول دون تحركها بشكل طبيعى وبحيوية مع الأطفال .

٥ - أن تكون لغتها سليمة ونطقها صحيحا .

٦- أن تكون على خلق يؤهلها لأن تكون مثلا يحتذى به ، وقدوة بالنسبة للأطفال فى كل تصرفاتها . بما فى ذلك اهتمامها بهندامها ومظهرها العام

٧- أن تتمتع بقدر من الذكاء ، يسمح لها بالاستفادة من فرص التعليم والنمو المهنى ، بما يعود بالفائدة عليها وعلى الأطفال .

٨ أن تتمتع بالمرونة الفكرية التى تساعد على الابتكار ، وأخذ المبادرة فى المواقف التى تواجهها .

الأدوار والمهام الرئيسية التى تقوم بها معلمة الروضة

لعل تحليل أدوار معلمة رياض الأطفال يساعدنا على تحديد الخصائص والصفات والكفايات التى ينبغى أن تتوافر فى المعلمة الناجحة ... ويمكننا تصنيف أدوار معلمة الروضة فى ضوء ثلاثة محاور رئيسية ، هى :

المحور الأول : ويتعلق بدور المعلمة نحو طفل الروضة

المحور الثانى : ويتضمن دور المعلمة نحو ذاتها

المحور الثالث : ويتعلق بدور المعلمة نحو تحقيق متطلبات المجتمع

وفيما يتعلق بالمحور الأول والمتعلق بدور المعلمة نحو الطفل فإن المتطلبات الأساسية لهذا الدور تتلخص فى أن تكون المعلمة قادرة على ما يأتى :

١- توفير الظروف المناسبة لتحقيق جوانب النمو المختلفة للطفل ، على نحو متكامل (جسميا ونفسيا وحركيا ومعرفيا)

٢- إثارة دافعية الطفل للتعلم .

٣- تشجيع الطفل على اكتساب الخبرات ذاتيا

٤- مساعدة الطفل على اكتساب المفاهيم وتنميتها ، لكونها اللبنة الأولى للتفكير العلمى .

٥- تدريب الطفل على المهارات الأساسيات المساعدة له على التعلم

٦- توجيه سلوك الأطفال لتكوين العادات السليمة

٧- غرس القيم والاتجاهات التربوية المرغوب فيها .

٨- إتاحة الفرص المناسبة أمام الطفل للتعبير عن نفسه بشتى الصور .

٩- تهيئة البيئة التي توفر للطفل الشعور بالأمان ، والاطمئنان والاستقرار النفسي .

١٠- تقوية الصلة بين الطفل والبيئة .

وفيما سيتعلق بالمحور الثاني ، والخاص بدور معلمة رياض الأطفال تجاه ذاتها.. فإن المتطلبات الأساسية تتلخص فيما يلي :

١- الاقتناع بأهمية مرحلة الطفولة ، وأثرها في نمو شخصية الفرد .

٢- تأكيد الدور التربوي المهم الذي تؤديه معلمة الروضة المتخصصة والمؤهلة .

٣- سعي المعلمة في رياض الأطفال نحو تطوير ذاتها ، ورفع كفاءتها وتوسيع دائرة خبرتها .

٤- الإيمان بأهمية التعاون والعمل الجماعي ، وبدورها على أنها قدوة حسنة بالنسبة للأطفال

٥- احترام أخلاقيات المهنة والاعتزاز بالانتماء لها .

٦- الاهتمام بقضايا مجتمعها ، وتوظيفها في عملها مع الأطفال .

ويتطلب المحور الثالث والخاص بدور المعلمة في المجتمع ما يلي :

١- قيام المعلمة بدورها على أنها حلقة وصل بين الطفل والمجتمع ، وأن تعمل على إثراء ، وتثقيف المجتمع المحلي عبر سياسة الباب المفتوح للروضة .

٢- تعرف المعلمة البيئات الثقافية والاجتماعية التي يأتي منها الأطفال ، وأخذها في الحسبان من أجل تحقيق الاستمرارية والتكامل في خبراتهم

٣- تطوير الخدمات التربوية التى تقدمها الروضة لتصل إلى الأسر فى بيوتها
٤- توظيف الإمكانات البشرية المتوافرة فى بيئة الطفل من أجل إثراء العملية التعليمية .

كفايات معلمة رياض الأطفال

إن تحديد وتحليل أدوار معلمة رياض الأطفال هو نتاج لحركة تربوية ظهرت منذ الستينات من القرن الحالى خاصة فى برامج إعداد المعلم ، عرفت باسم «إعداد المعلم بناء على الكفايات ، المطلوب منه إتقانها فى عمله» .

Competency Based Teacher Educatien (CBTE)

وظهرت البحوث والدراسات التى تحاول تحديد كفايات المعلم فى التخصصات المختلفة ، وفى المراحل التعليمية المتعددة ، وتعرف الكفاية بأنها سلوك يتضمن المعارف والمهارات والاتجاهات التى يعتقد أنها ضرورية للمعلم ، إذا أراد أن يعلم تعليما فعالا ... وبذلك يرتبط مفهوم الكفاية بالعناصر التالية :

-- أدوار ومهام المعلم .
-- الأداء الذى يظهره المعلم .
-- المعلومات والمهارات اللازمة لعمل المعلم .
-- الاتجاهات والقيم التى يتحلى بها المعلم فى عمله .
-- النتائج التى يسعى المعلم إلى تحقيقها .

وتقسم كفايات المعلم بطرق مختلفة ، فأحيانا تقسم إلى :

١ كفايات التخطيط والإعداد قبل التدريس

٢- كفايات الأداء ، وهى ما يتم خلال الموقف التعليمى .

٣- كفايات التقييم وترتبط بقدرة المعلم على الحكم على نتائج الموقف التعليمى، ومدى تحقق الأهداف

ونركز فى هذا الفصل عن كفايات معلمة رياض الأطفال على كفايات الأداء ، لما تتصف به من خصائص متميزة عن كفايات أداء معلمى المراحل التعليمية الأخرى . وقد أجرت عزة جاد النادى بحثا للحصول على درجة الماجستير ، بإشراف الدكتورة كوثر كوجك بعنوان : «الكفايات الأدائية الأساسية ، ومدى توافرها فى معلمات رياض الأطفال»[1] وكان من إسهامات هذا البحث التوصل إلى قائمة الكفايات الواجب توافرها فى معلمة الروضة . ونوردها هنا كما توصلت إليها الباحثة ، وأطلقت عليها «قائمة الكفايات الأدائية الأساسية اللازمة لمعلمة رياض الأطفال» .

اشتملت هذه القائمة على سبعة مجالات ، تمثل فى مجموعها جوانب الأداء التى يتطلبها عمل معلمة رياض الأطفال ، ويعتبر كل مجال منها كفاية رئيسية ، تندرج تحتها مجموعة كفايات فرعية محددة على النحو التالى :

تخطيط البرنامج (٥) كفايات ، الإعداد للبرامج (٣) كفايات ، تنفيذ البرامج (٢٦) كفاية ، إدارة العملية التربوية (٨) كفايات ، التفاعل مع الآخرين (١٢) كفاية ، التقييم (٤) كفايات ، النمو المهنى (٣) كفايات .

وفيما يلى قائمة الكفايات الأدائية الأساسية بالتفصيل :

---

(١) عزة جاد النادى : الكفايات الأدائية الأساسية ، ومدى توافرها فى معلمات رياض الأطفال . رسالة ماجستير ، غير منشورة ، بكلية التربية ، جامعة حلوان ١٩٨٧ . (اشراف أ . د كوثر كوجك)

أولا : الكفايات اللازمة للتخطيط للتعليم

١- تجمع البيانات اللازمة عن الأطفال التى تشرف عليهم ، والتى تساعدها على تخطيط البرامج المناسبة لهم .

٢- تختار الأهداف التربوية المناسبة للمرحلة ، والظروف الاجتماعية والاقتصادية المتوفرة فى الروضة .

٣- تحدد المصادر المتنوعة التى يمكن الإفادة منها عند تخطيط برامج الأطفال .

٤- تنوع البرامج التى تخططها للأطفال ، بحيث يتم بعضها داخل الحجرة ، وبعضها خارجها ، وبعضها خارج الروضة .

٥- تعد البرامج للأطفال .

(أ) تحدد مجالات الوحدة .

(ب) تصوغ الأهداف سلوكيا .

(جـ) تحدد الأنشطة التعليمية التى تساعد فى تحقيق الأهداف .

(د) تختار أساليب تعامل مناسبة للأطفال .

(هـ) تختار الأدوات والخامات اللازمة لتنفيذ البرنامج .

(و) تحدد أساليب التقييم التى سوف تستخدمها .

ثانيا : الكفايات اللازم توافرها للإعداد للتعليم

١- تهيىء البيئة التربوية الملائمة لنمو الأطفال ، ولإتاحة الفرصة لظهور مواهب الأطفال .

٢- تعد الأدوات والخامات والوسائل لتنفيذ البرنامج اليومى ، سواء داخل الحجرة ، أو خارجها .

٣- تختار ألعابا تربوية للأطفال يمارسونها داخل الحجرة أو خارجها

ثالثا : الكفايات اللازم توافرها لتنفيذ البرامج فى رياض الأطفال

١ - تثير دافعية الأطفال للنشاط ، والمشاركة فى تنفيذ البرامج .

٢- تنوع فى الأنشطة وطرق التعامل مع الأطفال .

٣- تستخدم أسلوب التعزيز الفورى والمستمر .

٤- تبتعد عن أساليب التخويف .

٥- تراعى الفروق الفردية بين الأطفال .

٦- تستخدم لغة بسيطة مع نطق سليم ، وتدعم حديثها بالأمثلة والتشبيهات .

٧- تسمح للأطفال بالتعبير عن أنفسهم ودوافعهم ورغباتهم .

٨- تترك للأطفال الحرية فى ممارسة الأعمال ، التى تتمشى مع موجهاتهم الداخلية فى حدود النظام ، مع إرشادهم لأماكن ممارسة الأنشطة المختلفة .

٩- تهيئ الظروف المناسبة للأطفال ذوى الحاجات الخاصة .

١٠- تعد الأنشطة التى تساعد على النمو الحركى عند الأطفال .

١١- تساعد الأطفال على تكوين عادات صحية وغذائية سليمة .

١٢- تقوم بعملية التنشئة الاجتماعية للأطفال ، وتساعدهم على تكوين علاقات اجتماعية سليمة مع أقرانهم من الأطفال ومع الكبار .

١٣- تكون مرنة عند تنفيذ التخطيط الذى قامت به .

١٤- تساعد الأطفال على تكوين ميول جديدة عن طريق علاقاتهم مع غيرهم من الأطفال ، وممارستهم الأنشطة المختلفة .

١٥- تهتم بالتنمية العقلية للأطفال ، وتساعدهم على الفهم وإدراك العلاقات ، وحل المشكلات ، والابتكار فى حدود قدراتهم العقلية .

١٦- تكون قادرة على تنفيذ الأنشطة المتنوعة ، التى تساعد الأطفال على اكتساب المهارات الفنية المعقدة .

١٧- تختار القصص المناسبة للأطفال ، وتقصها عليهم بطريقة شيقة .

١٨- تلاحظ الأطفال أثناء ممارستهم الأنشطة ، مع توجيه الإرشادات والتدخل إذا دعت الضرورة .

١٩- تستغل مالدى الأطفال من قدرات وإمكانات ومهارات فى تنفيذ بعض جوانب البرامج .

٢٠- تساعد الأطفال على اتخاذ القرارات السليمة .

٢١- تنوع الأنشطة حسب البيئة المحيطة واهتمامات الأطفال وتحاول باستمرار ربط أنشطة الطفل بأنشطة المجتمع .

٢٢- تربط بين المفاهيم الجديدة للطفل والمفاهيم السابقة له .

٢٣- تعود الأطفال على استخدام الكتب بما تزود به الحجرة بالعديد والمتنوع من كتب الأطفال المصورة .

٢٤- تتيح فرص التعلم الذاتى للأطفال بأن تترك للأطفال الفرصة لتصحيح أخطائهم بأنفسهم تحت إرشاد المعلمة .

٢٥- تعود الأطفال المحافظة على نظافة وترتيب المكان ، وما يستخدمونه من ألعاب وأدوات وخامات .

٢٦- تحافظ على نظافة وجمال البيئة المحيطة بالأطفال داخل الروضة ، وتشركهم معها فى هذه المسئولية .

١٦- تكون قادرة على تنفيذ الأنشطة المتنوعة ، التى تساعد الأطفال على اكتساب المهارات الفنية المعقدة .

١٧- تختار القصص المناسبة للأطفال ، وتقصها عليهم بطريقة شيقة .

١٨- تلاحظ الأطفال أثناء ممارستهم الأنشطة ، مع توجيه الإرشادات والتدخل إذا دعت الضرورة .

١٩- تستغل مالدى الأطفال من قدرات وإمكانات ومهارات فى تنفيذ بعض جوانب البرامج .

٢٠- تساعد الأطفال على اتخاذ القرارات السليمة .

٢١- تنوع الأنشطة حسب البيئة المحيطة واهتمامات الأطفال وتحاول باستمرار ربط أنشطة الطفل بأنشطة المجتمع .

٢٢- تربط بين المفاهيم الجديدة للطفل والمفاهيم السابقة له .

٢٣- تعود الأطفال على استخدام الكتب بما تزود به الحجرة بالعديد والمتنوع من كتب الأطفال المصورة .

٢٤- تتيح فرص التعلم الذاتى للأطفال بأن تترك للأطفال الفرصة لتصحيح أخطائهم بأنفسهم تحت إرشاد المعلمة .

٢٥- تعود الأطفال المحافظة على نظافة وترتيب المكان ، وما يستخدمونه من ألعاب وأدوات وخامات .

٢٦- تحافظ على نظافة وجمال البيئة المحيطة بالأطفال داخل الروضة ، وتشركهم معها فى هذه المسئولية .

رابعا : الكفايات اللازمة لإدارة العملية التعليمية

١- تحسن استخدام الإمكانات والموارد المتاحة .

٢- تستخدم أسلوبا ديمقراطى فى التعامل مع الأطفال .

٣- تحسن توزيع المسئوليات على الأطفال ، بما يتمشى مع قدراتهم واستعداداتهم .

٤- توجه الأطفال توجيهات بناءة ، بما يتطلبه الموقف ، سواء كان توجيها فرديا أو جماعيا.

٥- تساعد الأطفال على حل مشكلاتهم ، والتصرف السليم فى المواقف المختلفة .

٦- تعمل على تأكيد روح التعاون بين الأطفال .

٧- تساعد الأطفال على التفرقة بين الحرية الفردية والفوضى

٨- تساعد الأطفال على ممارسة الحرية الفردية ، مع عدم المساس بحرية الآخرين .

خامسا : الكفايات اللازمة للتفاعل مع الآخرين

١- تكون علاقات طيبة مع الأطفال ، وأولياء أمورهم ، وزملائها ، ورؤسائها

٢- تستمع باهتمام لما يريد أن يقصه الطفل .

٣- تسمح للأطفال بأداء آرائهم وتحافظ على مشاعرهم

٤- تشارك فى أوجه النشاط بالروضة وخارجها

٥- تجرى اجتماعات مع أولياء أمور الأطفال للتنسيق بين أساليب التربية فى الروضة والمنزل

٦- تراعى المساواة فى معاملة الأطفال

٧- تساعد الأطفال على تكوين علاقات طيبة مع بعضهم البعض

٨- تكون علاقات فردية بينها وبين كل طفل على حدة

٩ لاتكثر من الأوامر والنواهى الموجهة للطفل .

١٠- تسمح للأطفال بالتعبير عن حاجاتهم ، ورغباتهم ، وميولهم ، وقدراتهم .

١١- تتقبل - فى صبر - أخطاء الأطفال ، وتساعدهم على تصحيحها .

١٢- تصدر توجيهات فى رنة صوتية مشبعة بالحب ، ومعززة بوجه صبوح .

سادسا : الكفايات اللازمة للتقييم

١ تقييم البرنامج التعليمى من خلال ما يظهره الأطفال من تقدم ، وتحسن في سلوكهم ومعلوماتهم ومهاراتهم

٢- تقوم بعملية تقييم ذاتى لنفسها ، وأهدافها وأنشطتها ، وطرق تفاعلها مع الأطفال، وأساليب التقييم التى اتبعتها فى تقييم برنامجها .

٣- تفسر نتائج التقييم للوقوف على النواحى الإيجابية ، والنواحى السلبية فى عمليتها التربوية .

٤- تعالج نقاط الضعف التى تكتشفها فى التقييم ، وتدعم نواحى القوة .

سابعا : الكفايات اللازمة للنمو المهنى

١- تتابع الجديد فى مجال التربية عامة ، ورياض الأطفال خاصة .

٢- تتعلم المهارات التى تعزز عملها مع الأطفال .

٣- تحاول أن تستفيد من خبرات زملائها ، ورؤسائها فى مجال عملها .

معلم أم معلمة لرياض الأطفال ؟

لعل القارئ، قد لاحظ خلال فصول هذا الكتاب أننا نتحدث عن المسئول عن تربية الطفل فى رياض الأطفال على أنه «معلمة» أحيانا ، و «معلم» أحيانا أخرى هذا المزج بين المعلم والمعلمة مقصود وهادف ، حيث إننا نريد أن نقول إن العمل مع الأطفال فى مرحلة ما قبل المدرسة لايقتصر فقط على الإناث ، بل يجب أن يتضمن أيضا الذكور .. وهذا الرأى يتفق مع نتائج البحوث العلمية والدراسات التى تشير إلى أهمية أن يكون مجتمع الروضة صورة من المجتمع الخارجى الذى يتعرض له الطفل ... وبلاشك أن أى مجتمع صحى لابد وأن يجمع بين أفراده الرجل والمرأة . الكبير والصغير ... وفى بحث أجرته مايا باينز Maya Pines سنة ١٩٦٧ تقول إنها وجدت إن أطفال الروضة لايحتاجون فقط إلى من يمثل دور الأم ، بل أيضا إلى من يمثل دور الأب (١) . وتقتبس د . باينز من تيودور ريك Theador Reik قوله إن حنان الأم عاطفة لازمة ومطلوبة للاستقرار النفسى للطفل ، ولكن مشاعر وأسلوب تعامل الأب هو أيضا أمر حيوى للنمو النفسى للطفل فى هذه السن . ويؤكد هذا الرأى كل من روبرت هيس Robert Hess ، ودورين كروفت Doreen Croft فى كتابها «معلمون للأطفال الصغار» (٢) بقولهما : إن العمل فى رياض الأطفال يتطلب متخصصين من الرجال والنساء ، ليس فقط كمدراء لهذه الدور ، ولكن للتعامل المباشر مع الأطفال كمعلمين ومعلمات ، وكمساعدين ومساعدات للمعلمين .

---

(1) Maya Pines : Revolution in Learning; The Years from Birth to Six, Harper & Row Pub., New York , N.Y. 1967 p. 64.

(2) Robert D. Hess & Doreen J. Croft : Teachers of Young Children Houghton Mifflin Co. , N.Y .U.S.A, 1972 , p . 40

ويكثر فى الأدب التربوى عند الحديث عن رياض الأطفال ، وعمن يقوم على العملية التربوية فيها أن يذكر ضمير «هو» و/ أو «هى» "She / he" "his / her" للدلالة على أن هذه المؤسسات التربوية تضم ذكورا إلى جانب الإناث ، وإن كانت الغالبية من الإناث . وقد تخرج فى كلية التربية جامعة حلوان بعض المعلمين من شعبة رياض الأطفال ، أثبتوا فى دروس التربية العملية الميدانية نجاحا واضحا ، الأمر الذى لم يعجب البعض ، فتوقف قبول الطلبة للأسف فى هذه الشعبة ، وبذلك لم نساير اتجاها تقدميا فى غالبية الدول الغربية .

ولعل من يهتم بهذه القضية يرجع إلى الكتب التالية :

1- John P. Houston : Fundamentals of Early Childhood Education, Winthrop Publishing, Inc. Cambridge , Massachusetts , 1980.

2- Verna Hildebrand : Introduction to Early Childhood Education 3rd Ed. , 1981 .

3- Sydelle H. Hatoff et al : Teacher's Practical Guide for Educating Young Children , Research for Better Schools , Inc. Boston, Massachusetts, U.S.A, 1981 .

4- George J. Mouly : Psychology for Teaching, Allyn and Bacon, Inc., Boston, 1982 .

5- Barbara Day : Early Childhood Education , Creative Learning Activities 2 nd Ed. MacMillan Pub. Co. , Inc. New York., 1983 .

6- Stewart Cohen & Gwenneth Race : Growing Up with Children, CBS College Pub. , N. Y. 1987 .

7- Sue BredeKamp , Ed. : Developmentally Appropriate Practice in Early Childhood Programs Serving Children from Birth through Age 8, NAEYC , Washingtion , D.C. 1989

* * *

معلم ومعلمة أو معلمة فقط ، وكيفما كان الأمر فإنه من الأهمية القصوى حسن إعداد من يقوم على تربية الأطفال ... ليس الأمر بالمحاولة والخطأ ، كما أنه لايقتصر على معرفة بسيطة بالأطفال ، بل ولا معرفة بهم ، وإنما هو سد فراغ أو تمضية سنة الخدمة لخريجات الجامعة .

ونحمد الله .. فقد صارت كليات وأقسام بكليات لإعداد معلمات رياض الأطفال على أسس علمية سليمة ... كما نرجو .

إن الأمر يحتاج إلى عشرات الألوف ممن أهلوا للقيام بهذا العمل النبيل .

تم بحمد الله

المراجـــع

المراجع العربية :

١- أحمد نجيب : كتب الأطفال قبل السادسة - ص ص ٣٢٣ - ٣٨٠ . فى الحلقة الدراسية الإقليمية : كتب الأطفال فى الدول العربية والنامية - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣ .

٢- إخلاص نور الدين عبدالظاهر ، وآخرون : برنامج مقترح لتنمية المهارات الحركية الأساسية لأطفال مرحلة ما قبل المدرسة . فى مؤتمر ثقافة الطفل وسائل الإعلام - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز الطفولة ١٩٨٥ .

٣- إلهام مصطفى عبير : اللعب كوسيلة تربوية للطفل فى مرحلة ما قبل التعليم الأساسى . فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٤- أمتثال محمد ، وأمين كامل ، وعثمان جلال : أثر التغذية فى سلوكيات الأطفال دون السن المدرسى . فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى : تنشئة وعاية - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٥- أميرة سيد فرج : الأغنية كمعلومة متكاملة لطفل الحضانة من أربع إلى ست سنوات فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى : تنشئة ورعاية القاهرة . جامعة عين شمس مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨

٦- بيومي محمد صخاري : التوازن المفقود بين الأسرة والمدرسة . في المؤتمر السنوي الأول للطفل المصري : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس. مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٧- تادرس مرقص حنا : الإعلام وتربية طفل ما قبل المدرسة . في المؤتمر السنوي الأول للطفل المصري : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٨- حسن محمد حسان : دراسة تقويمية لبرامج إعداد معلم دار الحضانة . في المؤتمر السنوي الأول للطفل المصري : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٩- رمزية الغريب : الاتجاهات العالمية في تربية طفل ما قبل المدرسة . في ندوة تربية الطفل في السنوات الست الأولى - الخرطوم : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ١٩٧٧ .

١٠- روث م . بيرد : جان بياجيه وسيكلوجية نمو الأطفال - ترجمة فيولا فارس البيلاوي - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٧٦ .

١١- سعد مرسي أحمد : فروبل وفلسفته في التربية - دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٥٢ .

١٢- ـــــــ : تطور الفكر التربوي - الطبعة الخامسة - عالم الكتب - القاهرة - ١٩٨١ .

١٣- ـــــــ : طفل الحاضر ؛ فكر فلسفي لتربية - عالم الكتب - القاهرة - ١٩٨١ .

١٤- سيد محمد محمد غنيم : النمو العقلى عند الطفل فى نظرية جان بياجيه - حوليات كلية الآداب - جامعة عين شمس - العدد ١٣ - ١٩٧١ .

١٥- : النمو العقلى عند الطفل فى نظرية - جان بياجيه - حوليات كلية الآداب - جامعة عين شمس - العدد ١٤ - ١٩٧٢ .

١٦- عبدالعزيز القوصى ، وسعد مرسى أحمد ، وكوثر كوجك : «رياض الأطفال فى الوطن العربى - الواقع والطموح» - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس ١٩٨٦ .

١٧- عبدالمنعم ثابت : أجهزة الإعلام وأثرها فى تثقيف الطفل . فى ندوة الرعاية الشاملة لطفل ما قبل المدرسة - القاهرة : وزارة الشئون الاجتماعية. اللجنة الدائمة للاحتفال بعيد الطفولة، ١٩٨٢.

١٨- عماد زكى : أدب الأطفال والعام ٢٠٠٠ . فى ندوة أدب الأطفال: واقع وتطلعات - عمان : مؤسسة نور الحسين . الرابطة الوطنية لتربية وتعليم الأطفال ، ١٩٨٨ .

١٩- عواطف إبراهيم محمد . أغانى وأناشيد الأطفال سن ما قبل المدرسة - ص ص ٢١٧ - ٢٣٥ . فى الحلقة الدراسية الإقليمية : كتب الأطفال ومجلاتهم فى الدول المتقدمة - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ .

٢٠- فاروق محمد صادق : برنامج التداخل فى مرحلة ما قبل المدرسة والتوازن من الوقاية الأولية والقانون من الإعاقة . فى المؤتمر السنوى الأول

للطفل المصرى : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس. مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٢١- فاطمة أبو الفوارج . دور التربية الفنية فى تقييم الوضع الراهن للطفل المصرى فى مرحلة ما قبل المدرسة . فى مؤتمر ثقافة الطفل فى وسائل الإعلام - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٥ .

٢٢- فخرى طملية . أشكال أدب الأطفال : القصة . فى ندوة أدب الأطفال واقع وتطلعات - عمان : مؤسسة نور الحسين الرابطة الوطنية لتربية وتعليم الأطفال ، ١٩٨٨ .

٢٣- فكرى شحاته أحمد . مشكلة تعليم طفل ما قبل المدرسة . فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٢٤- كافية رمضان . التنشئة الأسرية وأثرها فى تكوين شخصية الطفل العربى . فى المؤتمر العربى حول الطفولة والتنمية فى الوطن العربى - تونس : جامعة الدول العربية . الأمانة العامة . الإدارة العامة للشئون الاجتماعية . إدارة الطفولة ، ١٩٨٦ .

٢٥- كوثر السيد محمد الموجى : القياسات الجسمية والمهارات الحركية الأساسية لدى أطفال الحضانة . فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٢٦- ماجدة محمد إسماعيل صبحى ... (وآخرون) : مشروع مقترح لتنمية الحركات الانفعالية لدى طفل ما قبل المدرسة . فى مؤتمر ثقافة الطفل فى وسائل الإعلام - القاهرة : جامعة عين شمس ، مركز الطفولة ، ١٩٨٥ .

٢٧- محمد أمين المفتى : تجريب استراتيجية مقترحة لتيسير تعلم أطفال ما قبل المدرسة بعض المفاهيم الرياضية . فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس. مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٢٨- محمد صابر سليم : الطفولة هى البداية السليمة للتربية البيئية . فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٢٩- محمد محمود شعبان (بابا شارو) : وسائل الإعلام وإعداد الآباء لتربية طفل ماقبل المدرسة . فى ندوة تربية الطفل فى السنوات الست الأولى - الخرطوم : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ١٩٧٧ .

٣٠- محمود قمبر : ذاتية الطفل والنظرية التربوية فى الإسلام - مركز البحوث التربوية - جامعة قطر - ١٩٨٣ .

٣١- ممدوح الصدفى . سالم هيكل : تربية الطفل المصرى بين ممارسات الواقع وطموحات المستقبل . فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى: تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٣٢- نادية عبدالعزيز عوض : الرعاية الموسيقية لطفل ما قبل المدرسة . فى ندوة الرعاية الشاملة لطفل ما قبل المدرسة - القاهرة : وزارة الشئون الاجتماعية . اللجنة الدائمة للاحتفال بعيد الطفولة ، ١٩٨٢ .

٣٣- نادية يوسف كمال : التربية الأخلاقية لطفل المدرسة الابتدائية . فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٣٤- نخبة من أساتذة المعهد العالى للتربية الفنية : الأغنية المناسبة لطفل ما قبل المدرسة . فى مؤتمر ثقافة الطفل فى وسائل الإعلام - القاهرة: جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة . ١٩٨٥ .

٣٥- هدى محمد قناوى : الطفل تنشئته وحاجاته - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٨٣ .

٣٦- هدى محمد قناوى : دراسة استطلاعية لحاجات أطفال المناطق النائية والعوامل المؤثرة فيها . فى المؤتمر السنوى الأول للطفل المصرى : تنشئة ورعاية - القاهرة : جامعة عين شمس . مركز دراسات الطفولة ، ١٩٨٨ .

٣٧- هنرى و . ماير : ثلاث نظريات فى نمو الطفل - ترجمة هدى محمد قناوى - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة - ١٩٨١ .

٣٨- يعقوب الشارونى : كتب الأطفال فى مرحلة ما قبل السادسة . فى ندوة الرعاية الشاملة لطفل ما قبل المدرسة - القاهرة : وزارة الشئون الاجتماعية. اللجنة الدائمة للاحتفال بعيد الطفولة، ١٩٨٢.

المراجع الأجنبية :

1 Ambrose, Enda & Miel, Alice Children's Social Learning Implications of Research and Expert Study, Association for Supervision and Curriculum Development, NEA, 1952

2- Beyer, Evelyn : Teaching Young Children, Western Publishing Company, New York, 1969

3- Biber, B. : Challenges Ahead for Early Childood Education, Washington D.C., National Association for the Education of Young Children, 1969 .

4- Biehler, Robert F . : Psychology Applied to Teaching, Second Edition, Houghton Mifflin Company, Boston, 1974.

5- Braun, S.J., and Edwards, E.P. : History and Theory of Early Childhood Education, Worthington, Oh., Charles A. Jones, 1972 .

6- Brede Kamp, Sue Ed . : Developmentally Appropriate Practice in Early Childhood Programs Serving Children from Birth through Age 8 , NAEYC , Washington , D.C. 1989 .

7- Bronfenbrenner, Urie : Two Worlds of Childhood U.S. and U.S.S.R., Pocket Books, New York, 1973 .

8- Bruner, Jerome S. : Toward a Theory of Instruction, W.W. Norton and Company Inc., New York, 1966 .

9- Cohen Stewart , Race Gwenneth : Growing Up With Children, CBS College Pub., N. Y. 1987 .

10- Day Barbara , Early Childhood Education , Creative Learning Activities 2nd Ed. MacMillan Pub. Co., Inc. New York., 1983.

11- Erikson, Erik H. : Three Theories of Child Development, Harper and Row Publishers, New York, 1969 .

12- Evans, E.D. : Contemporary Influences in Early Childhood Education , New York, Holt, Rinehart and Winston, 1971.

13- Eyken, William Vander : The Pre-School Years, Fourth Edition, Penguin Books, 1977.

14- Froebel, Friedrich : The Education of Man, Trans., W.N. Hailmann, Appleton, 1906 .

15- Froebel, Friedrich : Pedagogies of the Kindergarten, Trans., Josephine Jarvis, Appleton, 1907 .

16- Froebel, Friedrich : Autobiography of Fredrich Froebel, Trans., E. Michaelis and H.K. Moore, Swan Sonnenschein, 1981

17- Froebel, Friedrich : Letters on the Kindergarten, Trans. E. Michaelis and H.K. Moonre, Swan Sonnenschein, 1891 .

18- Froobel, Friedrich : Mother s Songs, Games and Stories, Trans., Frances and Emily Lord., Rice, London, 1920 .

19- Hatoff, Sydelle H, et al : Teacher's Practical Guide for Education Young Children, Research Bottes Schools . Inc. Puton Massachusetts,

20- Hess Robert D. & Croft, Doreen J. : Teachers of Young Children, Houghton Mifflin Company, New York, 1972.

21- Hildebrand, Verna : Introduction to Early Childhood Education . 3rd Ed., 1981 .

22- Holtzman, Wayne H. & Others : Impact of Educational Television on Young Children, Educational Studies & Documents, No. 40, Unesco, 1981 .

23- Honig, Alice S. : Parent Involvement in Early Childhood Education . National Association for the Education of Young Children, U.S.A. 1979 .

24- Houston , John P. : Fundamentals of Early Childhood Education, Winthrop Publishing , Inc. Cambridge, Massachusetts, 1980 .

25- Hughes, Martin & Others : Nurseries Now, A Fair Deal for Parents and Children, Penguin Books, 1980 .

26- Landsheere, Gilbert de : Pre-School Education in Developing Countries, Prospects, Vol. VII, No. 4, 1977.

27- Lawrence, Evelyn & Others : Frobel and English Education, Prespctives on the Founder of the Kindergarten, Schocken Books. New York, 1969 .

28- Leeper , Sarah H . et al : Good Schools for Young Children , Macmillan Pub. Co., New York , 1984.

29- McCarthy, Melodie A. & Houston, John P. : Fundamentals of Early Childhood Education. Winthrop Publishers, Inc. 1980 .

30- Montessori , Maria : The Montessori's Method, Schocken Books New York , 1964

31- Montessori, Maria : Dr. Montessori's Own Hand Book, Robert Bentley, Inc. U.S.A. 1966.

32- Montessori, Maria : The Discovery of the Child, Adyar, Madras, India, 1948 .

33- Montessori, Maria : The Absorbent Mind, The Theosophical Pub. Hause, Adyar, Madras, India, 1949 .

34- Montessori, Maria : The Secret of Childhood, Fredrick A. Stokes Co. Inc., New York, 1939.

35- Montessori, Maria : To Educate the Human Potential Kalakshetra, Adyar, Madras, India, 1950 .

36- Montessori, Maria : Pedagogical Anthropology, W. Heinemann, London, 1914 .

37- Montessori, Maria : The Advanced Montessori Method, W. Heinemann, London . (N.D.)

38- Montessori, Maria : What You Should Know About Your Child, Bennet & Co., Colombo, 1948 .

39- Montessori, Mario M., Jr. : Education for Human Development, Understanding Montessori, Schocken Books. Inc., 1976.

40- Mouly , George J . : Psychology for Teaching , Allyn and Bacon, Inc., Boston, 1982 .

41- Neubauer, Peter B., M.D. : The Process of Child Development, New American Library, New York, 1976.

42- Piaget, J. : The Origins of Intellegence in Children Trans M Cook, New York, International U.P 1952

43- Piaget, J : The Construction of Reality in the Child, Trans. M. Cook, New York, Basic Books, 1954

44- Piaget, J The language and Thought of the Child, New York, World Publishing, 1955 .

45- Piaget, J . : Play, Dreams and Imitations in Childhood, Trans . G. Gattegno and F.M. Hodgson, New York, Norton, 1962 .

46- Piaget, J. : The Child's Conception of Number, New York, Nor ton, 1965 .

47- Piaget, J. : and Inhelder, B. : The Psycology, of the Child, Trans, H. Weaver, New York, Basic Books, 1969.

48- Piaget, J. and Inhelder, B. : Memory and Intelligence, Basic Books, Inc., New York, 1973 .

49- Pines, Maya : Revolution in Learnig, The Years from Birth to Six, Harper & Row, New York, 1967.

50- Proceedings of a Workshop on Research Held in Bogota, Prventing School Failure : The Relationship between Pre-School and Primary Education, Colombia, 26-29 May, 1981.

51- Readings in Human Development 77/78 , Annual Editions , The Dushkin Publishing Group . Inc., Sluice Dock, Guilford, Ct. 06437.

52- Readings in Psychology Today, Crm Books. DelMar, Californi , 1969

53 Robison, Helen F & Spadek, Bernard New Direction in the Kindergarten, from Wann, Kenneth D., Early Childhood Education Series, Teachers College, Columbia Universty, 1965 .

54- Standing, E.M. · The Montessori Method, A Revolution in Education, Fourth Printing , The Academy Library Guild, California , 1962

55 Teeven, Richard C. & Birney , Robert C. : Theories of Motivation in Learning, D. Van Nostrand Company Inc., 1964 .

56- Wall, W.D. : Constructive Education for Children, Harrap, London, 1975.

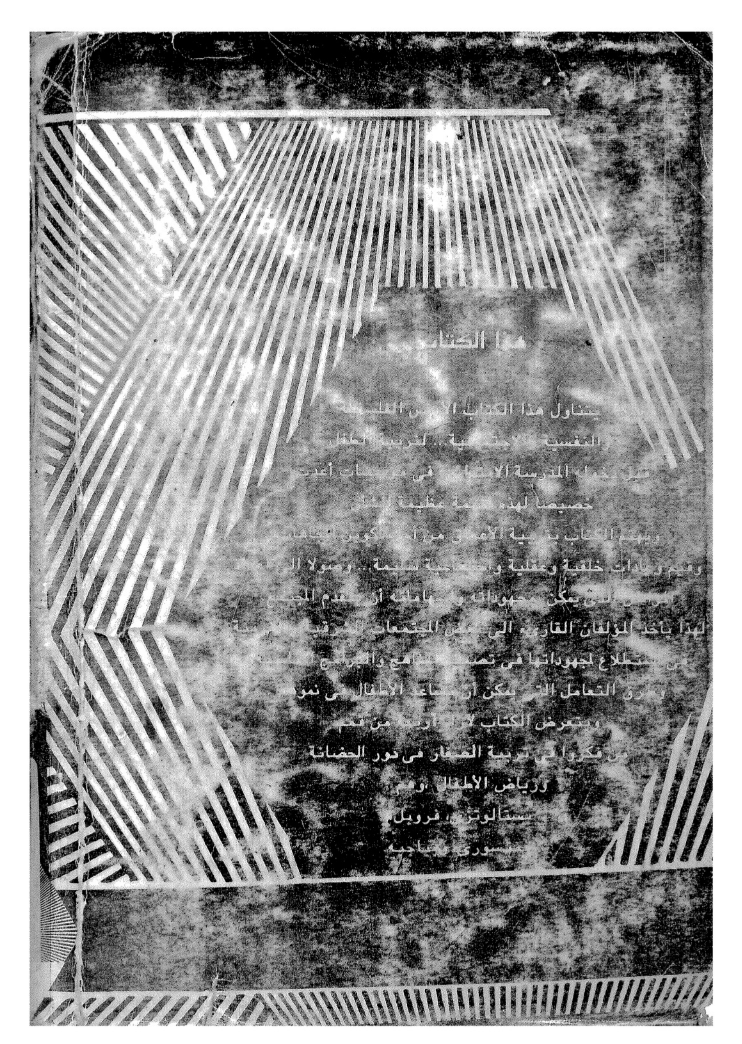
57- white House Conference on Children : Report to the President, Washington D.C., U.S. Government Printing Office, 1970 .

رقم الايداع

٧٤٤٢ - ١٩٩١

الترقيم الدولى

٢ - ٠١٤ - ٢٣٢ - ٩٧٧


هذا الكتاب
يتناول هذا الكتاب الأسس الفلسفية
والنفسية والاجتماعية ... لتربية الطفل
قبل دخوله المدرسة الابتدائية في مؤسسات أعدت
خصيصا لهذه المهمة عظيمة الشأن
ويهتم الكتاب بتربية الأطفال من أجل تكوين اتجاهات
وقيم وعادات خلقية وعقلية واجتماعية سليمة .. وصولا الى
الذي يمكن بمجهوداته وإسهاماته أن يتقدم المجتمع
لهذا يأخذ المؤلفان القارىء الى بعض المجتمعات
في استطلاع لجهوداتها في تصميم المناهج والبرامج
وطرق التعامل التي يمكن أن تساعد الأطفال في نمو
ويتعرض الكتاب لآراء من قدم
من فكروا في تربية الصغار في دور الحضانة
ورياض الأطفال ، وهم
بستالوتزي ، فروبل